kitabweb-2013.forumaroc.net

المكتبة الصوفية

الكواكب الزاهرة

في اجتماع الأولياء يقظة

بسيد الدنيا والآخرة صلى الله عليه وسلم

لأبي الفضل عبد القادر بن الحسين بن مغيزل الشاذلي

تحقيق وضبط

أ.د/ أحمد عبد الرحيم السايح — المستشار/ توفيق علي وهبة

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
2010هـ1431
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد ـ القاهرة
25936277 :فاكس / 25938411-25922620
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ابن مغيزيل ، ابى الفضل عبد القادر بن الحسين
الكواكب الزاهرة فى اجتماع الاولياء يقظة بسيد الدنيا (صلى الله علية وسلم)
ابى الفضل عبد القادر بن الحسين بن مغيزيل الشاذلى / تحقيق وظبط : احمد عبد الرحيم السايح ، توفيق على وهبة
القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2010
528 ص ، 24 سم
تدمك :7 -462-341-977-978
ا- الائمة والاولياء 2- الكرامات
3- التصوف الاسلامى
ا- السايح ، احمد عبد الرحيم (محقق وظابط)
ب- وهبة ، توفيق على (محقق وظابط مشارك)
ج- العنوان

ديوى: 244

رقم الايداع: 2055

بسم الله
الرحمن
الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

اللهم آمين. آمين.. آمين

وصلى الله وسلم على سيدنا وحبيبنا وشفيعنا وقائدنا وهادينا إلى الصراط المستقيم رسول الله ونبيه محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

اللهم لا هدى إلا هداك سبحانك أنت القائل فى محكم كتابك: ﴿ألا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس].

والقائل فى الحديث القدسى: «عبدى أطعنى تكن ربانيا تقول للشىء كن فيكون».

وقد منَّ سبحانه وتعالى على أوليائه بمناقب وكرامات وخصهم بالمواهب الإلهيات والمعانى الربانيات، واصطفاهم لولائه وأيقظهم لخدمته وألهجهم بذكره[1].

يقول ﷺ: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل العلم بالله، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله»[2].

---

(١) من مقدمة المؤلف.

(٢) رواه الديلمى.

وقوله ﷺ فيما رواه الديلمى فى مسند الفردوس: «سألت جبريل عن علم الباطن ما هو؟ فقال: قال الله هو سر بينى وبين أحبائى، أودعه فى قلوبهم».

وهناك إجماع بين أهل السنة والجماعة: بأن كل معجزة لنبى يجوز أن تكون كرامة لولى من أولياء أمة سيدنا محمد ﷺ مع فارق. وهو أن المعجزة يقصد بها التحدى، أما الكرامة فهى خاصة بالولى لا يتحدى بها أحد ولا يقصد إظهارها إلا إذا أظهرها الله سبحانه وتعالى.

والكرامة لا تكون عن طريق الوحى، وإنما عن طريق الإلهام يحدث فى النفس الطاهرة المطمئنة الذكية لقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1].

وقوله ﷺ: «إن من أمتى محدثين ومكلمين وإن عمر منهم».

وقد خص الله سبحانه وتعالى أولياء أمة حبيبه ومصطفاه سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ بالكرامات التى لم يخص بها الأمم السابقة لأن السابقين عجزوا عن حمل أسرار أنبيائهم لكثرة مخالفاتهم لأنبيائهم وتكذيبهم لهم فادخر الله سبحانه وتعالى ذلك لخواص أمة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وكرامات الأولياء من أسرار الأنبياء. فمذهب أهل الحق كما ذكر الإمام ابن تيمية رحمه الله فى كتاب النبوات: أن ما كان معجزة لنبى جاز أن يكون كرامة لولى بشرط عدم التحدى.

وقد بيَّن سيدنا رسول الله ﷺ فضل الأولياء فقال: «العلماء ورثة الأنبياء». والأولياء فى مقدمة علماء هذه الأمة فقد ورثوا علمهم وكراماتهم عن رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة الشمس - آية ٨.

وللمؤلف رحمه الله لمحات لطيفة حول هذا الحديث، حيث قال: إن الإشارة هنا إلى العلماء بالله أرباب المعارف، وإن كانت العبارة للعلماء بأحكام الله أرباب الظاهر؛ لأن الوراثة من النبوة على قسمين:

* إما أن تكون ظاهرة.

* وإما أن تكن باطنة.

فأهل الشريعة ورثوا العلوم الكسبية الظاهرة.

وأهل الحقيقة ورثوا العلوم الوهبية الباطنة.

فالشريعة منبع العبارات الظاهرة، والحقيقة منبع الإشارات الباطنة، فكل عبارة شرعية تحتها من حيث الإشارات حكم ومعارف وحقائق أطلع الله عليها الأصفياء والصديقين.

فالإشارة إنما أتت من باطن العبارة لا من ظاهرها. ثم نقل المؤلف قول السهروردى فى (عوارف المعارف)[1] فى قول الرسول ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلى على أمتى». قال: والإشارة فى هذا العالم ليس إلى علم البيع والشراء والطلاق والعتاق، وإنما الإشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين. أ. هـ.

وقال الإمام اليافعى فى إثبات كرامات الأولياء: (وظهور الكرامات على الأولياء جائز عقلا، وواقع نقلا).

أما جوازه عقلا فليس بمستحيل فى قدرة الله تعالى، بل هو من قبيل الممكنات كظهور معجزات الأنبياء، هذا مذهب أهل السنة من المشايخ العارفين، والنظار الأصوليين، والفقهاء والمحدثين رضى الله عنهم أجمعين. وتصانيفهم ناطقة بذلك شرقا وغربا.

(١) سبق تحقيقنا لهذا الكتاب، حيث نشرته مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة.

ثم أقول: الصحيح المختار عن جمهور الأئمة المحققين من أهل السنة: أن ما جاز للأنبياء من المعجزات، جاز للأولياء مثله من الكرامات بشرط عدم التحدى.

وتتحقق الكرامة للولى بقدر تمسكه بالكتاب والسنة وعمله بالشريعة. وفى ذلك يقول أبو يزيد البسطامى: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى تربع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة.

وقال السهروردى: من ظهر على يديه شىء من الخوارق وهو على غير التزام الأحكام الشرعية فهو زنديق والذى يظهر له مكر واستدراج.

وقد ثار خلاف بين الفقهاء حول كرامات الأولياء:

فالمعتزلة ينكرون الكرامات مطلقا، وأهل السنة والجماعة يقرونها ومذهبهم هو الصحيح فى ذلك لما يسنده من أدلة نقلية وعقلية وما شوهد وقوعه على يد كثير من الأولياء، ورواه الثقات فى كتبهم.

ورؤية النبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يقظة أو مناما فهو كرامة من الله سبحانه وتعالى على كثير من أوليائه بها وشرفهم برؤيته صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

وجمهور العلماء على جواز رؤيته ﷺ مناما. أما رؤيته يقظة فقد خالف بعضهم فى ذلك على اعتبار أنه لا يمكن عقلا انتقاله ﷺ بجسده الشريف من مسجده بالمدينة المنورة إلى مكان الرائى، وقد يكون هناك أكثر من رائى فى أكثر من مكان فى العالم وإن شرف الرسول ﷺ وعلو قدره تجعله لا يخرج من البرزخ لمقابلة أى شخص مهما كان قدره.

والرد على ذلك أنه ﷺ لا ينتقل بجسده عن رؤيته يقظة ولكن روحه الشريفة هى التى تتشكل فيما يشبه جسده، وبذلك يراه من أكرمه الله برؤيته الشريفة يقظة.

كما أن الأدلة العقلية والنقلية والروايات التى تواترت عن رؤية كثير من الأولياء له ﷺ يقظة.

أما الأدلة النقلية مما روى عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه اجتمع بالأنبياء فى المسجد الأقصى قبل عروجه إلى السماء والصلاة بهم، وكذا حديثه الشريف: «من رآنى فى المنام فسوف يرانى فى اليقظة».

وهذا يدل على جواز رؤيته صلى الله تعالى عليه يقظة.

وقد حكى من نثق فيه أنه رأى النبى صلى الله عليه وآله وسلم عدة مرات منامًا، وفى آخر مرة روى أنه رأى النبى وجبريل عليهما السلام يقظة، يتحدثان حول رقية جبريل للنبى ﷺ.

وقد اطلعنا على موسوعة من رأى سيد الخلق فى اليقظة والمنام للكاتب الكبير الشيخ محيى الدين الطعمة، فذكر فيها أكثر من ألف شخص ممن رأى النبى ﷺ يقظة.

ومعنى ذلك: أن الرؤيا جائزة فى كل زمان ومكان لكل من يشرفه الله سبحانه وتعالى بهذه المنحة الإلهية المباركة.

وهذا الكتاب: (الكواكب الزاهرة فى اجتماع الأولياء يقظة بسيد الدنيا والآخرة صلى الله عليه وسلم الملقب بالفتح المبين فى معرفة مقامات الصديقين) لابن مغيزيل الشاذلى.

هو كتاب فريد فى بابه لم ينسج على منواله فقد شمل كثيرا من

الموضوعات النافعة المتعلقة برؤية النبى ﷺ يقظة وقدم الأدلة المبينة لذلك، ثم تحدث عن كرامات الأوليـاء وقارن بينها وبين السحر والمعـجزة وغير ذلك من الأمور الأخرى

ثم تحدث عن مـراتب الأولياء وتفـاضلهم وبين أن التصوف هو العمل بالكتاب والسنة.

وخصص بابا وافيا عن الحلول والاتحاد وشرح بالأدلة تبرئة الصوفية من هذه الشبـهة وأن كـبار أئمتـهم أنكروا على من يدعى ذلك وأخـرجوهم من صفوفهم.

وتحدث عن مقـامات الصديقين ورد على كـثير من الشبهـات التى تثار حول التـصوف وعلى بعض الأدعـياء الذين يدعـون بسقـوط التكاليف عنهم وإباحة المحرمات وذكر قول الإمـام الغزالى رحمه الله: أن قتل من يقول ذلك أفضل من قتل مائة كافر، إذ ضرره فى الدين أعظم وينفتح به باب من أبواب الشر.

وهذا الكتاب يعتبـر من أصح وأفضل كتب المناقب والكرامات ورغم أن كـثير من كـتب المناقب والـكرامات تعـج بالأحاديث المـوضوعـة والواهيـة والقصص المنكرة.

وقد حـققنا بعضـها وأشرنا إلى تلك الأمـور فى مواضعـها إلا أن هذا الكتاب يختلف كثيرا عن تلك الكتب فأكثره صحيح إلا ما ندر.

وقد نوهنا عن الأمـور المخالفة أو التى لا يسندها دليل كمـا هى عادتنا فى كل ما حـققناه فكل مـا وافق الكتاب والسنة نأخـذ به وما خـالفهمـا بينا عواره.

وربما نسكت عن كثير مما ورد فى الكتاب من كرامات احترامًا لأصحابها وإن كنا لا نقر بها.

هذا ويجدر التنويه إلى أن فى آخر المخطوطة بعض صفحات قليلة عن كرامات الأولياء تحت عنوان: الأجوبة عن الأسئلة فى كرامات الأولياء لشمس الدين الشوبرى. وقد آثرنا إلحاقها كملحق للكتاب لوحدة موضوعهما.

ندعو الله أن ينفع بهذا الكتاب وأن يرحم مؤلفه ويضاعف له الثواب ويجعله فى ميزان حسناته، إنه ولى ذلك والقادر عليه، ،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

المحققان

أ.د. أحمد عبد الرحيم السايح المستشار توفيق على وهبة

هذا الكتاب

للكتاب مخطوطتان إحداهما في الهيئة العامة لدار الكتب تحت رقم ٣٧٦٤٩ وتقع فى ١١٧ لوحة مقاس ١٨ × ٢٤.

والثانية فى مكتبة الأزهر الشريف تحت رقم ٩٠٩ - خصوص ٣٣٥٤٣ ،عموم - تصوف وتقع فى ١٩٩ لوحة.

وسبق طبع هذا الكتاب فى دار جوامع الكلم عام ١٩٩٩م بتحقيق جماعة من علماء الأزهر الشريف.

ويعتبر الكتاب من أصح وأرق الكتب التى ألفت فى رؤية النبى ﷺ يقظة ومناما وكذاك فى مناقب وكرامات الأولياء، بل وفى التصوف عموما.

وقد رد ردوداً موثقة على ما يثار حول التصوف ورجاله ودافع عن شطحات البعض وخرجها تخريجًا حسنًا.

وهو من أفضل الكتب التى يجب أن تكون فى كل مكتبة بل وفى يد كل قارئ.

والله من وراء القصد هو ولينا ونعم النصير،

كتاب الكواكب الزاهرة
في اجتماع الأولياء بسيد الدنيا والآخرة
ويلقب بالفتح المبين في معرفة
مقامات الصديقين تأليف
سيدنا وشيخنا الشيخ الإمام
والحبر الهمام العالم العامل
المحقق الفقيه الصوفي
محيي السنة والدين
أبي الفضل
عبد القادر
ابن الحسين
ابن عبد الغفار
بابن مغيزل
الشاذلي
رحمه
الله
آمين

سؤال الشوبري عن
الأولياء

صورة العنوان من مخطوطة مكتبة الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم وبه الاعانة

الله احمد حمدا مستمرا على الدوام ، واثنى عليه ثنا المعترفين بالاهية
على مر الدهور والايام ، واشكره الذي تفضل علينا بانواع العلوم بين
الانام ، ووهب قوما من خواص عباده نورا يهتدون به بين النجبا العظام
الفخام ، فصاروا اقمارا في سماء العنايات يتلالون بين النجوم
الاعلام ، فهم القوم كل القوم الذين بزغت لهم شمس الحقائق
والمعارف فاضمحل دجا الجهل والظلام ، وارتفعت لهم بحار الشريعة
فسارت سفينة التحقيق مقلعة في تيار الغرام واوجده توحيد
اهل التوحيد حين ناداهم بخطاب ازلي قديم في الازل في مقام
التجلي باشراق شموس القدم قبل وجودهم في الابد الست بربكم قالوا
بلى شهدناه فشهد الله لهم بالتوحيد في قدم القدم ثم اوجدهم
حينا بعد ايجادهم علما لسبق الارادة في ازل الازل واصطفاهم
بالاعمال الصالحة الموصلة الى جنات الفردوس التي ادخرها لاوليائه
الذين سهل لهم طرقها فسلكوا السبل الموصلة اليها ذللا خلقها
لهم قبل ان يخلقهم واسكنهم اياها قبل ان يوجدهم وحفها بالمكاره
الموصلة الى دار الامتحان ليبلوهم ايهم احسن عملا وجعل ميعاد
جزائهم في القدم المقدوم عليه وضرب مدة الحياة الفانية دونه اجلا
واعد لهم ما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

رجلاها

صورة الصفحة الأولى من مخطوطة مكتبة الأزهر الشريف

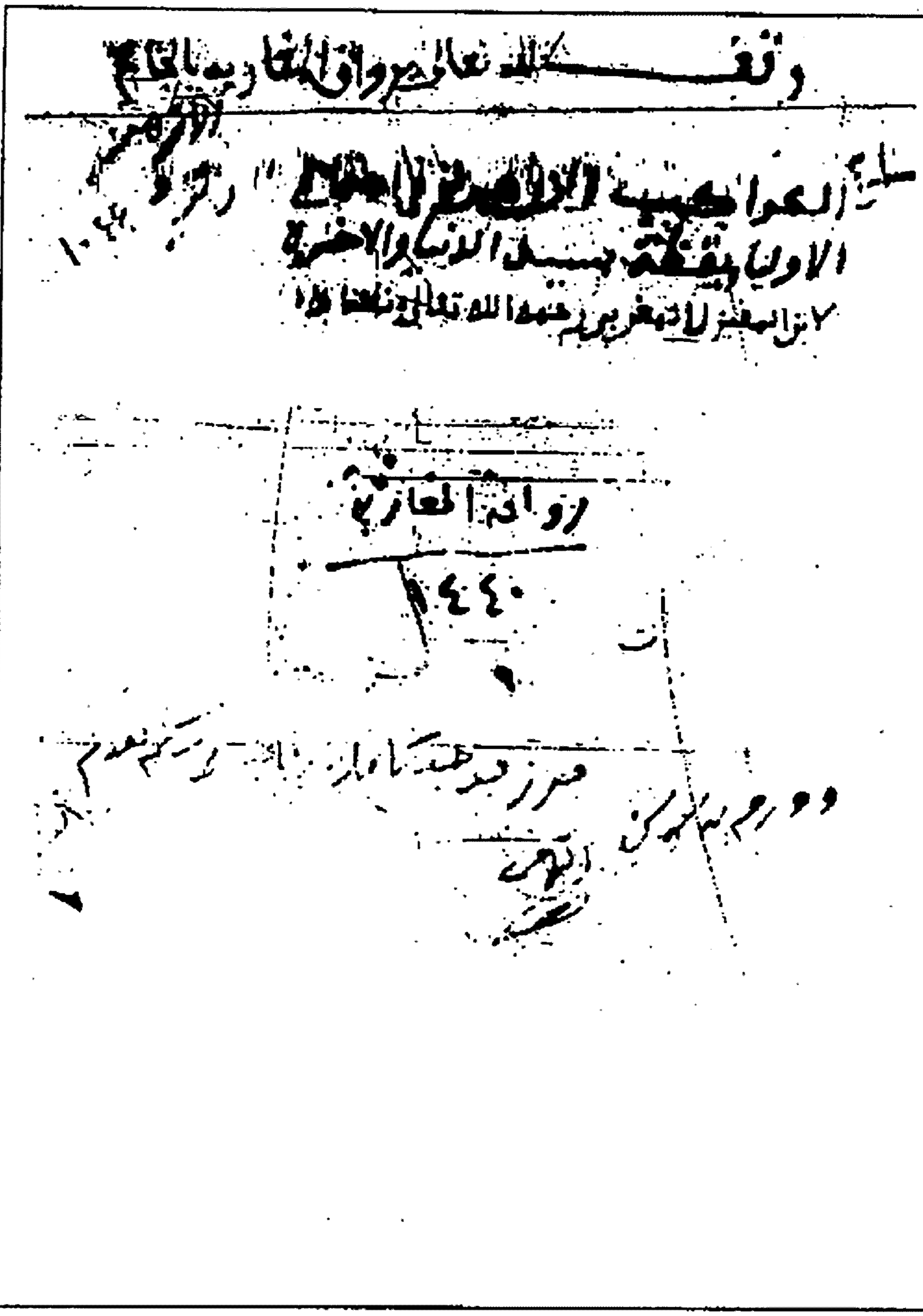

صورة من عنوان المخطوطة بدار الكتب المصرية

المكروفيلم

عنوان المخطوط : الكواكب الزاهرة باعتقاد الربيع السيد
المرتضى والزهراء رئيسي بالفتح المبين ومعرفة مقاصد
الرسيين

المؤلف : عبد القادر بن محمد الحسيني الشافعي
المعروف بابن غنيزلة أبو الفضل (٨٦٥-٨٩٤ هـ)

الأجزاء : ١ المجلدات : ١

الرقم : أ ر ك : ٢٠٠٠ ٢٠٠٠ ٢٠٠٠

الأصل المحقق

تحقيق وضبط ومراجعة

أ.د أحمد عبد الرحيم السايح المستشار توفيق على وهبه

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه الإعانة

أحمد الله حمداً مستمراً على الدوام، وأثنى عليه ثناء المعترفين بإلهيته على ممر الدهور والأيام، وأشكره الذى تفضل علينا بأنواع العلوم بين الأنام، ووهب قوما من خواص عباده نورا يهتدى به النجباء العظام الفخام، فصاروا أقمارا فى سماء العنايات يتلألأون بين النجوم الأعلام.

فهم القوم الذين بزغت لهم شمس الحقائق والمعارف فاضمحل دجى الجهل والظلام، وارتفعت لهم بحار الشريعة فسارت سفينة التحقيق مقلعة فى تيار الغرام.

وأوحده توحيد أهل التوحيد حين ناداهم بخطاب أولى قديم فى الأزل، فى مقام التجلى بإشراق شموس القدم، قبل وجودهم فى الأبد: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾[1]، فشهد لهم بالتوحيد فى قدم القدم، ثم أوجدهم حينا بعد إيجادهم علما لسبق الإرادة فى أزل الأزل، واصطفاهم بالأعمال الصالحة الموصلة إلى جنات الفردوس التى ادخرها لأولياته الذين سهل لهم طرقها فسلكوا السبل الموصلة إليها ذللا.

خلقها لهم قبل أن يخلقهم، وأسكنهم إياها قبل أن يوجدهم، وحفها بالمكاره الموصلة إلى دار الامتحان، ليبلوهم أيهم أحسن عملا، وجعل ميعاد جزائهم فى القدم القدوم عليه، وضرب مدة الحياة الفانية دونه أجلا، وأعد لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) سورة الأعراف - آية ١٧٢.

وجلاها عليهم حين عاينوها بعين البصيرة. التى هى أنفذ من رؤية البصر، ويشرهم بما أعد لهم فيها على لسان رسوله خير البشر، وكمل لهم البشرى بكونهم: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾(١).

وجعلهم فى دار الفنا أهل حزبه وطاعته، فغرقت أوقاتهم فى بحار جوده وعبادته، ثم تفتت قلوبهم شوقا إلى الخطاب القديم الأزلى فوعدهم بالنظر إليه فى دار البقاء على بساط قربه وعنايته.

فاشتد شوقهم حتى كانت أجسادهم فى غلبة الشوق والحب كالقتلى بلا محالة وصارت أرواحهم فى الحجب سائرة فى الملكوت جوالة، ثم أتحفهم فى دار الدنيا تلطفا بهم وتجلى على قلوبهم بجمال الصفات.

فأحيوا لما استنشقوا نسيم القرب فى هذه الحالة فشاهدوا جمال الصفات دون سبحات جلال الذات، إذ لو تجلى ببارقة من جلال الذات لاحترقت جميع الموجودات لكونها حادثة فاعلم، إذ لا بقاء للحادث كالظلم مع إشراق نور القدم.

فسبحان من جذب خواص خلقه للسباحة فى بحر العلوم بين عباده، واختارهم للتبحر فى لجة قاموس تياره وأمواجه، وأظهر لهم أسراره ومعانيه فانكشف لهم مع ذلك الكائنات ثم اغترفوا من مدد أمداده، وأطلعهم على حكم معلوماته وكنه مدلولاته.

فهبت عليهم رياح العنايات مع تخصيص اجتبائه، وبسط لهم بساط قربه على أنهار محبته فارتوت أنوار قلوبهم تشوقا من زلال اشتياقه، وأردفهم العادات الكائنات فى أزل الأزل من نعيم جزيل نواله، وخصهم بالمواهب الإلهيات والمعانى الربانيات واصطفاهم لولاته، وأيقظهم لخدمته، وألهجهم بذكره.

---

(١) سورة الكهف - آية ٨.

ففـاحت عليهم نسمـات قربة ووداده، وكشف لهـم عن عالم الملكوت حـين أشرقت أنـوار قلوبهم لمشاهـدة المعانى والأرواح الكريـمة على صـورة حبابه، وعاينوا أمورا برزخية بعينى البصيرة والبصر.

فمن ذاك رؤيتهم جهـرة لسيد أنبيائه، وهذا ممكن عقـلا وشرعا ودليلنا الشرعى وما كان معجزة لنبى جاز أن يكون كرامة لأوليائه.

وحجب قوما عن فـهم تحقيقات العلوم فصار سوء فـهمهم ذريعة لعناد أصفيائه، فهم فى عثرات جـهل مركب وبسيط، فنعوذ بالله من أليم حجابه. وأشهـد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شـهادة أنجو بهـا يوم لقائه من الفزع الأكبر، وأن تكون وسيلة للأمن من أليم عذابه.

وأشهـد أن محمـداً عبـده ورسوله، سيـد من يسجـد تحت العرش فى عرصـات قيـاماته، فيـسمع النداء من قبل الله: «ارفع رأسك، وقل يسمع لك»[1]، فيـشفع فى عصـاه رعايته، ﷺ، واجعلنـا فى زمرته الداخلين فى شفاعته.

وعلى آله وأصحابه وأتباعه مـا هبت الأرياح فى أرضه وسماواته، وناح طائر على غصون الشجر يتبلبل بلغاته.

أما بعد

فضل علم الحقيقة:

فإن العلوم وإن زخـرت بحارها، وتشـعبت غصـونها، فعـلم الحقيـقة أعظمهـا قدرا، وأغـزرها علما، إذ به يطلع على أسـرار العلوم الشرعـيات، وعلى معارف حكم التكاليف المحصيات؛ لكونه باطنا للعلوم الظاهرات.

---

(١) رواه البخارى.

ولا سبيل إلى معرفته إلا لمن صب عليه فيضا إلهيا واستنار قلبه بمواهب العنايات، فإذا يفصح عن الحقائق والإشارات الربانيات.

ولعمرى، هذا مقام لا تقاس به الكسبيات، وكيف تُقاس به وهو كشف عن شهود الملكوت بالمغيبات؛ بدليل قوله ﷺ:

«إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل العلم بالله، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله»(١).

إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة المرويات؛ ولهذا لا يوفق لفهم كلام القوم إلا من تغلغل بالعلوم النقليات، وكرع فى مناهلها الشفيات، وسبح فى بحر أسرار علوم التنزيل وإشارات التأويل، لأن القرآن ظاهره أحكام بشرائع، وباطنه حكم بمعارف بحقائق.

وفى ذلك إشارة إلى أنه أحاط بعلمى الشريعة والحقيقة، بدليل ما أخرجه الغريابى فى تفسيره عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكل آية ظهر وبطن»**.

قال ابن النقيب فى تفسيره: ظهر الآية: ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر، وبطنها: ما تضمنته من الأسرار التى اطلع الله عليها أرباب الحقائق.

وأخرج أبو نعيم عن ابن مسعود قال:

«إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ما فيها حرف إلا له ظهر وبطن، وإن على بن أبى طالب عنده منه علم الظاهر والباطن».

---

(١) رواه الديلمى.

وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس بسند مسلسل من طريق أحمد بن غسان، عن عبد الواحد بن زيد، عن الحسن، عن حذيفة مرفوعا:

«سألت جبريل عن علم الباطن ما هو؟ فقال: قال الله: هو سر بينى وبين أحبائى، أودعه فى قلوبهم» انتهى.

واعلم أن نسبة علم الحقيقة إلى علم الشريعة، كنسبة علم المعانى والبيان إلى علم النحو، فهو سره ومبنى عليه، فمن أراد الخوض فى علم الحقيقة من غير أن يحكم علم الشريعة، فهو من الجاهلين ولا يحصل على شىء.

كما أن من أراد الخوض فى أسرار علم المعانى والبيان من غير أن يحكم النحو، فهو يخبط خبط عشوى من غير فائدة أصلا.

وكيف يدرك أسرار أحوال الإسناد والمسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل من لم يعرف المبتدأ من الخبر، والفاعل من المفعول. هذا بين لكل أحد.

والحقيقة سر الشريعة ولبها الخالص، كما أن المعانى والبيان سر النحو ولطائفه.

وقد نص جماعة من أهل الأصول على أن بعض أبواب التصوف من الفقه حيث ذكروا حد الفقه.

ووافقهم ابن السبكى فى «منع الموانع»، وضم إليه مسائل أصول الدين، فقال: إنها عندى فقه. انتهى.

قال أبو طالب المكى فى «قُوت القلوب». «علماء الظاهر زينة الأرض والملك، وعلماء الباطن زينة السماء وزينة الملكوت، وعلماء الظاهر هم أهل الخبر واللسان، وعلماء الباطن أرباب القلوب والعيان».

قال بعض العارفين: علم الظاهر محكوم، وعلم الباطن حاكم، والمحكوم موقوف حتى يجئ الحاكم فيه.

وقال بعض العارفين: علماء الظاهر إذا أشكل عليهم العلم فى مسألة لاختلاف الأدلة، سألوا أهل العلم بالله؛ لأنهم أقرب إلى التوفيق، وأبعد عن الهوى.

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخى، ولم يكن يحسن من العلم والسنن ما كانا يحسنانه.

وقد قال النبى ﷺ للذى سأله عن البر والإثم:

«استفت قلبك وإن أفتاك المفتون»(١).

أى: لأن المفتين يعولون على التأويل والرخص، والقلب المنور بالإيمان يفتيه عن الله، فلولا أن علم القلب هو حقيقة الفقه، ما رد النبى ﷺ صاحبه من فتيا أهل الظاهر، ولا حكم على المفتين به، فقد صار علم القلب هو علم العلم، إذ جعله الرسول ﷺ قاضيا على المفتين بالحكم، وصار عالم الباطن هو عالم العلماء، ولم يسعه تقليد العلماء.

وقال فى موضع آخر - وقد ساق الحديث فرده إلى فقه القلب، وصرفه عن فتيا المفتين - فلولا أن القلب فقيه، وأن علم الباطن حكم على العلم الظاهر وهم علماء الألسنة ما ردهم، إلى علم الباطن وهو علم القلوب.

وقال ابن مسعود لما مات عمر:

«إنى لأحسب أنه قد ذهب بتسعة أعشار العلم»، قيل له: تقول هذا،

---

(١) رواه أحمد بن حنبل فى المسند.

وفينا جـملة من الصحابة؟! قـال: ليس أعنى العلم الذى تريدون، وإنما أعنى العلم بالله تعالى».

وقال ابن مسعود: «ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم الخشية».

وقال بعضهم: إنما العلم نور يقذفه الله فى القلوب.

فحينئذ إذا تقرر هذا. فـالعالم بعلمى الظاهر والباطن. إذا طرأت كائنة من كرامـات الأولياء نزلهـا على الكتاب والسنـة؛ إذا لا منافاة بين الشـريعة والحقيقة عند أهل الحقائق أرباب الولايات، كـما قال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد - قدس الله روحه -.

«مذهبنا هذا مشيد بالكتاب والسنة».

وقال سلطان أهل المحبة ابن الفارض - رضى الله عنه ورحمه -.

وفى الذكر ذكر اللبس ليس بمنة ولم أعد عن حكمى كتاب وسنة

قلت: وممن وهبـه الله علمى الظاهر والبـاطن من المتأخـرين، علامـة الوجود، أستاذ أهل زمانه علما وعملا، شمس الدين البـاطى الملكى - سقى الله عهده وثراه -، كانت له الإمامة فى علوم كثيرة قد افتخرت به المالكية فى جميع الأقطار.

وكاثر بعلمه بحر مـصر بل جميع البحار، وصار حبـراً مفرداً فى زمانه قد خضعت له أسـاطين عصره وأوانه، كان فى ابتداء أمره قـد تصدى لخدمة القطب العارف سيدى على وفا الشاذلى.

ولهذا فتح عليه، وترادفت عليه مـواهب العنايات، وانغدقت عليه سائر العلوم العقلية والنقليـات، ثم فهمه الله كلام القوم، وشـرح تائية للشيخ ابن الفارض شرحا بديعا.

سمعت منه شيئا رفيعا فى مجلس بعض الرؤساء من النسخة التى بخطه، وأما ما حكاه شيخ شيوخنا شيخ الإسلام وحافظ ابن حجر رحمه الله - فى ترجمته عن الشيخ علاء الدين البخارى، فلا يغتر به لكونه مردودا عند محققى أئمة التصوف.

والباطنى رحمه الله كان من أكابر المحققين فى علمى الظاهر والباطن، بل كان بلبل الأفراح قد ملأ دوحها طربا، وفى العليا بازٍ أشهب.

فحينئذ من كان علمه قاصرا على الظاهر، فربما تقع كرامة لولى فجحدها وأنكرها، وقال بخلافها؛ لقصوره عن فهم دقائق العلوم الشرعية الدالة على ثبوت كرامات الأولياء المستمدة من المقام النبوى.

سبب تأليف الكتاب:

ومما وقع فى الفتاوى سنة إحدى وتسعين وثمان مائة. السؤال عن رؤية النبى ﷺ يقظة هل تقع كرامة للأولياء أولا؟

فأجبت: بأن ذلك ممكن وقوعه شرعا، فضلا عن جواز وقوعه عقلا. ثم إن جماعة من علماء عصرنا وقع خلاف بينهم فى ذلك:

فبعضهم: أنكر إمكان ذلك؛ لعدم إطلاعهم على نقول الأئمة وأخبار السلف.

وبعضهم: قال بالإمكان، لكن فهم من إطلاق تصريح بعض العلماء بالرؤية إمكان رؤية الجسم الشريف.

وهو خطأ مردود على قائله.

بل الصواب الذى صرح به المحققون من العلماء قاطبة: أن الروح الشريفة تتشكل شكلاً مثاليا، كصورته عليه السلام بدليل حديث المعراج؛ لأن

مذهب أهل السنة والجماعة: أن ما كان معجزة لنبي، جاز أن يكون كرامة لولي بشرط عدم التحدي.

فيراه الصالحون حينئذ دون غيرهم على سبيل الكرامة.

ولأن مشاهدة الموتى في اليقظة نوع من الكشوفات التي خص الله تعالى بها أولياءه، كما صرح بذلك حجة الإسلام الغزالي في كتابه "المنقذ من الضلال" وتبعه الإمام اليافعي المترجم في طبقات الإسنوي: بأحد الأئمة الأعلام الجامعين بين الفقه والتصوف في كتابي «خلاصة المفاخر» و«روض الرياحين».

وأما القول برؤية الجسم نفسه، فهو قول سخيف لا عبرة على تقدير ثبوته، ويلزم على هذا القول الفاسد خلو القبر عن الجسم لو رآه أحد في غير مكانه، وكذا لو رآه شخصان أحدهما بالمشرق، والآخر بالمغرب في زمن واحد.

وهذا من المحالات عقلا، كما هو صريح في «بهجة النفوس» للشيخ أبي محمد ابن أبي جمرة؛ ويشهد لذلك ما نص عليه علماء المعقول: وهو أن الجسم الواحد لا يمكن أن يجعل في مكانين في آن واحد، كما هو مقرر في القواعد العقلية. والله أعلم.

ثم خطر لي أن أفرد الكلام على هذه المسألة في مصنف مستقل حافل مشحون بكلام الأئمة، وأذكر نقولا من كلام المحققين أعلام الإسلام، في تبرئة السادة الصوفية من الحلول والاتحاد على سبيل التنظير والاستطراد؛ لأن هذه الرؤية اليقظية من كرامات الأولياء، فناسب استطراد ذلك.

وأبسط الكلام على ذلك بسطًا إلى الطرق الأقصى من حيث النقول الغريبة التي أطلعني الله عليها، وأحل شيئًا من مشكلات أهل التصوف، فأفصح عن فتح مغلقها وإيضاح معانيها"بتقرير منزل على الكتاب.

فهو جمع على الشريعة والحقيقة لم أجد أحدا سبقنى إليه، ولا عثر أحد غيرى عليه. قال ابن مالك إمام أهل عصره فى علمى العربية واللغة، وأحد مشايخ محيى الدين النووى فى أول "التسهيل": وإذا كانت العلوم منحا إلهية، ومواهب اختصاصية، فغير مستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ما عثر على كثير من المتقدمين.

وقال الزركشى فى القواعد نقلا عن صاحب "الأحوذى": ولا ينبغى لمصنف يتصدى إلى تصنيف أن يعدل عن غرضين:

إما أن يخترع معنى.

وإما أن يبتدع وضعا ومبنى.

وما سوى هذين الوجهين فهو تسويد الورق، والتحلى بحلية السرق.

ثم أختم المصنف إن شاء الله تعالى بفصل فى الكلام على إمكان رؤية الحق - تبارك وتعالى -، فحينئذ لا غرو أن يسمى بـ «الكواكب الزاهرة فى اجتماع الأولياء يقظة بسيد الدنيا والآخرة»، وأن يلقب بـ (الفتح المبين فى معرفة مقامات الصديقين).

فاللهم إنى أسألك أن تدخلنى فى شفاعته وتحت لوائه من غير عذاب يسبق، وأن تجعل جميع مقاصدى وأقوالى خالصة لوجهك الكريم، وأن تشغلنى بك عن جميع خلقك.

وأن تمتعنى بالنظر إلى وجهك الكريم يوم لقائك، وأن تجمعنى على أحبابك وأهل صفوتك فى جنات عدن برحمتك على بساط قربك لمناجاة خطابك، وسائر مشايخى، ومن أحبنى وأحببه فيك، وجميع المسلمين.

فأقول وبالله المستعان.

* * *

الكلام على رؤيته ﷺ مناماً.

الكلام أولا على رؤيته ﷺ مناما؛ لأن رؤيته - عليه السلام - فى المنام قد تكون توطئة وتمهيدا لمن يراه من الصالحين فى اليقظة؛ ولهذا كان المعراج مرتين:

مرة فى المنام تمهيدا وتمرينا لمشاهدة الملكوت بالمعراج.

وثانيا فى اليقظة. وهذا قول ذهب إليه جماعة من العلماء، وممن اختاره أبو نصر القشيرى، وابن العربى، والسهيلى.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: كان الإسراء فى المنام واليقظة، ووقع بمكة والمدينة.

قال شيخ الإسلام ابن حجر: وهو غريب، إلا أن يريد تخصيص المدينة بالنوم، ويكون فى كلامه لف ونشر غير مرتب، ويكون الإسراء الذى اتصل به المعراج وفرضت فيه الصلاة فى اليقظة بمكة، والآخر فى المنام بالمدينة.

قال: وينبغى أن يزاد فيه أن الإسراء فى المنام تكرر بالمدينة. أ هـ.

فإذا تقرر هذا فناسب الكلام أولا على رؤيته مناما، فقال النووى فى فتاويه: رؤية النبى ﷺ فى المنام لا يختص به الصالحون.

هل تعد رؤيته ﷺ تشريعا؟

قال فى الروضة: ولكن لا يعمل بما يسمعه الرائى منه فى المنام مما يتعلق بالأحكام؛ لعدم ضبط الرائى، لا للشك فى الرواية. فإن الخبر لا يقبل إلا من ضابط مكلف، والنائم بخلافه. أ هـ.

ونظير هذا ما وقع لشيخ الإسلام الحافظ ولى الدين العراقى حين سئل عن رجل حلق بالطلاق أنه رأى ليلة القدر فى اليقظة فهل يصدق فى دعواه

فى رمضان أو غيره، أو لا يصدق إلا فى العشـر الأخير من رمضان أو غيره، أو لا يصدق إلا فى العشر الأخير من رمضان؟

وهل يشـترط فى هذا الرجل المدعى الرؤيا الصـلاح أم لا؟ وبأى شىء يعلم كونه صادقا أو غـير صادق؟ فأجاب - رحمه اللـه - ما نصه: "مذهبنا انحصار ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمـضان. فإن أخبر أنه رآها فى غير العشر الأواخر، فهو كاذب، وإذا حلف فهو حانث، والمخبر عن غيب كشف له لا يصلح صدقه من كذبه.

ويخطر لى أنه قـد يكشف لأهل الصـلاح عنها على سـبيل الكرامـة، ولغـيرهم عـلى سبـيل الزجـر والمؤاخذة، فـلا يخـتص بالكشف عنهـا أهل الصلاح. والله أعلم". أ هـ قوله: (فإن الخـبر لا يقبل إلا من ضابط مكلف والنائم بخلافه) هكذا قاله النووى.

وسبـقه إلى ذلك ابن الصلاح فى فتاويه، وقـال: ليس ذلك من عدم الوثوق بالمرئى. بل من جهة عدم الوثوق بضـبط الرائى، فإن حالة النوم حالة غيبة وبطلان القوة الحافظة لما يجرى فى النوم على التفصيل.

وقال ابن الأستاذ: عندى فى هذا نظر، فإن رؤيته حق، وقوله حق.

ولم أر أحدا من العلماء وافق ابن الأستـاذ على هذا، فقد ذكر القاضى حسين فى فتاويه فـى مسألة صيام رمضان فيمن رأى ليلة الـثلاثين من شعبان أن النبى ﷺ قال: غـدا من رمضان. قال: لا يجـوز له العمل به؛ لأنه ﷺ حكم أن الصـوم لا يجب إلا برؤية الهلال أو استكمال ثلاثين. وافـقه على ذلك جماعة من الأصحاب.

ونقل أيضا فى شـرح مسلم عن أصحـابنا وغيرهم أنـهم نقلوا الاتفاق على أنه لا يغير - بسبب يراه النائم - ما تقرر فى الشرع.

وفي فتاوى الحناطي أحد أئمة أصحابنا أن إنسانا رأى النبي ﷺ في منامه على الصفة المنقولة عنه، فسأله عن الحكم، فأفتاه بخلاف مذهبا وليس مخالفا لنص ولا إجماع، فقال: فيها وجهان:

أحدهما يأخذ بقوله؛ لأنه مقدم على القياس.

وثانيهما: لا؛ لأن القياس دليل، والأحلام لا تعويل عليها، فلا يترك من أجلها الدليل.

وعن كتاب (الجدل) للأستاذ أبي إسحاق الإسفرايني: حكى وجهين في أن الرجل لو رأى النبي ﷺ في المنام، وأمره بأمر هل يجب عليه امتثاله إذا استيقظ؟

كذا هو في مجموع منسوب لابن الصلاح حكاه عنه ابن الملقن، وحكى الزركشي في "الخادم" عن كتاب "أدب الجدل" ما حكيناه عن فتاوى الحناطي. فلعله انتقل أو سقط شيء من النسخة.

وفي المجموع المذكور لابن الصلاح حكاية وجهين في وجوب التمسك بالحكم من حيث هو في الحالة المذكورة.

وعن روضة الحكام للقاضي شريح من أصحابنا: لو قال النبي ﷺ: لفلان على فلان كذا، هل للسامع أن يشهد لفلان على فلان؟ كذا وجهان.

ونقل الزركشي عن الشيخ عز الدين بن خطيب الأشمونين قال: أخبرني والدي: أن إنسانا رأى النبي ﷺ في المنام، وقال له: اذهب إلى موضع كذا، وخذ ما فيه من ركاز، ولا خمس عليك فيه وأنه توجه إليه فوجده كما أخبره ﷺ وأنه استفتى الفقهاء بدمشق فكلهم أفتاه بعدم الوجوب.

وقالـوا: قد ظهـرت دلائل صدق الرؤيا، والشـيطان ممنوع من التمـثل بالنبي ﷺ قال: وأفتاه شيخنا عز الدين بن عبد السلام بوجوب الخمس عليه.

واستدل على ذلك بأن طريق رفع القواعـد النسخ، فلا نسخ بعد انقطاع الوحي لموته ﷺ قال: ثم إني حكيت هذه الحكاية بين يدي شيخنا تقي الدين ابن دقيق العيد -رحمه الله -، فصدق رؤيتها.

وزاد على ذلك أن الشـيخ عز الدين كـان يرى ذلك من باب الترجـيح على تقدير صدق المنام.

قال: وأظن أنه أراد بالترجـيح أن رواية الجمهور وجـوب الخمس نصـا، ورواية هذا شاذة في المنام. والأول أرجح قطعا، فالعـمل بها واجب، والله أعلم.

* * *

أدلة تصديق رؤياه ﷺ مناما وحجيتها فى رؤيته ﷺ يقظة

وأما تصديق رؤياه ﷺ فى المنام، فلما روى عنه ﷺ من الأحاديث الصحيحة منها: ما رواه البخارى من حديث ثابت عن أنس رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «من رآنى فى المنام فقد رآنى؛ فإن الشيطان لا يتمثل بى»(١).

وفى الصحيحين من حديث أبى قتادة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من رآنى فقد رأى الحق»(٢).

وفى البخارى من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول:

«من رآنى فقد رأى الحق، فإن الشيطان لا يتكوننى»(٣).

وفى مسلم عن أبى الزبير عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«من رآنى فى النوم إنه لا ينبغى للشيطان أن يتمثل فى صورتى».

وفى رواية: «فإنه لا ينبغى للشيطان أن يتشبه به»(٤).

وفيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بى»(٥).

---

(١) رواه البخارى.

(٢) رواه البخارى.

(٣) رواه البخارى.

(٤) رواه البخارى.

(٥) رواه البخارى.

زاد مسلم: «أو فكأنما رآنى فى اليقظة[1] هكذا بالشك، ووقع عند الإسماعيلى فى الطريق المذكور:

«فقد رآنى فى اليقظة" بدل قوله: «فسيرانى».

ومثله فى حديث ابن مسعود عند ابن ماجة، وصححه الترمذى، وأبو عوانة، ووقع عند ابن ماجة من حديث أبى جحيفة:

«فكأنما رآنى فى اليقظة».

فهذا ثلاثة ألفاظ: «فسيرانى فى اليقظة».

«فكأنما رآنى فى اليقظة».

«فقد رآنى فى اليقظة».

وقد اختلف العلماء فى معنى هذه الأحاديث.

فقال المازرى: اختلف المحققون فى تأويل ذلك، فذهب القاضى أبو بكر بن الطيب إلى أن المراد بقوله: «من رآنى فى المنام فقد رآنى» أن رؤياه صحيحة لا تكون أضغاثا، ولا من تشبيهات.

قال: ويعضده قوله فى بعض طرقه: «فقد رأى الحق". وفى قوله: «فإن الشيطان لا يتمثل بى» إشارة إلى أن رؤياه لا تكون أضغاثا.

قال: وقال آخرون: بل الحديث محمول على ظاهره، والمراد: أن من رآه فقد أدركه، ولا مانع يمنع من ذلك.

وأما كونه فقد يرى على غير صفته، أو يرى فى مكانين مختلفين معا، فإن ذلك غلط ففى صفته، وتخيل لها على غيرها ما هى عليه، وقد يظن بعض الخيالات مرئيات؛ لكون ما يتخيل مرتبطا بما يرى فى العادة فتكون ذاته

---

(١) رواه مسلم.

ﷺ مرئية وصفاته متخيلة غير مسرئية، والإدراك لا يشترط فيه تحديق البصر، ولا قرب المسافة، ولا كون المرئى ظاهرا على الأرض أو مدفونا.

وإنما يشترط كونه موجودا، ولم يقم دليل على فناء جسمه ﷺ بل جاء فى الخبر الصحيح ما يدل على بقائه[1] ويكون ثمرة اختلاف الصفات اختلاف الدلالات.

وقال القاضى عياض: يحتمل أن يكون معنى الحديث: إذا رآه على الصفة التى كان عليها فى حياته، لا على صفة مضادة لحاله، فإن رأى على غيرها كانت رؤيا تأويل، لا رؤيا حقيقة، فإن من الرؤيا ما يخرج على هيئته، ومنها ما يحتاج إلى تأويل:

وقال النووى: هذا الذى قاله ضعيف. بل الصحيح أنه يراه حقيقة سواء كان على صفته المعروفة، أو غيرها. كما ذكره المازرى.

قال شيخ الإسلام ابن حجر: وهذا الذى رده النووى روى عن ابن سيرين اعتباره: فقد روى اسماعيل بن إسحاق القاضى بسند صحيح من طرق حماد بن زيد عن أيوب قال: كان محمد ابن سيرين إذا قص عليه رجل أنه رأى النبى ﷺ، قال: صف الذى رأيته.

فإذا وصف له بصفة لا يعرفها، قال: لم يره.

والذى قال القاضى توسط حسن، ويمكن الجمع بينه وبين ما قاله المازرى أن تكون رؤياه على الحالين حقيقة، لكن إذا كان على صورته، كان ما يرى فى المنام على ظاهره، لا يحتاج إلى تعبير، وإذا كان على غير صورته كان النقص من جهة الرائى؛ لتخيله الصفة على غير ما هى عليه ويحتاج ما يراه فى ذلك المنام إلى التعبير.

---

(١) روى ابن ماجة الحديث الشريف: (إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء).

وعلى ذلك جرى علماء التعبير، فقالوا: إذا قال الجاهل: رأيت النبى ﷺ، فإنه يسئل عن صفته. فإن وافق الصفة الرؤية، وإلا فلا يقبل منه.

وذهب الشيخ أبو محمد بن أبى جمرة إلى ما اختاره النووى، فقال - بعد أن حكى الخلاف - ومنهم من قال: إن الشيطان لا يتصور على صورته أصلا.

فمن رآه فى صوره حسنة؛ فذاك حسن فى دين الرائى، وإن كان فى جارحة من جوارحه شين أو نقص، فذاك خلل فى الرائى من جهة الدين. قال: وهذا هو الحق، وبه تحصل الفائدة الكبرى فى رؤياه حتى يبين للرائى هل عنده خلل أو لا.

لأنه ﷺ نورانى مثل المرآة الصقيلة ما كان فى الناظر إليها من حسن أو غيره مصور فيها، وهى فى ذاتها على أحسن حال لا نقص فيها ولا شين.

وكذلك يقال فى كلامه ﷺ فى النوم أنه يعرض على صفته فما وافقها فهو حق، وما خالفها فالخلل فى سمع الرائى أو بصره، قال: وهذا خير ما سمعته فى ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن حجر: ويظهر لى فى التوفيق بين جميع ما ذكروه: أن من رآه على صفته أو أكثر مما يختص به، فقد رآه ولو كانت سائر الصفات مخالفة. وعلى هذا فتتفاوت رؤيا من رآه:

فمن رآه على هيئته الكاملة فرؤياه الحق التى لا نحتاج إلى تعبير، وعليها ينزل قوله: «فقد رآنى». ومهما نقص من صفاته فيدخله التأويل بحسب ذلك، ويصح إطلاق أن كل من رآه فى أى حالة كانت من ذلك، فقد رآه حقيقة. «انتهى ما قاله ابن حجر».

وقال حجة الإسلام الغزالى: ليس معنى قوله: "رآنى" أنه رأى جسمى وبدنى قال: والآلة تارة تكون حقيقية، وتارة تكون خيالية . . والنفس غير

المثال المتخيل، فمـن رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى ولا شخصه، بل هو مثاله على التحقيق.

قال: ومثل ذلك من يرى الله سبحانه وتعالى فى المنام، فإن ذاته منزهة عن الشكل والصورة، ولكن تنتهى تعريفاته إلى العبد بواسطة مثال محسوس من نوره أو غيره.

ويكون ذلك المثال حقـا فى كونه واسطة فى التعريف، فـيقول الرائى: رأيت الله - تعالى - فى المنام.

لا معنى إنى رأيت ذات الله. كما يقول فى حق غيره.

وقال الإمام أبو القاسم القشيرى ما حاصله: إن رؤياه على غير صفته لا تستلزم أن لا يكون هو، فإنه لو رأى الله - تعـالى - على وصف يتعالى عنه وهو يعتقد أنه منزه عن ذلك لا يقدح فى رؤيته، بل يكون لتلك الرؤيا ضرب من التأويل.

وقال الطيبى: المعنى من رآنى فى المنام بأى صفة كنت فـليـتبشر ويعلم أنه قـد رأى الرؤيا الحق التى هى من الله وهى مبـشرة، لا البـاطل الذى هو الحكم المنسوب للشيطان فإن الشيطان لا يتمثل بى.

وكذا قـوله "فقـد رأى الحق"، وكذا قـوله "فقـد رآنى" فإن الـشرط والجـزاء إذا اتحدا دل على الغـاية والكمـال، أى: قد رآنى رؤيا ليس بعـدها شىء.

والله أعلم.

* * *

أقسام الناس بين الجزم برؤيته ﷺ والتجويز

تنبيه:

قال القرافى فى القواعد، وتبعه الزركشى فى الخادم، وحكاه جماعة من العلماء: إنما تصح رؤية النبى ﷺ لأحد رجلين:

أحدهما: صحابى رآه فعلم صفته فانطبع فى نفسه مثاله، فإذا رآه جزم بأنه رأى مثاله المعصوم من الشيطان.

وثانيهما: رجل تكررت عليه صفاته ﷺ المنقولة فى الكتب حتى انطبعت فى نفسه. كما حصل ذلك لمن شاهده ورآه، فإذا رآه، جزم برؤية مثاله ﷺ، كما يجزم به من رآه.

وأما غير هذين، فلا يحصل الجزم. بل يجوز أن يكون رأى النبى ﷺ بمثاله، ويحتمل أن يكون من تمثل الشيطان، ولا يفيده قول الذي يراه: "أنا رسول الله" ولا قول من يحضر منه.

قلت: حاصل ما ذكره القرافى هو عين ما قاله القاضى عياض وشيخ الإسلام ابن حجر، ووجه التحقيق فى ذلك هو أن مراد القرافى - رحمه الله - بهذين الرجلين: كون الرؤية فى حقهما قطعية لا تحتاج إلى تأويل.

لأن التعبير علم بالاجتهاد، والاجتهاد مظنون، فأشبه الفقه. ولأن الفقه ولأن الاجتهاد أيضا لا مجال له فى القطعيات، كما هو مقرر فى أصول الفقه. بخلاف غيرهما بأن يراه أخذ على غير صفته، فلا يحصل الجزم برؤيته.

لأنه جعل الرؤية فى حقهما - والحالة هذه قطعية، وفى حق غيرهما ظنية، وهذا ملحوظ من فحوى قوله "وأما غير هذين فلا يحصل الجزم"،

فنفى الجزم فقط لكونه قطعيا فتعين قسيمه، وهو الظن بطريق اللزوم. فافهم ذلك فإنه نفيس لا تراه الآن مسطورا. والله أعلم.

وقال ابن بطال: معنى قوله "فسيرانى فى اليقظة" يريد تصديق تلك الرؤيا فى اليقظة وصحتها وخروجها على الحق، وليس المراد أن يراه فى الآخرة؛ لأنه سيراه يوم القيامة فى اليقظة جميع أمته، من رآه فى النوم، ومن لم يره منهم.

وقال ابن التين: المراد: من آمن به فى حياته ولم يره لكونه حينئذ غائبا عنه فيكون هذا مبشرا لكل من آمن به ولم يره أنه لا بد أنه يراه فى اليقظة قبل موته. كذا قاله بعض العلماء.

وقال المازرى: إن كان الملحوظ "فكأنما رآنى فى اليقظة" فمعناه ظاهر، وإن كان المحفوظ "فسيرانى فى اليقظة" احتمل أن يكون أراد أهل عصره ممن لم يهاجر إليه فإنه إذا رآه فى المنام جعل ذلك علامة على أنه يراه بعد ذلك فى اليقظة، وأوحى الله بذلك إليه ﷺ.

وقال القاضى عياض: قيل معناه: سيرى تعقيب تأويل تلك الرؤيا فى اليقظة وصحتها وقيل: معنى الرؤيا فى اليقظة، أنه سيراه فى الآخرة.

وتعقب بأنه يراه فى الآخرة جميع أمته من رآه فى المنام ومن لم يره.

يعنى: قلا يبقى لخصوص رؤيته فى المنام مزية.

وأجاب القاضى عياض: باحتمال أن رؤياه له فى المنام على الصفة التى عرف بها ووصف عليها موجبة لتكرمته فى الآخرة، وأن يراه رؤية خاصة من القرب منه، أو الشفاعة له بعلو الدرجة، ونحو ذلك من الخصوصيات.

قال: ولا يبعد أن يعاقب الله المذنبين فى القيامة بمنع رؤية نبيه ﷺ مدة.

وحمله ابن أبى حمزة على محمل آخر: فكر عن ابن عباس أو غير أنه رأى النبى ﷺ فى النوم، فبقى بعد أن استيقظ متفكراً فى هذا الحديث، فدخل عليه بعض أمهات المؤمنين - لعلها خالته ميمونة، فأخرجت له المرآة التى كانت للنبى ﷺ فنظر فيها، فرأى صورة النبى ﷺ ولم ير صورة نفسه.

قال شيخ الإسلام ابن حجر: ويعكر عليه أن جمعا جما رأوه فى المنام ثم لم يذكر واحد منهم أنه رآه فى اليقظة، وخبر الصادق ﷺ لا يتخلف. انتهى، وسيأتى الجواب عن ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى.

«باب» فى الكلام على رؤيته ﷺ فى اليقظة:

قال الإمام عفيف الدين اليافعى فى كتابه "خلاصة المفاخر فى مناقب الشيخ عبد القادر". نقلا عن الشيخ الكبير العارف بالله المعروف بالشيخ بكا - رضى الله عنه - قال: حضرت مجلس الشريف محيى الدين عبد القادر الجيلانى - رضى الله عنه - مرة، فبينما هو يتكلم على المرقاة الأولى من الكرسى إذ قطع كلامه، وسها ساعة ثم نزل إلى الأرض، ثم صعد الكرسى وجلس على المرقاة الثانية، فأشهدت المرقاة الأولى قد اتسعت حتى صارت مد البصر، وفرشت من السندس الأخضر، وجلس عليها رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى - رضى الله عنهم -.

وتجلى الله على قلب الشيخ عبد القادر فمال حتى كاد أن يسقط، فأمسكه رسول الله ﷺ لئلا يقع، ثم تضاءل حتى صار كالعصفور، ثم نما حتى صار على صورة هائلة، ثم توارى عنى ذلك كله.

فسأله الشيخ بكا عن رؤية النبى ﷺ وأصحابه فى اليقظة، فقال: أرواحهم تشكلت، وإن الله تعالى أيدهم بقوة يظهرون بها فيراهم من قواه الله تعالى كرؤيتهم فى صور الأجساد وصفات الأعيان، بدليل حديث "المعراج".

وسئل أيضا: عن تضاؤل الشيخ عبد القادر ونموه، فقال: كان التجلى الأول بصفة لا يثبت لبدوها بشر إلا بتأييد نبوى، فلذلك كاد الشيخ يسقط لولا تداركه رسول الله ﷺ.

وكان التجلى الثانى بصفة الجلال؛ فلذلك تضاءل، وكان التجلى الثالث بصفة الجمال؛ فلذلك انتعش ونمى.

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وذكر اليافعى أيضا: بالإسناد أن الشيخ عبد القادر قال: ما من نبى ولا ولى إلا وقد حضر مجلس الأحياء بأجسامهم، والأموات بأرواحهم.

وروى الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله الشاذلى عن الشيخ أبى العباس المرسى أنه قال: "والله لو حجب عنى رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسى من المسلمين".

ومما اشتهر عن شيخ الإسلام شرف الدين البارزى. أنه رأى النبى ﷺ فى اليقظة بشاطئ بحر الفرات، ثم صنف بعد ذلك توثيق عرى الإيمان، ونص على مسألة الرؤيا فى فضل فى حياة الأنبياء.

وقال حجة الإسلام الإمام الغزالى: ولا تظنن أن روزنة القلب لا تنفتح للملكوت. بل لو أن رجلا راض نفسه، وتخلص قلبه من الغضب والشهوة والأخلاق الردية، ويخرج من قلبه مراده لهذا العالم، ويجلس فى موضع خال، ويغمض عينيه، ويعطل حواسه.

ويعطى لقلبه المناسبة لعالم الملكوت، يقول على الدوام: الله! الله! بالقلب لا باللسان، إلى أن يصير من نفسه، ومن جميع العالم بلا خبر من شى إلا من الله، فإذا صار كذلك، وإن كان مستيقظا انفتحت له الروزنة، وما يراه الخلق فى النوم يراه هو فى اليقظة، وأرواح الملائكة تظهر له فى

صورة حسية، ويرى الأنبياء كلهم، ويأخذ عنهم الفوائد، ويحصل له منهم المدد، ويرى ملكوت السموات والأرض، ومن انفتح له هذا الباب يرى الأمور العظيمة الهائلة التى لا تدخل تحت الحس والخيال.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(١).

وقال رسول الله ﷺ: «زويت لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها»(٢).

وجميع علوم الأنبياء عليهم السلام - من هذه الطريق، لا من طريق الحواس والتعليم، وبداية هذا كله المجاهدة.

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾(٣).

يعنى: تنظف من كل شىء، وانقطع عن كل شىء، واعط كليتك له، ولا تشتغل بتدبير الدنيا؛ فإنه - سبحانه وتعالى - يكفيك مؤنتها ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾(٤). هذا كلام الغزالى بحروفه.

وقال ابن العربى المالكى - فى قانون التأويل - ما حاصله:

وأما رؤيته ﷺ فى اليقظة، فهى ممكنة، وإذا كانت ممكنة فلا يختص بها واحد دون آخر. ثم قال: ولا المسلمون دون الكافرين، فتكون فى حق المؤمن كرامة، وفى حق الكافر عقوبة وإنذارا(٥).

قلت: هذا فى الإمكان العقلى، وأما الوقوع فاختص به الصالحون كرامة لهم دون غيرهم، إذ لا يلزم من الأمر الممكن عقلا وقوعه على جميع

---

(١) سورة الأنعام - آية ٧٥.

(٢) رواه ابن ماجة.

(٣) سورة المزمل - آية ٨.

(٤) سورة المزمل - آية ٩.

(٥) قانون التاويل لابن العربى المعافرى. دراسة وتحقيق الدكتور محمد السليمانى، طبع دار القبلة جدة ٦ : ١٤هـ.

الأفراد وإن كان عاما. فممن نص على وقـوعها كرامة فى يقظة الخواص دون العوام الإمام اليافعى فى روض الرياحين فقال ما نصه:

"رؤية الموتى فى خير أو شر نوع من الكشـف يظهر الله تعالى به حال الموتى، بشارة أو موعظة أو مصلحة من اتصال خـير إليه أو قضاء دين عليه، أو غير ذلك.

وهذه الرؤية قـد تكون فى النوم وهو الغـالب، وقـد تكون فى اليـقظة وذلك من كرامـات الأولياء الذين هم أصـحاب أحوال ومقامـات، فينظرون الموتى فى اليقظة وقت ما يريد الله بحكمة يعلمها، وفى ذلك حكايات يطول ذكرها.

وقال حجـة الإسلام الغزالى - فى كتابه: "المنقـذ من الضلال" - وقد مدح طريقة الصوفية - ثم قال: "فماذا يقول القائلون فى طريقة أول شروطها تطهير القلب بالكلية عـما سوى الله تعالى، ومفتاحهـا استغراق القلب بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية فى الله.

قـال: وفى أول الطريقـة تبـتدى المكاشـفـات حـتى إنهم فى يقظتـهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبـياء عليهم الســلام، ويسمعـون منهم أصواتا، ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنهـا نطاق النطق، فلا يحاول محـاول أن يعبر عنها إلا اشـتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز منه.

وعلى الجـملة ينتهى الأمـر إلى قرب يكاد يتـخيل منه طائفـة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفـة الوصول، وكل ذلك خطأ ولا ينبغى لمن هو فى تلك الحالة أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لسـت أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

هذا آخر كلام حجة الإسلام، وناهيك به جلالة وفخرا.

ما وقع لبعض الأولياء حال رؤيته ﷺ

ولما حج القطب العارف السيد أحمد بن الرفاعى أنشد عند الحجرة النبوية لنفسه:

فى حالة البعد روحى كنت أرسلها تقبل الأرض عنى فهى نائبتى
وهذه نوبة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك كى تحظى بها شفتى

فعند ذلك خرجت اليد الشريفة من الحجرة، فقبلها.

قلت: هذا يسمى عند الصوفية بالكشف الصورى، صرح بذلك ابن السبكى، وغير واحد.

ولقد أخبرنى بالسند المتصل الشيخ الصالح نور الدين على بن أحمد بن على الطندتاوى الفرضى سماعا من لفظه بخانقاه سعيد السعداء قال: أخبرنى شيخنا العلامة أحد أئمة الشافعية زين الدين ابن عبد الرحمن البوتيجى قال: أخبرنى ولى الله الشيخ أبو بكر الشاذلى أنه كان فى صلاة.

ولما قال فى التشهد: السلام عليك أيها "النبى" ورحمة الله وبركاته، فكشف له عن الحجرة النبوية، فرأى النبى ﷺ، وهو يقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أبا بكر.

وقال صاحب البهجة: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أبى الحسن على بن أبى المحاسن يوسف بن أحمد بن محمد القرشى المارديني قال: سمعت أبى يحدث عن أبيه قال: كان شيخنا الشيخ موسى الزولى - رضى الله عنه - كثير الشهادة لرسول الله ﷺ -، وكانت أغلب أفعاله منه ﷺ، وكان إذا مس الحديد بيده لأن له حتى يصير كاللبان.

ووقع مرة بماردين حريق فاضح، واستطار فى أقطار البلد، فضج الناس

بالشيخ موسى، فأعطاهم عكازه وأمرهم أن يلقوه فى النار، فذهبوا وألقوه فيها فانطفأت لوقتها، كأنها لم تكن قط، وجاءوا فأخرجوا العكاز فما رأوه احترق، ولا اسود، ولا سخن، فأتوا به إليه، فقال: إن الله وعدنى أن لا يحرق بالنار ما مسته يدى.

وقال فى البهجة أيضا: أخبرنا أبو الحسن على بن عبد الله الأبهرى قال: سمعت الشيخ أبا الحسن الخفاف البغدادى بها يقول: سمعت شيخنا أبا السعود الحريمي يقول: كان الشيخ خليفة يرى رسول الله ﷺ كثيرا فى اليقظة والمنام، ورآه فى ليلة واحدة تسع عشرة مرة، وقال له فى إحداهن: يا خليفة، لا تضجر منى، كثير من الأولياء مات. بحسرة رؤيتى انتهى.

"تنبيه": قال شيخ الإسلام ابن حجر فى فتح البارى، ونقل ابن أبى جمرة عن جماعة عن الصالحين أنهم رأوا النبى ﷺ فى المنام، ثم رأوه بعد ذلك فى اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا متخوفين منها، فأرشدهم إلى طريق تفريجها، فجاء الأمر كذلك.

ثم قال شيخ الإسلام: قلت: وهذا مشكل جدا، ولو حمل على ظاهره لكان هؤلاء صحابة، ولا يمكن بقاء الصحبة إلى يوم القيامة.

شبهة وجواب:

ويعكر عليه أن جمعا جما رأوه فى المنام، ولم يذكر واحد منهم أنه رآه فى اليقظة، وخبر الصادق ﷺ لا يتخلف.

وقد اشتد إنكار القرطبى على من قال: من رآه فى المنام فقد رأى حقيقته، ثم يراها كذلك فى اليقظة، قال: وقد فطن ابن أبى جمرة لهذا، فأحال بما قال على كرامات الأولياء.

والجواب عن ذلك: أن قوله ﷺ فيما رواه أبو هريرة:

«من رآنى فى المنام، فسيرانى فى اليقظة»(١).

هذا من خبر الصادق، صدق بجماعة من الصالحين رأوه فى المنام، ثم رأوه فى اليقظة، ولا يلزم إطلاق الصحابة عليهم؛ لأن الصحابى من لقى النبى ﷺ مؤمنا به، أى فى عصر الرسالة، ومات على الإسلام ولو تخللت ردة فى الأصح. وكلام القرطبى صحيح فى حق من قال: من رآه فى المنام فقد رأى حقيقته.

وقد علم أن الرؤية فى المنام رؤية تخيل وحسبان، لا رؤية عيان.

وليس كذلك رؤية الأنبياء - عليه السلام -؛ لأن ما يرونه فى المنام فكأنهم قد رأوه فى اليقظة تخصيصا من الله - تعالى - لهم وتمييزا لهم عن أبناء جنسهم.

قاله إمام المتكلمين أبو بكر الباقلانى. والله أعلم.

الاستدلال على الجواب:

"تذنيب": تقدم أن ابن أبى جمرة نقل فى بهجة النفوس ظنا منه عن ابن عباس أنه رأى النبى ﷺ فى النوم، فتذكر بعد استيقاظه قوله عليه السلام: "من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة"، وبقى متفكرا فيه، ثم دخل على بعض أمهات المؤمنين، فأخرجت له جبته ﷺ ومرآته، فنظر فى المرآة فرأى صورة النبى ﷺ، ولم ير صورة نفسه. انتهى.

أنشدنى العلامة تاج الدين عبد الوهاب بن شرف الدين لنفسه:

---

(١) رواه البخارى.

مرآة وجه رسول الله ناقلـها يظـن ناقلها الحبر ابن عباس

وأبدت المـرأة المرآة مظـهره كرامة الوجه عند الله للناس

قال الإمام العلامـة السيد بدر الدين الأهدل اليمنى أحد فقهاء الشـافعية في كتاب "الرؤية"، وقفت عليه واستوعبت مطالعته، فما أكثر فوائده!!

منها: ما نصه رؤية النبي ﷺ في اليقظة جائزة لا ت يحيلها العقل، ولم يمنع منهـا الشـرع، وكـذلك رؤية سـائر الأنبـياء بعـد مـوتهم، بل وسـائر الأموات، وكـذا رؤية الملائكة، ورؤية الجن والشياطـين، ورؤية الجنة وعوالم الملكوت.

وقد وقع ذلك كله للأولياء، وشاهده الأصفياء، وصدق به الموفقون من العلماء أهل السنة القائلـين بإثبات كرامات الأولياء، وإن كل ما جـاز للأنبياء من المعجزات جاز مثله للأولياء من الكرامات، بشرط عدم التحدى.

فانظر إلى تصريحه بذلك. ثم قال بعد ذلك صريحا لتحقيق هذه اليقظة وتمييـزها من يقظة العـوام إلى يقـظة الخواص الـتى هى ظرف لهـذه الرؤية الشريفة:

وأما وقـوعها للأوليـاء، فقد تواترت بأجناسـها الأخبـار، وصار العلم بذلك علما قويا انتفى عنه الشك، ومن تواترت عليه أخبارهم لم يبق له شبهة في ذلك.

ولكن يقع لهم ذلك في بعض غيبة حس وغموض طرف لورود حال لا تكاد تضبطه العبارة ومراتبهم في الرؤية متفاوتة.

قلت: وهذه اليقظة برزخية مستمدة من المقام النبوى أكرم الله تعالى بها أولياءه ليـتحـفهم بمشاهدة الملكـوت بدليل أنه ﷺ كان يؤخذ عن الـدنيا عند تلقى الروح، لما روى البخارى ومسلم عن أبى سـعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

"إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض. قيل: وما بركات الأرض؟

قال: زهرة الدنيا. فقال له رجل: هل يأتى الخير بالشر؟! فصمت النبى ﷺ حتى ظننا أنه ينزل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه، فقال: أين السائل؟ قال: أنا. فذكر الحديث".

فظاهر هذا: أن النبى ﷺ كان ينتقل من الحال المعروفة إلى حالة تستلزم الاستغراق والغيبة عن الحالة الدنيوية حتى ينتهى الوحى، ويفارقه الملك.

قال شيخ الإسلام البلقينى: هى حالة يؤخذ فيها عن حال الدنيا من غير موت، فهو مقام برزخى يحصل عند تلقى الوحى، ولما كان البرزخ العام ينكشف فيه للميت كثير من الأسرار، خص الله نبيه برزخ فى الحياة يلقى الله فيه وحيه المشتمل على كثير من الأسرار.

وقد يقع لكثير من الصلحاء عند الغيبة بالنوم أو غيره اطلاع على كثير من الأسرار، وذلك مستمد من المقام النبوى، ويشهد له حديث:

«رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة»(١).

هذا آخر كلامى البلقينى.

وقال الإمام اليافعى فى «روض الرياحين» حاكيا عن الشيخ أبى العباس الخراز قال: وردت من السياحة على الشيخ أبى العباس المرينى - بفتح الميم وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحت وكسر النون وياء النسبة-، وكان رجلا كبيرا، فلما جلست إليه سأله سائل فقال له: يا سيدى، أيما أفضل العقل أم الروح؟

---

(١) رواه البخارى.

فشاهدت الشيخ قد أسرى بروحه وروحى إلى أن دخلنا السماء الدنيا، فاشتغلت برؤية أملاكها وأنوارها، وغاب الشيخ عنى، فطلبت مستقرا أستقر فيه فلم أجده، فنزلت ووقفت، ونظرت إلى الشيخ فإذا هو مستغرق فى غيبته، ثم بعد لحظة حضر.

فقال السائل: لما أسرى بالنبى ﷺ - صحبة جبريل - عليه السلام - فانتهى معه جبريل إلى حده ووقف، وقال: يا محمد ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[1]، منذ خلقت ما تعديت من ههنا. فتقدم النبى ﷺ إلى مقامه الذى اتصل به، فكان جبريل - عليه السلام - روحا، وكان محمد عقلا.

قال اليافعى رضى الله عنه: أخذوا العلم من معدنه، ولم يأخذوه من تقليد ولا معقول، وذلك عادة شيوخ هذه الطائفة أرباب المعارف الإلهية.

قلت: هذا تحقيق لكلام البلقينى، ويشهد لذلك قول بعض العارفين بالله:

ما من شىء أخبر عنه الكاتب والسنة من الغيب إلا شهدته.

ولما صنف الحافظ أبو الفضل عبد الرحيم العراقى كتابا سماه "الباعث على الخلاص من حوادث القصاص". موضوعه الإنكار على الصوفية فيما يقولونه حال قصهم من أمور غير منقولة ولا تعلموها من أحد.

فانتدب للرد عليه أستاذ الأستاذين قطب العارفين سيدى على بن وفا الشاذلى فى مصنف سماه "الباعث على الخلاص من سوء الظن بالخواص"، قاله فيه ما نصه:

أما من تكلم فى الكتاب والسنة بما استنبط منهما أو فهمه من الأحكام.

---

(١) سورة الصافات - آية ١٦٤.

أو الحكم التى لا تخرق إجماع من يعتد بإجماعه، فهذا لا سبيل إلى تخطئته بتكلمة بذلك سواء تكلم بما سبق به أو لم يسبق، وهل هذا إلا شأن المجتهدين بما جعل الله فى قلوبهم من نور هدايتهم وإرشادهم، فحاشاهم بذلك عن الحكم بخطأهم، كيف.

وفهمهم ذلك مضاف لجود الله - تعالى - وتخصيص نبيه ﷺ - كما قال على - رضى الله عنه - وقد سئل: هل خصكم نبيكم دون الناس بشىء؟ قال: لا. ثم قال: إلا أن يؤتى الله عبدا فهما فى كتابه.

هذا من جملة كلام قطب الدائرة فى الرد على العراقى. والله أعلم.

* * *

دليل أوليته ﷺ ونبوته حينئذ:

فصل:

إذا تقرر ذلك فاعلم أن الروح العلية المحمدية هى روح الأرواح، وهى الأصل المبتدأ به فى أول الأمر، والفعل الصادر عن الحق، وآدم كالخبر والمصدر والمفعول المطلق الفرع عن الفعل بالنسبة إلى الاشتقاق الصورى الجثمانى.

قال سلطان أهل المحبة شرف الدين ابن الفارض قدس الله روحه.

فذا مظهر للروح هاد لأفقها شهودا بدا فى صورة معنوية

وذا مظهر للنفس حاد لرفقها شهودا غدا فى صيغة صورية

ومن عرف الأمثال مثلى لم يشبه شيء من الاتكال أشكال ريبة

المعنى: إن مثل محمد ﷺ فى السبق الأول كمثل آدم -عليه السلام-، فالمظهر الأول أب فى المعنى للمظهر الثانى الأب فى الصورة مع فرعه، كما عبر فى الثانية عن ذلك الحال على لسان وارد الروح النبوية.

وهو المسمى عند القوم بالمدح المستور؛ لكونه مستورا بضمير المتكلم، وهو اصطلاح أهل الحقيقة مدح الرسول ﷺ لا يفهمه إلا علماء الحقائق العارفون بمصطلح القوم، فقال - رضى الله عنه -.

وكلهم عن سبق معناى دائر بدائرتى أو وارد من شريعتى

وإنى وإن كنت ابن آدم صورة فلى فيه معنى شاهد بأبوتى

لأنه ﷺ أول شمس بزغت وأشرقت من عين علم القدم بظاهر وجود حضرة الشهود من باطن غيوب كرة القدم.

وأخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره، وأبو نعيم فى الدلائل من طرق، عن قتادة عن الحسن عـن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾[1] قال:

«كنت أول النبيين فى الخلق، وآخرهم فى البعث».

فبدأ به قبلهم.

وأخرج أبو سهل القطان فى جزء أماليه عن سهل بن صالح الهمذانى قال: سألت أبا جعفر محمد بن على: كيف صار محمد ﷺ يتقدم الأنبياء وهو آخر من بعث؟

قال: إن الله لما أخذ من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟، كان محمد ﷺ أول من قال: "بلى" ولذلك صار يتقدم الأنبياء، وهو آخر من بعث.

وأخرج الإمام أحمد والبخارى فى تاريخه والطبرانى والبيهقى وأبو نعيم عن ميسرة قال: قلت: يا رسول الله، متى كنت نبيا؟ قال: وآدم بين الروح والجسد'. وأخرج الإمام أحمد والحاكم والبيهقى عن العرياض بن سارية قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"إنى عند الله فى أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل فى طينته.

وأخرج الحاكم والبيهقى وأبو نعيم عن أبى هريرة رضى الله عنه:

قيل للنبى ﷺ: 'متى وجبت لك النبوة؟ قال: بين خلق آدم ونفخ الروح فيه'.

---

(١) سورة الاحزاب - آية ٧.

وأخرج البـزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم من طريق الشـعبى عن ابن عباس قال: قيل: يا رسـول الله: متى كنت نبيا؟ قال: "وآدم بين الروح والجسـد" وأخرج أبو نعيم عن الصالحى قال: قال عمر: متى جعلت نبيا؟ قال وآدم منجدل فى الطين". مرسل.

وأخرج ابن سعد عن أبى الجـدها قال: قلت: يا رسول الله: متى كنت نبيا؟ قال: إذ آدم بين الروح والجسد".

وأخرج ابن سعـد عن عامر قال: قال رجل النبى ﷺ: مـتى استنبئت؟ قال: وآدم بين الروح والجسد حين أخذ منى الميثاق".

فإذا تقرر ذلك علمت أنه ﷺ هو أول فجر طلع من ظلمة العدم، وأول برق لمع من سر أسرار القـدم، وعلمت أنه الإمام الأعظم المقدم، والمصلى فى محراب الحقيقة، التالى وحده على لسان جميع الخليقة.

فإذا ثبت ذلك تحـققت أن ماء طوفـان نوح ونار الخليل وحزن يعـقوب وصبر أيوب ومـعجزات الأنبيـاء وكرامات الأولياء وغـير ذلك مما دخل تحت عبارة أو إشارة: "ما هو" إلا كـذرة من ذراته لأنه الأنبياء - عليهم السلام - قطرات بلل من قطراته، وما تخرج من ثمرة كلمة من أكمامها، وما تحمل من أنثى خطرة أو فكرة فى أرحـام أفهـامها ولا تضع واضـعة نطق بحكمـة الله وحكمـه إلا وهى داخلة تحت دائرة سـره، وعلمه؛ ولهـذا قـال سلطان أهل المحبة ابن الفارض على لسان وارد الروح النبوية.

وحـزنى ما يعقـوب بـث أقله وكل بلى أيـوب بعض بليتى

فطوفان نوح عند نواحى كأدمعى وإيـقاد نيران الخليل كلوعتى

فنوح نوح جـزء من نوح روح الأرواح العليـة النبوية الـفريدة بالسـبق

المعنوى وهي النسخة الأولية المحمدية، وكل شيء سواها بمنزلة الضوء لها والجزء منها والولد الناشئ عنها منسوب إليها.

قال شيخ الإسلام تقي الدين السبكي في كتاب "التعظيم والمنة في لتؤمنن به ولتنصرته" : في هذه الآية من التنويه بالنبي ﷺ وتعظيم قدره العلى ما لا يخفى، وفيه مع ذلك أنه على تقدير مجيئه في زمانهم يكون مرسلا، فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة، وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته.

ويكون قوله: «بعثت إلى الناس كافة»(١) لا يختص به الناس من زمانه إلى يوم القيامة، بل يتناول من قبلهم أيضا، ويتبين بذلك معنى قوله ﷺ: «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد»، وأن من فسره بعلم الله بأنه سيصيره نبيا لم يصل إلى هذا المعنى؛ لأن علم الله محيط بجميع الأشياء، ووصف النبي ﷺ بالنبوة في ذلك الوقت ينبغي أن يفهم منه أنه أمر ثابت له في ذلك الوقت.

ولهذا أرى آدم اسمه مكتوبا على العرش "محمد رسول الله" ، فلا بد أن يكون لذلك معنى في ذلك الوقت، ولو كان المراد بذلك مجرد العلم بما سيصير في المستقبل لم يكن خصوصية بأنه نبي وآدم بين الروح والجسد؛ لأن جميع الأنبياء يعلم الله نبوتهم في ذلك وقبله، فلا بد من خصوصية للنبي ﷺ لأجلها أخبر بهذا الخبر إعلاما لأمته؛ ليعرفوا قدره عند الله فيحصل لهم الخبر بذلك.

تقرير بديع للسبكي: شبهة وجواب:

قال السبكي: فإن قلت: أريد أن أفهم ذلك القدر الزائد، فإن النبوة وصف لا بد أن يكون الموصوف به موجودا، وإنما يكون بعد بلوغ أربعين سنة

(١) رواه البخاري.

أيضا . . فكيف يوصف به قبل وجوده وقبل إرساله، وإن صح ذلك فغيره كذلك؟

قلت: قد جاء أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، فقد تكون الإشارة بقوله: "كنت نبيا" إلى روحه الشريفة أو إلى حقيقته، والحقائق تقصر عقولنا عن معرفتها، وإنما يعلمها خالقها، ومن أمده بنور إلهى، ثم إن تلك الحقائق يؤتى الله كل حقيقة منها ما يشاء فى الوقت الذى يشاء.

فحقيقة النبى ﷺ قد تكون من قبل خلق آدم أتاها الله ذلك الوصف بأن يكون خلقها متهيئة لذلك، وإفاضته عليها من ذلك الوقت فصار نبيا، وكتب اسمه على العرش، وأخبر عنه بالرسالة لتعلم ملائكته وغيرهم كرامته عندهم.

فحقيقته موجودة من ذلك الوقت، وإن تأخر جسده الشريف المتصف بها، واتصاف حقيقته بالأوصاف الشريفة المفاضة عليه من الحضرة الإلهية، وإنما يتأخر البعث والتبليغ، وكل ما له من جهة الله، ومن جهة تأهل ذاته الشريفة وحقيقته معجل لا تأخر فيها، وكذلك استنباؤه وإيتاؤه الكتاب والحكم والنبوة، وإنما المتأخر تكونه وتنقله إلى أن ظهر ﷺ وغيره من أهل الكرامة.

قد تكون تلك الكرامة عليه بعد وجوده عنده كما يشاء سبحانه وتعالى، ولا شك أن كل ما يقع فالله عالم به من الأزل، ونحن نعلم علمه بذلك بالأدلة العقلية والشرعية، ويعلم الناس منها ما يصل إليهم عند ظهوره كعلمهم بنبوة النبى ﷺ حين نزل عليه القرآن فى أول ما جاءه جبريل وهو فعل من أفعاله من جملة معلوماته من آثار قدرته وإرادته واختياره فى محل خاص يتصف بها.

فهاتان مرتبتان: الأولى معلومة بالبرهان، والثانية ظاهرة للعيان، وبين المرتبتين وسائط من أفعاله تعالى تحدث على حسب اختياره منها ما يظهر لهم

بعد ذلـك، ومنها ما يحـصل به كمـال لذلك المحل وإن لم يظهـر لأحد من المخلوقين.

وذلك ينقسـم إلى كـمال يقارن ذلك المحل من حين خلقـه، وإلى كمال يحصل له بعد ذلك، ولا يصل علم ذلك إلينا إلا بالخبر الصادق، والنبى ﷺ خير الخلق، فلا كمال لمخلوق أعظم مـن كماله، ولا محل أشرف من محله، فعرفنا بالخـبر الصحيح حصول ذلك الكمـال من قبل خلق آدم لنبينا ﷺ من ربه سبحانه.

لطائف فى قوله تعالى: "لتؤمنن به":

وأنه أعطاه النبـوة من ذلك الوقت، ثم أخـذ له المواثيق علـى الأنبـياء ليعلمـوا أنه المقدم عليهم، وأنه نبـيهم ورسولهم، وفى أخذ المواثيق لطيـفة، وهى فى مـعنى الاسـتخـلاف؛ ولذلك دخلت لام القـسم فى: (لتـؤمنن به ولتنصرنه).

لطيفة أخرى، وهى كأنها أيمان البيعة التى تؤخذ للخلفاء، ولعل أيمان الخلفـاء أخذت من هنا، فـانظر هذا التـعظيم العظيم للنبى من ربه سـبحـانه وتعالى.

فـإذا عرف ذلك، فـالنبى ﷺ هو نبى الأنبـيـاء؛ ولهذا ظهـر ذلك فى الآخرة جميع الأنبيـاء تحت لوائه، وفى الدنيا كذلك ليلة الإسراء صلى بهم، ولو اتفق مجيئه فى زمن آدم ونوح وإبراهـيم وموسى وعيـسى، وجب عليه وعلى أممهم الإيمان به ونصرته.

وبذلك أخـذ الله الميثاق عـليهم، فنبـوته عليهم ورسـالته إليهم مـعنى حاصل له، وإنما أمره يتوقف عـلى اجتماعهم معه، فـتأخره ذلك لأمر راجع إلى وجودهم لا إلى عـدم اتصافه بما يقتـضيه، وفـرق بين توقف الفعل على قبول المحل وتوقفه على أهلية الفاعل.

فهنا لا توقف من جهة الفاعل، ولا من جهة ذات النبى ﷺ الشريفة، وإنما من جهة وجود العصر المشتمل عليه، فلو وجد فى عصرهم لزمنهم اتباعه بلا شك.

ولهذا يأتى عيسى فى آخر الزمان على شريعته، وهو نبى كريم على حاله، لا كما يظن بعض الناس أنه يأتى واحدا من هذه الأمة. نعم هو واحد من هذه الأمة لما قلنا من اتباعه للنبى ﷺ، وإنما يحكم بشريعة نبينا محمد ﷺ بالقرآن والسنة، وكل ما فيها من أمر أو نهى، فهو متعلق به كما يتعلق بسائر الأمة، وهو نبى كريم على حاله لم ينقص منه شىء، وكذلك لو بعث النبى ﷺ فى زمانه أو فى زمان موسى وإبراهيم ونوح وآدم كانوا مستمرين على نبوتهم ورسالتهم إلى أممهم.

والنبى ﷺ نبىّ عليهم، ورسول إلى جميعهم، فنبوته ورسالته أعم وأشمل وأعظم ومتفق مع شرائعهم فى الأمور؛ لأنها لا تختلف، وتقدم شريعته ﷺ فيما عساه يقع الاختلاف فيه من الفروع إما على سبيل التخصيص، وإما على سبيل النسخ، أولا نسخ ولا تخصيص.

بل تكون شريعة النبى ﷺ فى تلك الأوقات بالنسبة إلى أولئك الأمم ما جاءت به أنبياؤهم، وفى هذا الوقت بالنسبة إلى هذه الأمة هذه الشريعة والأحكام تختلف باختلاف الأشخاص والأوقات.

وبهذا بان لنا معنى حديثين كانا خفيين عنا: أحدهما: قوله ﷺ: «بعثت إلى الناس كافة»[1]. كنا نظن أن من زمانه إلى يوم القيامة، فبان أنه جميع الناس أولهم وآخرهم.

والثانى: قوله ﷺ: «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد» كنا نظن أنه بالعلم، فبان أنه زائد على ذلك ما شرحناه".

---

(١) سبق تخريجه.

وإنما يفترق الحال بين ما بعد وجود جسده ﷺ وبلوغه الأربعين، وما قبل ذلك بالنسبة إلى المبعوث إليهم وتأهلهم لسماع كلامه، لا بالنسبة إليه ولا إليهم لو تأهلوا قبل ذلك.

وتعليق الأحكام على الشروط قد يكون بحسب المحل القابل، وقد يكون بحسب الفاعل المتصرف، فهنا التعليق إنما هو بحسب المحل القابل وهو المبعوث إليهم وقبولهم سماع الخطاب والجسد الشريف الذى يخطبهم بلسانه، وهذا كما يوكل الأبُ رجلا فى تزويج ابنته إذا وجدت كفؤا.

فالتوكيل صحيح، وذلك الرجل أهل للوكالة، ووكالته ثابتة، وقد يحصل التصرف على وجود كفء، ولا يوجد إلا بعد مدة، وذلك لا يقدح فى صحة الوكالة وأهلية التوكيل. انتهى كلام السبكى بحروفه، وهو تقرير بديع لم يسبق إليه، والله أعلم.

فصل:

فى شكل الأرواح:

وهو المعروف عند الصوفية بـ "عالم المثال" قال الله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾(١).

اعلم أن الولى إذا بلغ درجة التبدل أعطى قوة التشكل والتطور على اختلاف الصور، وهذا أيضا مستمد من المقام النبوى؟ لاجتماع النبى ﷺ ليلة الإسراء على أرواح الأنبياء متشكلة، وهو الصحيح عند الجمهور.

وما كان معجزة لنبى جاز أن يكون كرامة لولى بشرط عدم التحدى.

قال الإمام العلامة علاء الذين الفونوى شارح الحاوى فى كتابه "الإعلام

---

(١) سورة مريم - آية ١٧.

بإلمام الارواح بعد الموت محل الأجسام" بعد أن ذكر فيه حديث صلاة موسى في قبره مع رؤيته ﷺ له في السماء السادسة، وتكرر مراجعته له في أمر الصلاة:

وهذان يحتاجان إلى التوفيق بينهما، فيجوز أن يقال: لا ينبغي أن يظن انقطاع التفاتهم إلى قبورهم بالكلية ولا ارتفاع التعلق بينها وبينهم بدليل استحباب زيارتها في عامة الأوقاف؛ وما ذلك إلا لأن بينها وبينهم علاقة مستمرة غير منقطعة، فلها بهم اختصاص خاص، والله أعلم بكيفية ذلك الاختصاص.

وكذلك قبور سائر المؤمنين بينها وبين أرواحهم نسبة خاصة مستمرة فيعرفون بها من يزور قبورهم، ويردون السلام على من يسلم عليهم، يدل عليه قوله ﷺ: "ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا إلا عرفه ورد عليه السلام[1]".

وقد يستدل أيضا باستحباب السلام عند دخول المقابر بأن يقول الداخل: "سلام عليكم دار قوم مؤمنين" كما ورد به الحديث[2] على شعورهم بالإسلام، وأن أصحاب القبور بينا وبينهم اختصاص خاص لا يوجد في غيرها.

وقد أخبرني الشيخ فخر الدين غضنفر التبريزي: أنه لما توفي شيخه تاج الدين التبريزي كانت تشكل عليه مسائل فيطيل الفكر فيها ويبذل المجهود في حلها، فلا ينحل له شيء منها، قال: فكنت آتي قبر شيخي تاج الدين، وأتوجه إليه وأجلس عنده، كما كنت أجلس في حياته بين يديه، وأفكر في تلك المسائل، فتنحل لي حينئذ ولا تنحل في غير ذلك المكان.

قال: وقد جربت ذلك غير مرة.

---

(١) رواه الخطيب في تاريخه.

(٢) رواه مسلم.

وقد أجاز الفقهاء: استئجار من يقرأ القرآن عند القبر. وقالوا: إن صاحبه ينتفع بالقراءة عنده، وقد يشعر كلام بعضهم أن ذلك الانتفاع هو أن يحصل له أجر المستمع لقراءة القرآن، وأما أجر نفس القراءة فإنه مقصور على القارئ ولا يتعداه، وحديث قتلى بدر ومخاطبة النبى ﷺ بقوله:

﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا...﴾[1] إلى آخر الحديث المشهور، وكل ذلك مما يدل على أن الأموات يسمعون.

وقد تبين فى علم الكلام أن السمع من الأعراض المشروطة للحياة، فهم أحياء إلا أن حياتهم دون حياة الشهداء؛ لأنهم[2] احياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، فحياتهم أعلى وأشرف وأكمل من حياة غيرهم من الأموات.

وحياة الأنبياء - صلوات الله عليهم - أتم وأكمل من حياة الشهداء وإثبات حياة أخرى مغايرة لهذه الحياة المعهودة التى لا بد لصاحبها فى مطرد العادة البشرية من التعدى ولوازمه، وغير ذلك ليس محل نزاع.

ومن الجائز أن يقال: أرواح الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بعد المفارقة بمنزلة الملائكة وأفضل منهم، وكما أن الملك يتشكل فى صور مختلفة يجوز أن تكون أرواحهم كذلك: وقد كان جبريل - عليه الصلاة والسلام - يتمثل للنبى ﷺ فى صورة دحية الكلبى، وتمثل لمريم بشرا سويا.

وفى الممكن أن يخص الله تعالى بعض عباده فى حال الحياة أيضا بخاصة لنفسه الملكية القدسية وقوة لها تقدر بها على التصوف فى بدن آخر غير بدنها المعهود استمرار تصرفها فى الأول.

---

(١) سورة الأعراف - آية ٤٤.

(٢) أى الشهداء.

وقد قيل فى الأبدال: إنهم إنما سموا أبدالا؛ لأنهم قد يرحلون إلى مكان ويقيمون فى مكانهم الأول شيخا آخر شبيها بشبحهم الأصل بدلا عنه، هذا أحد ما قيل فى تسميتهم أبدالا.

وإذا جاز فى الجن أن يتشكلوا فى صور مختلفة، فالأنبياء والأولياء والملائكة - عليهم السلام - أولى بذلك.

عالم المثال:

وقد أثبتت الصوفية عالما متوسطا بين الأجساد والأرواح سموه عالم المثال، وقالوا: هم الطف من عالم الأجساد، وأكثف من عالم الأرواح، وبنوا على ذلك تجسد الأرواح وظهورها فى صور مختلفة من عالم المثال، وقد يستأنس بقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[1]، فتكون الروح الواحدة كروح جبريل مثلا فى وقت واحد مدبرة لشبحه الأصلى، ولهذا الشبح المثالى.

وينجلى بهذا ما قد اشتهر نقله عن بعض الأئمة أنه سأل بعض الأكابر عن جسم جبريل - عليه الصلاة والسلام - فقال: أين كان يذهب جسمه الأول الذى سد الأفق بأجنحته لما تراءى للنبى ﷺ فى صورته الأصلية عند إتيانه إليه فى صورة دحية؟

وقد تكلف بعضهم الجواب عنه بأنه يجوز أن يقال: كان يندمج بعضه فى بعض إلى أن يصغر حجمه، فيصير بقدر صورة دحية، ثم يعود ينبسط إلى أن يصير كهيئته الأولى بناء على جواز التحلل والتكاثف فى الأجساد.

وما ذكره الصوفية أحسن وهو أن يكون جسمه الأول بحاله لم يتغير، وقد أقام الله تعالى له شيخا آخر وروحه تتصرف فيهما جميعا فى وقت واحد

---

(١) سورة مريم - آية ١٧.

وكذلك الأنبيـاء - عليهم الصلاة والسلام - ولا بعـد فى ذلك؛ لأنه إذا جاز إحياء الموتى لهم بإذن الله - تعالى -، وقلب العصا ثعبانا، أو أن يقدرهم الله تعالى على خلاف المعتاد فى قطع المسافة البعيدة كما بين السماء والأرض فى لحظة واحدة، إلى غير ذلك من الخوارق . .

فلا يمتنع أن يخصهم بالتصرف فى بدنين، أو أكثر من ذلك، فيجوز أن يكون موسى - على نبينا وعليه السلام - مع كونه فى السماء السادسة تمثل بشبح آخر مثالى فى قبره.

فرآه النبى ﷺ ليلة أسرى به على ذلك المثال يصلى فى قبره، ثم رآه بعد ذلك أو قبل ذلك فى السماء السادسة، فتعين حمل صلاته فى القبر على أنها صلاة مثالية عن شبح مثالى.

وبهذا يظهر وجه حج الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وتلبيتهم بعد موتهم. قال الصوفية: وعلى هذا الأصل تخرج مسائل كثيرة، وتنحل به إشكالات غير يسيرة كقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾(١).

وهى فوق السماوات، سقفها عرش الرحمن، كيف أريها النبى ﷺ فى عرض الحائط حتى تقدم إليها فى صلاته ليقتطف منها عنقودا على ما ورد به الحديث.

وجوابه: أنه بطريق التمثيل إلى غير ذلك من الصور.

(يحكى) عن قضيب البان الموصلى، وكان من الأبدال: أنه اتهمه بعض من لم يره يصلى بترك الصلاة، وشدد النكير عليه فى ذلك، فتمثل له على الفور فى صور مختلفة، وقال: فى أى هذه الصور رأيتنى ما أصلى(٢).

---

(١) سورة آل عمران - آية ١٣٣.

(٢) هذه حكايات ليس لها دليل ولا يجوز إسقاط التكاليف عن أحد، وقد سبق أن علقنا على شطحات لابن قضيب البان فى كتاب (أخبار الأولياء) المسمى رسالة صفى الدين=

ولهم حكايات كثيرة مبنية على هذه القاعدة، وهى من أمهات القواعد عندهم.

والله أعلم.

هذا كله كلام القونوى سقته بحروفه، وهو أجل من يعتمد عليه فى ذلك، فإنه علم من أعلام الشافعية، إمام فى الفقه والكلام والمعقول، ليس ممن تلتبس عليه الحالات بالممكنات.

وقد قرر هذه القاعدة وارتضاها واستحسنها، وخرج عليها الأحاديث، واستنبط لها أصلا من القرآن الكريم، وصرح كما قرئ فى كلامه بأنها من الجائز والممكن ومما لا يعد فيه، فما بقى بعد هذا إلا محض العناد.

وقال الإمام اليافعى فى كتابه (روض الرياحين):

ومنهم قوم يصلون بين الناس ولا يرون فى الصلاة يحتجبون عن الناس بأحوالهم، ولهم أطوار وراء العقل لا تدرك بالعقول، وإنما تدرك بالنور ويعرفها العارفون. وقد سمعت من بعض أهل العلم الظاهر أن بعض الفقهاء كان ينكر على بعضهم ببعض الأشياء المعقولات فقال له: يا فقيه، إن هناك أشياء وراء العقل. أنظرا أين ترانى الآن؟! فنظر إليه فإذا هو فى الهواء، وإذا هو فى مكانه ايضا.

ولهذا قال سلطان أهل المحبة ابن الفارض - رضى الله عنه - ونفعنى به فى الدنيا والآخرة:

=ابن ظافر ص٣٢ حيث ادعى انه راى الله جهرة وامور غيبية كثيرة بينا عدم صحتها وأنه لا دليل عليها.

راجع أخبار الأولياء بتحقيقنا ص٣٢ وما بعدها ط. مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة ٢٠٠٨.

ولا تك ممن طيشته دروسه بحيث استقلت عقله فاستقرت

فثم وراء العقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة

أى: ثم أمور معلومة عند العارفين بالله لا تدرك بالعقول السليمة لكونها وراء العقل بل إنما تدرك بالأنوار الصمدية التى خص الله بها أولياءه دون غيرهم.

ولما دخل الإمام العلامة كمال الدين بن الهمام مكة المشرفة اجتمع بالشيخ عبد الكريم الحضرمى اليمنى، وسأله أن يجمعه على القطب، فوعده لوقت معين، فلما جاء الوقت قال له - فى الحرم بإزاء المطاف - ارفع رأسك.

فرفع رأسه، فوجد شيخا جالسا على كرسى بين السماء والأرض، فتأمله فإذا هو الشيخ أبو العباس الحنفى السرسى.

فعند ذلك حصل له دهش عظيم، واستمر يقول فى دهشته بأعلى صوته:

هذا صاحبنا ولم نعرف مقامه، فحجب عنه فى الحال.

وهذا أيضا من عالم المثال، ثم لما رجع الشيخ كمال الدين إلى الديار المصرية، فبادر بالسلام على الشيخ أبى العباس، فلما اجتمع به قبل قدميه، والشيخ يقول: يا شيخ كمال الدين، تكتم ما رأيته من أحوالنا.

وهذا السيد عبد القادر الكيلانى كان قطبا ببغداد، ومثاله بمكة.

هذا شأن القطب فى كل عصر يكون جسده فى بلده ومثاله بمكة؛ لأن التشكل واقع للأبدال فضلا عن الأقطاب.

فإن قلت: هل المثال الكائن للولى أو غيره من الأنبياء والملائكة عينه، وإلا غيره؟

قلت: هو عينه بلا شك، ولهذا حكم على مثال جبريل الكائن فى صورة دحية بأنه جبريل، فكان ﷺ يقول: جاءنى جبريل، وأخبرنى جبريل، ونزل على جبيل، وفى بعض الأحاديث: ذاك جبريل أتانى فى صورة دحية[1].

وفى حديث الإسلام والإيمان «ذلك جبريل أتاكم يعلكم دينكم»[2].

وفى بعض طرقه: «ما أتانى فى صورة إلا عرفته، إلا هذه المرة».

وفى حديث بدء الوحى: «وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى، فأعى ما يقول»[3].

فهذا كله حكم على الشيخ المثالى بأنه عين جبريل لا غيره.

وهذه الأحاديث صريحة فى الاستدلال على قول سلطان أهل المحبة شرف الدين ابن الفارض رضى الله عنه.

وها دحية وا فى الأمين نبينا ... بصورته فى بدء وحى النبوة

أجبريل قال لى كان دحية إذ بدء ... لمهدى الهدى فى صورة بشرية

وفى علمه من حاضريه مزية ... بماهية المرئى من غير مرية

يرى ملكا يوحى إليه وغيره ... يرى رجلا يدعى لديه بصحبة

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه الترمذى.

(٣) رواه البخارى.

قال الشيخ عبد الغفار القوصى فى كتاب "التوحيد فى علم التوحيد" :

وكثيرا ما تتشكل المعانى، فأخبرنى فقير عمن كانت به سعلة[1] فسأل الله أن يريه تلك السعلة، قال: فكنت أراها مثل الجرادة تأتى إلى وتغوص بين كتفى، وأنا أنظر إليها حتى تنتهى إلى الرئة فأسعل عند ذلك، فإذا خرجت أنظر إليها حتى تخرج وتطير، فيسكن عنى السعال.

قال: وأخبرنى الشيخ عبد العزيز عن قبره، لما كان الغلاء كنت لا أشبع فسألت الله تعالى الكشف عن ذلك، فرأيت فى معدتى شيئا كالسرطان، فلما نزلت لقمة فتح فاه والتقمها، وأنا أنظر إليه.

قال: وأخبرنى فقير أنه كان يرى النون عندما ما يأتيه كأنه سحاب أو دخان فعندما يأتيه يغشاه المنام.

قال: وأعرف فقيرا شهد الرحمة تنزل على قوم يذكرون الله، وهى كبياض القطن منتشرة، وفى اللطافة ألطف منه.

قال: وجنود الله المعنوية لا تدخل تحت العبارة، ولا يشهد صورها إلا المحققون، وسالكو طريق الله بحسب ما أعطاهم من ذلك.

قال: وكل ما يقع لأولياء الله مما هو خرق عادة هنا، فإنه عادة فى عالم البرزخ وعالم الآخرة، فلما كان للأولياء نصيب محقق من تلك الدار ظهرت عليهم آثارها فى هذه الدار، وإن كان هنا خرق للعوائد فهو فى تلك الدار عادة لهم فى جميع أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم؛ لأن خرق العادة من أحوال أهل الجنة لأنها عادتهم فى مآكلهم، ومشاربهم، ومناكحهم، وشهواتهم.

حتى إن الشخص يخطر له الخطرة فى الشهوات، فحين يخطر لى ذلك يجده عنده من غير كلفة.

---

(١) سعلة: مثل كحة أو شىء قريب من هذا.

وكذلك سمعهم وبصرهم، إذ يشهد كل واحد منهم جميع المستحسنات على اختلاف أنواعها وأجسادها بحسب ما أعطاه الله من الرتبة فى تلك الدار وكذلك الشم كل ما انتشق برائحته، ورد عليه رائحة أطيب منها، فالأولى باقية، والثانية واردة، والثانية باقية والثالثة واردة، وهكذا إلى ما لا نهاية له.

وكذلك لذة السماع كلما تنعم بسماع صوت، ورد عليه ما هو أطيب منه، واللذة الأولى باقية.

وكذلك لذة النكاح وجميع الحواس الظاهرة والباطنة وكذلك أحوال أهل النار كلما تألم واحد من عذاب، ورد عليه ما هو أشد منه، والأول باق.

قال: وأهل هذا الشأن قوم اختصهم الله لما يريد، وصرفهم فيما يريد، وأطلعهم على ما يشاء من حكمته فى ملكه وملكوته، وجعلهم لهذه المملكة الظاهرة كالروح للجسد، فالملوك والحكام يتصرفون فى الظاهر كتصرف الجسد على الروح، وأرباب الأمر من الغوث والقطب والأقطاب والأوتاد والأبدال لهم التصرف الباطن عن شهود الحكمة وتخصيص الإرادة وقيام الحكم وفى وقائع الوجود التى لا تدخل تحت القياس، ولا يدركها العقل والحواس.

فمنها: أن الخليفة والإمام فى الظاهر فى كل زمان إذا بُويع له، ولم يكن فيه شروط ذلك مد صحب الوقت يده للمبايعة حتى تنعقد البيعة بالصحة، ويبقى ظاهر الحكم بالشوكة، وهذا وأمثاله تعرفه أهل هذه الطريقة.

بعض من خوارق العادات:

وقال اليافعى فى "كفاية المعتقد ونكاية المنتقد".

إنما سمى الأبدال أبدالا؛ لأنهم إذا غابوا تبدل فى مكانهم صور روحانية تخلفهم قال: وينبنى على ذلك ما حكى عن الشيخ مفرج الدماميلى أنه رآه

بعض أصحابه يوم عرفة بعرفة، ورآه آخر فى مكانه من زاويته بدمامل لم يفارق فى جميع ذلك اليوم.

فلما رجع الحاج ذكر كل واحد منهما لصاحبه وتنازعا فى ذلك، وحلف كل بالطلاق، فاختصما إليه، فأقرهما، وأبقى كلا منهما على الزوجية.

قال الشيخ الجليل الشهير صفى الدين بن أبى المنصور - رحمة الله عليه -: فسألت الشيخ مفرج المذكور - رضى الله عنه - عن حكمه فى هذه القضية بعدم حنث الاثنين، مع كون صدق أحدهما يوجب حنث الآخر.

وكان معنا فى وقت سؤالى له رجال معتبرون لهم معرفة بالعلم. فقال لنا الشيخ قولوا: يعنى تكلموا فى هذه المسألة.

وكان ذلك إذنا لنا منه بأن نتكلم فى شرح هذه المسألة، والحكم فيها فتحدث كل منهم بوجه غير كاف، وكانت المسألة قد اتضحت لى.

وأشار الشيخ إلى بإيضاحها. فقلت: الولى إذا تحقق فى ولايته مكن من التصور فى صور عديدة، وتظهر على روحانيته فى وقت واحد فى جهات متعددة، فهو يعطى التطور فى الأطوار والتلبس فى الصور على حكم إرادته.

فالصورة التى ظهرت لمن رآها بعرفة حق، والصورة التى رآها الآخر فى مكانه فى ذلك الوقت حق، وكل منهما صادق فى يمينه.

فقال الشيخ ما مر بى هذا هو الصحيح يشير إلى صحة ما أوضحته فى صورة ما حكم بين المتنازعين قلت ووقعت هذه المسألة أيضا بعينها فى زمن شيخ الإسلام شرف الدين البازرى فأفتى فيها بعدم الطلاق على كل منهما. ولقد أخبرنى شيخنا العلامة أحد أعيان الشافعية شمس الدين بن قاسم قد وقف على صورة ما أفتى به البازرى فى ذلك بعد أن وقعت أيضا فى زماننا وجهل الحل فيها بعض الأغبياء الجاهلين فإن قلت: خارقات العادة لا يعول عليها فى الشرع لما فى شرح المهذب فى حديث الصلاة على النجاشى.

وقول الحنفية إنه يحتمل أنه دفع إلى النبى ﷺ خرق العادة حتى صلى عليه قال النووى فى جواب ذلك لو أخذ بهذا لم يوثق بشىء من الأحكام فدل على أن خرق العادة لا يعول عليه فى الشرع قلت هذا جفاء محض فالله أكبر، ما بقى له من فهم يدرك به مقاصد العلماء.

فرحم الله شيخ شيوخنا العلامة أستاذ الوجود محيى الدين الكافحى كان إذا سمع من بعض من على رأسه عمامة ساء من هذه العبارات يقول لو أن لى حكما ربطته فى الساقية أو الطاحون.

أصل القضية: أن الشافعية جوزوا الصلاة على الغائب تمسكا بصلاته ﷺ على النجاشى وهو غائب.

والحنفية: يمنعون ذلك ويجيبون على الحديث باحتمال: أنه رفع إلى النبى ﷺ معجزة له حتى صلى عليه فكانت صلاته على حاضر لا على غائب.

فأجاب النووى عن ذلك بأن هذا الذى ذكروه احتمال لم يثبت نقله فى الآثار الواردة والمعجزات توقيفية لا يقال فيها بالإمكان العقلى ولو علمنا بكل أمر محتمل لم يوثق بشىء من الأحكام لأنه ما من حديث دل على حكم إلا ولا يخلو من احتمال ممكن فألقينا ذلك حتى يثبت فإذا ثبت النقل عمل به ولم يرد.

وإلا فسائر الخوارق الثابتة يعول عليها فى الشرع بإجماع المحققين لأن قول النووى، "لو أخذ بهذا لم يوثق بشىء من الأحكام" أى لو أخذ بهذا الاحتمال العقلى للزم الدور والتسلسل لأنه ما من احتمال عقلى إلا ويحتمل نقضه باحتمال آخر فعلى هذا لم تستقر الأحكام على شىء بطريق اللزوم.

فالإشارة حينئذ بهذا الاحتمال العقلى لا بخرق العادة فافهم وتدبر، ونظير مسألتنا هذه أن يحلف حالف بالطلاق[1] أن النبى ﷺ حصل له

(١) قد يكون معلوما أن الطلاق ليس بيمين حتى يحلف.

الخارق الفلانى وكان ذلك مما ورد به خبر ولو ضعيفا فإنه لا يقع عليه الطلاق قطعا. مثاله من حلف أن النبى ﷺ رفع إليه وهو فى غزوة تبوك معاوية الليثى ويقال المزنى حتى صلى عليه معجزة له للاعتماد على الحديث[1] الذى أخرجه ابن عبد البر فى الاستيعاب والبيهقى فى الدلائل وغيرهما.

فهل يقول قائل: بأن هذا الحالف يحنث إن قال نعم فقد غشها وكفر وإن قال لا قلنا: كيف عولت على الخارق ولم يحنث به وهل هذا إلا نظير من حلف أن الولى الفلانى حصلت له الكرامة الفلانية فلا سبيل إلى حنثه حيث كانت تلك الكرامة ممكنة عقلا وإن كانت خارقة للعادة ولو كانت من المحال من ينص عليها القونوى والبازرى وأضرابهما والله أعلم.

قال الإمام اليافعى فإن قلت لا سبيل إلى أن يسلم الفقيه ذلك ولا يسوغ فى عقله أبدا ولا يصح الحكم عنده بعدم حنث الإثنين أبدا إذ وجود شخص فى مكانين فى وقت واحد محال فى العقل.

فالجواب عن هذا هو ما أجاب الشيخ صفى الدين المذكور وليس ذلك محالا لأنه إثبات تعدد الصور الروحانية وليس ذلك بصورة واحدة حتى يلزم منه المحال.

قال اليافعى فإن قيل: فالأشكال باقى فى تعدد الصور فى شخص واحد فالجواب أن ذلك قد وقع وشوهد ولا يمكن جحده وأن يحير فيه العقل. من ذلك ما اشتهر عند كثير من الفقهاء وغيرهم أن الكعبة المعظمة شوهدت تطوف بجماعة من الأولياء فى أوقات فى غير مكانها ومعلوم أنها فى مكانها لم تفارقه فى تلك الأوقات فعلم من هذا أن من وراء العقل طورا آخر انتهى كلام اليافعى بحروفه.

فإن قلت هذا أمر لا يسعه عقلى ولا أسلم ذلك إلا بدليل شرعى قلت تدمغ رأسك دمغا بحديث صحيح لا تستطيع أن تكذب به ومتى كذبت به

---

(١) رواه البيهقى.

كـفرت. وهو مـا اخرجـه الإمـام أحمـد وابن أبى شيبـة والنسائى والبـزار والطبرانى وأبو نعيم بسـند صحيح عن ابن عباس قـال قال رسول الله ﷺ لما اسرى بى فأصبحت بمكة قطعت وعـرفت أن الناس مكذبىً فذكر الحديث إلى أن قال: قالوا وتستطيع أن تنعت المسجد وفى القوم من قد سافر إليه.

قال رسـول الله ﷺ فـذهبت أنعت فمـا زلت أنعت حتى التـبس على بعض النعت فجىء بالمسجد وأنا أنظر إليـه حتى وضع دون دار عقيل بن أبى طالب وأنا أنظر إليـه' فهذا حـديث صحـيح مصرح بنقل بـيت المقدس إلى المسجد الحرام فى تلك الساعة بنص رسول الله ﷺ.

ومـعلوم أن أهل بيت المقدس لم يفـقـدوه تلك الساعـة فى بلدهم ولو فقـدوه لنقل ذلك وشاع فعلم أنه نقل إلـى المسجد الحرام مـع بقائه فى مكانه فكذلك ما يدعى من الأولياء لأن معجزات الأنبياء كرامات الأولياء.

فإن قلت أرنى مـا ذكرت بصيرة بالنقـل عن جماعة من علمـاء المنقول والعقول فإن عقلى لا يقبل ذلك وقد لا يوافق أئمة المعقول على ذلك أو يظن بعض الناس أن هذا أمر خارق عن قوانين العقل قلت هذا الإمام العلامة علاء الدين القونوى شارح الحـاوى وكان أحد أئمة الدين فى المنقول وأحـد الجبال الراسـخين فى المعـقول نص على مـا ذكـرناه بعينه فـقال فى كـتابه "شرح التعرف" مـا نصه: من سافر من القوم عن موضع وترك جـسدا على صورته حتى لا يعرف أحد أنه فقد ذلك البدن" هذا لفظه بحروفه أفتظن بالقونوى أنه كان عاريا عن قواعد المعقول حتى قرر هذا المحال أو أقره.

وذكر مثـل هذا من أئمة العلم والتحقيق الإمام أبو الفضل محـمد بن إبراهيم التلمـسانى المالكى أحد مشـايخ كمـال الدين الشـمـسى فى كتـابه "مصابيح الرحمة ومفاتيح الحكمة".

وقال القاشانى فى كتابة الاصطلاحيات: البدلاء رجاء يسافر أحدهم إلى موضع ويترك فيـه جسدا على صورته بحيث لا يعرف أحـد أنه فقد فى ذلك

ومعنى البدن لا غـيره، فنرى هؤلاء الأئمة كلهم فسدت عقـولهم حتى قرروا الخرافات والمحـالات معاذ الله ثم معـاذ الله بل المنكر لذلك كل ذهنه ووقف فهمه.

قال اليافعى: ومما ورد مسندا بالأسانيد المتـعددة عن جماعة من الشيوخ أن الشيخ عبد القادر الكيلانى حضر فى مسجلسه أبو المعالى أحمد ابن محمد البغدادى المتأخر فأخذته حقنة شـديدة منعته من الحركة وبلغت منه الجهد فنظر إلى الشيخ عبد القادر نظر المستغيث فنزل الشيخ من الكرسى الذى يتكلم عليه مرقاه فظهر على تلك المرقاة رأس كرأس ابن آدم.

ثم نزل أخـرى فظهر كـتفـان وصدر وما زال يـنزل مرقـاة مرقاة حـتى تكملت صورة كصورته "تتكلم" على الناس بصـوت مثل صوته، وكلام مثل كلامه ولا يرى ذلك إلا هو، ومن شاء الله من الأولياء الحاضرين.

وحاشر الناس حتى وقف عليه وغطى أسـه بكمه (فإذا هو فى الصحراء ببقعة فيـها هر عنده شجرة، فعل مفاتيخ كانت فى كـمه) وأزال حقنته وتوضأ من ذلك النهر وصلى ركـعتين، فلما سلم الشـيخ زال الغطاء عنه فإذا هو فى المجلس، وأعضـاؤه مبلولة بالماء، والشيخ على الكرسي يـتكلم عليه لم ينزل منه وتفقد مفاتيحه فلم يجدها معه.

ثم بعد مدة خرجت قافلة من بـغداد إلى بلاد العجم وساروا من بغداد أربعة عشر يوما، فنزلوا منزلا فى برية فيـها صحراء، فذهب ذلك الرجل فيا ليزيل حقنته، فـقال: ما أشبه هذه الصحراء بتلك الصـحراء، وذكر شأنه فى ذلك اليوم، فإذا هو بذلك النهـر والشجرة، ويرى مفاتيحـه معلقة. وقال: يا أبا المعالى، لا تذكر هذا لأحد وأنا حى، فـلازم خدمته إلى أن مات - رضى الله عنه -.

وقال الشـيخ كمـال الدين الدميـرى شارح المنهاج فى "حـياة الحـيوان الكبـرى": وعن سهل بن عـبد الله التـسترى قال: توضـأت يوم جمـعة،

ومضيت إلى الجامع، وذلك فى أيام البداية، فوجدته قد امتلأ بالناس، وقد هم الخطيب أن يرقى المنبر، فأسأت الأدب ولم أزل أتخطى رقاب الناس حتى وصلت إلى الصف الأول، فجلست وإذا عن يمينى شاب حسن المنظر، طيب الرائحة، عليه نسمة التصوف، فلما نظر إلى قال: كيف حالك؟ قلت: بخير أصلحك الله.

وبقيت متفكرا فى معرفته لى، وأنا لم أعرفه.

فبينما أنا كذلك إذ أخذنى حرقان بول فأكربنى، فبقيت على وجل خوفا أن أتخطى رقاب الناس، وإن جلست لم تكن لى صلاة، فالتفت إلىّ وقال: يا سهل، أخذك حرقان بول؟ قلت: أجل، فنزع إحرامه عن منكبيه، فغشانى به. ثم قال: اقض حاجتك وأسرع لتلحق الصلاة.

قال: فغمى على، فلما فتحت عيناى، وإذا بباب مفتوح فسمعت قائلا يقول: لج الباب يرحمك الله، فإذا بقصر مشيد، عالى البنيان، شامخ الأركان، وإذا بنخلة قائمة وإلى جانبها مطهرة ومنشفة "معلقة وسواك فحللت لباس وأرقت الماء، ثم اغتسلت وتنشفت بالمنشفة"، فسمعته ينادى: يا سهل، إن كنت قضيت أربك، فقل: نعم.

فقلت: نعم. فنزع الإحرام عنى، فإذا أنا جالس ولم يشعر بى أحد، فبقيت مفكرا فى نفسى، وأنا مكذب نفسى فيما جرى، فقامت الصلاة، فصليت ولم يكن لى شغل إلا الفتى لأعرفه، فلما فرغ تبعت أثره، فإذا به قد دخل إلى درب، فالتفت إلى وقال: يا سهل، كأنك ما أيقنت بما رأيت؟ قلت: كلا. قال: فلج الباب يرحمك الله، فنظرت الباب فى الحال بعينه.

فولجت القصر، فنظرت النخلة والمطهرة والحال بعينه، فمسحت عينى وفتحتها فلم أجد الفتى ولا القصر.

قال الدميرى: وإنما ذكرت هذه الحكاية لأنها من جملة العجائب عند غير هذه الطائفة، ولا يكاد يؤمن بها كثير من الناس، ولها احتمالات منها:

أنه "يحتمل" أنه نقل من مكانه لما أغمى عليه إلى حيث ما شاء الله من غير شعور منه، ثم أعيد إلى مكانه لطفا من الله، وكرامة لأوليائه.

قاله شيخنا اليافعى رحمه الله، وقال اليافعى أيضا:

وروينا عن بعض الأكابر أنه قال: ما الشأن فى الطيران، إنما الشأن فى اثنين أحدهما بالمشرق، والآخر بالمغرب يشتاق كل واحد منهما إلى زيارة الآخر، فيجتمعان ويتحدثان ويعود كل واحد منهما فى مكانه لم يبرح عنه.

فإن قيل: من هم أهل هذا المقام الذى أشار به هذا القائل؟

قلت: هم الذين زوى لهم البحر، كما روى مسندا فى مناقب الشيخ عبد القادر الكيلانى "قدس الله سره" عن الشيخ محمد بن الأزهر - رحمه الله - قال: مكثت مدة أسأل الله تعالى أن يرينى أحدا من رجال الغيب، فرأيته فى المنام فاستيقظت من النوم ورجوت أن أراه فى اليقظة.

فأتيت قبر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فى وقتى، فرأيت الرجل الذى رأيته فى المنام بعين، فخرج قدامى، فتعجلت فى الزيارة وتبعته حتى وصل إلى دجلة، فالتقى له طرفاها حتى صارت بقدر خطوة، فعبرها إلى الجانب الآخر، فأقسمت عليه أن يقف ليكلمنى.

فوقف. فقلت له: ما مذهبك؟ فقال: حنيفا مسلما وما أنا من المشركين. فوقع عندى أنه حنفى المذهب وانصرف.

فقلت فى نفسى: آتى الشيخ عبد القادر وأذكر ما رأيت، فأتيت مدرسته ووقفت على بابه، فنادانى من داخل داره: يا محمد، ما فى الأرض من المشرق إلى المغرب ولى الله حنيفى سواه.

هذا آخر كلام اليافعى بحروفه.

قلت: وممن زوى له البحر أيضا من المتأخرين القطب الربانى سيدى على بن وفا الشاذلى، وذلك أنه لما وصل إلى روضة مصر، وقف على شاطئ

بحرها، فالتقى له الطرفان بحيث صار البحر قدر خطوة، فأمسك نفسه ولم يعبر إلى الجانب الآخر. فقال له بعض من كشف له عن ذلك من الأولياء الحاضرين: إن الله أكرمك بكرامة فلم لا تقبلها؟ فقال: قصدت أن أدخرها عند الله لوقت المرور على الصراط.

ومن الخوارق أيضا: ما حكاه الشيخ عبد الغفار القوصى فى كتاب "الوحيد" قال: أخبرنى الشيخ أبو الطاهر اسماعيل بن عبد المحسن أحد أصحاب الشيخ أبى يحيى، وقد صحبته سنينا كثيرة: أنه دخل مرة فى موضع يفصدنى الفاصد. قال: ووصلت إلى قلبك فوجدته قلبا صغيرا نورانيا.

فقيل لى: ما تريد؟ فقلت: أريد أعرف ما فيه؟ فقيل: لا سبيل إلى ذلك، ولكن انظر ما على جنبيه قال: فنظرت فوجدت مكتوبا عليه: ﴿﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(١).

قلت: إن كان أحد من أهل العصر لا يصدق بدخول الولى إلى باطن الإنسان من موضع الفصادة، قطعنا رأس جهله بسيف النبوة، وهو قوله ﷺ:

«إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم»(٢).

فإذا أعطى الشيطان قوة الدخول بجسمه فى العروق والمسالك الضيقة، فلا يبعد أن يعطى الولى ذلك كرامة.

وأخرج "اللالكائى" فى السنة من طريق الأوزاعى عن القاسم قال: كان لأبى قلابة الجرمى ابن أخ يركب المحارم، فاحتضر، فجاء طيران أبيضان يشبهان النسر فجلسا فى كوة البيت، فقال أحد الطائرين لصاحبه: انزل ففتشه. فغرق منقاره فى جوفه، وذاك بعين أبى قلابة.

---

(١) سورة الأنعام - الآيتان ١٦٢، ١٦٣.

(٢) رواه الشيخان.

فقال الطائر لصاحبه: الله أكبر! انزل فقد وجدت فى جوفه تكبيرة كبرها فى سبيل الله على سور أنطاكية، فأخرج الطائر خرقة بيضاء، فلفا روحه فى الخرقة، ثم احتملاها، ثم قالا: يا أبا قلابة، قم إلى ابن أخيك فادفنه فإنه من أهل الجنة. وكان أبو قلابة عند الناس دينا صالحا، فخرج إلى الناس فأخبرهم بالذى رآه، فما رأيت جنازة أكثر أهلا منها.

وأخرج اللألكائ أيضا عن ميمون المرادى قال: كان عندنا رجل من أهل المعاصى، فمات، فتحاماه الناس، فرموا به على الطريق.

فجلست أفكر فيه وفي تجنب الناس له إذا خفقت برأسى فإذا أنا بطائرين أبيضين. فقال أحدهما لصاحبه: ادخل فانظر، هل ترى خيرا؟

فدخل من يافوخه، فخرج من دبره، وهو يقول: ما رأيت خيرا!

قال: فلا تعجل. فدخل الثانى من يافوخه فخرج من خمصان قدميه، وهو يقول: الله أكبر، كلمة الشهادة لاصقة بطحاله فقلت للناس هلموا.

تنبيه:

إذا تقرر ذلك فلا بأس باستطراد شىء مناسب للمقام، وهو رؤية الملائكة عليهم السلام اليقظة:

رؤية الملائكة يقظة:

قال الأنطاكى: فى رسالته إلى القاضى أبى نصر وقفت عليها ما نصه:

كنت جالسا بمكة وحولى جماعة من الصالحين، وفينا رجل هاشمى فغشى عليه. فلما أفاق قال: أما رأيتم ما رأيت؟! قلنا: ما رأينا شيئا.

قال: رأيت الملائكة محرمين يطوفون حول الكعبة فى الهواء، فقلت لهم: من أنتم؟ فقالوا: ملائكة. فقلت: كيف حبكم لله تعالى:

قالوا: نحن حبنا جوانى وحبكم برانى. انتهى.

قلت: قد تعرض لهذه الحكاية جمع من الأئمة كالشيخ عفيف الدين اليافعي وأحزابه، والله أعلم.

وقال الأنطاكي أيضا: دخلت قبة بيت المقدس بالليل فبت فيها، فبينما أنا قائم أصلى إذ انشقت القبة نصفين، فبقيت مشقوقة حتى أبصرت السماء، فنزل منها خلق لا يحصى عددهم إلا الله تعالى، وهم يقولون: سبحانه هو هو! سبحان من ليس إلا هو.

فلم يزالوا يقولون هذا، فلما كان آخر الليل، قال لى واحد منهم كان فى جنبى: ما قصتك؟ قلت: أحببت أن أصلى فى هذا الموضع بالليل. من أنتم؟ فقال: نحن الملائكة دخلنا أمس البيت المعمور ولا نعود إليه إلى يوم القيامة، وذلك أنه يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة لا تجئ نوبتهم إلى يوم القيامة.

فإذا دخلوا فى يومهم ساروا فى تلك الليلة إلى بيت المقدس إلى الصخرة ثم يمضون إلى بيت الله الحرام، فيطوفون به أسبوعًا، ويصلون خلف المقام ركعتين ويمضون إلى المدينة فيسلمون على محمد ﷺ قال: ثم يرجعون إلى مصافهم.

فلما صعدوا انضمت القبة، وأصبحتُ.

وقال اليافعي: حكى عن سهل بن عبد الله التستري - رضى الله عنه - أنه قال:

مخالطة الولىّ للناس ذل، وتفرده عز، قال: ما رأيت وليًا لله إلا منفردًا.

وحكى أن عبد الله بن صالح كان رجلا له سابقة وموهبة جزيلة، وكان يفرّ من الناس من بـلد إلى بلد حتى أتى مكة، فطال مـقامه بهـا. فقلت له: لقد طال مقامك بـها. فقال لى: لما لا أقيم بها، ولم أر بلداً تنزل فـيه البركة والرحمة أكثر من هذا البلد، والملائكة تغدو فيه وتروح.

إنى أرى فيه أعاجيب، وأرى الملائكة يطوفون بالبيت على صور شتى لا يقطعون ذلك ولو قلت كل ما رأيت لصغرت عنه عقول قوم ليسوا بمؤمنين.

فقلت له: أسألك بالله إلا ما أخبرتنى بشىء من ذلك!

فقال: ما من ولىّ لله عز وجل صحّت ولايته إلا وهو يحضر هذا البلد فى كل ليلة جمعة لا يتأخر عنه، فمقامى ههنا لأجل من أراه منهم.

ولقـد رأيت رجلا يقـال له مالك بن القـاسم الحنبلى، وقد جـاء ويده غمرة.

فقلت له: إنك قريب عهد بالأكل. فقال: أستغفر الله فإنى منذ أسبوع لم آكل شيئًا، ولكن أطعمت والـدى، وأسرعت لألحق صلاة الفـجر، وبينه وبين الموضع الذى جاء منه تـع مائة فـرسخ. فهل أنت مؤمن بذلك؟ قلت: نعم.

قال: الحمد لله الذى أرانى مؤمنًا.

قلت: وقدر تسع مائة فرسـخ مائة وسبعة عشر مـرحلة، وذلك مسيرة ثلاثة أشهر وسبعة وعشـرين يومًا فى مجرد سير النهار دون الليل والليل دون النهار. انتهى كلام اليافعى.

وقال الإمام العارف لسان الحقيـقة وشيخ الطريقة صفى الدين حسين بن أبى المنصور الأزدى: فى رسالته حاكيا عن شـيخه الأستاذ الربانى أبى العباس أحمـد الخراز قال: مـرضت مرة فى بلدى أشـبيلية بغـرب الأندلس، فكنت

مضجعًا على ظهرى، و إذا أنا أشهد طيورًا كبارًا ملونة بالأخضر والأبيض والأحمر، يرفعون أجنحتهم رفعة واحدة، ويضعونها وضعا واحدا، وأشخاصا على أيديهم أطباق مغطاة فيها تحف، فوقع لي أنها تحفة الموت، فاستقبلتها وتشاهدت.

فقال لى واحد منهم: أنت ما جاء وقتك، هذه تحفة مؤمن غيرك قد جاء وقته، ولم أزل أنظر إليه إلى أن غابوا.

وقال الشيخ عبد الغفار القوصى فى كتاب: "الوحيد فى علم التوحيد": أخبرنى الشيخ ناصر الدين بن عبد القوى قال: قلت للشيخ تاج الدين بن شعبان: يا سيدى: أنت تحتد. قال: وكان فى الشيخ حدة. فقال لى: اعذرنى فهذه الحدة ما اكتسبتها إلى من كثرة صحبتى لجبريل - عليه السلام.

قال الشيخ عبد الغفار: وقول الشيخ "قال لى جبريل، وقلت لجبريل" غير مستحيل، ولا ممتنع: وإنما يصير ذلك مستحيلا على من لا يعرفه، ولا ألف قلبه عالم الملكوت. ومخاطبات الملائكة وملائمتهم أكثر من ملائمة غيرهم من الناس؛ لأن أرواحهم وأرواح الملائكة مجتمعة فى عالم الملكوت، وأسرارهم سارية فيما وراء ذلك.

وفى قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾(١).

ففى هاتين الآيتين وغيرهما من الآى إشارة وكفاية مع عدم استحالة ذلك ووجود جوازه ولا يكون ذلك عارضًا فى ختم النبوة، وقول النبى ﷺ "لا نبىّ بعدى"(٢).

---

(١) سورة يونس - آية ٦٤.

(٢) رواه البخارى والترمذى وأحمد.

فليس هذا نبوة ولا وحيًا ولا إرسالاً.

وقال اليـافعى: فى "روض الرياحين" عن الشيخ أبى عـمران الواسطى رضى الله عنه قال: خرجت من الحرم فـأصابنى عطش شديد حتى أيست من نفسى، فجلست تحت شجرة أم غيلان.

إذ أقبل فارس على فرس أخضر وسرجـه ولجامه وآلته خضر، وفى يده قدح أخضر فيه شراب أخضـر، فدفعه إلىّ وقال لى: اشرب. فشربت ثلاث مرات ولم ينقص مما فى القدح. ثم قال لى: أين تريد؟ فقلت: المدينة لأسلم على النبى ﷺ وأسلم على صاحبيه رضى الله عنهما.

فقـال: إذا وصلت وسلمت على النبى ﷺ فقل لهم: رضـوان يقرئكم السلام. انتهى

قلت: هذه حكاية شـريفة لا إنكار فـيها شـرعًا؛ لقولـه تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

وممن تعرض لهـذه الحكاية من الأئمة المعتـبرين الأعلام: الشيخ كـمال الدين الدميرى فى "حياة الحيوان الكبرى".

بل كـانت رؤية الملائكـة مـعـهودة فـى الصـدر الأول بين الصـحـابة والتابعين، واشتهـر وقوع ذلك بين أرباب الولايات، وصار عندهم كالشمس فى الظهيرة.

وهذا نوع من الكشوفات التى خصّ الله تعالى بها أولياءه، وأكرمهم بها دون سائر خلقه، كما صرح بذلك حجـة الإسلام الغزالى - رحمه الله تعالى - فى كتابه "المنقذ من الضلال".

ولا ينكر ذلك إلا من ألبسـه الله ثياب العناد، وطوقه بطوق الانتـقاد، فهو لم يزل يتعثر فى أذيال المقت والإبعاد، ولا سيما جماعة من أهل زماننا،

فإنهم لا يؤمنون بذلك ولا بغيره من الخوارق، بل إذا سمعوا أشياء من ذلك أنكروه أشد إنكار؛ لجهلهم ولعدم اطلاعهم على آثار السلف.

ولقد بلغني من طرق عديدة: أن الشيخ الفقيه "عبادة" أحد أعيان المالكية كان يقول: لقد شاهدت الملائكة جهرة تنزل عليّ في خلوتي، وذلك بمسجد الشيخ الإمام العارف بالله مدين أحد أصحاب الشيخ العارف أحمد الزاهد.

وقال الأنطاكي في رسالته: رأيت الغوث - رحمه الله وهو القطب، واسمه أحمد بن عبد الله البخلي بمكة سنة خمس عشرة وثلثمائة على عجلة من ذَهَب.

والملائكة عليهم السلام- يجرون العجلة بسلاسل من ذهب. فقلت: إلى أين تمضي؟ فقال: إلى أخ من إخواني اشتقت إليه. فقلت: لو سألت الله أن يسوقه إليك. فقال: وأين ثواب الزيارة؟

قال اليافعي: قد سَبَق فهم بعض الناس إلى إنكار هذا، وليس ذكره بمنكر لأنه لم يفعل ذلك بنفسه، بل فعله الحق سبحانه وتعالى وزفه في عالم الملكوت، لا في العالم الذي هو محل التكليف.

فلو أن الله تعالى أذن لبعض عباده أن يلبس ثوبًا حريرًا مثلا، وعلم العبد ذلك الإذن يقينًا، فلبسه لم يكن منتهكًا للشرع. فإن قيل: من أين يحصل له علم اليقين؟

قلت: من حيث حصل للخضر رضي الله عنه حين قتل الغلام، وهو وليّ لا نبيّ على الصحيح عند أهل العلم.

دليل رؤية الملائكة من السنة

فإن قلت: ما الدليل على رؤية الملائكة من السنة؟

قلت: دليل ذلك ما أخـرجه أبو موسى المدينى فى المعـرفة عن تميم بن سلمة قال: "بينما أنـا عند النبى ﷺ إذ انصرف من عنده رجل، فنظرت إليه موليّاً معتمّا بعمامة قد أرسلها من ورائه. قلت: يا رسول الله من هذا؟ قال: هذا جبريل".

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل، والطبرانى، والبيهقى بسند صحيح، عن حارثة بن النعمـان قال: مررت على رسول الله ﷺ ومعه جبريل، فسلمت عليـه ومررت، فلمـا رجعنا وانصـرف النبى ﷺ قال: هل رأيت الـذى كان معى؟

قلت: نعم. قال: فإنه جبريل عليه السلام، وقد ردّ عليك السلام".

وأخـرج ابن شـاهين عن القـاسم أن حارثة أتى الـنبى ﷺ وهو يناجى رجلاً فجلس ولم يسلم. فقال جبريل: أما إنه لو سلم لرددنا عليه".

وأخرج ابن سعد عن حارثة قال: رأيت جبريل من الدهر مرتين.

وأخرج الإمام أحـمد والبيهقى عن ابن عـباس قال: كنت مع أبى عند رسول الله ﷺ وعنده رجل يناجـيه، فكان كالمعرض عن أبى، فخـرجنا فقال لى أبى: يا بنى ألم تر إلى ابن عمك كالمعرض عنى؟

قلت: يا أبت إنه كان عنده رجل يناجـيه، فرجع فقـال: يا رسول الله قلت لعبد الله كـذا وكذا، فقال: إنه كان عندك رجل يناجـيك . . فهل كان عندك أحد؟ قال: وهل رأيته يا عبـد الله؟ قلت: نعم. قال: ذاك جبريل هو الذى كان يشغلنى.

وأخرج ابن سعـد عن ابن عباس رضى الله عنهما قـال: رأيت جبريل مرتين، ودعا لى رسول الله ﷺ مرتين.

وأخرج البـيهـقى عن ابن عباس قـال: عاد رسـول الله ﷺ رجلاً من الأنصار، فلما دنا من منزله سمعته يتكلم فى الداخل.

فلما دخل لم نر أحدًا. فقال رسول الله ﷺ: مَن كُنت تُكلم؟ قال: يا رسول الله دخل عليّ داخل ما رأيت رجلاً قط بعدك أكرم مجلسًا، ولا أحسن حديثًا منه، قال: ذاك جبريل، وإن منكم لرجالاً لو أن أحدهم أقسم على الله لأبره".

وأخرج الطبراني عن محمد بن سلمة قال: مررت على رسول الله ﷺ واضعًا خدّه على خدّ رجل فلم أُسلِّم، ثم رجعت فقال لي: ما منعك أن تُسلم؟

قلت: يا رسول الله رأيتك فعلت بهذا الرجل شيئًا ما فعلته بأحد من الناس فكرهت أن أقطع عليك حديثك. فمن كان يا رسول الله؟ قال: جبريل".

وأخرج الحاكم عن عائشة رضى الله عنها قالت: رأيت جبريل واقفًا في حجرتي هذه ورسول الله ﷺ يناجيه. فقلت: يا رسول الله من هذا؟ قال: بمَن شبهتيه؟ قلت: بدحية.

قال: لقد رأيتِ جبريل. قالت: فما لبثت إلا يسيراً حتى قال: يا عائشة هذا جبريل يُقرئك السلام. قلت: وعليه السلام جزاه الله من دخيل خيراً.

وأخرج البيهقي عن حذيفة بن اليمان قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ثم خرج فتبعته، فإذا عارض قد عرض له فقال لي: يا حذيفة: هل رأيت العارض الذي عرض لي؟

قلت: نعم. قال: ذاك ملَك من الملائكة لم يهبط إلى الأرض قبل ذلك، استأذن ربه فسلم عليّ وبشرني بالحسن والحسين أنهما سيدا شباب أهل الجنة، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة.

وأخرج مسلم عن عمران بن حصين قال: إن الملائكة كانت تسلّم عليّ، فلما اكتويت انقطع عني، فلما تركت عاد إليّ.

وأخرج الترمذى فى التاريخ، والبيهقى فى التاريخ، وأبو نعيم: عن عزالة قالت: كان عمران بن حصين يأمرنا أن نكنس الدار فنسمع "السلام عليكم، السلام عليكم" ولا نرى أحداً. قال الترمذى: هذا تسليم الملائكة.

وأخرج أبو نعيم عن يحيى بن سعد القطان قال: ما قدم علينا البصرة من الصحابة أفضل من عمران بن حصين أتت عليه ثلاثون سنة تسلم عليه الملائكة من جوانب بيت.

وأخرج ابن أبى الدنيا، والطبرانى، وابن عساكر من طريق ابن رويم عن العرباض بن سارية، وكان شخصاً من أصحاب النبى وكان يُحب أن يُقبض فكان يدعوا "اللهم كبُر سنى، ووهن عظمى، فاقبضنى إليك".

قال: فبينما أنا يوماً فى مسجد دمشق، وأنا أصلى وأدعو أن أقبض إذ أنا بفتى شاب من أجمل الرجال وعليه ديباج أخضر، فقال: ما هذا الذى تدعو به؟ فقلت: وكيف أدعو "يا بن أخى"؟

قال: اللهم حسّن العمل، وبلّغ الأجل.

قلت: من أنت يرحمك الله؟

قال: أنا رنايل الذى يسل الحزن من صدور المؤمنين.

ثم التفت فلم أر أحداً.

«عود إلى تشكل الأرواح»

«فصل»

لما تقررت هذه الأدلة الشرعية المطابقة للمدعى، وآمنت بكرامة رؤية الملائكة من حيث الدليل، فنعود حينئذ إلى تتمة الكلام على تشكّل الأرواح، وغير ذلك من أنواع الكرامات.

قال الشيخ الإمام العارف بالله صفى الدين ابن أبى المنصور الأزدى فى رسالته: "كان بديار مصر رجل كبير الشأن يقال له الشيخ أبو الحسن بن الدقاق من مراكش صحب بالشام رجلاً أعجميًا يقال له: محمد الأزهر، ما سمع بأعظم من كراماته.

وكان الشيخ أبو الحسن يعتقد فى شيخنا ويتردد إليه، فكان مما حكى للشيخ، وأنا حاضر: أن الشيخ محمد العجمى قال له يومًا: يا على متى كنت بمصر احرص على الصلاة وراء الشيخ أبى العباس الخراز فإنها بسبعين صلاة.

وإذا أردت تعرف مقدار ما أوصيتك صلّ غدًا الصبح خلفه، فقمت فى السّحر وجئت لمسجد الشيخ أبى العباس، فلما طلع الفجر ركع، وأقيمت الصلاة دخل المحراب فكبّر، فكبرت وراءه مع الناس، فلما كبرت أُخذتُ وغاب المسجد والشيخ والناس عن نظره.

وإذا بصورة روحانية نورانية قامت مقام الشيخ وانتشرت عنها أشعة أنواع وانتهت إلى أطراف إقليم مصر، وضمن تلك الصورة النورانية صورة صغيرة فى باطنها.

فبينما أنا أشاهد هذا الأمر، وإذا بالمؤذن يحركنى ويوقظنى ويقول: أنت صرعت! صلّى الشيخ والناس وانصرفوا، وأنت كأنك مصروع، اخرج لأغلق المسجد، فخرجت وجئت فأجد الشيخ محمد العجمى فقال لى: ما رأيت؟ فأخبرته. فقال لى: هذه روحانية الباطنة العلوية، ومنتهى أشعتها منتهى حكمها، فسألته عن الصورة الصغيرة المصورة فى باطن تلك الصورة فقال: هذه صورة شاب من أعيان مصر يصحبه فى آخر زمانه يرث مقامه يقال له: الصفى بن أبى المنصور:

قال الشيخ أبو الحسن: ثم سافرت إلى الشيخ محمد العجمى فكنا بدمشق فى الجامع فى الخط الشاى، وإذا بالشيخ العجمى فقال لى: يا على،

انظر هذا الشاب! فنظرت وإذا بشاب جميل الصورة، عليه فروة ملونة بالأحمر والأصفر والأسود، مطيلس بعرضى من شرب يمشى فى الجامع وبجواره فقير يسمى "هاشما" فقال لى: هذا الشاب هو الذى رأيته مصوراً فى صورة أبى العباس الذى يصحبه فى آخر زمانه.

قال الأستاذ صفى الدين رضى الله عنه: وكنت أنا على الهيئة الموصوفة قد جئت من خراز بعد وزارة والدى بها للملك الأشرف، وكان سنّى فى ذلك الوقت خمس عشرة سنة وساعة.

فدخلت دمشق وكان بها الشيخ على الكردى، فحين دخلت الجامع وكنت فى حشكلة من الأهل والغلمان جالسين فى الحيط الشمالى عند مقصورة الغزالى، وإذا بشخص عظيم الصورة، كبير الرأس، عليه لباد مقطع، جاء من صوب باب جيرون يشق الجامع إلى أن جاء إلىّ ومد يده إلى مملوءة تفاحًا، وقال لى: خُذ. ففزعت منه واستندت إلى مكان بجوارى ممن معى، فتأخر عنى ثم رمى لهم تفاحة تفاحة إلى أن فرغ ما كان فى يده ومضى لباب جيرون.

وإذا بالشيخ أبى القاسم الصقلى كان من أعيان المشايخ، مقيما بدمشق، والفقيه نجم الدين ابن اللهيب كان مدرسا بدمشق جاء إلى عندنا، وأخبرهما لجماعته بما جرى من ذلك الشخص، فتعجبا من ذلك عجبًا عظيما، وهنئانى هنا كثيرا، وقالا لى: هذا قطب الشام، جاءك بالضيافة عزيزًا أن يعمل هذا مع أحد، فقمت لحقته عند باب جيرون فسلمت عليه وقبّلت يده، فضحك.

وأما حكاية الشيخ محمد شيخ محمد العجمى، فإن الشيخ شافهنى بمعناها منى إليه، قال لى: أنت وارثى، وكل ما نلته من الحق لا بد لك أن تبلغه، وكان ولده طفلاً صغيرًا يمشى بين يديه "قال لى": كما أن هذا ولدى من الظاهر، أنت ولدى فى الباطن، وقال لى: أشهدت عالم النسب.

وكان ظهوره لى صورة لطيفة نورانية ظهرت لى دفعة واحدة مثل ظهور

الشرار إذا خرج الكـور بنفخ النافخ، فكانت كل صورة نورانيتهـا فى ظهورها كمثل الشرارة النارية فى ظهورها، فحنيت إلى واحد منها، وحنت إلى، وهو الصفى لمن حدثه، وسمعته أنا منه أيضًا.

فروق فى خرق العوائد عن ابن عربى

وقال بحر الحقائق حامل لـواء العلم بالله محيى الدين بن عربى الحاتمى الطائى - رضى الله عنه - فى كـتابه: "مواقع النجـوم ومطالع أهله الأسرار والعلوم":

"اعلم يا بنى - أشـهد الله ذاته فى دار القـدس - أن الإنسان إذا زكت أحواله وطابت أقواله، وحسّنت أفـعاله، وكان هذا حاله حتى قبـضه الله إليه، فذلك الموفّق السعيد.

فإذا تحقق العبد فى مراعـاة ما توجه عليه من التكليف فى بصره ووقف به عند ما حدّ له الشـارع وصرفه فى بعض ما أباحه، وإن اسـتطاع أن يصرفه فى واجب أو مندوب فلا يقصر.

فذلك عندنا صاحب بصر على الحقيقة، وأن الله تعالى إذا حصل العبد فى هذا الباب ولم يتـعد الحدّ المشروع له فى بصره إذا شاء يكرمـه بكرامات تختص بهـذا المقام، وينزله أيضًا منازل مـختصة به لا ينالهـا أبدًا إلا صاحب بصر؛ منّة منه - سبحانه وتعالى.

فالمنازل قطعًا لا تحصل إلا لأهل الوصول المحققين أهل العناية.

وأما الكرامات، فمن حيث هى كرامات هى لهم، ومن حيث هى خرق عوائـد قد ينالهـا المملول المسـتدرج، فإذا وقت لك يا بنـى خرق عـادة، فلا تحجبك عن نظرك فى نفسك، كيف هى مع الحد المشروع لك.

فإن كنت من الأهل الاتباع وقام الوزن بين نفسك وما كلفت، وجريت

مع الشارع بالأدب والامتثال حيث سلك، فخذها كرامة واشكر الله عليها، وادعه واسأله أن لا يجعله حظ عملك، ولا يكون من العاملين لها.

وإذا رأيت نفسك حائدة عن السنن متعدية للحدود الظاهرة فى الشرع، فلا تنظرها كرامة وانظرها منبهة لك إن لزمت بعدها الاستقامة: كإبراهيم بن أدهم حين نودى من قربوس سرجه وهو غير مستقيم فى الحال، ثم استقام فكانت له منبهة.

وكصاحب السكرجتين وغيرهما، وإن لم يعقبها الاستقامة، فانظرها مكرًا واستدراجًا فاسأل الإقالة والرجوع إلى الجادة والصراط المستقيم، فإن نبهك الله لهذا فانظر فهذه الكرامة التى يقال لها كرامة، وكل خرق عادة فى ظاهر الكون فأعراض زائلة.

فمن الكرامات: رؤية الزائر له قبل قدومه على مسافة بعيدة، أو خلف حجاب كثيف، ورؤية الكعبة عند الصلاة حين يتوجه إليه، وما أشبه هذا.

ومنها: مشاهدته العالم الملكوتى الروحانى والترابى.

والمراد بهذه الكرامات للعبد أن يشهده الله من عجائبه، ويُريه من آياته ما يزيده رغبة فى مقامه، ومدّة فيما هو بسبيله كما قال الله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾(١).

فذكر العلة، فإنه إذا صح ورث النبى الصادق ﷺ فى أفعاله بحسن الاتباع والاقتداء ليس ببعيد أن يتحف الله عبده الولىّ بمثل هذه الكرامات التى كانت لنبيه ﷺ فى أفعاله.

بل هى من تتميم شرفه وكرامة من اتبعه وأحبه وأما قولنا: "العالم

---

(١) سورة الإسراء - آية ١.

الملكوتى الروحانى والترابى" : فالروحانى الملكوتى كالملائكة والروحانى الجبروتى كالجنّ عند بعض أصحابنا، والروحانى الطبيعى أو الترابى كالأبدال.

فالملائكة والملأ الأعلى الذين قال الله فيهم: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾(١)، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾(٢)، و﴿لِمَن فِي الأَرْضِ﴾(٣)، فما ظنك يا بُنَيّ بحالة شخص جليس لهؤلاء السادات الأعلام المعصومين من فترات الغفلات.

هل يكون أبدًا إلا ذاكرًا ناظرًا نفسه بعين التقصير فيما يأتى به من فنون الطاعات لما يعاينه من علو المقام، ويشاهد من الجلال، فجليس المفلح يفلح ضرورة.

وأما الروحانى الترابى، فأعنى به كل عبد اتصف بأوصاف الملائكة من الحضور مع الحق سبحانه وتعالى فى ميدان الجد والاجتهاد والاتصاف بأوصاف الكمال "الخَضر" ومن أشبهه من الأبدال والأوتاد:

ألا ترى الخوّاص حين اجتمع، كيف جعل اجتماعه به كرامة وقال له: بماذا رأيتك؟ فقال له الخضر: بِبِرِّك لأمك.

فلو لم يكن رؤية هذا الصنف كرامة ما سأله الخوّاص، فبمثل هؤلاء السادات النجباء، ويصحبتهم فليفرح، وليتحقق أن ذلك من اعتناء الله سبحانه حيث جمعه بأهل طاعته وحبيبهم إليه.

فأولئك هم الذين انتقلوا عن معادنهم الطينية، وخرجوا عن رعونة البشرية، وطبختهم شمس العناية بأرضهم الطيبة المباركة المعتدلة المزاج، اللطيفة الأمشاج حتى أخرجتهم من مراكزهم والحقتهم بالعالم الأعلى.

---

(١) سورة الأنبياء - آية ٢٠.

(٢) سورة غافر - آية ٧.

(٣) سورة الشورى - آية ٥.

فانخرقت العوائد فى الأجسام، وضرب بسور القدرة القديمة فى وجه الطبيعة الذميمة لما تلطفت الجوهرة وصفت طلبت العلو فهفت مع تعلقها بتدبير الجسم الذى به كلفت، سلطت عليه القوة القهرية متى شاءت فحجبته عن أعين الناظرين، فلحق بالعالم الأعلى فى صفائهم؛ لأنه إذا خرج عن أرضه والتحق بهؤلاء السادات أعنى الملائكة اكتسب منهم صفة لم يكن عليه حكم فيها الغائب على الشاهد.

فخرج عن العادة البشرية بالتصفية اللطيفة الملكوتية، والتسخير الذى حصل له من تلك المشاهدات حتى خفى عن الأبصار. وهذه كرامة أصل وجودها ما ذكرناه، وسبب الاحتجاج مانع يقوم بإدراك الرائى حتى يهتف بك وأنت لا تراه، ويمشى على الماء وفى الهواء، ويصير كالهيولى قابلاً للتشكيل والصور كالعالم الروحانى مثل جبريل الذى كان ينزل تارة على صورة "دحية".

وقد تجلى له ﷺ وهو قد سدّ الأفق، له ستمائة جناح. وتشكل الروحانيين غير منكور عندنا، وهكذا رجع الخضر يتشكل على أى صورة أحب أن يرى فيها هى على قدز مقامك، فالملكة التى أعطى إنما هو فعل تشخصه لك ذاتك وهو على صورته التى خلقه الله عليها، ويغلط فى هذا المقام جماعة من المتطفلين على الطريقة". (انتهى كلام بحر الحقائق ابن عربى).

وقال أيضًا فى كتابه (حلية الأبدال وما يظهر عنهما من المعارف والأحوال):

"فإذا اعتزل الإنسان عن الخلق وعن نفسه، فصمت عن ذكره بذكر ربه إياه وأعرض عن الغذاء الجسمانى، وسهر عن موافقة نوم النائمين، واجتمعت فيه هذه الأربعة، بدلت بشريته ملكًا وعبوديته سيادة، وعقله حسًا، وعينه شهادة، وباطنه ظاهرا.

وإذا رحل عن موضع ترك بدله فيه حقيقة روحانية، يجمع فيها أرواح ذلك الموضع الذى حل عنه هذا الولى، فإن ظهر شوق من أتى إلى ذلك الموطن لهذا الشخص تجسدت لهم تلك الحقيقة الروحانية التى تركها بدله، فكلّمها وكلّمته وهو يتخيل أنه مظلوب وهو غائب عنه حتى يقضى حاجته منه.

وقد تتحد هذه الروحانية إن كان من صاحبها شوق، أو تعلق همة بذلك الموطن. وقد يكون هذا من غير البدل:

والفرق بينهما أن البدل يدخل ويعلم أنه ترك بدله، وغير البدل لا يعرف ذلك وإن تركه، لأنه لم يحكم هذه الأربعة الأركان وهى: "الصمت، والعزلة، والجوع، والسهر". ثم قال: وفى ذلك الوقت:

يا مَن يريد منازل الأبدال ... من غير قصدٍ منه للأعمالِ
لا تطمعنّ بها فلست من أهلها ... إن لم تزاحمهم على الأحوالِ
واصمت بقلبك واعتزل عن كل من ... يدنيك من غير الحبيب الوالى
وإذا سهرت وُجعت نِلت مقامهم ... وصحبتهم فى الحل والترحال
بيت الولاية قُسّمت أركانه ... ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائم ... والجوع والسهر النزيه الغالى

قال شيخ الإسلام سراج الدين ابن الملقن فى "طبقات الأولياء" ما نصه فى ترجمة الشيخ قضيب البان الموصلى: ذو الأحوال الباهرة والكرامات المتكاثرة، سكن الموصل واستوطنها إلى أن مات بها قريبا من سنة سبعين وخمسمائة.

وكان يتردد فى الرسائل بين الشيخ عبد القادر الكيلانى، وعدى بن مسافر، وذكروه عند الكمال بن يونس فوقع فيه موافقة لمن عنده، فبينما هم كذلك إذا دخل عليهم، فبهتوا.

وقالوا: يا ابن يونس أنت تعلم كل ما يعلمه الله؟ قال: لا. قال: فإن كنت أنا من العلم الذى لا تعلمه أنت: فلم يدر ابن يونس ما يقول، وكان قاضى الموصل سيء الظن به على كثرة ما يبلغه من كراماته ومكاشفاته، وعزم أ، يقول للسلطان فى إخراجه من الموصل ولم يطلع عليه فى ذلك سوى الله، فبينما هو فى أزقة الموصل إذ رآه على هيئته، فقال فى نفسه: لو كان معى أحد أمسكته، فمشى خطوة فتغيرت صورته بكردىّ، ثم ببدوىّ، ثم بفقيه.

وقال له: يا قاضى، هذه أربع صور رأيتهم، فمن هو قضيب البان منهن حتى تقول للسطان فى إخراجه، فأكبّ على يديه فقبلهما. واستغفر وسئل عنه الشيخ عبد القادر الكيلانى فقال: هو ولىّ مقرب ذو حال مع الله. انتهى.

شبهة وجواب:

فإن قلت: الروح هى المدبرة للبدن، فإذا فارقته فى مثال وتركت الجسد مات، فكيف يتصور أن تفارقه وتتركه حيّا؟

قلت: سبحان الله! هل قرأت فى علم المعقول أن ملازمة الحياة للروح أمر عادى، لا عقلى، وأنه يجوز أن يكون الجسد حيّا بلا روح فيه، وجوز ذلك فى الموتى، وخرج عليه قوله تعالى فى الشهداء: ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(١).

فقال: يجوز أن يكونوا أحياء بأبدانهم والروح حيث شاء الله، لا فى البدن. هكذا حققه السبكى.

وحينئذ فأى مانع فى أن يكون من كرامات الولىّ أن روحه تخرج من بدنه وتسير حيث شاء الله، وتترك جسده فى موضعه حيّا بصفة الحياة مع كونه لا روح فيه.

---

(١) سورة آل عمران - آية ١٦٩.

وذلك مما انخرقت فيه العادة، وهو ممكن عقلاً، والإنسان كما يطلق على الجسد يطلق على الروح:

ومما يشهد لذلك قصة المعراج إذا قلنا: إنه كان بالروح الشريفة، لا بالجسد كما هو أحد قولى العلماء، فإن الروح فارقت البدن، وعرج بها إلى السماوات ورأت من آيات الله ما رأت، وسمعت الخطاب، وردت الخطاب، وردت الجواب والجسد الشريف حيّ لم يوصف بموت أصلاً فى تلك الساعة، وقد كان العروج للأرواح معروفًا فى الصدر الأول بين الصحابة والتابعين، وما جهله إلا أهل هذا الزمان، لعدم اطلاعهم على آثار السلف.

أخرج الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى "تاريخ دمشق" من طُرُق عن ابن خالد قال: عرج بروح امرأة من أهلها أيامًا سبعة لا يمنعهم من دفنها إلا عرق يتحرك فى وريدها ثم إنها تكلمت فقالت: ما فعل بجعفر بن الزبير، وكان جعفر قد مات فى تلك الأيام التى لا تُعقل فيها.

فقلنا: مات. قالت: والله، لقد رأيته فى السماء السابعة، والملائكة يتباشرون به، وهم يقولون: قد جاء المحسن، قد جاء المحسن".

وأخرج ابن عساكر عن الماجشون قال: عروج روح ابن الماجشون فوضعناه على سرير الغسل، فدخل غاسل إليه فرأى عرقًا يتحرك من أسفل قدميها فأخبرناه، فلما كان بعد ثلاث استوى جالسا، فقلنا له: خبّرنا بما رأيت!

قال: نعم. إنه عرج بروحى فصعد بى الملك حتى أتى السماء الدنيا، فاستفتح ففتح له، ثم هكذا فى السماوات حتى انتهى إلى السماء السابعة، فقيل له: مَن معك؟ قال: ابن الماجشون. فقيل له: بقى من عمره كذا وكذا.

ثم هبط فرأيت النبى ﷺ ورأيت أبا بكر عن يمينه، وعمر عن يساره، ورأيت عمر بن عبد العزيز بين يديه فقلت للذى معى: من هذا؟ قال: أو ما تعرفه؟

قلت: إنى أحببت أن أستثبت. قال: هذا عمر بن عبد العزيز.

قلت: إنه لقريب المقعد من رسول الله ﷺ.

قال: إنه عمل بالحق فى زمن الجور، وإنهما عملا بالحق فى زمن الحق.

والأخبار المتواترة فى ذلك كثيرة جدًا؛ ولهذا بنى عليها حجة الإسلام الغزالى فقال فى بعض كتبه: "من أولياء الله" من يكون جسده بالفرش وروحه عند العرش.

وقال الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله فى "لطائف المنن": قال الشيخ أبو العباس المرسى: جلست فى ملكوت الله تعالى، فرأيت أبا مدين متعلقًا بساق العرش، وهو رجل أشقر، أزرق العينين، فقلت له: ما علومك؟ وما مقامك؟ فقال: أما علومى فأحد وسبعون علما، وأما مقامى فرأس السبعة الأبدال.

قلت: فما تقول فى شيخى أبى الحسن الشاذلى؟

قال: زاد علىّ بأربعين علمًا، هو البحر الذى لا يُحاط به.

وفى "لطائف المنن": أيضًا قال: سمعت شيخنا أبا العباس يقول: قال لى عبد القار النقاد - وكان من أولياء الله - اطلعت على مقام أبى الحسن الشاذلى فقلت: وأين مقام الشيخ؟ فقال: عند العرش. فقلت له: ذاك مقامك تنزل لك الشيخ فيه حتى رأيته. فهذا كله من عروج الأرواح.

وفى "لطائف المنن" أيضًا قال الشيخ أبو العباس المرسى: إن لله ملكًا يملأ ثلث الكون، وإن لله ملكًا يملأ ثلثى الكون، وإن لله ملكًا لو وضع قدمه فى الأرض لم يجد أن يضع الثانية، ثم قال الشيخ أبو العباس يقول القائل: إذا كان ملَك يملأ الكون كله، فأين الذى يملأ ثلث الكون؟ وأين الذى يملأ ثلثى الكون؟

قال: والجـواب عن ذلك أن اللطائف لا تتـزاحم كمـثل سراج أدخلـته بيتًـا، فمـلأ البيت نوره، ولو أتيت بعـد ذلك بألف سراج وسع ذلك الـبيت أنوارها. انتهى.

وهذا أيضًا من الأجـــام الملكوتيـة التى لم يعهد النـاس فى عالم الملك مثلها، فإن المعهود فى عالم الملك إذ ملأ مكانًا لم يسع معه جسمًا آخر.

وأجسام الملائكة جـاءت على خلاف المعهود فى أجسام عالم الملك من أنها إذا شغلت مكانًا تكون فى غيره أيضًا.

فروق بين الروح والجسد

قال العلامة ابن القيم فى كتاب "الروح" ما نصه:

"للروح شـأن آخر غيـر شأن البـدن، فتكون فى الرفـيق الأعلى وهى متصلة بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على صاحبها ردّ عليه السلام، وهى فى مكانها هناك.

وهذا جبريل رآه النبى ﷺ وله ستمائة جناح، منها جناحان سدّا الأفق، وكان يدنو من النبى ﷺ حتى يضع ركبتيـه على ركبتيه، ويديه على فخذيه، وقلوب المخلصين تتسع للإيمان بأن من الممكن أنه كان يدنوا هذا الدنو، وهو فى مـستقره من الـسموات.

وفى الحديث فى رؤية جبريل: "فرفعت رأسى فإذا جبريل صافّ قدميه بين السماء والأرض، يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل.

فجعلت لا أصرف بصرى إلى ناحية إلا رأيته كذلك".

وإنما يأتى الغلط هنا من قيـاس الغائب على الشاهد، فيعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجـــام التى إذا شغلت مكانًا لم يمكن أن تكون فى غيره.

وهذا غلط محض وقد رأى النبى ﷺ ليلة الإسراء موسى قائمًا يصلى فى قبره، ورآه فى السماء السادسة، فالروح كانت هناك فى مثال البدن، ولها اتصال بالبدن بحيث يصلى فى قبره، ويرد على من يُسلم عليه وهو فى الرفيق الأعلى.

ولا تنافى بين الأمرين، فإن شأن الروح غير شأن الأبدان، وكذلك رؤية النبى ﷺ الأنبياء فى السموات، الصحيح أنه رأى فيها الأرواح فى مثال الأجساد، مع ورود أنهم أحياء فى قبورهم يصلون.

وقد قال ﷺ: "من صلّى علىّ عند قبرى سمعته، ومن صلّى علىّ نائيًا بلغته"(١). هذا مع القطع بأن روحه فى أعلى عليين مع أرواح الأنبياء، وهو فى الرفيق الأعلى فثبت بهذا أنه لا منافاة بين كون الروح فى عليين أو الجنة أو السماء.

وأن لها بالبدن اتصالاً بحيث تدرك وتصلى وتقرأ، وإنما يستغرب هذا لكون الشاهد الدنيوى ليس فيها ما يشابه هذا ، وأمور البرزخ والآخرة على نمط غير المألوف فى الدنيا. هذا كلام ابن القيم بحروفه.

قطوف من الكرامات:

وقال الشيخ الإمام برهان الدين بن موسى الإيناسى الشافعى أحد مشايخ الشيخ ولىّ الدين العراقى فى الفقه، وغيره فى مصنف لخصمه من "الكوكب المنير فى مناقب الشيخ أبى العباس البصير": أن حج فجاء أمير الركب يذكر أنه ضاع له مملوك عزيز عنده فقال الشيخ لخادمه عبد الله الغمارى: انظر حال هذا الرجل؟

فأطرق الغمارى مليا، ثم رفع رأسه، وقال: وعزة الربوبية، لقد طفت

---

(١) رواه الدارقطنى.

المشرق والمغـرب فما وجدته. فقـال الشيخ: كما أنت، فـأطرق ثم رفع رأسه وقال: هو ببطن مرّ عند قوم من العرب.

فأرسل الأمـير في طلبه، فـأحضر. قـال: ومن كراماته: لما قدم مكة اجتمع بالشيخ أبى الحجاج الأقصرى، فجلسا فى الحرم يتذاكران أحوال القوم ومناقـبهم، فـقـال الشيخ أبو الحـجاج: هـل لك فى طواف أسبـوع فى هذا الوقت؟! فقـال الشيخ أبو العباس: إن للـه رجالاً يطوف بيته بهم كـما أن له رجالاً يطوفون بيته فنظر الشيخ أبو الحجاج وإذا بالكعبة طائفة بهما.

قال الشيخ برهان الدين الإيناسى: ولا تنكر يا أخـى ذلك فقد تظافرت أخبار الصـالحين على نظير هذه الحكاية. ثم قال: ويحى عن الشـيخ وفقرائه مرائى لا يسعنى ذكرها فى هذا الكتاب خوفًا من أن يطلع عليها فقيه أو منكر سفيه.

قـال الشيخ خليل بـن إسحـاق أحد أئمـة المالكيـة صاحب المختـصـر المشهور، وشرح ابن الحاجب، وغيرهما فى كتابه الذى ألفه فى مناقب سيدى الشيخ عبد الله المنوفى ما نصه:

"الباب السادس فى طىّ الأرض له مع عدم تحـركه وهى الطىّ الأصغر عند أهل هذه الطريقة.

حدثنى به الشيخ الصـالح العلم سليمان المقرى قال: قـال بعض الفقراء الصالحين: رأيت سيدى الشـيخ بمنوف فى جنازة الشيخ إبراهـيم ولد الشيخ سليمان ولكن لم يره أهل منوف لكونى لم أر أحدًا منهم يُسلم عليه، والشيخ لم يزل بالقاهرة بين الطلبة ذلك اليوم.

ومن ذلك: ما سمعته عن بعض الخـيّرين قال: جاء من الحجاز شخص للمدرسـة وسأل عن الشيخ، وذكر أنه رآه واقـفًا بعرفة. فـقال له الناس: لم

يزل فى مكانه! فحلف على ذلك فطلع للشيخ، فلما رآه سلم عليه وأراد أن يتكلم فأشار إليه الشيخ بالسكوت.

ثم قال الشيخ خليل: فإن قلت: كيف يمكن وجود الشخص الواحد بمكانين؟

قلت: الولى إذا تحقق فى ولايته يمكن التصور فى روحانيته، ويعطى من القدرة التصور فى صور عديدة، وذلك ليس بمحال، لأن التعدد هو الصورة الروحانية.

وقد اشتهر ذلك عند العارفين بالله تعالى، كما حكى عن الشيخ قضيب البان لما أنكر عليه بعض الفقهاء عدم الصلاة فى جماعة، ثم اجتمع ذلك الفقيه به، فصلى بحضرته ثمان ركعات فى أربع صور. ثم قال: أى صورة لم نصل معكم؟

فقبّل يد الشيخ، وتاب.

وكما حكى عن الشيخ أبى العباس المرسى: أنه طلبه إنسان لأمر عنده يوم الجمعة بعد الصلاة، ثم جاء له أربعة كل منهم طلب مثل ذلك، فأنعم للجميع ثم صلى الشيخ مع الجماعة وجاء فقعد بين الفقراء ولم يذهب لأحد منهم، وإذا بكل من الخمسة يشكر الشيخ على حضوره عنده.

وقد حكى جماعة أن الكعبة تطوف ببعض الأولياء.

هذا كلام الشيخ خليل، وهو إمام يحتج به لكونه جامعًا بين الشريعة والحقيقة. وقال بعض أهل الحقائق: إنما سمى الأبدال أبدالاً لأن الواحد منهم لو لم يكن الباقون لناب منابهم، وقام بما يقوم به جميعهم، فكل واحد منهم فى عين الجميع، وما على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد.

قلت: هذا حاصل ما تقدم فى تعريفه، وفى هذا كفاية لمن اختاره الله

الإيمان بكرامـات أوليائه، فانتـبه يا أخي ليقظة التـوفيق، وإياك والعناد! وإلا تحرم من لحظهم، بل عمقت ليوم التناد. فهنيئًـا لمن وفقه الله لتسليم أحوالهم، وصار عبدًا خادمًا لخدام نعالهم، فهم الملوك.

لا بل الملوك تحت أقـدامهم، وفي تصـاريف أحوالهم وأقـوالهم، وهم الذين إذا اطلخمت الحرب برز الإيمان إلى أعلامهم، وهم القوم كل القوم إذا افتـخر كل قـبيل بأقـوامهم، بل هم قوام الإسـلامة وقـوامه. وبهم ائتـلافه ونظامه، هم في الحقيقة ورثة الأنبياء، وبـهم يستضاء في الدّهماء، ويستغاث في الشدة والرخاء، ويهتدى بهم الحائر كنجوم السماء.

وإليهم المفزع في الآخرة والدنيا، والمرجع في تصريف الكون في الممات والمحيا ولهم المقام المرتفع على الزهرة العليا.

الرد على الإسفراييني في إنكاره الكرامات

فإن قلتَ: كرامـات الأولياء قد أنكرها الأستاذ أبو إسحـاق الإسفرايني وهو إمـام يحتج بقـوله. قلت: هذا مما يستـدل به على قصـر اطلاعك على نُقول الأئمة؛ لأن هذا قـول مردود على قائله على تقدير ثبوته لكونه مـخالفًا لإجماع أهل السنة والجماعة، وخرق الإجماع لا يجوز للمجتهد.

فضلا أن يحتج به؛ ولهذا عابوا على الشـيخ تقي الدين ابن تيمية حين خرق الإجـماع في اجـتهاد فـي مسائل كـثيـرة، كمسألة الزيارة والطلاق، وغيرها.

قال العلامة تاج الدين السبكي في الطبقات الكبرى:

"وإني لأعجب أشـد العجب من منكر الكرامات، وأخشى عليـه مقت الله، ويزداد تعجبي عند نسـبة إنكارها إلى الأستاذ أبي إسحـاق الإسفرايين، وهو من أساطين أهل السنة والجماعة على أن نسبة إنكارها إليه على الإطلاق كذب عليه، والذي ذكره الرجل في مصنفـاته أن الكرامات لا تبلغ مبلغ خرق العادة.

قال: فكل ما جاز تقديره معجزة لنبىّ لا يجوز ظهور مثله كرامة لولى.

قال: وإنما مبلغ الكرامات إجابة دعوة، أو مـوافاة ماء فى بادية فى غير توقيع المياه أو ما يضاهى ذلك مما ينحط على خرق العادة.

ثم مع هذا قال إمام الحرمين وغيره من أئمتنا: هذا المذهب متروك.

قال الزركشى فى شرح "جمع الجوامع"، وجمع بعض أصحابنا إلى أن كل ما وقع معجزة لنبىّ لا يصح أن يقع كـرامة لولىّ: كإحياء الموتى، وقلب العصا حية وفلق البحر، ونحوه.

وهذا هو مذهب الأستاذ أبى إسحاق الإسفرايينى.

وبه يظهر غلط الإمام فخـر الدين الرازى، وغيره ممن ينقل عنه إنكارها على الإطلاق كالمعتزلة، والذى رأيته فى كتبه التصريح بإثباتها إلا أنها لا تبلغ مبلغ المعجـزات الخارقة تفرقة بـينها وبين المعجزة، كمـا نقله عنه ابن الـسبكى تبعًا لإمام الحرمين، وكذا نقله الآمدى فى "أبكار الأفكار".

قلت: قـد نقل الـسيـد فى شـرح المواقف الإطلاق عن الأسـتـاذ أبى إسحاق، والظاهر أنه تقليـد للإمام فخر الدين فيمـا نقله؛ ولهذا لم ينبه على غلطه. والله أعلم.

قال الزركشى: وهو الذى جنح إليه وهو الأستاذ أبو إسحاق هو عين ما نقله ابن الـسبكـى عن أبى القاسم القشـيرى من إنكاره حصـول إنسان لا من أبوين، وأمثال ذلك مما ينحط عن خرق العادات.

وقال ابن الـسبكى أيضًا فى الطبقات الوسطى ما نصه:

ومن غـرائب الإسفـرايينى أنه كـان ينكر كـرامـات الأولياء. قـال ابن الصلاح: وهى زلة كبيرة، وقال إمام الحرمين فى مختصر التقريب والإرشاد: والظن انتهى لا يصح عنه ذلك. انتهى.

وهذا هو الحق فى مثل هذا الإمام لبُعد هذه القُويلة عن الحق المحض إلى الطرف الأقصى.

حكم منكر كرامة الأولياء

فقد قال الشيخ أبو تراب النخشبى المترجم فى طبقات السبكى، وهو أحد الأولياء المترجمين في رسالة القشيرى: "مَن لا يؤمن بكرامات الأولياء فقد كفر".

قال ابن السبكى: وقول أبى تراب من لا يؤمن بها فقد كفر بالغ فى الحط على من ينكرها ويحمل على أنه لم يعنِ الكفر المخرج من الإسلام، "ولكنه كفر دون كفر"

قلت: هذا مستبعد لا يستقيم، والظاهر إنما أراد الكفر المخرج من الإسلام لأن الكرامات راجعة فى الحقيقة إلى معجزات الأنبياء فمن أنكرها فقد أنكر المعجزات.

ومن أنكر المعجزات فقد كذب الأنبياء، ومن كذبهم فقد كفر قطعًا، فحينئذ كرامات الأولياء هى عين معجزات الأنبياء على التحقيق، لأن الخارق للعادة له وصفان باعتبار المتعلق: فإن كان الخارق صادرًا من نبىّ فهو فى حقه معجزة، وإلا فهو فى حق الولىّ كرامة.

ومما يشهد لهذا التقرير ما قاله الأستاذ أبو القاسم القشيرى فى رسالته ما نصه: "فكل نبىّ ظهرت كرامته على واحد من أمته فهى معدودة من جملة معجزاته، إذ لو لم يكن ذلك الرسول صادقًا لم يظهر على من تابعه المعجزة".

وقال الزركشى: لعل أبا تراب النخشبى يرى تكفير المبتدعة.

وقال العارف بالله الشيخ شهاب الدين السهرودى رحمه الله:

"وكرامات الأولياء من تتمة معجزات الأنبياء، وكل رسول كان له أتباع ظهرت لهم كرامات ومخرقات للعادات". هذا بعض كلامه.

وقال القاضى عياض فى "الشفا":

ومنها ما أبرزه من خلقه على أتم وجوه الكمال والجلال، وتخصيصه بالمحاسن الجليلة، والأخلاق الحميدة، والمذاهب الكريمة، والفضائل العديدة، وتأييده بالمعجزات الباهرة، والبراهين الواضحة، والكرامات البينة التى شاهدها من عاصره ورآها من أدركه، وعلمها علم يقين من جاء بعده حتى انتهى علم الحقيقة ذلك إلينا، وفاضت أنوارها علينا - ﷺ - كثيراً.

فهذا صريح بأن كرامات الأولياء الآن إنما هى من فيض بحر النبوة، ولا شك أن كل قطرة مأخوذة من البحر منسوبة إليه لكونها كالجزء منه، ولو انتقلت من طرفها إلى طرف آخر.

ألا ترى لو فتح البحر مثلاً على قناة، وجرى الماء فيها، فإن ماء القناة حينئذ يوصف بوصفين: فمن قال: هذا ماء القناة فبالنظر إلى الطرف، ومن قال: "هذا ماء البحر" فبالنظر إلى الأصل الذى انتقل منه.

فكذلك يقال فى الخارق للعادة: "هذا كرامة" بالنظر إلى كون الذى جرى الخارق على يديه وليّا، ويقال أيضًا عليه: "هذا معجزة؛ لكون الولىّ اغترفه من بحر معجزات نبيّه.

والعجب من ابن السبكى حيث أوّل كلام أبى تراب، ولم يأخذه على ظاهره، وقد صرح فى الطبقات بما يقتضى الأخذ بظاهر كلامه من غير تأويل، فإنه قال:

اعلم أن كل كرامة ظهرت على يد صحابى أو ولىّ أو تظهر إلى يوم

يقوم الناس لرب العالمين، فإنها معجزة للنبى ﷺ؛ لأن صاحبها إنما نالها بالاقتداء به ﷺ، وهو المعترف له بأنه المقدم خليفة الله وصفوته وسيد البشر الذى من بحره يستخرج الدرر، ومن غيثه يستخرج المطر.

وهذا المعنى يصلح أن يكون سببًا إجماليًا عامًا فى الإظهار لا سيما فى عصر الصحابة رضوان الله عليهم، فإن الكفار إذا رأوا ما يظهر على يديه الخوارق آمنوا بنبيهم ﷺ وعلموا أنهم على الحق. هذا آخر كلامه.

و إذا تدبرته بتأمل رأيت مقتضاه هو ظاهر كلام أبى تراب بلا شك. والله أعلم.

قال الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله فى لطائف المنن:

"قال أبو تراب النخشبى لأبى العباس الرقى رحمه الله: ما يقول أصحابك فى هذه الأمور التى يكرم الله بها عباده؟

قال: ما رأيت أحداً إلا وهو يؤمن بها. فقال: من لم يؤمن بها فقد كفر. إنما سألتك من جميع الأحوال، فقال: ما أعرف لهم قولاً ؟

فقال: بلى، قد زعم أصحابك أنها ليست كرامات، وإنما هى خدع من الحق يخدع بها أهل الإرادة ليقفوا على حدودهم، وحتى لا يلحقوا مقامًا ليس لهم. وليس الأمر كذلك، بل إنما الخدع فى حال السكون إليها، فمن لا يفرح بها ولم يساكنها، فتلك مرتبة الربانيين، وكان هذا من أبى تراب بعد أن عطش أصحابه فضرب بيده الأرض، فنبع الماء، فقال فتى هنالك أريد أن أشربه فى قدح! فضرب بيده إلى الأرض فناوله قدحا من زجاج أبيض فشرب وسقانا. قال أبو العباس الرقى: وما زال القدح معنا إلى مكة.

الكرامة والاستقامة

والقول الفصل فى ذلك أنه لا ينبغى أن تُطلب أدبًا مع الله تعالى ومن أظهرت عليه عظم؛ لأنها شاهدة له بالاستقامة مع الله.

لكن قال أيضًا فى كتابه "الحِكَم": ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة" قال شارحه ابن عباد: الكرامة الكاملة عند أهل الحقائق إنما هى حصول الاستقامة والوصول إلى كمالها، ومرجعها إلى أمرين: صحة الإيمان بالله تعالى، وإتباع ما جاء به رسول الله ﷺ ظاهرًا وباطنًا.

فالواجب على العبد أن لا يحرص إلا عليها، ولا تكون له همة إلا فى الوصول إليها.

وأما الكرامة بمعنى خرق العادة، فلا عبرة بها عند المحققين؛ إذ قد يرزق ذلك من لم تكمل له الاستقامة.

قال الأستاذ حامل لواء الشريعة والحقيقة أبو الحسن الشاذلى قدس الله روحه:

"إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل بالاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة، فمن أعطيها ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مُغتر كذّاب، أو ذو خطاء فى العلم والعمل بالصواب.

كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا، فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا، وكل كرامة لا يصحبها الرضا عن الله فصاحبها مستدرج مغرور، أو ناقص، أو هالك مثبور" انتهى.

وقال وارثه وخليفته قطب الدائرة المحمدية سيدى أبو العباس المرسى "رضى الله عنهما، ورضى عنا بها" "ليس الشان من تطوى له الأرض فإذا

هو بمكة وغيرها من البلدان، إنما الشان من تطوى عنه أوصاف نفسه فإذا هو عند الله"

وقيل لأبى محمد المرتعش رحمه الله: "إن فلانًا يمشى على الماء".

"فقال: عندى مَن مكّنه الله تعالى من مخالفة هَواه، فهو أعظم من المشى على الماء وفى الهواء".

وقيل لأبى يزيد البسطامى: إن فلانًا يمرُّ فى كل ليلة إلى مكة!

فقال: الشيطان يمر فى لحظة من المشرق إلى المغرب، وهو فى لعنة الله. وقيل له أيضًا: إن فلانًا يمشى على الماء! فقال: الحيتان فى الماء، والطير فى الهواء أعجب من ذلك.

وقيل لأبى بكر الشبلى رحمه الله: إن أبا تراب جاع فى البادية، فرأى البادية كلها طعامًا! فقال: عبدٌ وقف به، ولو بلغ إلى محل التحقيق، لكان كمن قال: "إنى أظلُّ عند ربى يطعمنى ويسقين"(١).

لماذا أكثرت الكرامات فى العصر الأخير

قال ابن عطاء الله فى لطائف المنن: اعلم: أن الكرامة تارة تظهر للولىّ فى نفسه، فالمراد تعريفه بقدرة الله، وفرديته، وأحديته، وأن قدرته لا تتوقف على الأسباب، وأن العوائد هو حاكم عليها ليست هى حاكمة عليه، وإنما جعل العوائد بالوسائط والأسباب حجب قدرته وسحب شمس أحديته، فواقف عندها مخذول، وناقر منها إليها هو بالعناية موصول.

وقال الأستاذ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه: فائدة الكرامة تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأزلية، ولأجل أنها

---

(١) رواه البخارى.

تثبيت لمن أظهرت له ربما وجدها أهل البدايات فى بداياتهم، وفقدها أرباب النهايات فى نهاياتهم.

إذ ما عليه أهل النهايات من الرسوخ فى اليقين والقوة والتمكين لا يحتاجون معه إلى تثبيت، وهكذا كان السلف - رضى الله عنهم - لم يحوجهم الحق سبحانه وتعالى إلى وجود الكرامة الحسية لما أعطاهم الله من المعارف الغيبية، والعلوم الإشهادية، ولا يحتاج الجبل إلى مرساة، فالكرامة رافعة لزلزلة الشك فى إدامته، وشاهدة له بالاستقامة عن الله تعالى "فى إقامته".

ثم قال: والقول الفصل فى ذلك أنه لا ينبغى أن تطلب مع الله تعالى، ومن أظهرت عليه عظم؛ لأنها شاهدة بالاستقامة مع الله تعالى، كما تقدم.

القسم الثانى: وهو أن تظهر الكرامة فى الولىّ لغيره، فالمراد بذلك تعريف ذلك العبد الذى شهدها بصحة طريق هذا الولى الذى أظهرت عليه هذه الكرامة.

إما أن يكون جاحداً فيرجع إلى الاعتراف، أو كافراً فيعود إلى الإيمان، أو شاكّا فى خصوصية هذا العبد فأظهرت عليه ليعرفك الله بما فيه من ودائع الإحسان انتهى.

وقال أبو نصر السراج: سألت أبا الحسن بن سالم فقلت له: ما معنى الكرامات، وهم قد أكرموا حتى تركوا الدنيا اختياراً؟ وكيف أكرموا بأن يجعل لهم الحجارة ذهبًا. فما وجه ذلك؟

فقال: لا يعطيهم ذلك لقدرها، ولكن يعطيهم ذلك حتى يحتجوا به، على نفوسهم عند اضطرابها وجزعها من فوت الرزق الذى قسمه الله لهم، فيقولون: الذى يقدر على أن يُصيّر تلك الحجارة ذهبًا كما تنظر إليه الآن، أليس بقادر أن يسوق إليك رزقك من حيث لا تحتسب ؟!

فيحتجون بذلك على ضجيج نفوسهم عند فوت الرزق، ويعطون بذلك حجج نفوسهم فيكون ذلك سببًا لرياضة نفوسهم، وتأديبًا لها.

قال أبو نصر: وقد حكي لنا ابن سالم في معنى في معنى ذلك حكاية عن سهل بن عبد الله رضى الله عنه أنه قال: كان رجل بالبصرة يقال له إسحاق بن أحمد، وكان من أبناء الدنيا.

فخرج من الدنيا أعني: من جميع ما له وتاب، وصحب سهلاً، فقال يومًا لسهل: يا أبا محمد: إن نفسي هذه لم تترك الضجيج من خوف فوت القوم والقوام!! فقال له سهل: خُذ ذلك الحجر واسأل ربك أن يُصيّره لك طعامًا تأكله!.

فقال: ومّن إمامي في ذلك حتى أفعل؟! فقال سهل: إمامك إبراهيم رضى الله عنه حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1] المعنى في ذلك أن النفس لا تطمئن إلا برؤية العين. قال: فكذلك الأولياء يظهر الله لهم الكرامات تأديبًا لنفوسهم، وتهذيبًا لها.

وقال بعض العلماء: ما رأيت هذه الكرامات إلا على أيدى البُلْه من الصادقين.

وكان رجل يصحب سهل بن عبد الله - رضى الله عنه - فقال له يومًا: ربما أتوضأ للصلاة فيسيل الماء من بين يدى قضبان ذهب، وقضبان فضة! فقال سهل: أما علمت أن الصبيان إذا بكوا أُعطوا خشخاشة ليشتغلوا بها.

وقال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه: جاءني أبو حفص النيسابورى مرة ومعه جماعة، وكان فيه رجل قليل الكلام. فقال لأبى حفص: قد كان فيما مضى لهم الآيات الظاهرة، يعنى به الكرامات، وليس لك شيء من ذلك!

---

(١) سورة البقرة - آية ٢٦٠.

فقال له أبو حفص رضى الله عنه: تعالَ! فجاء به إلى سوق الحدادين إلى كير عظيم فحمى فيه حديدة عظيمة، فأدخل يده فى الكير، فأخذ الحديدة المحماة، فبردت فى يده.

فسأل بعضهم عن معنى إظهار ذلك من نفسه! فقال: كان الرجل مشرفًا على حالة، فخشى على حاله أن يتغير عليه إن لم يظهر له ذلك، فخصه بذلك شفقة عليه وصيانة لحاله، وزيادة لإيمانه، بل ربما يفرّ عنها العارفون ويخاف منها المحققون.

قال بعض السلف: ألطف ما يخادع به الأولياء الكرامات والمعونات.

الكرامة ليست علامة على الأفضلية

وقال أبو يزيد البسطامى: كنت فى بدايتى يريدنى الحق تعالى الآيات والكرامات فلا ألتفت إليها، فلما رآنى كذلك جعل لى إلى معرفته سبيلاً.

وقال الإمام اليافعى رحمه الله تعالى فى "نشر المحاسن": لا يلزم أن يكون كل من له كرامة من الأولياء أفضل من كل من ليس له كرامة منهم، بل قد يكون بعض من ليس له كرامة منهم أفضل من بعض من له كرامة؛ لأن الكرامة قد تكون لتقوية يقين صاحبها، ودليلاً على صدقه، وعلى فضله، لا على افضليته وإنما الأفضلية تكون بقوة اليقين، وكمال المعرفة بالله، فكل من كان أقوى يقينًا، وأكمل معرفة كان أفضل.

ولهذا قال قطب العلوم وتاج العارفين سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد:

"قد مشى رجال باليقين على الماء، ومات بالعطش أفضل منهم يقينًا".

وقال أيضًا: "اليقين ارتفاع الريب فى مشهد الغيب".

وقال الأستاذ سيد علماء الطريقة، وإمام أهل الحقيقة أبو الحسن الشاذلى:

"اليقين اسم لدرك الحقائق بلا ريب ولا حجاب، والمعرفة كشف العلوم مع الحجاب، فإذا رفع الحجاب سميناه يقينًا".

وقال قطب مقامات اليقين، وحجة الله على العارفين أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله فى فضل اليقين:

"ابتداء اليقين المكاشفة؛ ولذلك قال بعض السلف: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا. ثم المعاينة والمشاهدة"

وقال أيضًا: حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين، وفى سكون إلى غير الله تعالى.

قال اليافعى: قلت: ولأن الكرامة قد تقع لكثير من المحبين والزهاد، ولا تقع لكثير من العارفين، والمعرفة أفضل من المحبة عند الأكثرين، وأفضل من الزهد عند الكل؟ لأن الزهد من أوائل المقامات، والمحبة أول الأحوال التى هى بعد مجاوزة المقامات.

وفى فضل المعرفة على الزهد قال قطب الأحوال أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه:

العارف طيّار، والزاهد سيّار.

وزاد غيره: وأنّى يلحق السيّار بالطيّار؟!

وقال معدن المعارف ولسان الحكمة صاحب الكرامات الجمّة ذو النون المصرى رضى الله عنه: الزهاد ملوك الآخرة، وهم فقراء العارفين.

وقال: ركضت أرواح الأنبياء في ميدان المعرفة فسبقت روح نبينا ﷺ أرواح الأنبياء عليهم السلام إلى رياض الوصال.

وقال الشيخ الكبير العارف: أبو تراب النخشبي رضي الله عنه: العارف لا يكدره شيء، ويصفونه بكل شيء.

وقال الأستاذ أبو القاسم الجنيد رحمه الله: العارف مَن نطق الحق عن سرّه وهو ساكت.

وقيل: المعرفة توجب الحياء والتعظيم، كما أن التوحيد يوجب الرضا والتسليم.

وقال بعضهم: المعرفة اطلاع العبد على الأسرار بمواصلة الأنوار.

وقال الشيخ الكبير أبو بكر الشبلي رحمه الله: العارف لا يكون لغيره لاحظًا، ولا لكلام غيره لافظًا، ولا يرى لنفسه غير الله حافظًا.

وقال الشيخ العارف الكبير العارف بالله تعالى أبو العباس أحمد أبي الخير اليمني المعروف بالصياد رضي الله عنه: المعرفة وجود تعظيم في القلب يمنع الشخص عن الانقياد لغير معروفة.

وكان العارف بالله الشهير سمنون المحب رضي الله عنه يقدم المحبة على المعرفة، خلافًا للجمهور منهم. وكان يقول: ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة؛ لقوله ﷺ:

"المرء مع مَن أحب"(١).

قلت: وليس العارف بالله تعالى يخلو عن المحبة الخاصة، ولعلهم أرادوا التفريق بين المعرفة والمحبة في التفضيل بينهما: إن بعضهم يغلب عليه سكرا لمحبة وشدة الهيمان والولَه بمحبوبه، وبعضهم لا يغلب عليه ذلك، بل

---

(١) رواه الشيخان.

يغلب عليه المشاهدات، وظهور الأسرار والمعارف، وكثرت التجليات مع اعتدال حاله فى المحبة فى غالب الحالات. فيكون أكثر معارف من الأول، والأول أشد ولهًا وسُكْرًا؛ ولهذا قال بعضهم الحب لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه. وهذا آخر كلام اليافعى رحمه الله.

قلت: قد شاهدت من شيخنا وإمامنا سيدى محمد المغربى الجمع بين المحبة والمعرفة، لكن الغالب العلم بالله، بدليل ما يظهر من المعارف والأسرار الربانية، والعلوم الجليلة الوهبية، بل هو بحر لا ساحل له، فرضى الله عنه ونفعنا به فى الدنيا والآخرة.

"تنبيه":

من كرامات الصحابة والتابعين:

قد وقع من بعض الصحابة والتابعين خوارق لا يمكن إنكارها، كجريان النيل بكتاب عمر، ورؤيته وهو على المنبر بالمدينة جيشه بنهاوند فى أرض فارس حتى قال لأمير الجيش: "يا سارية الجبل الجبل".

كما روى البيهقى فى الدلائل، واللالكاء فى السنة، وابن الأعرابى فى كرامات الأولياء بسند حسن عن نافع عن ابن عمر قال:

"وجّه عمر جيشًا، وأمّر عليهم رجلا يُدعى سارية وجهّزه إلى بلاد فارس، فاشتد على عكره الحال على باب نهاوند وهو يحاصرها، وكثرت جموع الأعداء، وكاد المسلمون ينهزمون، فصعد عمر رضى الله عنه المنبر، ثم خطب وجعل ينادى بأعلى صوته فى أثناء خطبته: "يا سارية الجبل"!

فأسمع الله عز وجل سارية وجيوشه أجمعين وهم على باب نهاوند صوته، وقالوا: هذه صوت أمير المؤمنين، فأسندوا ظهورهم إلى الجبل، فهزم الله العدو، وانتصروا عليهم وفتحوا".

قال الإمام اليافعى: فكان فى ذلك كرامتان بيِّنتان: إحداهما ما كشف له عن حال سارية وأصحاب المسلمين، وحال العدو.

وثانيهما: بلوغ صوته إلى سارية فى بلاد بعيدة.

وقال الشيخ تاج الدين السبكى فى "الطبقات الكبرى": وسمعت الشيخ الإمام الوالد رحمه الله يزيد فى القصة: أن عليًا رضى الله عنه كان حاضرًا، فقيل له: ما هذا الذى يقول أمير المؤمنين، وأين سارية منا الآن؟!

فقال علىّ كرم الله وجهه: دعوه، فما دخل فى أمر إلا وخرج منه، ثم تبين الحال بالآخرة.

قلت: عمر رضى الله عنه لم يقصد إظهار هذه الكرامة، وإنما كشف له ورأى القوم عيانًا، وكان كمن هو بين أظهرهم، أو طويت له الأرض وصار بين أظهرهم حقيقة، وغاب عن مجلسه بالمدينة، واشتغلت حواسه بما دهم المسلمين بنهاوند، مخاطب أميرهم خطاب من هو حقيقة.

واعلم أن ما يجرى الله تعالى على لسان أوليائه من هذه الأمور يحتمل أن يعرفوا بها، ويحتمل أن لا يعرفوا بها، وهى كرامة على كلا الحالتين. انتهى.

وقال ابن السبكى أيضًا: ومنها قصة الزلزلة. "قال إمام الحرمين - رضى الله عنه - فى كتاب "الشامل": أن الأرض زلزلت فى زمن عمر رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه والأرض ترتجف وترتج، ثم ضربها بالدرة وقال: أقرى ألم أعدل عليك؟ فاستقرت من وقتها.

قلت: كان عمر رضى الله عنه أمير المؤمنين على الحقيقة فى الظاهر والباطن، وخليفة الله فى أرضه وفى ساكنى أرضه، فهو يُعزر الأرض ويؤدبها بما يصدر منها كما يعزر ساكنيها على خطيئتهم.

فإن قلت: أيجب على الأرض تعزيز وهى غير مكلفة؟

قلت: هذا الآن جهل وقصور على ظواهر الفقه، اعلم أن أمر الله وقضاءه متصرف في جميع مخلوقاته، ثم منه ظاهر وباطن، فالظاهر ما بحث عنه الفقهاء من أحكام المكلفين، والباطن ما استأثر الله بعلمه، وقد يطلع بعض أصفيائه، ومنهم الفاروق سقى الله عهده، فإذا ارتجت الأرض بين يدى من استوى عنه الظاهر والباطن عزرها.

وقوله "ألم أعدل عليك" والمعنى - والله أعلم - أنها إذا وقع عليها جور الولاة جديرة بأن ترتج غير ملومة على التزلزل بما على ظهرها، وأما إذا لم يكن جور بل كان الحكم بالقسط قائما، ولم يأت الوقت المعلوم فما لها أن ترتج إلا فى وقتين:

أحدهما: الوقت المعلوم المشار إليه فى قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ إذا وكذلك إذا قال الإنسان مالها، حدثت هى بأخبارها، وذكرت أن الله أوحى لها على ما قال الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[1].

والثانى: وقت وقوع الجور عليها من الولاة فإنها تُعزر إذ ذاك.

ثم قال ابن السبكي أيضًا فى قصة النيل": فانظر إلى عمر كيف يخاطب الماء ويكاتبه، ويكلم الأرض ويؤدبها، وإذا قال لك المغرور: أين أصل ذلك السنة؟ قل: أيها المتعثر فى أذيال الجهالات، أيها المطالب الفاروق بأصل، وإن شئت أصلاً بل أصولاً لا أصلاً واحدًا:

---

(١) سورة الزلزلة - الآيات ١ - ٥.

أليس قد حنّ الجذع إلى المصطفى ﷺ حتى ضمه إليه؟ أليس شكى إليه البعير ما به؟ أليس فى قصة الظبية جبجة؟ والأصول فى هذا النوع لا تنحصر. انتهى كلامه والله أعلم.

هل يشترط التكليف فى وقوع الكرامة؟

قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى: ظهور الكرامات على الأولياء جائز، والدليل على جوازه أنه أمر موهوم حدوثه فى العقل، وحدوثه لا يؤدى حصوله إلى رفع أصل من الأصول، فواجب وصفه سبحانه وتعالى بالقدرة على إيجاده.

وإذا وجب كونه مقدوراً لله سبحانه فلا شىء يمنع جواز حصول وظهور الكرامات علامة صدق من ظهر عليه فى أحواله، فمن لم يكن صادقًا فظهور مثله عليه لا يجوز، والذى يدل على أن تعريف القديم - سبحانه - إيانا حتى يفرق بين من كان صادقا فى أحواله، وبين من هو مبطل من طريق الاستدلال أمر موهوم.

ولا يكون ذلك إلا باختصاص الولى بما لا يوجد مع المفترى فى دعواه وذلك الأمر هى الكرامة التى أشرنا إليها ولا بد من أن تكون الكرامة فعلاً ناقضًا للعادة فى أيام التكليف ظاهراً على موصوف بالولاية فى معنى تصديقه فى حاله.

قلت: تصريحه بأيام التكليف فيه نظر؛ لأن ظاهر كلامه يشعر أن الكرامات لا تقع إلا فى وقت التكليف، وليس الأمر كذلك فقد صرح اليافعى رحمه الله فى "روض الرياحين" بوقوع الكرامات من الصبيان الذين لم يبلغوا سنّ التمييز، فضلاً عن التكليف.

ثم قال فى آخر كلامه: ومنهم الكبار والصغار والعبيد، وأحسن ما يجاب به عن القشيرى هو إما أن يكون تصريحه بذلك جريا على الغالب أو

اختياراً لنفسه؛ لأن له بعض اختيارات تخالف مذهب الجمهور كاختياره بعدم حصول إنسان لا من أبوين، وقلب جماد بهيمة والله أعلم.

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله فى "لطائف المنن" : اعلم أن الكرامات تنحصر فى طرفين: الطرف الأول الجواز.

والثانى: الوقوع، أما الجواز فلا خفاء أن ظهور الكرامة من الأولياء من الممكنات؛ لأنه إن لم يكن من الممكنات فإما أن يكون من الواجبات.

وإما أن يكون المستحيلات، فإن المستحيل هو الذى لو قدر وجوده لزم منه محال عقلى، ولا يلزم من تقدير وجود الكرامات محال عقلى، وباطل أن يكون جريان الكرامات على الأولياء وجوبًا؛ إذ الطائفة مجمعة على أنه قد يكون الولى وليا، وإن لم تخرق له العادة.

فتعين أن يكون من الجائزات، وكل شىء كان من الجائزات فلا يحيله العقل، "وكل ما لا يحيله العقل ولم يرد بعدم وقوعه نقل فجائز أن يكرم الله تعالى به أولياءه" .

ثم إن هذه الكرامة قد تكون طيًا للأرض، ومشيًا على الماء، وطيرانًا فى الهواء، واطلاعًا على كوائن كانت وكائن بعدُ لم تكن من غير طريق العادة.

ثم قال: وهذه كلها كرامات ظاهرة حسية، وكرامات هى عند أهل الله أفضل منها وأجل، وهى كلها الكرامات المعنوية كالمعرفة بالله والخشية له ودوام المراقبة ودوام المسارعة لامتثال أمره ونهيه، والرسوخ فى اليقين والقوة والتمكين ودوام المتابعة والاستماع من الله والفهم عنه ودوام الثقة به وصدق التوكل عليه، إلى غير ذلك. انتهى.

"تنبيه":

شُبَه القدرية وجوابها

فى شُبَـه القدرية فى منع الكرامـات وذكر فسـادها قالوا تجـويز الكرامة يفضى إلى السـفسطة؛ لأنه يقتـضى تجويز انقلاب الجـبل ذهبًا، والبحـر دمًا عبيطًا.

قال ابن السبكى: والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

أحدها: أنـا لا نسلم بلوغ الكرامة إلى هذا المبلغ، كـما اقـتضـاه كلام القشيرى.

والثانى: وهو ما اقتضاه كـلام أئمتنا إنما يجوز بلوغها هذا المبلغ، ولكن لا يقتـضى ذلك سفسطة؛ لأن مـا ذكرتم بعينه وارد عليكم فى زمـان النبوة، فإنه يجوز ظهور المعجزة بذلك ولا يؤدى إلى سفسطة.

والثـالث: أن التجـويزات العقليـة لا تقدح فى الأمـور العاديـة وجواز تغييرها بسبب الكرامة تجوز عقلى، ولا تقدح الشُبه فيها.

الشبهة الثانية: التباس الكرامة بالمعجزة

الشبهة الثـانية: قالوا: لو جازت الكرامة لاشتبهت بالمعـجزة، فلا يبقى للمعجزة دلالة على ثبوت النبوة.

والجواب: منع الاشتباه؛ لأن المعجزة مقرونة بدعوى النبوة، ولا كذلك الكرامة بل الكرامة مقرونة بالانقياد للنبى وتصديقه، والسير على طريقه.

قال شيخنا العارف بالله قطب الدائرة سيدى أحمد المغربى: ومما يستدل به شـرعًا لإثبـات الكرامـات قوله عليـه الصـلاة والسلام "إنى لأجـد نفس

الرحمن من قِبل اليمن، فينسّم من هذه النفس رائحة ففيه. إثبات أصل الكرامات لأويس القرنى رضي الله عنه، وإذا ثبت ذلك لواحد من القوم فى زمنه ﷺ كما ثبتت فى غير زمنه للخضر رضى الله عنه بدليل النص، وبعده للسيد عمر بن الخطاب رضى الله عنه بطريقة الاستقراء والتتبع.

فإذا كان هذا الأمر واقعًا لغير الأنبياء فى زمنه ﷺ وقبل زمنه وبعده ثابتًا بهذه الأدلة تبين إثبات الكرامات للأولياء ووقوعها لهم فى كل زمان لأنها أثر المحبة الواردة فى آية حقيقة الاتباع والصحبة، وهى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(١).

أى: يكرمكم الله بأنواع المعارف واللطائف والتوفيق والتأييد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾(٢)، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾(٣)؛ لشدة الاعتناء به والتسديد. انتهى.

وقولهم: إنما دلت المعجزة على تصديق النبى من حيث انخراق العادة، فكذلك الكرامة. قال ابن السبكى: هذا كلام ساقط، فإن مجرد خرق العادة ليس المقتضى للنبوة.

ولو دلّ خرق العادة على النبوة بمجرد لوجب أن يدل أشراط الساعة وما سيظهر منها على ثبوت نبوة؛ إذ العوائد تتخرق بها، ولكن قال شيخنا العارف بالله تعالى المغربى ما نصه:

"ولقائل أن يقول: نزول آية طلوع الشمس من مغربها، وهى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾(٤) قائم مقام طلوعها فى

---

(١) سورة آل عمران - آية ٣١.

(٢) سورة الأنفال - آية ١٧.

(٣) سورة الزمر - آية ٣٦.

(٤) سورة الأنعام - آية ١٥٨.

عصره ﷺ وإن تأخر طلوعها بعد زمانه، وكذلك سائر الأخبار منه ﷺ وإن تأخر زمن وقوعها عنه؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، فهى معتبرة من جزئيات المعجزات الدالة على ثبوت النبوة، فحينئذ لا يصح الاستدلال بمثل هذا للقدرية". انتهى.

ثم قال ابن السبكي أيضًا فى الرد عليهم: ومن أعظم البدائع فطرة السماوات والنشأة الأولى، فإنها لم تخترع لثبوت نبوة.

قلت: إنما اخترعها الله - تعالى - بمحاسن حكمته الأزلية الداخلة فى عموم قدرته ليستدل العقلاء بوجودها على تفرد وجود إلهية الحق - تعالى - ودوام بقائه لقوله تعالى: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾(١)، ولقوله تعالى [فى الحديث]: "كنتُ كنزًا لا أُعرف فأحببت أن أُعرف"(٢).

واعلم أن حكمة الله تعالى التى ظهرت بوجود هذا العالم بعد العدم لا يمكن من حيث الحكمة وجود عالم آخر أبدع منه، إذ لو كان كذلك للزم نقص الحكمة بأحكم منها "وحكم الله لا يمكن نقصها بأحكم منه".

بيان لطيف فى المراد من الحكمة

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(٣).

فلم يمكن بعد هذا الأحسن وجود أحسن منه حكمة لا قدرة؛ لأن الحكمة لا تكون حكمة إلا إذا امتنع إمكان أحكم منها، ومن هنا ظهر لى عموم وخصوص مطلق بين: الحكمة والقدرة، وهو أن كل حكمة إلهية قدرة

(١) سورة الغاشية - الآيتان ١٧، ١٨.

(٢) قال ابن تيمية والزركشى وابن حجر والسيوطى لا يعرف له سند صحيح.

(٣) سورة التين - آية ٤.

ولا عكس؛ لأن القدرة صادقة بالحكمة وبغيرها، وكثير من الناس لا يعرف الفرق بينهما؛ ولهذا غلط بعض من أدركناه من العلماء في ذلك لما اعترض على حجة الإسلام الغزالي - رضي الله عنه - في مسألة ليس في الإمكان أبدع مما كان.

وحاصل اعتراضه: أنه زعم أن الحجة - رحمه الله - قد وافق المعتزلة في وجوب الأصلح، وليس الأمر كما زعم. أنشدني شاعر العصر شمس الدين القادري لنفسه:

لقد كان خلق الله في صدق وعده قديمًا على أستي الكمال وحده

فلم يك في الإمكان عند ذوي النهى بأبدع مما كان صدقا لوعده

الشبهة الثالثة: اللبس عند الدعوى

"الشبهة الثالثة": قالوا: لو ظهر لوليّ كرامة لجاز الحكم له بمجرد دعواه أن هذه يملك حبة من الحنطة، وفلسًا واحدًا من غير بيّنة لظهور درجته عند الله تعالى المانعة من كذبه، لا سيما في هذا القدر اليسير. وهذا باطل لإجماع المسلمين المؤيد لقول رسول رب العالمين - ﷺ: "البيّنة على المدعى، واليمين على المدعى، واليمين على من أنكر"(١).

والجواب: أن الكرامة لا توجب عصمة الوليّ ولا صدقه في كل الأمور، وقد سُئل شيخ الطريقة أبو القاسم الجنيد رحمه الله: أيزني الوليّ؟ فقال: وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

وهب أن الظن حاصل بصدقه فيما ادعاه إلا أن الشارع جعل لثبوت الدعوى طريقًا مخصوصًا، ورابطًا معروفًا لا يجوز تعديه، ولا العدول عنه،

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

ألا ترى أن كثيراً من الظنون لا يجوز الحكم بها؛ لخروجها عن الضوابط الشرعية.

"تنبيه":

حفظ الولى والفرق بين الحفظ والعصمة

اعلم: أن الولىّ الذى جذبه الحق تعالى إلى جنابه، وأطلعه على معارفه محفوظ كما أن النبى معصوم. قال بحر الحقائق محيى الدين بن عربى - قدس الله روحه - فى كتاب "العظمة":

والفرق بين العصمة والحفظ: أن العصمة تعمّ الذات كلها، والحفظ يتعلق بالجوارح مطلقًا، ولا يشترط استصحابه فى السر، فقد تخطر للولى خواطر لا يقتضيها طريق الحفظ، لكن لا يظهر لها حكم على الجوارح البتة.

وقال أيضًا - رضى الله عنه - فى كتابه "مفاتيح الغيب".

والفرق بين العصمة والحفظ: أن النبى لا يكون أبدًا محلاً لإلقاء الشيطان فى القلب وإن عرفه وقلب عين ما أتى به، لكن قد يأتى فى الصورة الجسدية الظاهرة، فيخاطبه ويكلمه كما يكلم الكفار وأمثالهم، فهذا هو المعصوم.

والمحفوظ: هو الذى ينزل عليه الروحانيات العُلى بما شاء الحق - سبحانه وتعالى - من العلوم والأسرار، إلا الحقيقة الجبرائيلية فإنها مخصوصة بالرسل على القلوب لا يشاركهم فيها من ليس من جنسهم، وما عدا جبريل فإنه يتنزل على قلوب العباد.

وتنزلهم بضربين: الضرب الواحد بالأسرار والعلوم، وهو مخصوص بالأولياء والضرب الآخر نزل بالإلهام لفعل الخير، وهو التى عبر عنها المشرع بلمّة المَلَك. وهذا عموم بالناس كافة من جميع خلق الله.

ثم إن هذا الصنف العالى من الأولياء لم يعصموا من تنزلات الشياطين على قلوبهم مثل عصمة الأنبياء، لكن عصموا رضى الله عنهم عن أن يكون الشيطان حكم عليكم كحكم ما ألقى عليه بتأثير فيهم بحسب ما أراده الشيطان، فأعطاهم الله تعالى التمييز بين ما يرد به الملَك، وبين ما يرد به الشيطان، وإن كان خيراً.

وغرض الشيطان منه أن يلبس عليه بأن ذلك من الله على طريق الملك، فإذا اتصف بهذا الجهل سُرّ الشيطان بذلك لعلمه أن الجهل أشد العذاب، فإنه الذى أوقعه فى الخسران المبين حيث لم يعقل عن ربه ما أراده فى أمره بالسجود، وقد صير الله ذوات هؤلاء الأولياء كالإكسير الذى يقلب النحاس والرصاص ذهبًا إبريزاً، ويقلب الحديد والقلعى فضة بيضاء، فيأخذ به هذا الشيطان.

فإن كان شرا عرفوه وأعدوه لموطنه الذى يليق به، وإن كان خيرا أخذوه من حيث إن الحق أرسله إليهم على يد عدوّهم، فقد سخر لهم عدوّهم فى أن يلقى إليهم ما فى سعادتهم من حيث لا يعلم كما فعلت الأنبياء بما ألقى إليهم فى الصورة الظاهرة؛ لأن قلوبهم ليس له إليها سبيل، فخيل لسليمان جنة من أحسن ما يكون من الجنان ليفتنه وما علم عِلم قلب الأعيان.

فعندما أبصرها سليمان عليه الصلاة والسلام - عرف أنها جاءت من الله تعالى له جنة معجلة ونعيمًا على يدى عدو لا يعرف ما أتى به، فألقى عليها من إكسير الحضور الإلهى وزن ذرة، فخرجت من عالم الخيال إلى عالم الحس، وكان فى بعض بساتينه وجنانه، فخرجت عن سلطان الشيطان؛ لأن سلطانه فى عالم الخيال والتمثيل ليس له حضرة غيرها فخرج خاسراً مدحوراً ذليلاً لما أصابه من تصيير ما أتى به بُعداً قُربة إلى الله وزلفى، وهدية من الله عظمى، فهذا هو الفرق بين المعصوم والمحفوظ.

الفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان

وقال العلامة شمس الدين ابن القيم: والفرق بين إلهام المَلك، وإلقاء الشيطان من وجوه:

منها: أن ما كان لله موافقًا لمرضاته وما جاء به رسوله فهو من المَلك، وما كان لغيره غير موافق لمرضاته فهو من إلقاء الشيطان.

ومنها: أن ما كان أتم إقبالاً على الله وإنابة إليه وذكره له وهمة صاعدة إليه فهو المَلك، وما أورث ضد ذلك فهو من الشيطان.

ومنها: أن ما أورث أُنسًا ونورًا في القلب وانشراحا في الصدر فهو من الملك، وما أورث ضد ذلك فهو من الشيطان.

ومنها: أن ما أورث سكينة وطمأنينة فهو من الملك، وما أورث قلقًا وانزعاجًا فهو من الشيطان.

فالإلهام الملكى يكثر في القلوب الطاهرة النقية قد استنارت بنور الله تعالى، فللملك بها اتصال، وبينه وبينها مناسبة، فإنه طيب طاهر لا يجاور إلا قلبًا يناسبه، فتكون لمة الملك بهذا القلب أكثر من لمة الشيطان.

وأما القلب المظلم الذى قد اسود بدخان الشهوات والشبهات فإلقاء الشيطان ولمته به أكثر من لمة الملك.

الشبهة الرابعة: الأنس بالكرامة حتى تصير عادة

"الشبهة الرابعة": قالوا إذا تكرر ما يخرق العوائد على الأولياء أفضى ذلك إلى التحاق خوارق العادات في حقوقهم بالمعتادات، وصارت عاداتهم على خلاف العادات فلو ظهر شيء في زمنهم كانت عوائدهم في انخراق العوائد.

ثم أخرجوا الشبهة على وجه آخر فقالوا: لو جاز إظهارها على صالح لجاز إظهارها على صالح آخر إكرامًا له، وهكذا إلى عدد كثير إذ ليس اختصاص عدد منهم لذلك أولى من عدد آخر، وحينئذٍ تصير عادة فلا يبقى ظهورها دليلاً على النبوة ويطوى بساط النبوة رأسًا.

قال ابن السبكي: وجميع ما ذكروه في هذه الشبهة تمويه لا حاصل تحته، وقعقعة لا طائل فيها، ولأئمتنا في ردها وجهان:

فمن أئمتنا من منع توالى الكرامات واستمرارها حتى تصير في حكم العوائد. بل منع بعض المحققين من تصور توالى المعجزات على الرسل المتعاقبين إذا كان يؤدى إلى تصيير المعجزات معتادة، فهذه طريقة في الرد على هذه الشبهة حاصلها إنما يجوز ظهور الكرامات على وجه لا تصير به عادة.

ومن أئمتنا - وهم المعظم - مَن جوّز توالى الكرامات على وجه الاختفاء بحيث لا يظهر ولا يشيع ولا يلتحق بالمعتاد؛ لئلا تخرج عن كونها كرامة عند عامة الخلق؛ ولهذا لو توالت الكرامة على الولى حتى ألفها واعتادها لا يخرجه ذلك عن طريق الرشاد ووجه السداد.

والمعجزة تتميز عمن تكررت عليه الكرامة بالإظهار والإشاعة، وتحدى النبوة، فإذا تميزت الكرامة عن المعجزة لم ينسد باب الطريق إلى معرفة النبى.

ومن تمام الكلام في ذلك أن أهل القبلة متفقون على أن الكرامة لا تظهر على الفسقة الفجرة، وإنما تظهر على المتمسكين بطاعة الله عز وجل.

وبهذا لاح أن الطريق إلى معرفة الأنبياء لا يُسد، فإن الولى بتوفيق الله تعالى ينقاد للنبى إذا ظهرت المعجزة على يديه، ويقول: معاشر الناس، هذا نبىّ الله فأطيعوه، ويكون أول منقاد له، ومؤمن به.

والحاصل: أن ما يظهر على يد الرهبان ليس من الكرامات، بل هو مكر واستدراج كما هو ظاهر كلام إمام الحرمين، ولا يرد على هذا قصة أهل الكهف لكونهم كانوا عبدة أصنام[1]، فإن الكرامات التى وقعت لهم إنما كانت إرشادا وتبصرة من الله تعالى وسببًا لكشف الغطاء عن قلوبهم والله أعلم.

"فصل"

حاصل الفرق بين المعجزة والكرامة

قال الإمام النجيب ابن النجيب أبو المعالى إمام الحرمين فى كتابه الإرشاد: "ما صار إليه أهل الحق انخراق العادات فى حق الأولياء، وأطبقت المعتزلة على منع ذلك. والأستاذ أبو إسحاق - رضى الله عنه يميل إلى قريب من مذاهبهم.

ثم مجوزوا الكرامات تحزبوا أحزابًا: فمن صائرين إلى أن شرط الكرامة الخارقة للعادة أن تجرى من غير اختيار من الولى، وصار هؤلاء إلى أن الكرامة تفارق المعجزة من هذا الوجه. وهذا غير صحيح لما سنذكره.

وصار صائرون إلى تجويز وقوع الكرامة على حكم الاختيار، ولكنهم منعوا وقوعها على قضية الدعوى، وقالوا: لو ادعى الولى الولاية، واعتضد فى إثبات دعواه بما خرق العادة، فإن ذلك ممنوع.

وهؤلاء يعدون ذلك مميزاً بين الكرامة والمعجزة.

وهذه الطريقة غير مرضية أيضًا، ولا يمتنع عندنا ظهور خوارق العوائد

---

(١) الصحيح: أن أهل الكهف لم يكونوا من عبدة الأصنام فقد وصفهم الله سبحانه وتعالى بالإيمان، حيث قال جل وعلا فى سورة الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾.

مع الدعوى المفروضـــة، وصار بعض أصحابنا إلى أن ما وقع مـعجزة لنبى لا يجوز تقدير وقـوعه كرامة لولىّ، فيمتنـع عند هؤلاء أن ينفلق البحر وتنقلب العصا ثعبانًا، وتحيا الموتى كرامة لولىّ، إلى غير ذلك من آيات الأنبياء.

وهذه الطريقـة غير سـديدة أيضًا والمرضىّ عـندنا تجويز جمـلة خوارق العوائد في معارض الكرامات. هذا نصه بحروفه.

وهذا الذى ذهب إليـه من تجويز جمـيع خوارق العـادات فى الكرامات كالمعجزات، وكونهما لا يفـترقان إلا فى تحدى النبوة هو الذى ذهـب إليه أئمة الأصول المحققون المعتمدون المشهورون.

قال الإمـام أوحد وقتـه فى فنّه القاضى أبو بكر البـاقلانى - رضى الله عنه - فيما صنف مما روى عنه العلماء رضى الله عنه ورويناه عنهم:

إن المعجـزات تختص بالأنبياء، والكرامـات تكون للأولياء، ولا يكون للأولياء مـعجزة؛ لأن من شرط المعجـزة اقتران دعوى النبـوة بها، والولى لا يدعى النبوة، فالذى يظهر عليه لا يكون معجزة.

وقال الإمـام أبو بكر بن فورك رضى الله عنه فـيما رواه العـلماء عنه، ورويا عنهم:

المعجزات دلالات الصدق، ثم إن ادعى صاحبـها النبوة، فالمعجزة تدل على صدقـه فى مقـالته، وإن أشار صـاحبـها إلى الولاية دلت المعـجزة على صدقه فى حـالته فتـسمى "كـرامة، ولا تسمى معـجزة، وإن كانت من جنس المعجزات.

وكذلك شرط الإمام حجـة الإسلام أبو حامد الغزالى - رضى الله عنه - فى الرسالة القـدسية فى الفعل الخـارق للعادة فى كونه معـجزة: أن يكون

مقـرونًا بتحـدى النبى مشـيرًا باشـتراط التحـدى المذكور إلى أنه الفـارق بين الكرامة والمعجزة.

وكذلك فى كـتابه "الاقـتصاد فـى الاعتقـاد" لما ذكر خـرق العادة فى الكرامات قـال: وذلك مما لا يستـحيل فى نفسـه؛ لأنه ممكن، ولا يؤدى إلى بطلان المعجزة؛ لأن الكرامة عـبارة عما يظهره من غير اقـتران التحدى، وإن كان مع التحدى فإنا نسميه معجزة.

وقـال الإمـام فـخـر الدين الـرازى - رضى الله عنه - فى كـتـابه "المحصّل":

" ثم تتميز الكرامة من المعجزة بعدم التحدى".

وقـال الإمام ناصـر الدين البـيـضاوى - رضى الله عنـه - فى كتـابه "المصباح":

"الكرامات جائزة، خـلافًا للمعتزلة والأسـتاذ وتتميز عن المعـجزة بعدم التحدى".

وقال الإمام محمد بن عبد الملك الـسلمى الطبرى فى كتابه "المعين على مقـتضـى الدين": "والكرامات من جنس المعـجزات؛ لأن كلـيهـما دلالات الصدق، وإنما يخـتلفان حيث التسـمية، فمن ادعى النبوة دلت المـعجزة على صدقه "فى حالته".

وتسمى حينئذ معجزة؛ لأنهـا دالة على صدق مدعى النبوة فى مقالته، ومن أشار إلى الولاية دلت من جنس المعجزة على صـدقه فى حالته، وتسمى كرامة، ولا تسمى معجزة".

وقال الإمام نصر الدين الطوسى - رضى الله عنه - فـى كتابه "قواعد العقائد":

"والفعل الخارق الذى يظهر على أحد من غير تحدٍّ يُسمى كرامة، وتختص بها الأولياء".

وقال الإمام حافظ الدين النسفى - رضى الله عنه - فى عقيدته:

"كرامات الأولياء جائزة خلافًا للمعتزلة؛ للمشهور من الأخبار، والمستفيض من حكايات الأخيار. ولا يقال: لو جاز ذلك لانسدّ طريق الوصول إلى معرفة النبى رضى الله عنه؛ لأن المعجزة تفارق دعوى النبوة، ولو ادعاها الولى لكفر من ساعته".

وقال الإمام أبو القاسم القشيرى - رضى الله عنه - فى رسالته: وظهور الكرامات علامة صدق مَن ظهرت عليه فى أحواله .. ثم قال بعد هذا: فشرائط المعجزات كلها أو أكثرها توجد فى الكرامة، إلا دعوى النبوة.

قلت: فهؤلاء عشرة أئمة ممن لهم تصنيف محقق، وكلام معتبر فى العقائد من أهل السنة، اقتصرت عليهم ولا حاجة إلى كثرة التعداد، فبعض هؤلاء المذكورين فيه الكفاية، لا سيما الستة الأولين.

وقد اتفقوا على أن الفارق بين الكرامة والمعجزة هو تحدى النبوة فقط، ولم يشترط أحمد منهم كونا لكرامة دون المعجزة فى جنسها وعظمها، فدل ذلك على جواز استوائهما فيما عدا التحدى المذكور، كما صرح به إمام الحرمين المشهور. فيجوز اجتماع الكرامة والمعجزة سوى التحدى فى إحياء الموتى وغيره من سائر الخوارق، وهو المطلوب.

ومما يشهد لصحة هذا قوله ﷺ فى الحديث الصحيح: "لو أقسم على الله لأبره"[1] فإن الإبرار المذكور عام فى كل مقسم فيه من إحياء الموتى وغيره.

---

(١) رواه البخارى.

أنواع الكرامات

وقال اليافعي في "نشر المحاسن": وأما وقوع ذلك من كثير من الأولياء، أعني عظام الكرامات، فذلك خارج عن الحصر، وها أنا أقتصر على التنبيه على ذلك بذكر عشرة أنواع:

النوع الأول: إحياء الموتى، من ذلك ما روينا عن الأستاذ الإمام أبي القاسم القشيري رضي الله عنه في رسالته المشهورة بإسناد فيها:

"أن أبا عبيد البشري - رضي الله عنه غزا سنة من السنين، فخرج في البريّة، فمات المهر الذي كان تحته وهو في البرية، فقال: يا رب أعرناه حتى نرجع إلى "بشر".

يعني إلى قريته، وإذا المهر قائم، فلما غزا ورجع إلى "بشر" قال لابنه: يا بني خذ السرج عن المهر. قال ابنه: فقلت له: إنه عرق، فإن أخذت السرج داخله الريح. فقال: يا بني إنه عارية. قال: فلما أخذت السرج وقع المهر ميتا"[1].

قلت: وأبو عبيد هذا أحد شيوخ الرسالة الكبار - رضي الله عنهم -

وروينا عن الأستاذ المذكور أيضًا في رسالته بإسناده فيها:

"أنه انطلق رجل من اليمن، فلما كان في بعض الطرق نهق حماره فمات، فقام فتوضأ وصلى ركعتين، ثم قال: اللهم إني جئت مجاهدًا في سبيلك ابتغاء مرضاتك، وإني أشهد أنك تُحيي الموتى، وتبعث من في القبور، لا تجعل لأحدٍ على منّة اليوم، أطلب تبعث حماري، فقام الحمار ينفض أذنيه".

---

(١) ذكر هذه الكرامة الإمام ابن تيمية في كتابه النبوات ونعمل على تحقيق كتاب النبوات.

قلت: وقد نقل بعض أهل العلم في بعض التصانيف هذا عن الإمام الشعبى - رضى الله عنه وقال فيه: أقبل قوم من اليمن متطوعون فى سبيل الله، فهلك حمار رجل منهم، ثم ذكر ذلك.

وروينا أيضًا عنه فى رسالته بإسناده فيها: أن محمد بن سعيد البصرى قال: بينما أنا أمشى في بعض طريق البصرة إذ رأيت أعرابيًا يسوق جملاً، فالتفتُّ فإذا الجمل وقع ميتًا، ووقع الرجل والقتب، فمشيت ثم التفت فإذا الأعرابى يقول: يا مسبب كل سبب، ويا مأمول من طلب، رُدّ علىّ ما ذهب بجمل الرجل والقتب، وإذا الجمل قائم والرجل والقتب فوقه.

وروينا عنه أيضًا فى رسالته بإسناده فيها إلى الشيخ الكبير حجة الله على العارفين قطب المقامات، وصاحب الكرامات سهل بن عبد الله - رضى الله عنه - أنه قال:

الذاكر لله على الحقيقة لو همّ أن يُحيى الموتى لفعل، يعنى بإذن الله ومسح يده على عليل بين يديه فبرأ وقام".

قال الشيخ الجليل العارف صفى الدين بن أبى المنصور - رضى الله عنه - فى رسالته:

كان الشيخ مفرج الدماميلى - رضى الله عنه - وليًا عظيم الشأن، وكان عبدًا حبشيًا، اصطفاه الله، فلما تكاثرت كراماته أحضرت عنده فراخ مشوية، فقال لها: طيرى فطارت، إحياءً بإذن الله تعالى.

قلت: وأخبرنى بعض الصالحين من أهل اليمن: أن هِرّة كانت تأتى الشيخ الكبير العارف بالله المعروف بالأهدل - بالدال المهملة - شيخ أبى الغيث - رضى الله عنهما -، فيطعمها من عشائه، وكان اسمها "لؤلؤة"،

فضربهـا خادم الشيخ "ذات ليلة فماتت، فرمى بهـا الخادم فى مكان، أو قال فى خرابة لـيلا؛ لئلا يعلم البشيخ" بذلك، فلمـا جاء الشيخ "سكـت عليه ليلتـين أو ثلاثًا، ثم قال له: أين لؤلؤة؟ فـقال: ما أدرى. فـقال الشـيخ: ما تدرى! ثم ناداها الشيخ: لؤلؤة، فجاءت إليه تجرى، فأطعمهما.

وأخـبرنـى بعض أهل العلم والصـلاح ممن أعـتقـده من بلاد المغـرب بإسناده: أنه توفى بعـض أصحـاب الشيـخ الكبيـر العـارف بالله أبى يوسف الدهمانى رضى الله عنه، فجزع أهله، فلما رأى الشـيخ المذكور شدة جزعهم جاء إلى الميت، وقـال له قم بإذن الله تعالى، فقـام وعاش بعد ذلك مـا شاء الله من الزمان.

وسمعت من غيـر واحد وقوع مثل هذه القضية من شيـخين من شيوخ اليـمن فى اثنين من الناس مـاتا، ثم عـاشـا بإذن الله القـادر على كل شىء سبحانه.

قلت: ومن المشهـور ما روى مسنـدا من خمس طرق عن جمـاعة من الشيوخ الأجـلاء أولى الفضائل والمفاخر فى كتـاب مناقب الشيخ الإمام قطب العارفين قـدوة الـسالكين الذى خضعت لقـدمه رقابُ الأولياء الأكـابر، أستاذ الطريقة علم الشريعة.

والحقـيقة الذى تواترت كـراماته، أو قربت من التـواتر، وخرجت عن حصـر الحاصر، سلالة الشـرف الحسيب النسـيب محيى الدين عبـد القادر - قدس الله روحه، ونور ضـريحه- :قالوا: جاءت إليـه امرأة بولدها، وقالت له: إنى رأيت قلب ابنى هذا شديد التـعلق بك، وقد خرجت عن حـقى فيه لله عز وجل ولك فـقبله الشيخ، وأمره بالمجـاهدة وسلوك الطريق، فدخلت عليه أمه يومًا، فـوجدته نحيلاً مصفرًا من آثار الجـوع والسهر، ووجدته يأكل

قرصًا من شعير، فدخلت على الشيخ فوجدت بين يديه إناء فى عظام دجاجة مسلوقة قد أكلها، فقالت له يا سيدى تأكل لحم الدجاج ويأكل ابنى خبز الشعير، فوضع يده على تلك العظام وقال: قومى بإذن الله الذى يحيى العظام وهى رميم فقامت دجاجة سوية، وصاحت! فقال الشيخ: إذا صار ابنك هكذا، فليأكل ما شاء".

قالوا: ومرت على مجلسه حدأة طائرة فى يوم شديد الحر، فصاحت، فشوشت عل الحاضرين فقال: يا ريح خذ رأس هذه الحدأة فوقعت لوقتها فى ناحية، ورأسها فى ناحية، فنزل الشيخ من الكرسى، وأخذها فى يده، وأمرّ بيده الأخرى عليها وقال: "بسم الله الرحمن الرحيم" فحييت، وطارت الناس يشاهدون ذلك.

كلام الموتى

والنوع الثانى: كلام الموتى من ذلك: ما أخبرنا الفقيه العالم السيد الجليل القاضى نجم الدين الطبرى المكى، عن جده الفقيه الإمام العلامة "محب الدين الطبرى: أنه كان فى مقبرة "زبيد من بلاد اليمن مع الفقيه الإمام العلامة" الولى الكبير العارف بالله تعالى إسماعيل الحضرمى رضى الله عنهم أجمعين: "أن رجلاً كان يمشى معه بجبانة، وكان اسمه محب الدين"، فقال: يا محب الدين. تؤمن بكلام الموتى؟! "قلت" له: نعم يا سيدى "منك".

فقال: إن صاحب هذا القبر يقول لى: أنا فلان بن فلان من حشو الجنة.

قلت: قوله (منك) أى: إذا كان الإخبار بذلك صادرة منك آمنت.

ومفهوم ذلك منك أو ممن هو مثلك فى جلالة القدر، وعظم الكرامات.

وأخبرنى بعض الشيوخ الصالحين من أهل اليمن عن الفقيه إسماعيل المذكور أيضًا: أنه مرّ يومًا على مقبرة، ومعه ناس كثيرون فبكى بكاء شديدًا، ثم ضحك فى الحال!!

فسئل عن ذلك، فقال: رأيت أهل هذه المقبرة يعذبون، فحزنت لذلك ثم سألت الله أن يشفعنى فيهم فشفعنى. فقالت صاحبة هذا القبر - وأشار إلى قبر قريب العهد بالحفر -: وأنا معهم يا فقيه إسماعيل! أنا فلانة المغنية! فضحك وقلت: وأنتِ معهم. قال: ثم أرسل "إلى" الحفار وقال له: هذا قبر مَن؟ فقال: قبر فلانة المغنية".

قلت: وهذه القضية فيها لهذا السيد المذكور أربع كرامات.

إحداها: ما كشف له عن حال الموتى، والثانية: كلام الموتى له أعنى قالت له المغنية المذكورة، والثالثة: قبول شفاعته فيهم، والرابعة: علمه بقبول شفاعته وناهيك بهذه الأربع كرامات فى قضية واحدة، وخصوصًا الثالثة، وهى قبول شفاعته فى الجمّ الغفير ورفع العذاب عنهم ببركته.

وروينا فى رسالة الإمام أبى القاسم القشيرى: أن الشيخ الكبير العارف بالله أبا سعيد الخراز - رضى الله عنه - قال: كنت مجاورًا بمكة - حرسها الله تعالى -، فخرجت يومًا بباب بنى شيبة، فرأيت شابًا حسن الوجه ميتًا، فنظرت فى وجهه، فتبسّم فى وجهى.

وقال لى: يا أبا سعيد: أما علمت أن الأحياء أحياء وإن ماتوا، وإنما ينقلون من دار إلى دار. وأخبرنى بعض الأولياء من شيوخ اليمن أنه كلمه السيد الجليل الولى الكبير الشيخ العارف بالله تعالى محمد بن أبى بكر الحكمى قدس الله روحه، بعد أن انشق قبره وخرج منه وهو مشدود!.

قال: فقلت له: يا سيدى أراك مشدود الوسط! فقال: نحن بعد فى الطلب، من زعم أنه قد وصل فقد كذب لأنه لا يصل إلا إلى محدود، والله تعالى عن النهايات والحدود.

بصيرة فى إثبات الوصول ونفيه

قلت: قول هذا السيد: "من زعم أنه قد وصل فقد كذب" صحيح، وقول غيره من الشيوخ: "فلان قد وصل، وذكرهم الوصال، والوصل، والوصول صحيح.

والجمع بين ذلك: أن مراد الشيخ المذكور من توهم أنه قد وصل إلى مقام ليس فوقه مقام، أو إلى نهاية ليس فوقها مطلب، فقد كذب؛ لأن فضل الله ليس له نهاية، فما من مقام إلا فوقه يمكن أن يصل إليه العبد بفضل الله تعالى.

ومراد من أطلق من الشيوخ لفظ الوصول وما فى معناه من الألفاظ المذكور: الوصول إلى مقام معلوم عندهم يصل الولى فيه إلى أشياء من المشاهدات للصفات، والاطلاع على عالم الملكوت والمعارف والأسرار وغير ذلك ما لا يطلع عليه غيرهم مع اعتقادهم أن فوق ذلك مقامات ليس لها نهاية.

وهذا كما تقول فى جماعة من الأئمة إنهم بلغوا رتبة الاجتهاد، مع علمنا أن ذلك ليس هو نهاية العلم، فمن بلغ تلك الرتبة، يقال له: مجتهد، ومَن تعداها يقال له أيضًا مجتهد، مع التفاوت، وعدم البلوغ إلى نهاية لا يستفيد منها المجتهد بعدها علمًا.

وهذا الذى ذكرته فى الوصول مما ظهر لى، ولما كتبته وجدت بحمد الله ما يؤيده من كلام السيد الكبير العارف بالله الإمام السالك المحقق شيخ الإسلام شهاب الدين السهرودى - قدس الله روحه - قال فيما روينا عنه فى كتاب "العوارف":

"وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو فى رتبة من الوصول، ثم يتفاوتون: فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال وهو رتبة فى

التجلى، فينفى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله، ويخرج فى هذه الحالة من التدبير والاختيار وهذه رتبة فى الوصول.

ومنه من يوقف فى مقام الهيبة والأنس بما يكاشف قلبه من مطالعة الجلال والجمال وهذا تجلى بطريق الصفات، وهو رتبة فى الوصول.

ومنهم من يرقى إلى مقام الفناء مشتملاً على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة، مغيبًا فى شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين وهذا المقام رتبة فى الوصول.

وفوق هذا حق اليقين، ويكون من ذلك فى الدنيا للخواص لمح، وهو سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى تحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه، وهذا من أعلى رتب الوصول.

وإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بعد فى أول المنازل وأين الوصول هيهات منازل طريق الوصول لا تنقطع أبدًا الآباد فى عمر الآخرة الأبدى، فكيف فى العمر القصير الدنياوى.

انتهى كلامه وهو نصه بحروفه، وهو كلام عزيز نفيس من إمام عارف محقق، أحببت نقله فى هذا المكان ليقف عليه كل من وقف على هذا الكتاب ممن يعرف الوصل ويجهله، ويصدق به ويكذبه من معتقد ومنتقد، وكلام الشيوخ فى ذلك كثير من ذلك قول الشيخ الكبير السيد الجليل أبى الحسن النووى - رضى الله عنه -: الاتصال مكاشفات القلوب، ومشاهدات الأسرار".

وقول بعضهم: هو وصول السر إلى مقام الذهول.

قلت: ومن المشهور ما روى مسندًا من ثلاث طرق عن جماعة من

الشيوخ الأكابر فى مناقب قطب الأليـاء الشيخ عبد القادر - رضى الله عنه - قالوا:

زار شيخنا محيى الدين عبـد القادر الكيلانى - قدس الله روحه - تربة الشونيزى يوم الأربعاء السابع والعشريـن من ذى الحجة سنة تسع وخمسمائة، وعنه جَمع كثير من الفقهاء والفـقراء، ووقف عند قبر الشيخ حماد الدباس - رضى الله عنه - زمنًا طويلاً.

حتى اشتـد الحر، والناس واقفون خلفه، ثـم انصرف والسرور بيّن فى وجهه. فسئل عن طول قيامه. فـقال: كنت خرجت من بغداد فى يوم جمعة منتصف شعبـان سنة تسع وتسعين وأربعمائة مع جماعـة من أصحاب الشيخ حماد - رضى الله عنه - لنصلى الجـمعة فى جامع الرصافـة، والشيخ معنا، فلما كانا عند قنطـرة النهر، دفعنى فرمانى فى الماء، وكـان فى شدة البرد فى كوانين[1].

فقلت: بسـم الله غسل الجمـعة، وكان علىّ جـبّة صـوف، وفى كمى أجـزاء، فرفـعت يدى لئلا تبـتل، وتركـونى وانصرفـوا، فخـرجت من الماء وعصرت الجـبة وتركتهم، وقـد تأذيت بالبرد أذى كبيرًا، فطـمع فى أصحابه فنهرهم وقال: إنما أوذيه لأمتحنه فـأراه رجلاً لا يتحرك، وإنى رأيته اليوم فى قبره وعليه حلة من جـوهر، وعلى رأسه تاج من ياقوت، وفى يده أساور من ذهب، ويده اليمنى.. لا تطيعه.

فقلت: ما هذا؟ قـال: هذه اليد التى رميتك بها، فـهل أنت غافر "لى ذلك"؟ قلت: نعم. قال: فاسأل الله تعالى أن يردها علىّ!! فوقفت أسأل الله تعالى فى ذلك، فقـام خمسة آلاف من أولياء الله تعافى فى قـبورهم يسألون الله عز وجل أن يقبل مسألتى فيه، ويشفعون عندى فى تمام المسألة. فما زلت

---

(١) كوانين: أى كانون أول (ديسمبر) وكانون ثان (يناير).

أسأل الله عز وجل فى مقامى ذلك حتى رد الله تعالى يده وصافحنى بها، وقد تم سروره.

قالوا: فلما اشتهر هذا القول ببغداد اجتمع المشايخ والصوفية من أهل بغداد من أصحاب الشيخ حماد ليطالبوا الشيخ عبد القادر بتحقيق ما قال فى الشيخ حماد، وتبعهم خلق كثير من الفقراء، وأتوا إلى المدرسة فلم يتكلم منهم أحد إجلالا للشيخ، فبدأهم بمراده وقال لهم: اختاروا رجلين من المشايخ نبين لكم ما ذكرته على لسانهما.

فأجمعوا على الشيخ أبى يعقوب يوسف بن أيوب الهمذانى كان يومئذ قد ورد إلى بغداد، والشيخ ابى محمد عبد الرحمن ابن شعيب الكردى، وكان مقيمًا ببغداد، وكانا رضى الله عنهما من ذوى الكشف الخارق والأحوال الفاخرة، وقالوا له: أمهلناك فى بيان ذلك على لسانهما. فقال لهم: بل تقومون من مقام هذا حتى يتحقق لكم هذا الأمر، فاطرق واطرقوا، فصاح الفقراء من خارج المدرسة.

"وإذا الشيخ يوسف قد جاء حافيا يشد فى عدوه حتى دخل المدرسة"، وقال: أشهدنى الله عز وجل الساعة الشيخ حماد، وقال لى: يا يوسف، أسرع إلى مدرسة الشيخ عبد القادر وقل للمشايخ الذين فيها: صدق الشيخ عبد القادر فيما أخبر به عنى. فلم يتم كلام الشيخ يوسف حتى جاء الشيخ عبد الرحمن وقال مثل قول الشيخ يوسف، فقام المشايخ كلهم يستغفرون للشيخ عبد القادر رضى الله عنهم أجمعين.

قلت: وأخبرنى بعض الأخيار عن بعض الصالحين أنه يأتى قبر والده فى بعض الأوقات، ويتحدث معه.

ورؤينا أن السيد الجليل الشيخ العارف بالله نجم الدين الأصبهانى - رضى الله عنه - طلع مع جنازة بعض الصالحين، فلما جلس بعض الناس

من أهل العلم يلقن الميت، ضحك الشيخ نجم الدين، ولم يكنا لضحك عادته! فسُئل عن ذلك؟ فقال: سمعت صاحب القبر يقول: ألا تعجبون من ميت يُلقن حيًا.

وغير ذلك مما يطول ذكره من كلام الموتى للأولياء رضى الله عنهم.

والنوع الثالث: انفلاق البحر وجفافه

من ذلك ما روى فى بعض التصانيف: أنه مات بعض الفقراء فى سفينة، قال الراوى: فأردنا إلقاءه فى البحر، فرأيت البحر قد انشق نصفين، ونزلت السفينة إلى الأرض، فخرجنا وحفرنا له قبرًا، ودفناه، فلما فرغنا استوى الماء وارتفعت السفينة، وسرنا.

وروينا عن الأستاذ أبى القاسم القشيرى - رضى الله عنه - فى رسالته عن بعضهم قال:

كنا فى مركب، فمات رجل عليه كان معنا، فأخذنا فى جهازه، وأدرنا أن نلقيه فى البحر، فصار البحر جافًا، ونزلت السفينة، فخرجنا وحفرنا له قبرًا ودفناه، فلما فرغنا استوى الماء وارتفع المركب وسرنا.

والنوع الرابع: انقلاب الأعيان:

اعلم أن هذا النوع مما كثر وقوعه لهم واشتهر عنهم كانقلاب الحصى جواهر وذهبا لكثير منهم، وانقلاب ماء البحر عذبًا، ولبعضهم سمنًا، ولبعضهم مع الرمل سويقًا وسكرًا، ولبعضهم الأسطوانة ذهبا وفضة، ولبعضهم حب الباذنجان ذهبا، ولبعضهم نشارة الخشب دقيقًا، ولبعضهم الحطب ذهبا وغير ذلك مما يتعذر حصوله.

وهذه الأشياء مشهورة مذكورة في الكتب المشتملة على بعض كرامات الأولياء كالرسالة، وغيرها.

وأعجب من ذلك كله انقلاب الخمر سمنًا، كما اشتهر ذلك ورواه الكبار من الشيوخ وغيرهم عن الشيخ الكبير العارف بالله عيسى المعروف بالهتار - بالتاء المثناة من فوق، والراء في آخره، وكسر الهاء مخففا - اليمنى قدس الله روحه في حكاية عجيبة ذكرها الإمام اليافعي في كتاب "روض الرياحين" وكتاب "الإرشاد".

ومختصرها: "أن الشيخ المذكور مرّ على امرأة بغيّ. فقال لها: بعد العشاء آتيك. ففرحت بذلك، وتزينت. فلما كان بعد العشاء دخل عليها البيت، فصلى ركعتين ثم خرج فقالت: أراك خرجت؟ فقال: حصل المقصود، فهو رد عليها وأراد أزعجها عما كانت عليه، وخرجت بعد الشيخ، وتابت على يديه، فزوجها من بعض الفقراء. وقال: اعملوا الوليمة عصيدة ولا تشتروا لها إداماً.

ففعلوا ذلك، وأحضروه، فحضر الفقراء والشيخ معهم كالمنتظر لشيء يؤتى به، فوصل الخبر لأمير كان رفيقًا لتلك المرأة، فأخرج قارورتين مملوئتين خمراً وأرسل بهما إلى الشيخ وأراد أن يستهزأ بالفقراء ويفضحهم. وقال للرسول: قل للشيخ قد سرّني ما سمعت، وبلغني أن ما عندكم إدام فخذوا هذا فتأدموا به!

فلما أقبل الرسول قال له الشيخ: أبطأت. ثم تناول إحداهما فخضها ثم حبّها ثم كذلك الأخرى، ثم قال للرسول: اجلس فكل، فأكل.

فطعم سمنًا لم ير مثله طعما وريحا ولونا، فرجع وأخبر الأمير بذلك، فجاء الأمير فأكل وتحير مما رأى، فتاب أيضًا على يد الشيخ.

والحمد لله الذي جعل هؤلاء السادة سببًا للسعادة.

وأحسن ما اتفق من قلب الأعيان، وأفضل ما اشتهر عن كثير منهم أنهم شهدوا يأكلون طعامًا طيبًا لم يتغير عن حاله المعهود من سماطات شوهدت كلها دمًا عبيطًا ما عدا الذى يأكلون منه.

وهذه الكرامات من أتم الكرامات، وأعظم من ذلك كله وأعزّ وقوعًا ما رويناه عن جماعة من الصالحين رووا عن بعض الأولياء الكبار أنه طلب بعض الناس أن يدعوا له الله تعالى أن يرزقه ولدًا ذكرًا فقال له: إن أحببت ذلك فسلم للفقراء مائة دينار، فسلم إليه ذلك.

ثم جاءه بعد ذلك بمدة فقال له الشيخ: الدنانير التى سلمتها ناقصة. قال: يا سيدى ما ناقصة إلا شيئًا يسيرًا فإن أحببت أن يوفّى لك فأوفِ لك، فأوف لنا. فقال: نعم يا سيدى.

ثم ذهب وعاد إليه بتوفية ذلك النقصان. فقال له الشيخ: اذهب فقد أوفيناك كما أوفيت. فرجع إلى منزله، فوجد الولد غلاما بقدرة الله تعالى، وكرامة لأوليائه بقدرة الله تعالى.

قلت: ومن انقلاب الأعيان: ما روى مسندا فى كتاب "مناقب الشيخ عبد القادر الكيلانى" المتقدم ذكره فى النوع الأول والثانى: أنه رضى الله عنه - خرج يومًا إلى صلاة الجمعة، فمرّ به فى الطريق ثلاثة أحمال خمر للسلطان قد فاحت رائحتها واشتدت، ومعها صاحب الشرطة وأعوان الديوان، فقال لهم الشيخ: قفوا. فلم يفعلوا، وأسرعوا فى سوق الدواب. فقال الشيخ للدواب. قفى. فوقفت مكانها كأنها جمادات فضربوها ضربًا عنيفًا فلم تتحرك من مواضعها.

وأخذهم كلهم القولنج، وجعلوا يتقلبون على الأرض يمينا وشمالا من شدة ما دهمهم، وضجوا بالشيخ وأعلنوا بالتوبة والاستغفار، فزال عنهم

وانقلبت رائحة الخمر ففتحوا الأوانى فإذا هى خلّ، ومشت الدواب، فعلت أصوات الناس بالضجيج، وذهب الشيخ إلى الجامع، وانتهى الخبر إلى السلطان، فبكى رعبًا وارتدع عن فعل كثير من المحرمات وجاء إلى الشيخ زائرًا، وكان بعد ذلك يجلس بين يديه متواضعًا متصاغرًا.

وروى عن بعضهم قال: بينما أنا أسير فى فلاة من الأرض، وإذ برجل يدور بشجرة شوك ويأكل منها رطبا، فسلمت عليه فقال: وعليك السلام تقدم وكُل. فتقدمت إلى الشجرة، فكلما أخذت منها رطبا عاد شوكا، فتبسم الرجل وقال: هيهات، لو أطعته فى الخلوات أطعمك الرطب فى الفلوات هذا آخر كلام اليافعى رحمه الله - بحروفه.

وإنما لم أذكر بقية الأنواع العشرة، لأن الشيخ تاج الدين ابن السبكى ذكرها فى الطبقات الكبرى بتمامها، وزاد عليها أنواعًا تزيد على قدرها، وسيأتى ذلك إن شاء الله تعالى.

(تنبيه):

الاستدلال على أن كرامات الأولياء عين معجزات الأنبياء:

ذكر الشيخ الإمام العارف بالله تعالى شرف الدين ابن الفارض - قدس الله روحه - فى التائية أشياء من معجزات الأنبياء، استشهد عليها شيخنا المحقق الربانى العارف بالله تعالى سيدى محمد المغربى بآيات من القرآن العظيم.

وإنما ذكر الشيخ ذلك فى نظم السلوك، ليكون ذلك الباطن بدليل واقعة السيد موسى مع الخضر عليهما السلام ولهذا أتى بأبيات من الكرامات بعد ذلك؛ لأنها مغترفة من بحر النبوة، ولأن التابع لا يتقدم على المتبوع، فها أنا أذكر الآية أولاً ثم أنزل عليها كلامه - رضى الله تعالى عنه: فقال تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾[1] إلى قوله: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾[2] قال ابن الفارض رضى الله عنه:

بذاك علا الطوفان نوحًا وقد نجا به من نجا من قومه فى السفينة
وغاض له ما غاض منه استجابة وجد إلى الجودى بها واستقرت

وقال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[3].

قال ابن الفارض رضى الله عنه:

وسار ومتن الريح تحت بساطه سليمان بالجيشين فوق البسيطة

وقال الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[4].

قال ابن الفارض رضى الله عنه:

وقبل ارتداد الطرف أحضر من سبا له عرش بلقيس بغير مشقة

وقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[5].

قال ابن الفارض رضى الله عنه:

وأخمد إبراهيم نار عدوه ومن نوره عادت له روض جنة

قال تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾[6].

---

(١) سورة هود - آية ٤١.

(٢) سورة هود - آية ٤٤.

(٣) سورة ص - آية ٣٦.

(٤) سورة النمل - آية ٤٠.

(٥) سورة الأنبياء - آية ٦٩.

(٦) سورة البقرة - آية ٢٦٠.

قال ابن الفارض رضى الله عنه:

ولما دعـــا الأطيـــار من كل شـــاهق وقـد ذبحت جـاءته غـيـر عـصـيـة

وقال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾(١).

قال ابن الفارض رحمه الله:

ومن يده مـــوسى عـصـاه تلـقـفـت من السحر أهوالاً على النفس شقت

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾(٢).

قال ابن الفارض رضى الله عنه:

ومن حـجـر أجرى عـيـونا بضـربة بهـا ديمـا أسـقـت وللبـحـر شـقـت

وقال تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾(٤).

قال ابن الفارض رحمه الله:

ويوسف إذ ألقى البـشـير قـمـيصـه على وجـه يـعـقـوب إلـيـه بأوبة

رآه بعـين قـبـل مـقـدمـه بكى عليـه بـهـا شـوقًـا إليـه فـكُفّت

وقال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾(٥).

---

(١) سورة طه - آية ٦٩.

(٢) سورة البقرة - آية ٦٠.

(٣) سورة يوسف - آية ٨٤.

(٤) سورة يوسف - آية ٩٦.

(٥) سورة المائدة - آية ١١٤.

قال ابن الفارض رضى الله عنه:

وفى آل إسرائيل مائدة من السما ء لعيسى أنزلت ثم مُدت

وقال تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(١).

قال ابن الفارض رضى الله عنه:

ومن أكمه أبرا ومن وضح غدا شفا وأعاد الطين طيرا بنفخة

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾(٢).

قال ابن الفارض رضى الله عنه:

وسر انفعالات الظواهر باطنا عن الأذن ما ألقت بوحى البديهة

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾(٣).

قال ابن الفارض رضى الله عنه ونفعنا به:

وجاء بأسرار الجميع مضيضها علينا لهم ختما على حين فترة

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾(٤).

---

(١) سورة آل عمران - آية ٤٩.

(٢) سورة الشورى - آية ٥١.

(٣) سورة الأحزاب - آية ٤٠.

(٤) سورة الصف - آية ٦.

قال ابن الفارض رضى الله عنه:

وما منهم إلا وقد كان داعيًا به قومه للحق عن تبعية

وقال أيضًا مشيراً إلى قوله ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء"(١).

فقال:

فعلمنا منهم نبى ومن دعا إلى الحق منا قام بالرسلية

أى: إن العالم منا الواره لهم كالنبى، والداعى إلى الحق منا كالرسول، والعارف بالله منا كأولى العزم. ولهذا قال:

وعارفنا فى وقتنا الأحمدى من أولى العزم منا آخذ بالعزيمة

[تنبيه]: بيان أن كرامات الأولياء من أسرار الأنبياء:

تقدم أن مذهب أهل الحق ما كان معجزة لنبى جاز أن يكون كرامة لولى، بشرط عدم التحدى.

قال شيخنا العارف بالله محمد المغربى: إنما صارت المعجزة كرامة لولى لربط سر الولاية الجامع بين النبى والولى، وإن اختلفت رتبتهما؛ لاختلاف مراتب أهلهما قال ابن الفارض رضى الله عنه:

وما كان منهم معجزاً صار بعده كرامة صديق له أو خليفة

بعترته استغنت عن الرسل الورى وأصحابه والتابعين الأئمة

أى: بعترة النبى ﷺ العباس وأصحابه والتابعين، وتابعى التابعين من الأولياء والأصفياء فى كل عصر إلى يوم القيامة استغنت بهم الخلق عن الرسل؛ لأن أسرارهم ومعجزاتهم انتقلت بالإرث إليهم بطريق الكرامات؛

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجة والترمذى.

لكون الأمم الماضين عجزت عن حمل أسرار أنبيائهم، فادخر الله تعالى ذلك لخواص الأمة المحمدية، ولهذا صار منهم النوحيون، والإبراهيميون واليوسفيون، والموسويون، والعيسويون، بحسب ما وزع الله عليهم من أسرار الأنبياء والرسل، فهم متفاوتون في المعارف والحقائق بحسب مقامات مورثيهم، وإلى هذا أشار بقوله:

كراماتهم من بعض ما خصهم به بما خصهم من إرث كل فضيلة

فإن قلت: قد قضيت بأن الولاية المحمدية جنس شامل لهذه الأنواع التي ذكرتها "فهل يعلم" التمييز بين أحد الأنواع من الآخر؟

قلت: يعلم ذلك ويظهر بأمرين (أحدهما): أن الكرامات التي أكرمهم الله تعالى بها ترشدنا إلى معرفة توريثهم، فإن وقع فلق البحر لأحد من الأولياء كرامة - كما تقدم ذلك عن بعض الصالحين - علم أنه موسوى، وإن أكرم بالدخول في النار والخروج منها سالما من غير ضرر -.

كما سيأتي ذلك في كلام ابن السبكي - علم أنه إبراهيمي، وإن أكرم بإحياء الموتى أو بكلامهم عُلم أنه عيسوى، وإن أكرم بجميع هذه المذكورة علم أنه وارث الأنبياء الذين كانت لهم هذه الكرامات معجزات؛ إذ ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد، وإن أكرم بنبع الماء أو بإحلائه[1] بعد أن كان مالحا عُلم أنه محمدي.

كما روى من طرق صحيحة عن سيد علماء الطريقة، وإمام أهل الطريقة القطب الوحيد، والغوث الفريد أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه أنه لما وصل إلى حميثرى[2] جميع أصحابه في الليلة التي مات فيها وأوصاهم

(١) إحلائه: أي تحويله إلى ماء عذب.

(٢) جبل على البحر الأحمر يتبع مدينة القصير إحدى مدن محافظة البحر الأحمر وضريحه مزار يأتيه الأتباع والمريدون والمحبون ويقام حوله احتفال سنوي كبير. =

بأشياء وخلا بسيدى أبى العباس المرسى وحده، وأوصاه بأشياء واختصه بما خصه الله به من البركات، فقال لهم: إذا أنا مت فعليكم بأبى العباس المرسى، فإنه الخليفة من بعدى، وسيكون له بينكم مقام عظيم، وهو باب من أبواب الله سبحانه وتعالى، ثم قال لولده سيدى شرف الدين: يا محمد، إملأ لى إناء من هذا البئر؟. فقال ماؤها مالح عازق، والماء عندنا عذب! فقال ائتنى منها، فإن مرادى غير ما تظن، فأتى إليه بإناء من الماء، فشرب منه ومضمض فاه، ومج فى الإناء، ثم قال له: رده إلى البئر. فرجع ورجه إليها، فحلا ماؤها وعذب وكثر بإذن الله تعالى، ثم لما مات رضى الله عنه وغسل تكثر ماء الغسل حتى صار يكفى الركب إذ نزلت عليه.

ولقد ذكر هذه الكرامة الموروثة من المقام المحمدى جماعة من أكابر العلماء كالشيخ تاج الدين ابن عطار الله فى "لطائف المنن" وابن الصباغ فى كتاب مناقبه المسمى بـ"درة الأسرار وتحفة الأبرار" والشيخ الإمام العارف بالله شهاب الدين ابن الميلق فى ديوان المراسلات، وقاضى القضاة بدر الدين ابن جماعة فإنه كان كثيرًا يذكر هذه الكرامة، ويتبجح ويفتخر بصحبته وحضور جنازته بحميثرى والصلاة عليه، وسيأتى الكلام على ذلك أيضًا فى كرامات وفاته إن شاء الله تعالى.

=وتنتشر بين العامة رواية تتضمن أن زيارة ضريح أبى الحسن الشاذلى كمن أدى عمرة، وواجب مشايخ الطرق الصوفية وخاصة الطريقة الشاذلية توعية زواد المكان بعدم صحة هذه الرواية لأن الحج والعمرة من مناسك الدين التى لا يقوم مقامها أى عمل أو عبادة أخرى.

أما زيارة أضرحة الأولياء وغيرهم فهى للعبرة وتذكرة الآخرة لقوله ﷺ: «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكرة بالآخرة».

الأمر الثانى:

من جملة ما يعلم به مورث الـولى: أن يكثر من ذكره عند الموت، قال بحر الحقائق محـيى الدين ابن عربى رضى الله عنه: اعلم أن الأولياء من أمة مـحمـد ﷺ قـد يرث الواحد منهـم موسى عليـه الـسـلام، ولكن من النور المحمدى لا من النور الموسوى، فيكون حاله من محمد ﷺ حال موسى عليه السلام، منه ﷺ.

وربما يظهر من ولىّ عند موته ملاحظة موسى أو عـيسى فيخيل العاصى ومن لا معرفـة له أنه قد تهود أو تنصر لكونه يذكر هؤلاء الأنبـياء عند موته، وإنما ذلك من قوة المعرفة بمقامه. انتهى.

قلت: هذا تحقيـق لملح الإشارة من قوله عليه الصلاة والـسـلام (العلماء ورثة الأنبيـاء) لأن الإشارة هنا إلى العلـماء بالله أرباب المعـارف، وإن كانت العبارة للعلماء بأحكام الله أرباب الظاهر.

- لأن الوراثة من النبوة على قسمين: إما أن تكون ظاهرة، وإما أن تكون باطنة فأهل الشريعة ورثوا العلوم الكسبـية الظاهرية وأهل الحقيقة ورثوا العلوم الوهبيـة الباطنة "فالشـريعة منبع العبارات الـظاهرة والحقيقـة منبع الإشارات الباطنة" فكل عبارة شرعية تحتـها من حيث الإشارات حكم ومعارف وحقائق أطلع الله عليه الأصفـياء والصديقين، فالإشـارة إنما أتت من باطن العبارة لا من ظاهرها.

وما أحسن قـول السهرودى فى "عوارف المعـارف" فى قوله رضى الله عنه "فضل العالم على العابد كفضلى على أمتى"(١).

والإشارة فى هذا العلم ليس إلى علم البيع والشـراء والطلاق والعتاق، وإنما الإشارة العلم بالله تعالى، وقوة اليقين.

---

(١) رواه أبو داود والتـرمـذى وابن مـاجة بلـفظ: (كفـضل القـمـر ليلة البـدر على سـائر الكواكب).

فانظر كيف قال: "والإشـارة" ولم يقل: "والعبارة"؛ لأن الإشارة هنا كما قال لأهل العلم بالله، والعبارة هنا أيضًا لأهل العلم بأحكام الله.

ولهـذا تجد علمـاء الظاهر يسـتـدلون بهذا الحـديث على فـضل العلم الشرعي ويذكرونه في كـتبهم تمسـكًا بظاهر العبارة وأما حـديث: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» باطل لا أصل له باتفاق الحفاظ. والله أعلم.

* * *

(فصل)

استئناس على خرق العادة:

ومما يستأنس به على خرق العادة ما ذكره الإمام الثعالبى، وغيره "أن النبى ﷺ سأل الله - تعالى - أن يريه أهل الكهف، فقال عز وجل: إنك لن تراهم فى الدنيا، ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوا رسالتك فقال النبى ﷺ: كيف أبعث إليهم؟

فقال له جبريل عليه الصلاة والسلام: ابسط كساءك، وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر رضى الله عنه، وعلى الطرف الآخر عمر رضى الله عنه وعلى الثالث عثمان رضى الله عنه، وعلى الرابع عليًا رضى الله عنه، ثم ادع الريح المسخرة لسليمان رضى الله عنه فإن الله تعالى يأمرها أن تطيعك ففعل ﷺ، فحملتهم الريح إلى باب الكهف، فقلعوا منه حجرًا، فلما رآهم الكلب حرك رأسه، وبصبص إليهم، فأومأ برأسه أن ادخلوا، فدخلوا الكهف.

فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد الله تعالى على الفتية أرواحهم، فقاموا بأجمعهم. وقالوا: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

فقالوا: معشر الفتية، إن محمد بن عبد الله يقرأ عليكم السلام.

فقالوا: وعلى محمد السلام ما دامت السماوات والأرض، وعليكم بما بلغتم. وقبلوا دينه. ثم قالوا: أقرئوا رسول الله منا السلام، وأخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج الدجال. فيقال: إن المهدى يسلم عليهم، فيحييهم الله تعالى ويردون عليه، ثم يرجعون إلى رقدتهم فلا يقومون حتى تقوم الساعة، ثم ردتهم الريح.

فقال لهم النبى ﷺ: كيف وجدتموهم؟ فأخبروه الخبر، فقال النبى ﷺ: اللهم لا تفرق بينى وبين أصحابى وأنصارى، واغفر لمن أحبنى وأحب أهل بيتى وخاصتى" انتهى.

تنبيه

تنبيه فى بعض الكرامات:

قال الحافظ أبو نعيم فى "الحلية": كان شيبان الراعى إذا أجنب وليس عنده ماء، دعا ربه فتجىء سحابة، فتظله فيغتسل منها، ثم تذهب وكان إذا ذهب للجمعة خط حول غنمه خطا، فإذا جاء وجدها على حالها لم تتحرك.

وقيل: حج سفيان الثورى مع شيبان الراعى - رضي الله عنهما - فعرض لهما سبع، فقال سفيان لشيبة: ما ترى هذا السبع؟ قال: لا تخف.

ثم أخذ شيبان أذنه فعركها فبصبص وحرك ذنبه. ثم قال لسفيان: لولا مخافة الشهرة لوضعت زادى على ظهره حتى آتى مكة.

وذكر أبو الفرج ابن الجوزى وغيره: أن الإمام أحمد والشافعى -رضى الله عنهما - مرّا يوما بشيبان الراعى، فقال الإمام أحمد: لأسألن هذا الراعى وأنظر جوابه. فقال له الشافعى: لا تتعرض له! فقال: لا بد من ذلك.

فقال له: يا شيبان: ما تقول فيمن صلى أربع ركعات، فسَها فى أربع سجدات ماذا يلزمه؟

قال: على مذهبنا أم على مذهبكم؟

قال: وهما مذهبان؟ قال: نعم، أما عندكم فيلزمه أن يصلى ركعتين ويسجد للسهو. وأما عندنا فالعبد لا يملك شيئًا مع سيده.

فغشي على أحمد، فلما أفاق انصرفا. انتهى.

وقال الشيخ كمال الدين الدميرى: ورأيت فى بعض المجاميع أن الإمام الشافعى رضى الله عنه كان يجلس إلى شيبان الراعى، ويسأله عن مسائل. فقيل له: مثلك يسأل هذا البدوى؟ فيقول لهم: هذا وفق لما علمناه.

وكان شيبان رضى الله عنه أمياً، فإذا كان هذا محل الأمى منهم من العلم هكذا، فما الظن بأئمتهم.

وقد كان المجتهدون كالشافعى وغيره رضوان الله عليهم يعرفون فضل علماء الباطن على علماء الظاهر.

قلت: قد أنكر الشيخ تقى الدين ابن تيمية - رحمه الله - اجتماع الشافعى بشيبان الراعى، وقال: إنه لم يكن فى عصره فضلاً عن الاجتماع، وليس الأمر كما قال فقد نص على اجتماعهما أئمة الإسلام كالقشيرى، وابن الجوزى، وأضرابهما وهذه صفاتهم ناطقة شرقًا وغربًا. والله أعلم.

ومن المحكى عن سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه أن أمير خراسان يعقوب بن الليث أصابته علة أعيت الأطباء. فقيل له: فى ولايتك رجل صالح يقال له: سهل بن عبد الله: ولو استحضرته ليدعو لك رجونا كل العافية، فأحضره وسأله الدعاء فقال: كيف يستجاب دعائى لك وأنت مقيم على الظلم؟

فنوى يعقوب التوبة والرجوع عن المظالم وحسن السيرة فى الرعية، وأطلق من فى سجنه من المظلومين، فقال سهل: اللهم كما أريته ذُلّ المعصية، فأره عزّ الطاعة، وفرِّج عنه، فنهض كأنما نشط من عقال، وعُوفى من ساعته فعرض على سهل مالاً جزيلا! فأبى قبوله.

فلما رجع إلى تستر قيل له بأثناء الطريق: لو قبلت المال الذى عرض عليك، وفرقته على الفقراء؟!

فنظر إلى الحجارة، فإذا هى جواهر. فقال: خذوا ما أردتم ثم قال: من أعطى مثل هذا محتاج إلى مال يعقوب بن الليث".

قال الشيخ كمال الدين الدميرى: هذا من قلب الأعيان، ثم قال بعد أن ساق شيئًا من ذلك:

ويشبه هذا ما حكى عن بعضهم أنه قال: بينما أنا أسير فى فلاة من الأرض إذ رأيت رجلا يدور بشجرة شوك ويأكل منها رطبا جنيا، فسلمت عليه، فرد علىّ السلام.

وقال: تقدم فكل. قال: فتقدمت إلى الشجرة، فكلما أخذت منها رطبا، عاد شوكا، فتبسم الرجل، وقال: هيهات! لو أطعمته فى الخلوات، أطعمك الرطب فى الفلوات. كما تقدم ذلك فى كلام اليافعى.

وحكى عن الشيخ أبى الغيث اليمنى رضى الله عنه أنه خرج يومًا يحتطب فبينما هو يجمع الحطب، إذ افترس السبع حماره فقال له: وعزة الربوبية، ما أحمل حطبى إلا على ظهرك، فخضع له السبع، فحمل الحطب على ظهره، وساقه إلى البلد، ثم حط عنه وخلاّه.

ونقل أن بعض الصالحات رزقت ولدًا، فَرَبَّتْهُ فلما كبر ونشأ قال لها: يا أماه، سألتك بالله إلا ما وهبتنى لله! فقالت: يا بنى، إنه لا يصلح أن يهدى للملوك إلا أهل الأدب والتقى، وأنت يا ولدى عثر لا تعرف ما يراد بك. قال: ولم يأن لك... فامسك عنها.

فلما كان ذات يوم خرج إلى الجبل ليحتطب ومعه دابة، فنزل عنها وربطها وذهب، فجمع الحطب ورجع، فوجد السبع قد افترسها، فجعل يده

فى رقبة السبع وقـال: يا كلب الله، تأكل دابتى» وحق سيدى لأملنك الحطب كمـا تعديت على دابتى، فـحمل على ظهـره الحطب وهو طائع لأمـره حتى وصل إلى دار أمه، فقـرع عليها الباب ففـتحت له، وقالت لما رأت ذلك: يا بُنَى: أمـا الآن فقـد صلحت لخـدمة الملك، اذهـب لله عز وجل، فـوَدَّعَهـا وذهب».

ومن الخوارق أيضًـا: مـا رواه صـاحب "مناقـب الأبرار" عن شـاه الكرمانى: أنه خرج إلى الصـيد، وهو ملك كِرمان، فـأمعن فى الطلب حتى وقع فى بريّة مقفـرة وحده، فإذا بشاب راكبًـا على سبع وحوله سباع كـثيرة، فلما رأته ابتدرت نحوه، فزجرها الشاب عنه.

فبـينما هو كـذلك إذ أقبلت عـجوز بيـدها شربة مـاء فناولتها لـلشاب فشـرب، ودفع باقيه إلى شـاه، فشرب، وقال: مـا شربت شيـئا ألذ منه ولا أعذب، ثم غابت العجوز، فقال الشاب: هذه الدنيا وكَّلَها الله بخدمتى، فما احتجت إلى شىء إلا أحـضرته إذا خطر ببالى. فعجب شـاه من ذلك، فقال له: أمـا بلغك أن الله تعـالى لما خلق الدنيا قـال لهـا: "يا دنيا من خـدمنى فاخـدميه، ومن خـدمك فاستخـدميه". ثم وعظه وعـظًا حسنًا، فكان ذلك سبب توبته.

وحكى حجـة الإسلام الغزالى فى الإحـياء فى "عـجائب القلب" عن إبراهيم الرقى قـال: قصـدت أبا الخير الديلـمى مسلمًـا عليه، فصـلى صلاة المغرب ولم يحسن من قراءة الفاتحة، فـقلت فى نفـسى ضاعت سفرتى، فلما أصبح الصباح خـرجت إلى الطهارة فقصدنى السبع فـعدت إليه، فقلت: إن الأسد قد قصدنى، فخرج وصـاح على فتنحى الأسد، وتطهرت. فملا رآنى رجعت، قـال: أنتم اشتـغلتم بتقـويم الظاهر فخـفتم، وصـاح على الأسد، وقال: ألم أقـل لك لا تتعـرض لأضيافى، فـتحنى الأسـد، ونحن اشتـغلنا

بتقـويم الباطن فخـافنا الأسد" قال الـشيخ كمـال الدين الدميرى فى "حـياة الحيوان الكبرى" : أنشدنى الإمام العلامة عفيف الدين اليافعى لنفسـه:

هم الأُسْد ما الأسـد الأسود تهابهم وما النمـر ما أظفـار فَـهْدٍ ونَابُهُ
وما الرمى بالنشـاب ما الطعن بالقَنَا وما الضرب بالماضى الكمِى ما دبابه
لهم هِـمم للقـاطعـات قـواطع لهم قـلب أعـيـان المراد انـقـلابه
لهم كـل شىء طائع ومُـسَـخَّرٌ فـلا قط يعـصـيـهـم بل الطوع دَابه
مِن الله خـافـوا لا سـواء فـخـافـهم سـواه جـمـادات الورى ودوابه
لقـد شَـمَّـرُوا فى نَيْل كل عـزيزة ومكـرمـة مما يطول حـسـابه
إلى أن جَنَوْا ثمر الهـوى بعدما جَنى عليـهم وصـار الحـب عـذبًا عـذابه

فإن قلت: لا أسلّم تشكُّل الدنيا إلا بدليل شرعى.

قلت: الدليل على ذلك قصة الإسراء التى أطنب فيها الإمام الثعلبى فى تفسـيره. فمنها قـول النبى ﷺ: "فبينمـا أنا فى سـيرى إذ سـمعت نداء عن يمينى فـقال: يا محـمد، على رسلك أسـالك! يقولها ثلاثا فـلم ألو عليه. فجـاوزته، ثم أتانى نداء عن يسارى فـقال: يا مـحمد على رسـلك أسألك! يقولها ثلاثا فلم ألو عليه.

ثم مضيت حتى جاوزته فإذا أنا بامـرأة عجوز رفعت لى، عليها من كل زينة وبهجـة تقول يا محـمد التفت إلىّ، فلم ألتفت إليها، فلما جـاوزتها، قلت: يا جبريل من الذى نادانى عن يمينى؟ قال: داعية اليهود، والذى نفسى بيده لو أجبته لتهودت أمتك من بعدك.

قلت: فـالذى نادانى عن يسارى ؟ قـال: داعيـة النصارى، لو أجـبتـه لتنصرت أمتك من بعدك.

فأما التي رفعت لك بهجتها وزينتها، فهى الدنيا. لو لويت عليها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة[1]، وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالى رحمه الله فى كتاب "ذم الدنيا" من رُبع المهلكات، نقلاً عن زيد بن أرقم قال:

"كنا مع أبى بكر الصديق رضى الله عنه فدعا بشراب، فأتى بماء وعسل، فلما أدناه من فيه بكى، وأبكى أصحابه، فسكتوا وما سكت، ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لم يقدروا على مسألته، قال: ثم مسح عينيه فقالوا: يا خليفة رسول الله: ما أبكاك؟

فقال: كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئًا، ولم أر معه أحدًا. فقلت: يا رسول الله ما الذى تدفع عن نفسك؟ فقال: هذه الدنيا مُثّلت لى، فقلت لها: إليكِ عنى! ثم رجعت وهى تقول: إنك إن أفلت منى لم يُفلت منى من بعدك؟.

قال الحافظ عبد الرحيم العراقى فى تخريجه: هذا الحديث أخرجه البزار بسند ضعيف بنحوه، والحاكم وصحح إسناده، وابن أبى الدنيا، والبيهقى من طرق بلفظه. انتهى.

ولقد عقد الإمام اليافعى فصلاً فى إثبات كرامات الأولياء، فقال ما نصه: "وظهور الكرامات على الأولياء جائز عقلاً وواقع نقلاً.

أما جوازه عقلاً، فليس بمستحيل فى قدرة الله تعالى، بل هو من قبيل الممكنات كظهور معجزات الأنبياء، هذا مذهب أهل السنة من المشايخ العارفين، والنُظّار الأصوليين، والفقهاء رضى الله عنهم أجمعين، وتصانيفهم ناطقة بذلك شرقًا وغربًا ثم أقول: الصحيح المختار عن جمهور الأئمة

---

(١) رواه ابن جرير فى مجمع البيان.

المحققين من أهل السنة" إنما كل ما جاز للأنبياء من المعجزات، جاز للأولياء مثله من الكرامات بشرط عدم التحدى.

وقال أيضًا فى نشر المحاسن:

قولهم تحدى النبوة: فيه احتراز "من تحدى الولاية" فإنه لو اقترن الخارق بدعوى الولاية، جاز على الصحيح عند المحققين. خلافًا لبعضهم فمن ذلك: ما اشتهر ورويناه أنه لما كثر أهل الإنكار فى باب الكرامات ركب الشيخ الكبير العارف بالله جابر الرحبى أسدا، ودخل الرحبة وقال: أين الذين يكذبون أولياء الله؟ فكفّوا بعد ذلك. انتهى.

ولا يصح قول من يقول: إن ذلك يؤدى إلى الالتباس بين الكرامات والمعجزات؛ لأن المعجزة تجب على النبى أن يتحدى النبوة بها ويظهرها، والكرامة يجب على الولى أن يخفيها ويسترها، إلا عند ضرورة، أو إذن أو حال غالب لا يكون له فيها اختيار، أو لتقوية يقين بعض المريدين كما فعل بعضهم، غرف عسلاً من الجو ووضعه فى فم مريده، وآخر أرى غيره الكعبة تطوف به، وقد سمعنا سماعا محققا أن جماعة منهم شوهدت الكعبة تطوف بهم طوافا محققا حقيقة" ورأيت بعض من شاهد ذلك فى الثقات الأتقياء بل من السادات العلماء وغير ذلك مما يطول ذكره.

وما ذهب إليه الأستاذ أبو إسحاق الإسفراينى رحمه الله فى إثبات بعض الكرامات دون بعض فهو مخالف لمذهب الجمهور الصحيح المشهور. وأما وقوع ذلك نقلاً أى ظهور الكرامات فقد جاء فى القرآن ما أخبر الله تعالى عن مريم عليها السلام بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾[1] وقوله سبحانه وتعالى لمريم: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران - آية ٣٧.

(٢) سورة مريم - آية ٢٥.

وكان فى غير أوان الرطب. كـما جاء فى التفسـير ومن ذلك: ما أخبر الله تعالى من العجايب على يد الخضر - رضوان الله عليه - مع موسى عليه السلام.

وكذلك قـصة ذى القرنين وتمكين الله سـبحانه وتعـالى له ما لم يمكنه لغيره، وكـذلك قصة أصحاب الكهف، والأعاجـيب التى ظهرت عليهم فى كلام الكلب معهم، وغير ذلك. وكـذلك قصة آصف بن برخيا - رضى الله عنه - مع سليمـان عليه السلام فى عرش بلقيس فـى قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[1]. وكل هؤلاء المذكورين ليسوا بأنبياء.

ومن ذلك: حديث أصحاب الغار الذين انطـبقت عليهم الصخرة، وهو حديث صـحيح مـتفق على صحـته مـذكور فى الصحـيحين، وفى آخره: فانفرجت الصخرة وخرجوا يمضون.

ومن ذلك حـديث البقرة التـى حمل عليـها صاحـبهـا أو ركبهـا على اختلاف الروايـات فالتفتت إليـه فكلمته، فقـالت: إنى لم أخلق لهذا ولكنى خلقت للحرث، فقال: سبحان الله - تعجبًا - البقرة تتكلم، فقال رسول الله ﷺ فإنى أومن بذلك أنا وأبـو بكر وعمر وهذا أيضًـا حديث حسن صـحيح مشهور مذكور فى الصحيحين وغـيرهما متفق على صحته أعنى، اتفقوا على تكلم البقرة المذكورة وإن اختلفوا فى بعض ألفاظ الحديث.

ومن ذلك الحديث المتـفق على صحتـه المذكور فى الصحيـحين فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه مع ضيفه الذى قال فيه: وأيم الله ما كنا نأخذ فى لقمة إلا ربا من أسفلهـا أكثر منها حتى شبعوا، وصارت أكـثر مما كانت قبل ذلك فنظر إليها أبو بكر فقال لامرأته: ما هذا؟

---

(١) سورة النمل - آية ٤٠.

قالت: لا وقرة عينى، لهى الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات، ومن ذلك الحديث المتفق على صحته المخرج فى الصحيحين، قال رسول الله ﷺ: لقد فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يك فى أمتى أحد فإنه عمر.

ومن ذلك الحديث المتفق على صحته أيضًا فى سعيد بن زيد بن عمرو بنفيل رضى الله عنه الذى قال فيه للتى ادعت عليه أخذ شيئًا من أرضها: اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها. وبينما هى تمشى فى أرضها إذ وقعت فى حفيرة فماتت أخرجاه أيضًا فى الصحيحن ومن ذلك الحديث الصحيح، حديث الرجل الذى سمع صوتًا فى السحاب، يقول: اسق حديقة فلان وما جاء أن ابن عمر رضى الله عنهما قال للأسد الذى منع الناس الطريق: تنح، فبصبص بذنبه وذهب الناس وقال ابن عمر: صدق رسول الله ﷺ من خاف الله خوف الله منه كل شىء ومن ذلك ما جاء أن رسول الله ﷺ بعث العلاء بن الحضرمى رضى الله عنه فى غزاة، فحال بينهم وبين الموضع قطعة من البحر فدعا الله باسمه الأعظم ومشى على الماء.

وما جاء أنه كان بين سليمان وأبى الدرداء قصعة فسبحت حتى سمعا التسبيح، وما جاء أن عمران بن الحصين رضى الله عنه كان يسمع تسليم الملائكة عليه حتى اكتوى فاحتبس ذلك عنه سنة، ثم أعادة الله. ومن ذلك: الحديث الصحيح، حديث مسلم: "رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره".

سبب قلة الكرامات فى عهد الصحابة وكثرتها فيمن بعدهم:

"قال الإمام اليافعى فإن قيل: ما بال الصحابة رضى الله عنهم لم يشتهر عنهم الكرامات الكثيرة، مثل ما اشتهر عن الأولياء بعدهم فالجواب ما أجاب به الإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - لما قيل له: يا أبا عبد الله، إن الصحابة لم يرو عنهم من الكرامات مثل ما روى عن الأولياء والصالحين، كيف هذا؟

فقال: أولئك كان إيمانهم قويًا فما احتاجوا إلى زيادة يقووون بها، وغيرهم كان إيمانهم ضعيفًا لم يبلغوا إيمان ذلك فقووا بإظهار كرامات.

قلت: وفى هذا المعنى قال بعض الشيوخ الكبار فى الكرامات مريم ابنت عمران: إنه كان فى بدايتها يعرف لها خرق العادات بغير سبب لقوتها وتكميلاً لسيقينها، فكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا فلما قوى إيمانها وكمل يقينا ردت إلى السبب وقيل لها: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[1]، قال اليافعى: فإن قال قائل تشتبه الكرامات بالسحر.

فالجواب: ما أجاب به المشايخ العارفون والعلماء المحققون فى الفرق بينهما إن السحر يظهر على يد الفساق والزنادقة والكفار الذين هم على غير الالتزام للأحكام الشرعية ومتابعة السنة وأما الأولياء فهم الذين يبلغون فى متابعة السنة وأحكام الشريعة وآدابها الدرجة العليا فافترقا. وقال الشيخ كمال الدين فى حياة الحيوان الكبرى. فإن قيل إذا جوزت الأشعرية خرق العادة على يد الساحر فبماذا يتميز عن النبى؟

فالجواب: إن العادة تخترق على يد النبى والولى والساحر، لكن النبى يتحدى الخلق بها ويستعجزهم عن الإتيان بمثلها ويخبر عن الله تعالى بخرق الله العادة بتصديقه، فول كان كاذبًا لم تنخرق على يديه، ولو خرقها الله على يد كاذب لخرقها على يد المعارضين للأنبياء.

الفرق بين الكرامة والسحر:

وأما الفرق بين الولى والساحر فمن وجهين: أحدهما وهو المشهور إجماع المسلمين على أن السحر لا يظهر إلا على فاسق، والكرامة لا تظهر إلا على ولىّ ولا تظهر على فاسق، وبهذا جزم إمام الحرمين وأبو سعيد المتولى وغيرهما. والثانى أن السحر يكون ناشئًا بفعل وعلاج. والكرامة لا تفتقر إلى

---

(١) سورة مريم - آية ٢٥.

ذلك فى كثيرٍ من الأوقـات يقع ذلك اتفاقًا من غير أن يستدعـيه أو يشعر به. والله أعلم.

عموم الكرامات وخصوصها:

وقال الديلمـى فى أسرار المعارف والفـرق بين المعجـزة والكرامة هو أن المعجزة ما يعجز الولى وغيره عنهـا كقلب العصى حية أى وقت شاء وكإحياء الموتى وكـإنزال القرآن، لأن هذا يعـجز عنـهِ سائر الخلق والكرامـة هى المشى على الماء وطى الأرض والمشى فى الهواء وإجابة الدعوات وما شاكلها فللأنبياء المعجزات.

والكرامات دون المعجزات. واعلم أن الكرامات مشتركة والمعجزات غير مشتركة وللأولياء والكرامـات يظهرها الله تعالى إذا شاء قلت: أما كون قلب العصا وإحياء الموتى لا يجوز وقوعهـا كرامة لولى كما هو مذهب الأستاذ أبى إسحاق الإسفراييني فالراجح عند الجمـهور خلافه كما تقدم ويرد القرآن على عموم مذهب الجمهور.

لأن من لازمه وجـود تحدى النبـوة والولى لا يتحـدى النبوة وأمـا كون الكرامات مشـتركة والمعجزات غـير مشتركـة فهذا ليس بجيد، والتـحقيق فى ذلك أن المعجزة والكرامـة مترادفان معنى، متغايرانِ لفظًا لأن الجامـع بينهما خرق العادة، وإنما أطلقوه كرامـة بالنظر إلى وقوعه من الولىّ؛ مراعاة للأدب مع النبوة التى لا يغتـرف إلا من بحرها وأما كون المعـجزة يأتى بها النبى أى وقت شاء ولا كـذلك الكرامة فهذا مـبنى على القول بأن كرامـات الأولياء لا تقع باختياره.

والصحيح عند أصحابنا المتكلمين أنها تقع بطلبـه واختياره كالمعجزة كذا نقله النورى رحمه الله وسيأتى الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى وقيل: إن المعجـزة ليـت لنفسهـا إنما هى معجـزة يتحدى النبى بها، ألا ترى أن مـثلها

يظهر من غيـر ولى فتكون تلك على صاحبـها فتنة، كجـرى النيل لفرعون، وإحياء الموتى للدجـال وغيره، فالمعـجزة تعلقها بدعوى النـبى لها وبها دلالة على صدقه، والله أعلم.

هل للسحر حقيقة؟ وما قدره:

تذنيب: للسحر حقيقـة، وقيل لا والصحيح أو الصواب الأول دل عليه ظاهر القـرآن والسنة، قال الماوردى: اخـتلف العلماء فى القـدر الذى يقع به السحر ولهم فيه اضطراب فقال بعـضهم: لا يزيد تأثيره على قدر التفريق بين المرء وزوجه لأن الله تعالى إنما ذكر ذلك تعظيما لما يكون عنده وتهويلاً له فى حقنا فلو وقع به أعظم منه لذكره.

لأن المثل لا يضـرب عند المبـالغـة إلا بأعلى أحوال المـذكور، ومـهب الأشعـرية أنه يجوز أن يقع به أكثـر من ذلك، قال: وهذا هو الأصح لأنه لا فاعـل إلا الله وما يقع من ذلك فـهو عـادة أجراها الله تعـالى، ولا تفـترق الأفعال في ذلك.

وليس بعضها أولى من بعض ولو ورد الشرع بقصوره عن مرتبة لوجب المصير إليه ولكن لا يوجـد شرع قاطع بوجوب الاقتصـار على ما قاله القائل الأول وذكـر التفـرقة بـين الزوجين فى الآية ليـس بنص فى منع الزيادة وإنما النظر فى أنه ظاهر أم لا.

فرع فى ذكر ما يتعلق بهذه المسألة من فروع الفقه.

حكم تعلم السحر:

اعلم أن تعلم السحر وتعليمه حرام على الصـحيح عند جمهور علمائنا مطلقا لكن قال القاضى حـسين وإبراهيم المروزى إن كان فى تعلمه ترك طاعة لله عز وجل لا يجـوز وإن لم يكن فإن قصـد بتعلمه دفع السـحر الناس عن نفسه جار، وإن قصد تعلمه ليسحر الناس لم يجز. انتهى.

آراء الفقهاء في الساحر:

ومحل الخلاف إذا لم يتوقف سحره على اعتقاد وكفر ومباشرة محظور كترك صلاة وغيرها فإن ذلك حرام بالإجماع والسحر من الكبائر ومذهب مالك وأبى حنيفة وأحمد أن الساحر يكفر لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ...﴾[1] الآية.

لأنهم إنما نسبوا سليمان رضى الله عنه إلى السحر إلى إلى الكفر، وقوله تعالى عن الملكين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[2] ومذهب الشافعى رضى الله عنه أنه لا يكفر فيه قول أو فعل يقتضى الكفر. قال الشافعى رحمه الله: ومن اعتقد إباحته فهو كافر.

وقال ابن الصباغ: إن اعتقد التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تجيب إلى ما يقترح منها فهو كافر وعن القفال أنه لو قال: أفعل السحر بقدرتى دون الله تعالى فهو كافر.

حكم توبة الساحر:

فلو تاب قبلت توبته عند الشافعى وقال مالك رحمه الله - السحر زندقة فإن قال: أنا أحسن السحر قتل ولا تقبل توبته كما لا تقبل توبة الزنديق وعن أبى حنيفة رضى الله عنه مثله وعن الإمام أحمد رحمه الله روايتان كالمذهبين.

وقال أبو حنيفة رحمه الله: إن المرأة تحبس ولا تقتل وأما الساحر الذمى فلا يقتل إلا أن يضر بالمسلمين فيقتل لنقضه العهد. وقال أبو حنيفة رحمه الله يقتل مطلقا. والله أعلم.

* * *

(١) سورة البقرة - آية ١٠٢.

(٢) سورة البقرة - آية ١٠٢.

الاستقامة شرط لتحقق الكرامة:

تنبيه:

ذكر الإمام أبو العباس أحمد بن خلكان فى تاريخه عن أبى يزيد البسطامى - بفتح الباء الموحدة وسكون السين المهملة وفتح الطاء - قدس الله روحه - أنه قال: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى تربع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عن الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة انتهى.

وقال السرى السقطى رحمه الله لو أن رجلا دخل إلى بستان فيه أشجار كثيرة على كل شجرة طائر يقول بلسان فصيح السلام عليكم فلو لم يخف أنه مكر فهو ممكور به.

وقال الشيخ شهاب الدين السهرودى رحمه الله فى الكلام على الكرامات ومن ظهر على يده شىء من الخوارق وهو على غير التزام الأحكام الشرعية فهو زنديق والذى يظهر له مكر واستدراج.

قال بعضهم وقد يكون من لم يكشف له أفضل ممن كوشف وهذه غريبة وسر ذلك أن الذى يكاشف بشىء فى القدرة وخرق العادة إنما يكاشف به ليقوى إيمانه ويثبت جنانه.

فوق هؤلاء أقوام ارتفعت الحجب عن قلوبهم وباشر بواطنهم روح اليقين وضوء المعرفة فلا حاجة لهم إلى مدد فى الحوادث ولهذا المعنى لم تكثر الكرامات فى الصحابة ككثرتها فيمن بعدهم: ببركة مجالستهم لرسول الله ومشاهدتهم نزول الوحى الملائكة فى مهابط الكرامات تنورت بواطنهم وعاينوا الآخرة وزهدوا فى الدنيا وزكت نفوسهم وانخلعت عاداتهم وانصقلت مرائى قلوبهم فاستغنوا بما أعطوا عن ذلك.

قال على رضى الله عنه: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا. قلت: هذا

عين ما أجاب به الإمام أحمد ابن حنبل - رحمه الله - لأنك إذا تأملته تجده مأخوذاً من كلامه أما قوله لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا فهذا هو المشهور من كلام السيد على كرم الله وجهه خلافا لمن ساقه حديثًا كما وقع فى الفتاوى الوصلية لسلطان العلماء العز بن عبد السلام وهو ما معنى قول النبى عليه الصلاة والسلام "لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا" أى لو قامت القيامة وأحضرت الجنة والنار ما ازددت يقينًا بالإيمان بها وإن كان إذا رآها أبصر فى التفاصيل والهيئات ما لم يحط قبل ذلك وكذلك إبراهيم لما رأى كيفية الإحياء على ما لم يقف عليه مع الإيمان به.

كمن رأى بناء عجيبًا فإنه يعلم أن له صانعًا و إذا لم يفهم كيفية البناء والصنع فطلب أن ينظر كيفية البناء فإنه لا يزداد يقينًا بأن البناء صدر عن صانع قادر ولم يرد بقوله ولكن ليطمئن قلبى بأنك قادر على ذلك وإنما ولكن ليسكن قلبى من شدة تطلبه لرؤية الكيفية وقيل إنه لما بشر بالخلة طلب أن يخرق له العادة فى إرائه كيفية الإحياء حتى يسكن قلبه إلى اتخاذه خليلاً إلى حد يخرق العادة فيه بدعائه هذا آخر جوابه رحمه الله تعالى.

مع عدم تنبيهه لكونه حديثًا، بل عدم تعرضه للكلام يشعر بأنه يراه حديثا لكونه أقر السائل على ما سأله ونظير ذلك نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه فإن بعض العلماء ساقه حديثا وبعضهم ساقه أثرا عن السيد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهو الذى عليه جمهور العلماء كالسهرودى فى عوارف المعارف لكنه بلفظ رحم الله صهيبًا.

قال الشيخ بهاء الدين بن السبكى فى "عروس الأفراح قد نسبه الخطيب إلى النبى ﷺ ونسبه ابن مالك فى شرح الكفاية وغيره إلى عمر رضى الله عنه ونقل عنه البدر بن الدمامينى فى شرح المغنى والشيخ جلال الدين المحلى فى شرح جمع الجوامع وقال الحافظ ولى الدين العراقى لا أعلم لهذا اللفظ إسنادًا.

لكن ورد حـديث بمعناه وهو ما رواه أبو نـعيم فى الحليـة أن النبى ﷺ قال فى سالم مولى أبى حذيفـة "إن شديد الحب لله لو كان لا يخاف الله ما عصـاه" وقال الشيخ بهاء الدين ابن السبكى - كغيره من المحدثين : أنه لم يجده فى شىء من كـتب الحديث بعد الفحص الشـديد. ثم اعلم أن العلماء لهم فى تفسيـر معناه عبارات متـحدة المعنى مختلفـة اللفظ قال الزركشى فى شرح جمع الجوامع ما معنى قول السـيد عمر فى صهيب لو لم يخف الله لم يعصه؟

أى فعـدم المعصـية محكوم بثـبوته لأنه إذا كـان ثابتا على تقـدير عدم الخوف فالحكم بثبـوته مع تقدير ثبوت الخوف أولى. وقال الشـيخ عبد السلام المقدسى فى كتـابه حل الرموز: هذا فى لفظه إشكال وتفسير ذلك وتحـقيقه: هذه أثنى عليه بقـوله نعم العبد، فلو كـان عصى ما استـحق المدح وقد علق عدم وجودا لمعصية على عدم وجود الخوف.

فتركه المعصية لم تكن خوفا من عـقوبته بل رعاية لمحبته ووجه آخر فى تفسيره وهو أن الهـاء فى يعصه ضمير عائد على صـهيب فمعناه لو لم يخف الله لم يعـصه أى لو كتب لـه كتاب الأمـان من النار حمله صـرف المعصـية بعظيم أمر الله على القيام بواجب حق العبودية أداء لما عرف فى حق العظمة. انتهى واعلم أن الناس فى إنكار الكرامات مخـتلفون فمنهم من ينكر كرامات الأولياء مطلقا وهؤلاء على مذهب المعتزلة المخالفين لأهل السنة والجماعة.

ومنهم من ينكر كرامات أولياء زمانه ويصدق بكرامات الأولياء المتقدمين كالجنيـد ومعروف، والسرى، وابن أدهم وأشـباههم فهـؤلاء قال فيهم سـيد علماء الطريقة وإمـام أهل الحقيقة أبو الحسـن الشاذلى رضى الله عنه والله ما هى إلا إسرائيلية صدقوا بموسى وكـذبوا محمداً ﷺ لأنهم أدركوا زمنه ومنهم من يصدق أن لله أوليـاء لهم كرامات ولـكن لا يصدق بأحد مـعين فى أهل زمانه فهـؤلاء محرومون أيضًـا لأن من لا يسلم لواحد معين لم ينـتفع بأحد فنسأل الله تعالى التوفيق بالإيمان بكرامات أوليائه وحسن الخاتمة بمنه وكرمه.

"عود إلى الفرق بين المعجزة والكرامة"

تفريع:

نقل الأستاذ أبو القاسم القشيرى عن القاضى أبى بكر الأشعرى فى الفرق بين المعجزة والكرامة ما معناه أن من شرط المعجزة اقتران دعوى النبوة بها وأن تجرى على أوصاف كثيرة.

وقال القشيرى وهذا الذى نعتمده وندين به فشرائط المعجزة كلها أو أكثرها توجد فى الكرامة إلا هذا الشرط الواحد يعنى دعوى النبوة والولى لا يدعى النبوة والذى يظهر عليه لا يكون معجزة. قال: ويظهر على عبد تخصيصًا له وتفضيلاً.

"وقد يحصل" باختياره ودعائه، وقد لا يحصل . ومنهم من قال: لا تقع باختيارهم وطلبهم، والراجح: أن كرامات الأولياء تقع باختيارهم وطلبهم قال النووى هذا هو الصحيح عند أصحابنا.

موقف العلماء من رأى القشيرى فى تخصيص الكرامات:

واعلم أن الكرامات تكون بخوارق العادات على جميع أنواعها وقيل تختص بمثل إجابة دعاء ونحوه وهذا غلط من قائله وإنكار للحس بل الصواب جريانها بقلب الأعيان وإحضار الشىء من العدم ونحوه وقال القشيرى لا تنتهى الكرامات إلى حصول ولد من غير والد وقلب جماد بهيمة أو حيوانا آخر وأمثال ذلك.

قال فى منع الموانع وهذا حق يخصص قولهم: ما جاز أن يكون معجزة لنبى جاز أن يكون كرامة لولى، لا فرق بينهما إلا التحدى وقال الزركشى وهذا الذى قاله القشير حتى ولده أبو نصر فى كتابه المرشد فقال: قال بعض الأئمة ما وقع معجزة لنبى لا يجوز تقدير قاله القشيرى مذهب ضعيف

والجمهور على خلافه، وقد أنكروه على القشيرى وقوعه كرامة لولى كقلب العصا ثعبانا وإحياء الموتى وفلق البحر، ونحو ذلك، لكن قال العلامة بدر الدين الأهدل.

قلت يظهر أن الاعتراض غير متجه وأن القشيرى إنما أراد أن ينبه على قسم المستحيلات التى لا توصف قدرة الله تعالى بالقدرة عليها لكن قصرت عبارته إذ الموجب لإثبات الكرامات إنما هو كونها من مقدورات الله تعالى فما لا تصلح له القدرة لا تصلح للكرامات انتهى قلت اعتراض الأئمة على القشيرى فى غاية الاتجاه إلى الطرف الأقصى.

وما قاله ابن الأهدل لا يصح أن يكون ردًا للاعتراض لأن حصول ولد من غير والد ففى جملة مقدورات الله تعالى وما كان فى المقدورات لا يوصف بالاستحالة ولأن ليس من كسب الوالد ولا من مقدوراته بل إنما هو من مقدور الله قد أجراه على يديه بعد أن قدره فى الأزل أن حصوله لا يكون إلا بسبب الوالد غالبا وقد يكون بغيره بأن أجرى الله تعالى حصوله. معجزة لنبى أو كرامة لولى ليكون هذا برهانا لصدق الأنبياء والأولياء.

فيما جاءوا به لتنبيه العقلاء لتمييز خرق العادات من العبادات قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله فى "لطائف المنن" اعلم أن قدرة الله التى لا يكبر عليها شىء هى التى أظهرت الكرامة فى هذا الولى فلا تنظر إلى ضعف العبد ولكن انظر إلى قدرة السيد فمجد الكرامة فى الولى جحد لقدرة القدير سبحانه وتعالى.

وربما كان سبب إنكاره الكرامة استكثارها على ذلك العبد الذى أضيف إليه، وذلك العبد إنما ظهرت عليه الكرامة وهى شاهدة بصدق طريق متبوعه فهى بالنسبة إلى من ظهرت عليه وهو ذلك الولى كرامة ببركات متابعة معجزة، فكذلك قالوا كل كرامة لولى فهى معجزة لذلك النبى الذى هذا الولى متبع له فلا تنظر إلى التابع ولكن انظر إلى عظيم قدر المتبوع وبالجملة

فالمتخلص في هذا الكلام هو أن جميع خوارق العادات من المعجزات جائز وقوع مثلها كرامات للأولياء مطلقا لأنها ناشئة عن الله تعالى بفعله وإرادته كما قال سلطان أهل المحبة ابن الفارض رضى الله عنه:

وسر انفعالات الظواهر باطنا عن الإذن ما ألقت بوحى البديهة

أى وحقيقة انفعالات المعجزات والكرامات الظاهرة إنما هى ناشئة عن الإذن الباطن فى حضرة الحق تعالى لحكمته وتأييد أوليائه وأما قلب الجماد بهيمة فهذا من قلب الأعيان وقد شوهد وقوعه لجماعة من أكابر الأولياء، وهو أشهر شيء عند القوم.

وقد صرح بهذا النوع جماعة من العلماء فى كتبهم كابن السبكى فى الطبقات الكبرى وسيأتى كلامه فى ذلك إن شاء الله تعالى.

وقال القرافى فى شرح جمع الجوامع والصحيح عند الجمهور جواز جملة خوارق العادات كرامة للأولياء صرح بذلك إمام الحرمين فى ذلك، وتابعه شراحه.

فإذا تقرر ذلك فقال الأستاذ أبو القاسم القشيرى وليس للولى أن يسكن إلى الكرامة التى تظهر عليه وربما يكون لهم فى ظهور جنسها قوة يقين وزيادة بصيرة لتحققهم أن ذلك فعل الله تعالى فيستدلون بها على صحة ما هم عليه من العقائد انتهى.

هل يشترط العلم بالولاية:

قال الأستاذ أبو على الدقاق يجوز للولى: أن يعلم أنه ولى قال القشيرى وهو الذى نقول به وليس ذلك بواجب فى جميع الأولياء بل يجوز أن يعلم بعضهم ذلك كما يجوز أن لا يعلم بعضهم فإذا علم بعضهم أنه ولى كانت معرفته تلك كرامة له انفرد بها ولو لم يكن للولى كرامة ظاهرة عليه فى الدنيا لم يقدح عدمها فى كونه وليا بخلاف الأنبياء عليهم السلام فإنه يجب أن يكون لهم معجزات.

لأن بالناس حاجة لمعرفة صدقهم ولا يعلم ذلك إلا بالمعجزات وليس كذلك الولى، لأنه ليس بواجب على الخلق ولا على الولى العلم بأنه ولى.

وقال الشيخ عبد السلام المقدسى فى حل الرموز وليس من شروط الولى أن تكون له كرامة ولا يؤمر بذلك فى ولايته ولا كذلك النبى ﷺ لأنه يجب أن تكون له معجزة لأن الرسل والأنبياء بعثوا حجة على الناس بدعوتهم إلى الله فلا بد لهم من المعجزة لإقامة البرهان وقد سئل أبو يزيد رحمه الله عن هذه المسألة.

فقال: مثل ما حصل للأنباء عليهم السلام كمثل زق فيه عسل يترشح منه قطرة فتلك القطرة مثل ما حصل لسائر الأولياء وما فى الزق مثل ما حصل لنبينا محمد ﷺ ثم الخلائق مفتقرون لظهور معجزة النبى ﷺ لأنه مبعوث إليهم ليصدقوه.

وأما الولى فلا يفتقر إلى ذلك ولا يبالى صدقوه أو كذبوه وقد اختلف أهل العلم فى الولى هل من شرطه أن يعلم أنه ولى أم لا فكان أبو بكر بن فورك يقول لا يجوز أن يعلم أنه ولى؛ لأن ذلك يسلبه الخوف ويوجب له الأمن وأما الذى تؤثره أهل الحقيقة وهو الحق أنه يجوز وليس بواجب.

لأن الولى لا يعلم نفسه أنه ولى وإلا بالكرامة بل يجوز شرعًا أن يعلم بعضهم ويجوز أن لا يعلم بعضهم فمن علم أ،هذه ولى كانت معرفته كرامة فى حقه إذ أطلعه الله تعالى على ما أوهبه وكشف له ما كان حجبه قلت هذا هو الراجح عندى وعليه جماهير العلماء وممن اختاره من الأئمة الأستاذ أبو القاسم القشيرى تبعًا للشيخ أبى على الدقاق وقد تقدم كلامهما فى ذلك.

وأما من قال أن ذلك يسلبه الخوف فهذا مذهب ضعيف ساقط لا عبرة به، لأن من كان بالله أعرف كان من الله أخوف فمن عرفه نفسه اشتدت مهابته وتعظيمه لله تعالى وتلك الهيبة تزيد على أضعاف من خوف الخائفين

لأن من عرف نفسه عرف ربه وعرف ما يراد منه فأشغل نفسه واستعملها فيما خلقت له فأوقفها فى مواقف العبودية والقيام بحقوق الربوبية قال المقدسى فمن فتح الله عين يقظته وأشهده خفايا سريرته علم أنه لم يكن فى الكونين ولا فى العالمين من مفتقرات ذراته شىء إلا وهو مندرج فى طوايا ذاته مندرج فى خفايا صفاته.

وهذا سر قوله "من عرف نفسه فقد عرف ربه»[1] وقد ظهر لى فى سر هذا الحديث ما يجب كشفه ويستحسن وصفه وهو أن الله سبحانه وتعالى وضع هذا الروح الروحانية فى هذه الجثة الجسمانية لطيفة لاهوتية مودعة فى كثيفة ناسوتية دالة على وحدانيته وربانيته.

وجه الاستدلال على وحدانيته بالحديث: "من عرف نفسه عرف ربه"

ووجه الاستدلال بذلك من عشرة أوجه: الأول: أن هذا الهيكل الإنسانى لما كان مفتقرا إلى مدير ومؤثر ومحرك وهذا الروح تدبره وتحركه علمنا أن هذا العالم لا بدله من محرك له ومدبر.

والوجه الثانى: لما كان مدبر الجسد واحدًا وهو الروح علمنا أن مدبر هذا العالم واحد لا شريك له فى ملكه قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[2] وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[4].

---

(١) هذا من كلام الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

(٢) سورة الأنبياء - آية ٢٢.

(٣) سورة الإسراء - الآيتان ٤٢، ٤٣.

(٤) سورة المؤمنون - آية ٩١.

الوجه الثالث: لما كان هذا الجسد لا يتحرك إلا بإرادة الروح وشعورها به لا يخفى على الروح من حركات الجسد وسكناته شيء حتى علمنا أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

الوجه الخامس: لما كان هذا الجسد لم يكن فيه شيء أقرب إلى الروح من شيء بل هو أقرب إلى كل شيء في الجسد علمنا أنه قريب إلى كل شيء ليس شيء أقرب إليه في شيء ولا شيء أبعد إليه من شيء لا بمعنى قرب المسافة لأنه منزه عن ذلك.

الوجه السادس: لما كان الروح موجوداً قبل وجود الجسد ويكون موجوداً بعد عدم الجسد علمنا أنه سبحانه وتعالى موجود قبل خلقه ويكون موجوداً بعد خلقه ما زال ولا يزال وتقدس عن الزوال.

الوجه السابع: لما كان الروح في الجسد لا يعرف له كيفية علمنا أ،هذه تعالى مقدس عن الكيفية ولا يوصف بأين ولا كيف بل الروح موجود في سائر الجسد ما خلا منه شيء من الجسد كذلك الحق سبحانه وتعالى موجود في كل مكان ما خلا منه مكان وتنزه عن المكان والزمان.

الوجه الثامن: لما كان الروح في الجسد لا يعلم له أبنية علمنا أنه تعالى تقدس عن الأبنية والكيفية.

الوجه التاسع: لما كان الروح في الجسد لا يُحس ولا يُمس ولا يُجس علمنا أنه تعالى منزع عن الجس والمس والحس.

الوجه العاشر: لما كان الروح في الجسد لا يدرك بالبصر ولا يمثل بالصور علمنا أنه تعالى لا تدركه الأبصار ولا يمثل بالصور والآثار ولا يشبه بالشموس والأقمار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1].

---

(١) سورة الشورى - آية ١١.

ذا معنى قـوله من عرف نفسه فـقد عرف ربه فطوبى لمن عـرف وبذنبه اعترف.

وفى الحديث تفسير آخر. وهو أنك تعرف أن صفات نفسك على الضد من صفـات ركب فمن عرف نفـــه بالعبـودية عرف ربه بالربوبيـة ومن عرف نفسه بالجفاء والخطأ عرف ربه بالوفاء والعطاء.

ومن عرف نفسه كما هى عرف ربه كما هو واعلم أنه لا سبيل لك إلى معرفة إياك كما إياك فكيف لك سبيل إلى معرفة إياه كما إياه فكأنما فى قوله من عرف نفسه عرف ربه. علق مستحيلا على مستحيل لأنه يستحيل أن تعرف نفسك وكيفيتها فإنك إذا كنت لا تطيق أن تصف نفسك التى هى بين جنبيك بكيفية أو أبنية ولا سجية ولا هيكلية ولا هى مرئية.

فكيف يليق لعبوديتك أن تصف الربوبية بكيف وأين وهو مقدس عن الكيف والأين؟ ولهذا أنشد بعضهم:

قل لمن يفهم عنى ما أقول ... قصر القول فذا شرح يطول
ثم سر غامض من دونه ... ضرب والله أعناق الفحول
أنت لا تعرف إياك ولا ... تدر مَنْ أنت ولا كيف الوصول
لا ولا ندرى صفاتا ركبت ... فيك حارت فى خفاياها العقول
أين منك الروح فى جوهرها ... هل تراها فترى كيف تجول
هذه الأنفاس هل تحصرها ... لا ولا تدرى متى عنك تزول
أين منك العقل والفهم إذا ... غلب النوم فقل لى يا جهول
أنت آكل الخبز هل تعرفه ... كيف يجرى منك أم كيف تبول
فإذا كانت طواياك التى ... بين جنبيك كذا فيها ضلول
كيف تدرى من على العرش استوى ... لا تقل كيف استوى كيف النزول
كيف يحكى أم ترى كيف ترى ... فلعمرى ليس ذا إلا فضول

هـؤلاء أيـن ولاكـــــــــيف لـه وهو رب الكيف والكيف يحـول

هو فـــوق الفـــوق لا فـــوق له وهـو فـى كـل الـنـواحـى لا يـزول

جل ذاتـا وصـــفـــاتا وســـمـــا فـتـعـالى قـدره عـــمـــا يزول

فصل:

قال الشيخ تاج الدين السبكى فى الطبـقات الكبرى: الدليل على ثبوت الكرامـات وجوه أحصـرها وهو أوحدها: مـا شاع وذاع بحـيث لا ينكره إلا جاهل مـعاند فى أنواع الـكرامات للعلمـاء والصالحـين الجارى على مـجرى شجاعة على وسخاه حاتم، بل إنكار الكرامات أعظم مباهتة فإنه أشهر وأظهر ولا يعاند فيه إلا من طمس قلبه والعياذ بالله.

ثم قال: فإن قلت قد أكثرتم القول فى الكرامـات وما أفصحتم بالمختار عندكم فى الأقوال المنقولات. قلت: هذا مقام مـعضل خطر والاحتجار على مواهب الله لأوليائه عظيم عسر والاتسـاع فى التجويز آيل إلى فتح باب على المعجزات مسدود.

مذهب السبكى فيما يمنع من الكرامات وما يقع:

والذى يتـرجح عندى القـول بتـجـويز الكرامـات على الإطلاق إذا لم تخترق عـادة وبتجويز بعض خوارق العوائـد دون بعض فلا أمنع من الخوارق وامنع كثيراً. ولـى فى ذلك قدوة وهو الأستاذ أبو القاسم القشيرى - رحمه الله -.

فإن قلت عرفنى ما تمنعه وما لا تمنعه ليتبين مذهبك قلت امنع ولداً من غير أبوين، وقـلب جماد بهيمـة ونحو ذلك وسيتـضح ذلك عند ذكر الأنواع التى أبديها على الأثر إن شاء الله تعـالى. أما جمهور أئمتنا فعمـموا التجويز وأطلقوا القول إطلاقًا انتهى.

ترجيح المؤلف لمذهب الجمهور:

قلت هذا هو المختار عندى وعليه الجم الغفير من المحققين قديما وحديثا وممن رجحه من الأئمة تبعا للجمهور حجة الإسلام الغزالى والإمام الرازى واليضاوى والنسفى وإمام الحرمين وابن الصلاح وأبو نصر القشيرى وأبو زرعة العراقى والإمام اليافعى وأضرابهم ممن يطول استقصاؤهم وما ما اختاره ابن السبكى تبعًا للقشيرى فهو مذهب ضعيف والجمهور على خلافه.

وقد أنكروه على القشيرى حتى ولده أبو نصر كذا صرح به الزركشى رحمه الله فى شرح جمع الجوامع وقد تقدم ذلك والله أعلم. ثم قال وأخذ بعض المتأخرين بعدد أنواع الواقعات من الكرامات فجعلها عشرة وهى أكثر من ذلك وأنا أذكر ما عندى فيها:

أنواع الكرامات:

النوع الأول: إحياء الموتى واستشهد بذلك بقصة أبى عبيد البشرى فقد صح أنه غزا ومعه دابة فماتت فسأل الله أن يحييها حتى يرجع إلى بشر، فقامت الدابة تنفض أذنيها فلما فرغ من الغزوة ووصل إلى بشر أمر خادمه أن يأخذ السرج عن الدابة فلما أخذه سقطت ميتة.

والحكايات فى هذا الباب كثيرة ومن أواخرها أن مفرجا الدماميلى وكان من أولياء الله من أهل الصعيد ذكر أنه أحضرت عنده فراخ مشوية فقال لها طيرى فطارت إحياء بإذن الله تعالى.

وأن الشيخ الأهدل كانت له هرة فضربها خادمه فماتت فرمى بها فى خرابة فسأل عنها الشيخ بعد ليلتين أو ثلاث فقال الخادم لا أدرى فقال الشيخ أما تدرى؟ ثم ناداها فجاءت إليه تجرى وحكاية الشيخ عبد القادر الكيلانى رضى الله عنه ووضع يده على عظام دجاجة كان قد أكلها وقوله لها قومى بإذن الله الذى يحيى العظام وهى رميم فقامت دجاجة سوية حكاية مشهورة

وذكروا أن الشيخ أبا يوسف الدهمانى مات له صاحب فجزع عليه أهله فلما رأى الشيخ شدة جزعهم جاء إلى الميت وقال له قم بإذن الله فقام وعاش بعد ذلك زمنًا طويلا.

وحكاية الشيخ زينا لدين الفارقى الشافعى مدرس الشامية شهيرة قال ابن السبكى وقد سمعتها من لفظ ولده ولى الله الشيخ فتح الدين يحيى فحكى لنا ما حاصله أنه وقع فى داره طفل صغير من سطح فمات فدعا الله فأحياه.

ولا سبيل إلى استقصاء ما يحكى فى هذا النوع لكثرته وأنا أومن به غير أنى أقول لم يثبت عندى أن وليا أحيا له ميت مات من أزمان كثيرة بعد ما صار عظما رميما ثم هذا القدر لم يبلغنا ولا أعتقده وقع لأحد من الأولياء ولا شك فى وقوع مثله للأنبياء عليهم السلام فمثل هذا يكون معجزة ولا تنتهى إليه الكرامة.

فيجوز أن يحيى نبى قبل اختتام النبوة من مات من "دهر طويل ثم يعيش ويستمر فى قيد الحياة زمانًا ولا أعتقده الآن أن ولياً يحيى لنا الشافعى وأبا حنيفًا حياة يبقيان معها زمانًا طويلاً كما قيل الوفاة بل ولا زمانًا قصيراً يخالطان فيه الأحياء كما خالطاهما قبل الوفاة.

النوع الثانى: كلام الموتى وهو أكثر من النوع الذى قبله وروى مثله عن أبى سعيد الخراز رضى الله عنه ثم عن الشيخ عبد القادر رضى الله عنه جماعة من آخرهم بعض مشايخ الشيخ الإمام الوالد رحمه الله ولست أسميه.

النوع الثالث: انفلاق البحر وجفافه والمشى على الماء وكل ذلك كثير وقد اتفق مثله لشيخ الإسلام وسيد المتأخرين تقى الدين بن دقيق العيد.

النوع الرابع: انقلاب الأعيان كما حكى أن الشيخ عيسى اليمنى أرسل إليه شخص مستهزءًا به إنائين ممتلئين خمرًا فصب أحدهما فى الآخر وقال

بسم الله كلوا فأكلوا فإذا هو سمن لم ير مثله فى لونه وريحه. وقد أكثروا فى ذكر نظير هذه الحكاية.

النوع الخامس: انزواء الأرض لهم بحيث حكوا أن بعض الأولياء كان فى جامع طرسوس فاشتاق إلى زيارة الحرم فأدخل رأسه فى جيبه ثم أخرجه وهو فى الحرم والقدر المشترك من الحكايات فى هذا النوع بالغ مبلغ التواتر ولا ينكره إلا مباهت.

النوع السادس: كلام الجمادات والحيوانات ولا شك فيه وفى كثرته ومنه ما حكى أن إبراهيم بن أدهم جلس فى طريق بيت المقدس تحت شجرة رمان فقالت له: يا أبا إسحاق أكرمنى بأن تأكل منى شيئًا، قالت ذلك ثلاث وكانت شجرة قصيرة ورمانها حامض فأكل منها رمانة فطالت وحلا رمانها وحملت فى العام مرتين وسميت رمانة العابدين.

وقال الشبلى عقدت ألا آكل إلا من حلال فكنت أدور فى البرارى فرأيت شجرتين فمددت يدى لآكل منها فنادتنى الشجرة؛ احفظ عليك عقدك ولا تأكل منى فإنى ليهودى.

النوع السابع: إبراء العلل كما روى عن السرى فى حكاية الرجل الذى لقيه ببعض الجبال يبرئ الزمنى والعميان والمرضى وكما حكى عن الشيخ عبد القادر أنه قال لصبى مقعد مفلوج أعمى قم بإذن الله تعالى فقام لا عاهة به.

النوع الثامن: طاعة الحيوان لهم كما فى حكاية الأسد مع أبى سعيد بن أبى الخير وقبله إبراهيم الخواص بل وطاعة الجمادات كما فى حكاية سلطان العلماء شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام وقوله فى واقعة الفرنج يا ريح خذيهم فأخذتهم.

النوع التاسع: طى الزمان.

النوع العاشر: نشر الزمان.

وفى تقرير هذين القسمين عسر على الأفهام وتسليمه لأهله أولى بذى الإيمان والحكايات فيهما كثيرة.

الحادى عشر: استجابة الدعاء وهو كثير جداً وشاهدناه من جماعة.

الثانى عشر: إمساك اللسان وانطلاقه.

الثالث عشر: جذب بعض القلوب بعد كونها فى غاية النفرة.

الرابع عشر: الإخبار ببعض المغيبات والكشف وهو درجات تخرج عن حد الحصر.

الخامس عشر: الصبر على عدم الطعام والشراب المدة الطويلة.

السادس عشر: مقام التصريف فقد حكى عن جماعة الشىء وذكر أن بعضهم كان يبيع المطر وكان من المتأخرين الشيخ أبو العباس الشاطر يبيع الإسعاد بالدراهم والحكايات لا تحصر.

السابع عشر: القدرة على تناول الكثير فى الغذاء.

الثامن عشر: الحفظ عن أكل الحرام كما حكى عن الحارث المحاسبى أنه كان يرتفع إلى أنفه زفورة من المأكل الحرام فلا يأكله وقيل كان يتحرك له عرق وحكى نظيره عن الشيخ أبى العباس المرسى.

وقيل: إن بعض الناس امتحنه وأحضر له مأكلا حراما فبمجرد ما وضعه قال إن كان المحاسبى يتحرك له عرق فأنا يتحرك منى عند حضور الحرام سبعون عرقا ونهض فى ساعته وانصرف.

التاسع عشر: رؤية المكان البعيد من وراء الحجب كما قيل إن الشيخ أبا إسحاق الشيرازى: كان يشاهد الكعبة وهو ببغداد.

العشرون: الهيبة التى لبعضهم بحيث مات من شاهده بمجرد رؤيته أو بحيث أفحم بين يديه أو اعترف بما لعله كتمه عنه أو غير ذلك وهو كثير.

الحادى والعشرون: كفاية الله إياهم شر من يردهم سوءاً وانقلابه خيراً كما اتفق للشافعى رضى الله عنه مع هارون الرشيد رحمه الله.

الثانى والعشرون: التطوير بأطوار مختلفة وهو الذى تسميه الصوفية بعالم المثال ويكون عالما متوسطا بين عالم الأجسام والأرواح وسموه عالم المثال وقالوا: هو ألطف من عالم الأجسام وأثف من عالم الأرواح وبنوا عليه تجسد الأرواح وظهورها فى صور مختلفة فى عالم المثال واستأنسوا له بقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾(١).

ومنه ما حكى عن قضيب البان الموصلى وكان من الأبدال أنه اتهمه بعض من لم يره يصل بتركه الصلاة وشدد النكير عليه فتمثل له على الفور فى صور مختلفة وقال: فى أى هذه الصور رأيتنى ما أصلى؟

ولهم فى هذا النوع حكايات . . ومما اتفق لبعض المتأخرين أنه وجد فقيرا شيخا كبيرا يتوضأ فى القاهرة بالمدرسة الشريفة من غير ترتيب فقال له يا شيخ تتوضأ بلا ترتيب فقال: ما توضأت إلا مرتبا ولكن أنت ما تبصر لو أبصرت لأبصرت هكذا وأخذ بيده وأراه الكعبة ثم مر به إلى مكة فوجد نفسه فى مكة وأقام بها سنين فى حكاية يطول شرحها.

الثالث والعشرون: إطلاع الله إياهم على ذخائر الأرض كما فى حكاية أبى تراب لما ضرب برجله الأرض فإذا عين ماء كالزلال وعن بعضهم أنه عطش فى طريق الحج فلم يجد ماء عند أحد فوجد فقيرا قد ركن عكازه فى موضع والماء ينبع من تحت عكازه فملأ قربته ودل الحجيج عليه فجاءوا فملأوا أوانيهم من ذلك الماء.

---

(١) سورة مريم - آية ١٧.

الرابع والعشرون: مـا سهل لكثير من العلماء من التـصانيف فى الزمان اليسـير بحيث وزع زمـان تصنيفهم على زمـان اشتغالـهم بالعلم إلى أن ماتوا فوجدوا لا يفى نسخًا فضلاً عن التصنيف.

وهذا قسم من نشـر الزمان الذى قـدمناه وقد اتفق النقلة على أن عُـمر الشافعى لا يفى بعُشر ما أبرزه من التصانيف مع ما يثبت عنه فى تلاوة القرآن كل يوم ختـمتين وفى رمـضان كل يوم ختـمتين كذلك، واشتـغاله بالدرس والفتاوى والذكر والأمراض التى كـانت تعتريه بحيث لم يخل رضى الله عنه من علة أو علتين أو ربما أكثر وربما اجتمع فيه ثلاثون مرضًا.

وكذلك إمـام الحرمين أبو المعالى الجـوينى رحمه الله تعالى حـسب ما صنفه مع مـا كان يلقيـه على الطالبة فوجـد لا يفى به - وهذا الإمام الربانى الشيخ محيى الدين النووى - رحمه الله وزع عمره على تصانيفه فوجد أنه لو كان يتـسخها فـقط لما كفاها ذلك العمر فضلا عن ما كـونه يصنفها مع ما كان عليه من أنواع العبادات.

وهذا الإمـام الشيخ الوالد رحـمه اللـه تعالى إذا حـسب ما كـتبـه من التصـانيف مع ما كان يواظبـه من العبادات، ويمله من الفـوائد، ويذكره فى الدروس من العلوم، ويكتـبه على الفتـاوى ويتلوه من القرآن ويشـتغل به من المحاكـمات عرف أن عـمره قطعا لا يفى بثلث ذلك فـسبحـان من يبارك لهم ويطوى لهم وينشر.

قلت: ومن نشر الزمان ما وقع لابن عمنا عـلامة الوجود المحقق الحجة ابن العباس أحمدا لزاوى الشافعى يسـقى الله ثراه من المنح الإلهيات والتبحر فى سائر العلوم النقليـة والعقليات التى لا يسعهـا صغر سنه لكونه من أرباب الولايات.

الخامس والعشرون: عدم تأثير السمومات وأنواع المتلفات فيهم كما اتفق ذلك للشيخ الذى قال له بعض الملوك الكفار لما استطال على بلاد المسلمين إما

أن تظهر لى آية وإلا قتلت الفقراء وكان بقربه بعر جمال قال: انظر فإذا هو ذهب وعنده كور ليس فيه ماء فأخذه ورمى به فى الهواء فأخذه ورده ممتلئًا ماء، وهو منكسر لم يخرج منه قطرة فقال الملك هذا سحر وأوقد نارًا عظيمة ثم أمرهم بالسماع فلما دار فيهم الوجد دخل الشيخ والفقراء فى النار ثم خرج فخطف ابنا صغيرا للملك فدخل به وغاب ساعة بحيث كاد الملك يحترق على ولده ثم خرج به وفى إحدى يدى الصبى تفاحة وفى الأخرى رمانه فقال له أبواه أين كنت.

قال: فى بستان فقال جلساء الملك هذه صنعة لا حقيقة لها فقال له الملك: إن شربت هذا القدح من السم صدقتك فشربه ولم يؤثر فيه السم ضررًا. قال السبكى وأظن أنواع كراماتهم تربوا على المائة وفيما أوردته دلالة على ما أهملته ومقنع وبلاغ لمن زالت عنه غفلته وما من نوع من هذه الأ، واع إلا وقد كثرت فيه الأقاصيص والروايات وشاعت فيه الأخبار والحكايات وماذا بعد الحق إلا الضلال ولا بعد بيان الهدى إلا المحال وليس للموفق غير التسليم وسؤال ربه أن يلحقه بهؤلاء الصالحين فإنهم على صراط مستقيم. انتهى.

قال الإمام اليافعى والعجب كل العجب فيمن ينكر الكرامات وقد جاءت فى الآيات الكريمات والأحاديث الصحيحات والآثار المشهورات والحكايات المستفيضات الصادرات عن العيان والمشاهدات من السلف والخلف وبلغت فى الكثرة والشهرة فى جميع البلاد مبلغا يخرج عن الحصر والتعداد ثم إن كثيرا من المنكرين لو رأوا الأولياء والصالحين يطيرون فى الهواء لقالوا هذا سحر وقالوا هؤلاء شياطين ولا شك أن من حرم التوفيق كذب بالحق بعثا وحسدا كما قال الله تعالى وهو أصدق القائلين. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(١).

---

(١) سورة الانعام - آية ٧.

صفات الأولياء:

فواعجبا كيف نسب السحر وفعل الشياطين إلى الأولياء المقربين والأبرار الصالحين الزاهدين العابدين الصابرين الشاكرين الخائفين الراجين المتقين الورعين المتوكلين الراضين المحبين العارفين المطهرين من الصفات المذمومات المتحلين بمحاسن الصفات المحمودات المتخلقين للمولى المشمرين في طاعة الله تعالى، المتأدبين بآداب الشريعة الشريفة والسنة الغراء المرتفعين عن حضيض الرخص إلى معالي عزائم ذروة العلاء المقبلين على المولى المعرضين عن الدنيا وعن الأخرى.

الذين كنست نفوسهم المزابل لما أماتوها لتحيى فأحياها الحي القيوم وجمال جلاله لقلوبهم تجلى لما جاهدوا في سبيل الله حق جهاده أ، جز لهم ما وعدهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] فيا ليت شعري من أولى بالرجولية الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[2] أم الذين قال الله في حقهم: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾[3].

وأيهما أولى بفساد الدين أهل الحرص والطمع أم أهل الزهد والورع وأما عباد الله المذكورون في سورة الفرقان ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾[4] أم الذين قال فيهم عز من قائل: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾[5]، أم الذين قال فيهم الملك المنان: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[6].

---

(١) سورة العنكبوت - آية ٦٩.

(٢) سورة النور - آية ٣٧.

(٣) سورة التكاثر - آية ١.

(٤) سورة الفرقان - آية ٦٤.

(٥) سورة المجادلة - آية ١٩.

(٦) سورة الإسراء - آية ٦٥.

الفرق بين عباد الرحمن وعبيد الشيطان:

وأيهما عبيد الدنيا والشيطان اللعين الذين قال فيهم النبى ﷺ: «تعس عبد الدينار والدرهم»(١).

وأيهما أولى باتباع السنة واقتداء الشريعة؟ أهل الزهد والجد والأخذ بالعزائم الرفيعة أم أهل الرخص والتوانى وحب الدنيا الوضيعة الذين يحسبون أن السنة فى متابعة الحظوظ النفسية ولا يدرون أن أشرف الاتباع رفض الدنيا والاتصاف بالصفات السنية. فكم من زاعم أنه مقتدٍ بالسنة ومتبعها وهو تارك لفروض ومضيعها. كما قال السيد الجليل العارف بالله بشر بن الحارث رضى الله عنه لما قيل له: الناس يقولون إنك تارك السنة يعنون ترك التزوج فقال لهم: أنا مشغول بالفروض عن السنة. رحمه الله ورضى عنه وهل الفرض المتعين إزالة الصفات المذمومات من القلب من الحقد والحسد والرياء والعجب والكبر والأمل والغيبة والنميمة والكذب والتصنع والسمعة والخيلاء والشح والنفاق.

وغير ذلك من رذائل الأخلاق أم الفروض المذكورة معرفة البيوع والطلاق والخلع والظهار التى قدمها الجهال الأحماق؟ وهل يشرق النور فى مرآة القلب المصقولة بالزهد والهدى والورع أم المرآة المظلمة بالذنوب والعيوب والصدى والبخل والطمع؟ ولهذا قال بعضهم إذا أراد الله بالمريد خيرًا أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة الفقهاء لأن الصوفية يأمرونه بإصلاح قلبه والفقهاء يأمرونه بإصلاح لسانه وشتان بين المقامين.

وانظر إلى حجة الإسلام أبى حامد الغزالى رحمه الله لما دخل فى طريق القوم ترك التصنيف والتدريس والإفتاء وخرج متقشفًا إلى البادية فجاءه

---

(١) رواه البخارى.

رجل يستفتيه فلما قدم إليه السؤال قال له: إليك عنى فقد ذكرتنى بأيام البطالة لو جئتنى فى تلك الأيـام أفتيتك. قال القاضى الإمـام ابو بكر بن العربى فى بعض كتبه رأيتُ الإمـام أبا حامد الغزالى فى البرية وعليه مرقـعة وبيده ركوة وعكاز.

وقد كان قـبل ذلك يحضر فى مجلسـه فى بغداد مائة عمـامة من أبناء الأمراء. وقال غيـره كان يدرس لثلاث مائة ويحضر مجلـه العلماء الفضلاء والطلبة النجباء قال ابن العـربى فقلت له يا إمام أليس تدريس العلم ببـغداد خـير مـن هذا فنظر إلىّ شـذرا وقال: لما بـزغ بدر العادة فى سمـاء الإرادة وجنحت شمس الأصول إلى مغارب الوصول:

تركت هوى ليلى وسـعدى بمعـزلٍ وصـرت إلى مصـحوب أول منزل
ونادتـنى الأشـواق هلا فـهـذه منازل مـن تهـوى رويدك فـانزل
غـزلت لهم غـزلا رقـيقًـا فلم أجـد لغـزلى نسـاجًـا فكسـرت مـغـزلى

* * *

"فصل"

كيفية الكشف عند القوم:

وأما كشوفات القوم عن ضمائر القلوب والخواطر النفسانية فقد ذكر الإمام اليافعي في كفاية المعتقد ونكاية المنتقد قال سئل بعضهم عن الفراسة قال: أرواح تتقلب في الملكوت فتشرف على معاني الغيوب فتنطق على أسرار الخلق نطق مشاهدة وعيان لا نطق ظن وحسبان.

الفرق بين الفراسة والظن:

قال العلامة شمس الدين بن القيم والفرق بين الفراسة والظن أن الظن يخطئ ويصيب ويكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته، ولهذا أمر الله باجتناب كثير منه وأخبر أن بعضه إثم. وأما الفراسة فأثنى على أهلها ومدحهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[1]، قال ابن عباس وغيره للمتفرسين.

وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[3].

فالفراسة الصادقة "للقلب" قد تطهر وتنزه من الأدناس وقرب من الله فهو ينظر بنور الله الذي جعله في قلبه. وفي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» وهذه الفراسة نشأت له من قربه من الله فإن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه وكان تلقيه من مشكاة

---

(١) سورة الحجر - آية ٥.

(٢) سورة البقرة - آية ٢٧٣.

(٣) سورة محمد - آية ٣٠.

قربه من الله بحسب قربه منه وأضاء له من النور بقدر قربه فرأى فى ذلك النور اللائح من الغيوب ما لم يره البعيد المحجوب.

كما يثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال: ما تقرب إلىّ عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى[1].

فأخبر سبحانه وتعالى أن تقرب عبده منه يفيد محبته له، فإذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله، فسمع به، وأبصر به .. الخ وبطش به، فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدوا فيها صورة الحقائق على ما هى عليه فلا يكاد تخطئ له فراسة فإن العبد إذا أبصر بالله أبصر الأمر على ما هو عليه و إذا سمع بالله سمعه على ما هو عليه، وليس هذا من علم الغيب بل علام الغيوب قذف الحق فى قلب قريب منه مستنير بنوره غير مشغول بنفوس الأباطيل والخيالات والوساوس التى تمنعه من حصول صور الحقائق فيه. وإذا غلب على القلب النور فاض على الأركان وبادر من القلب إلى العين.

فانكشف له الأمر بعين بصره بحسب ذلك النور. وقد كان رسول الله ﷺ يرى أصحابه فى الصلاة وهم خلفه كما يراهم من أمامه ورأى بيت المقدس عيانا وهو بمكة، ورأى قصور الشام وأبواب صنعاء ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق ورأى أمراءه بمؤته وقد أصيبوا وهو بالمدينة ورأى النجاشى بالحبشة لما مات وهو بالمدينة فخرج إلى المصلى وصلى عليه، ورأى عمر سارية بنهاوند من أرض فارس وهو وعساكره المسلمون وهم يقاتلون عدوهم فناداهم وهو بالمدينة يا سارية الجبل الجبل قلت أما كون فراسة

---

(١) رواه البخارى.

الصديق ليست من علم الغيب كما ادعاه فليس بجيد والصواب أن فراسة الصديق من بعض غيوب الله التي أتحف بها أصفياءه وأولياءه.

كما صرح به حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في كتابه الإملاء على مشكل الإحياء وكذا الشيخ تاج الدين بن عطا الله في لطائف المنن وسيأتي كلامهما في ذلك مبسوطا إن شاء الله تعالى - وأما ما ادعاه ثانيا من رؤية النبي ﷺ النجاشي بالحبشة لما مات فلعل مذهب أئمة الحنابلة في ذلك كمذهب الحنفية لأنه كان رحمه الله حنبليًا.

وقد ساق هذه المسألة معجزة في مقام الاستدلال على هذه الكرامة وقد تقدم الكلام على ذلك والله أعلم.

أمثلة من الفراسة الصادقة:

حكي أن الإمام الشافعي ومحمد بن الحسن رضي الله عنهما جلسا في المسجد الحرام فدخل رجل فقال محمد: أتفرس أنه نجار فقال الشافعي أتفرس أنه حداد فسألاه فقال: كنت حدادًا وأنا اليوم أنجر.

ودخل أبو الحسن البوسنجي والحسن الحداد على أبي القاسم المناوي يعودانه فاشتريا في طريقهما بنصف درهم تفاحًا يشمه فلما دخلا عليه قال م هذه الظلمة فخرجا وقالا لعل هذا من قبل ثمن التفاح فأعطيا الثمن ثم عادا ووقع بصره عليهما فقال يمكن الإنسان أن يخرج من الظلمة بهذه السرعة أخبراني عن شأنكما فأخبراه بالقصة فقال نعم كان كل واحد منكما يعتمد على صاحبه في إعطاء الثمن والرجل مستح منكما في التقاضي.

وكان بين أبي زكريا النحشي وبين امرأة سبب قبول توبته فكان يوما واقفا على رأس أبي عثمان الحيري فتفكر في شأنها فدفع أبو عثمان إليه رأسه وقال ألا تستحي. وكان شاه المكرماني جيد الفراسة لا تخطئ فراسته وكان يقول من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمّر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنة، وتعود أكل الحلال لم تخطئ له فراسة.

وكان شاب يصحب الجنيد يتكلم على الخواطر فذُكر للجنيد فقال له: إيش[1] هذا الذى ذكر لى عنك فقال له: اعتقد شيئًا فقال له الجنيد: أعتقد فقال الشاب: أعتقدت كذا وكذا فقال الجنيد: لا قال فاعتقد ثانيا قال: اعتقد قال الشاب: هو كذا وكذا قال الجنيد لا. قال: اعتقد ثالثا: قال: اعتقدت قال الشاب: هو كذا وكذا قال لا. قال الشاب: هذا عجب أنت صدوق وأنا أعرف قلبى.

فقال الجنيد: صدقت فى الأولى والثانية والثالثة لأنى أردت أن أمتحنك هل يتغير قلبك. وقال أبو سعيد الخراز: دخلت المسجد الحرام فدخل فقير عليه خرقتان ليسأل شيئا فقلت فى نفسى: مثل هذا يسأل الناس فنظر إلىّ وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾[2] فاستغفرت فى سرى فنادانى فقال: ﴿هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾[3] وقال إبراهيم الخواص: كنت فى الجامع فأقبل شاب طيب الرائحة حسن الوجه، حسن الحرمة.

فقلت: لأصحابنا يقع لى أنه يهودى: فكلهم كره ذلك فخرج الشيخ وخرج الشاب ثم رجع إليهم فقال: إيش[4] قال الشيخ فىّ فاحتشموه فالحّ عليهم، فقالوا قال: إنك يهودى فجاء فأكبّ على يدى الشيخ فأسلم فقلت ما السبب فقال نجد فى كتابنا أن الصديق لا تخطئ له فراسته فقلت أمتحن المسلمين، فتأمتهم فقلت إن كان فيهم صديق ففى هذه الطائفة فلبست عليكم.

فلما اطلع هذا الشيخ علىّ وتفرسنى علمت أنه صديق. وهذا عثمان بن عفان دخل عليه رجل من الصحابة وقد رأى امرأة فى الطريق فتأمل فى محاسنها فقال له عثمان: يدخل علىّ أحدكم وأثر الزنا ظاهر فى عينيه.

---

(١) إيش: أى شىء.

(٢) سورة البقرة - آية ٢٣٥.

(٣) سورة التوبة - آية ١٠٤.

(٤) إيش: أى شىء.

فقلت: أوحي بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال: لا، ولكن تبصّر وبرهان وفراسة صادقة. فهذا شأن الفراسة.

حقيقة الفراسة:

وهى نور يقذفه الله فا لقلب فيخطر له الشيء فيكون كما خطر له وينفذ إلى العين فيرى ما لا يراه غيره.

عودة إلى أمثلة الفراسة:

وقال الرازى فى شرح الأسماء الحسنى ما نصه، حكى عن حذيفة المرعشى رحمه الله قال: كنت مع إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه فى سفر فدخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب.

فقال لى يا حذيفة أرى بوجهك أثر الجوع. فقلت: ما يرى الشيخ أن أفعل؟ فقال: ائتنى بدواة وقرطاس فأتيته بها، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود بكل حال والمشار إليه بكل معنى:

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر ... أنا جائع أنا ضائع أنا عارى
هى ستة وأنا الضمين لنصفها ... فكن الضمين لنصفها يا بارى
مدحى لغيرك لهب نار خضتها ... فاجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع الرقعة إلىّ وقال: اخرج وادفعها إلى أول من تلقاه فخرجت فرأيت شابًا حسن الوجه نظيف الثياب راكبًا على بغلة فناولته الرقعة، فقرأها وبكى ثم قال: أين كاتبها؟

قلت: فى المسجد الفلانى، فناولنى صرة بها ستمائة دينار. وقال: احملها إليه فسألت إنسانا، من هذا؟ فقال: رجل نصرانى فتعجبت من ذلك وحملت الصرة إلى إبراهيم رضى الله عنه فقال: ضعها فإن النصرانى يجىء الساعة، فما لبثنا أن جاء الرجل وقبّل الشيخ، وقال: نعم ما أرشدتنى إليه، ثم أسلم على يديه وحسن إسلامه.

وقال بعضهم: صحبت إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه فى طريق مكة وتشارطنا ألا ننظر إلى إحد إلا الله فكنا يومًا فى الطواف وفى الطائفين غلام قد فتن الناس بحسن وجهه، فأطال إبراهيم النظر إليه باكيًا.

فقلت له: أليس قد تشارطنا ألا ننظر إلى أحد إلا الله؟ فقال: نعم إنه ابنى فقلت فهلا تعرفه نفسك، فقال: شىء تركته لله لا أرجع فيه، اذهب أنت فسلم عليه ولا تخبره بشأنى، ولا تدله علىّ.

قال: فذهبت وسلمت عليه وقلت له من أنت؟ فقال: أنا ابن إبراهيم بن أدهم، قل لى أن أباك يحج كل سنة فجئت لعلى أراه فرجعت إلى إبراهيم فسمعته ينشد وهو يبكى:

هجرت الخلق طرا فى هواكا ... وأيتمت الوليد لكى أراك

فلو قطعتنى فى الحب إربا ... لما حن الفؤاد إلى سواك

قال بحر الحقائق حامل لواء العلم بالله محى الدين بن عربى قدس الله روحه فى كتاب التجليات للأرواح الإنسانية: إذا صفت وزكت النفس وارتفعت فى معارج العالم العلوى المفارق وغير المفارق فتنظر مناظر الروحانيات المفارقة.

فترى مواقع نظرهم فى أرواح الأفلاك ودورانها بها فتنزل مع حكم الأدوار وترسل طرفها فى رقائق التنزيلات حتى ترى مساقط بخوفها فى قلوب العباد فتعرف ما تحويه صدورهم، وما تنطوى عليه ضمائرهم، وما تدل عليه حركاتهم فطرق علم الغيب كثيرة والله أعلم.

وقال الإمام اليافعى فى نشر المحاسن: وقد أخبرنى بعض الأولياء الكبار من أهل اليمن انه أول ما فتح عليه كشف له عن عالم الملكوت فشاهد من جملة ما أشهد قناديل معلقة بالعرش.

ثم اعلم أن تلك القناديل أرواح الأولياء وقال بعضهم: والله إنى لأعرف الجنة قصرًا قصرًا، وأعرف النار حانوتًا حانوتًا، وأعرف أصحابها فى

الدنيا واحدًا واحدًا. وقال بعضهم لا يكون الشيخ شيخا حتى يمحو خطيئة تلميذه فى اللوح المحفوظ. وقال آخر منهم - منكرا لهذا القول المذكور - لو كان شيخا ما غفل حتى وقع تلميذه فى الخطيئة. ولهذا قال العارف بالله القرشى العالم من نطق عن سرك، واطلع على عواقب أمرك، وقال أيضًا: الولى يرى الأشياء من وراء حجاب الشرع وما أحسن قول ابن الفارض رضى الله عنه فى ذلك:

ولولا حجاب الكون قلت وإنما قيامى بأحكام المظاهر مشكتى

وقال السيد الشريف القطب أبو الحسن الشاذلى: أطلعنى الله على اللوح المحفوظ ولولا التأدب مع جدى رسول الله ﷺ لقلت هذا سعيد وهذا شقى. وقال أيضًا: إن الله مكننى من ناصية كل ولى لله إلى يوم القيامة. واخترت أتباعى من اللوح المحفوظ.

وسيأتى الكلام على ذلك فى ترجمته مع ثناء الأئمة الأعلام على طريقته إن شاء الله. قال اليافعى أيضًا: الصواب أنه لا يستعجل بتكفير من قال المؤمن يعلم الغيب حتى يسأل ماذا أراد الله بالمؤمن وبالعلم بالغيب فإن أراد بالمؤمن الخاص وهو الولى دون المؤمن العام، وبالعلم أنه يعلم بإعلام الله تعالى له لا يعلمه بنفسه استقلالاً وبالغيب بعض الغيوب لا جميعها فإنه يكفر بذلك، لأنه جائز فى كرامات الأولياء، بل واقع وقد دل على جوازه العقل وشهد بوقوعه النقل.

أما العقل فلأن ذلك ليس بمستحيل فى قدرة الله تعالى بل هو من قبيل الممكنات ولا قادح فى معجزات الأنبياء لما قدمناه من الفرق بين الكرامات والمعجزات وأما النقل فهو خارج عن الحصر إذ لا يمكن تعداد ما نقل عن الأولياء فى الكشف فى كل عصر ومصر أعنى ما كشفه الله تعالى لهم بعد أن كان عنهم مستورا وأشهدهم إياه بعد أن كان غائبا عن مشاهدتهم فأصبح طى علمه لهم منشورا.

فبعضهم أعلم وقوعه بخطاب وبعضهم كشف له ما حال دونه من حجاب، وبعضهم أشهده في اللوح المحفوظ سطوراً فاضحى علمه المجهول معروفاً فيما بينهم مشهوراً وفي بعض القصائد قلت في فضلهم الذي ما زال عند الأخيار مشكوراً :

رجال لهم علم بما جهل الورى ... لهم صار مكشوفاً سريعاً حجابه
فأسرار غيب عندهم علم كشفها ... من الله فيها فضله وثوابه
وقرب وأنس واجتلاء معارف ... وورد تكليم لذيذ خطابه
بترك الهوى أمسوا يطيرون في الهوى ... ويمشون فوق الماء طوعاً جنابه
ملوك على التحقيق ليس لغيرهم ... من الملك إلا إثمه وعقابه

قلت: ولو أمكن جمع ما وقع لهم من المكاشفات في جميع الأشياء في كل زمان ومكان لاحتيج في ذلك إلى كتب يطول عدها أو يتعذر حصرها. ويكفي في ذلك ما أخبر الله تعالى به عن الخضر رضي الله عنه مع موسى عليه السلام مع كون الخضر لا نبيا عند جمهور العلماء وعند جميع العارفين بالله تعالى.

ثم قال اليافعي: فمما رويناه بالإسناد عن الشيخ أبي يعقوب السوسي قال جاءني مريد بمكة فقال يا أستاذ أنا غداً أموت وقت الظهر فخذ هذا الدينار فاحفر ليه بنسفه وكفني بنصفه الآخر ثم لما كان الغد جاء وقت الظهر وطاف.

ثم تباعد ومات، فغسلته، وضعته في اللحد ففتح عينيه فقلت أحياة بعد موت: فقال: أنا حي، وكل محب لله حي. قلت: وفي هذا كرامتان لهذا المريد المذكور: اطلاعه على وقت موته، وكلامه بعد الموت وقال خير النساج رحمه الله تعالى: كنت جالسا في بيتي فوقع لي أن الجنيد بالباب

فنفيت عن قلبى، فوقع ثانيا، وثالثا، فخرجت فإذا أنا بالجنيد فقال: لِم لم تخرج مع الخاطر الأول؟

ومما رويناه عن الشيخ أبى عبد الله القرشى رضى الله عنه قال: هجم أهل الشرك ببلاد الأندلس على قرية من قراها فدخلوا وسبوا أهلها وأخذوا فى طريقهم أسارى عديدة.

فانزعج أهل الأندلس لذلك وبلغ الخبر أن الأسارى يرمى لهم الحشيش مع الخيل وهم مكتفون فيأكلون بأفواههم كما يرعى البهائم، قال: فبت فى بعض تلك الليالى عند الشيخ أبى إسحاق بن طريف رضى الله عنه فوضع الطعام بيننا ثم تنفس بعد أن قال بسم الله قال يا محمد أما بلغنك ما طرأ على المسلمين فقلت: نعم فجعل يقص الخبر ويبكى حتى علا بكاؤه.

ثم قال والله لا أكلت طعاما ولا شربت شرابا حتى يفرج الله عن المسلمين ثم اعتزل عن الطعام ثم جلس ساعة فسمعته يقول: الحمد لله الحمد لله ثم دنا الطعام وقال: كل فأ:إلى وأكلت معه وعجبت منه كيف يتركه ثم عاد إليه بعد قسمه فى ساعة، ثم إن الخبر وصل إلينا بعد ذلك أن الوقت الذى تكلم فيه الشيخ صادف أن النصارى سمعوا زعقة عظيمة اعتقدوا أن عسكر المسلمين دهمهم بركبوا خيولهم ونجو بأنفسهم وتركوا الغنيمة والأسارى فخلص الله المسلمين انتهى وفى هذا كرامتان:

إحداهما: إبرار قسمه وناهيك بها كرامة تخلص بها أسارى المسلمين من الشدة العظيمة فى أيدى المشركين.

والثانية: إطلاع الشيخ المذكور على ذلك مع وقوع الكرامتين فى الحال معا وروينا عنه أيضًا قال: سألنى الشيخ أبو الربيع عن بعض ما كنت أرى فأخفيت عنه شيئا فقال: أعلىّ تستر؟

والله لقد رأيتك فى ظهر أبيك قبل ظهورك وروى مسندا فى ثلاث

طرق عن جماعة من الشيوخ فى كتاب مناقب الشيخ عبد القادر الكيلانى رضى الله عنه: أنه أرسل إليه بعض الشيوخ جماعة من أصحابه.

وقال لهم اذهبوا إلى بغداد وقولوا للشيخ عبد القادر يسلم عليك عبد الرحمن ويقول لك: إن له أربعين سنة فى درجات باب القدرة فما رآك ثمّ لا داخلاً ولا خارجًا. فقال الشيخ عبد القادر فى ذلك الوقت لجماعة من أصحابه: اذهبوا إلى الشيخ عبدالرحمن وستجدون فى طريقكم جماعة من أصحابه بعثهم إلى بكذا وكذا.

فإذا التقيتموهم فردوهم معكم فإذا أتيتموه فقولوا له يسلم عليك عبد القادر ويقول لك أنت فى الدرجات ومن هو فى الدركات لا يرى من هو فى الحضرة ومن هو فى الحضرة لا يرى من هو فى المخدع، وأنا فى المخدع أدخل وأخرج من باب السر من حيث لا ترانى بإمارة أن خرجت لك الخلعة الفلانية فى الوقت الفلانى على يدى، خرجت لك وهى خلعة الرضا وبإمارة أن خلع عليك فى الدجرات بمحضر اثنى عشر ألف ولى لله خلعة الولاية وهى خضر أطرازها سورة الإخلاص على يدى خرجت لك.

فانتهوا إلى نصف الطريق فوجدوا أصحاب الشيخ عبدالرحمن فردوهم وأتوا إليه وبلغوه رسالة الشيخ عبد القادر، فقال: صدق الشيخ عبدا لقادر سلطان الوقت وصاحب التصريف فيه.

وكذلك قد اشتهر عن الشيخ أبى الغيث اليمنى - رحمه الله - أنه قال له الفقراء ذات يوم: نشتهى اللحم فقال: اصبروا إلى اليوم الفلانى وكان يوم سوق يأتيه القوافل فلما جاء ذلك اليوم جاء الخب أن قطاع الطريق أخذوا القافلة ثم جاء بعض القطاع الحرامية بحب.

وجاء آخر منهم بثور فقال الشيخ للفقراء تصرفوا فيه وخلوا رأس الثور على حاله، الفقهاء ما يأكلون الحرام. فلما فرغوا من الأكل جاء إنسان إلى الشيخ وقال يا سيدى نذرت للفقراء كذا وكذا من الحب فأخذه الحرامية وجاء

آخر إليه أيضًا وقال نذرت للفقراء ثورًا فنـهب فقال لهما الشيخ قد وصل إلى الفقراء مـتاعهم وقال لصاحـب الثور تعـرف ثورك إذا رأيت رأسه قال: نعم. فأمـر الفقراء بإحـضار الرأس فلما أن جـاء به الفقـراء قال الرجل: هذا رأس ثورى بعينه فبـقى الفقهاء يضـربون يدا على يد ندما على ترك موافقـة الفقراء هذا آخر كلام اليافعى رحمه الله.

وأخبرنى بعض الثقـات من الفضلاء قال سمعت شـيخنا شيخ الإسلام شرف الدين يحيى المناوى رحـمه الله أ،هذه قال امتـحن بعض الصالحين بأن دعى إلى سماط حـرام فلما شاهده قال لمريديه لا تأكلوا من هذا شـيئا فليس لكم قدرة على دفعه.

ثم تقدم الشيخ وحده فأكل السماط جميعه وذهب بعد ذلك مع جماعة فمروا على شجرة عظيمة خضراء فاستقبلها الشيخ ونفخ فيها، فخرج من فمه شرار ونار عظيم فأحرق جميع ورقهـا ثم التفت إلى جماعته وقال إنكم كنتم لا تستطيعون حمل هذه النار. وقلت وفى هذه الواقعة كرامات:

إحداها: أنه كشف له عن كون الطعام حرامًا.

ثانيها: أنه أكل السماط بانفراده والحال أنه يكفى جماعة كثيرين.

ثالثها: أن الطعام قد استحال فى جوفه نارا ولم يضره.

رابعها: أنه تمكن من إخراجها فى جوفه.

خـامسـهـا: أنه لما استـقبل الشجـرة بالنفخ كـساها نـارا مع عظمهـا وارتفاعها. انتهى.

أنواع الغيب باعتبار إطلاقه وقيده:

تنبيه:

اعلم أن الغيب المشـترك بين الأنبياء والأولياء غـيبان غيب مقـيد وغيب مطلق فأما المقيد فهـو الكشف عن الشىء الموجود الآن الذى كان موجودًا فى

الزمن الماضى وكل من منحه الله تعالى بهذا الغيب لم يكشف له إلا فى هذين الزمانين فقط، لأن كشفه مقيد بهما. وأما الغيب المطلق فهو الترقى عن القيد إلى شهود ما سيوجد في الزمن المستقبل وصاحب هذا المقام ليس كشفه قاصرا على الزمن والمستقبل بل يقع له الكشف عن غيوب الأزمنة الثلاثة.

لأن من لازم وجود الأعم وجود الأخص ولا عكس وهذان الغيبان قد جمع بينهما أكابر الأولياء فممن جمع بين الحقيقة والشريعة كإمامنا الشافعى رضى الله عنه فإنه لما كان فى بداية طريق القوم وهو الكشف المقيد اجتمع مع محمد بن الحسن بالمسجد الحرام كما تقدم ذلك.

فكشف له عن صنعة الرجل فى الزمن الماضى ولم يقتصر على موافقة كشف ابن الحسن عن صنعته الآن إلا أن ذلك يشعر بأن الكشف عن المعدوم الذى كان أعلى وأقرب إلى محض الغيب من كشف الموجود الآن ولما ترقى رحمه الله إلى مقام الغيب المطلق الذى هو من بعض مقامات النهاية كشف له عن أمور مغيبة ستوجد فى الزمن المستقبل.

فمنها قوله للبويطى: يا أبا يعقوب تموت فى قيودك وكان الأمر كذلك بعد موت الإمام بمدة وبسبب المحنة بالقول بخلق القرآن وذلك على أيام الواثق بالله حين أمر بحمله لبغداد مع جماعة من العلماء فحمل إليها على بغل مغلولاً مقيداً مسلسلا فى أربعين رطل من حديد وأريد منه القول بذلك.

فامتنع فحبس ببغداد على تلك الحالة إلى أن مات سنة إحدى وثلاثين فى رجب وبه جزم النووى فى شرح المجدوب وكان ذلك فى يوم الجمعة قبل الصلاة وكان فى كل جمعة يغسل ثيابه ويتنظف ويغسل ويتطيب ثم يمشى إذا سمع النداء إلى باب السجن فيقول له السجان إلى أين فيقول إجيب داعى الله فيقول السجان ارجع رحمك الله.

فيقول البويطى اللهم إنى أجبت داعيك فمنعونى ومنها أنه قال للمزنى: سيكون لك بعدى سوق فعظم شأنه بعده عند الملوك فمن دونها ومنها أن هذه

قال لابن عبد الحكم تنتقل إلى مذهب أبيك وكان بها أمر كذلك ومنها أنه قال للربيع: أنت راوية كتبى فعاش بعده نحو سبعين سنة حتى صارت الرواحل تشد إليه من أقطار الأرض لسماع كتب الشافعى رضى الله عنه.

وانظر إلى السيد عبد القادر الكيلانى لما اجتمع ببعض الأولياء فى أيام البداية قال له يا بعد القادر كأنى بك وقد جلست على كرسى ببغداد وأنت تقول قدمى هذه على رقبة كل ولىّ لله وكان الأمر كذلك. قال الشيخ تاج الدين السبكى من أولياء الله الكبار قال دخل على الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فتوضأ عندى ثم أخذ قوسًا لى فجرها ثلاث مرات فقلت يا سيدى من هو الخليفة بعدك.

فقال من يأتيك إلى هاهنا ويتوضأ نحو وضوئى هذا ويجر هذا القوس ثلاث مرات فهو الخليفة من بعدى قال فدخل علىّ أصحاب الشيخ أجمعهم وأنا أترصد هل يفعل ذلك أحد فلم يتفق ذلك حتى دخل علىّ الشيخ أبو العباس المرسى ورفع بصره فرأى القوس معلقًا.

فقال ناولنى تلك القوس فناولته إياها فجرها ثلاث مرات ثم قال يا خليل جاءك وعد الشيخ وقال العارف بالله الشيخ زكى الدين الأوانى.

قال لى الشيخ أبو الحسن الشاذلى يا زكى علّيك بأبى العباس المرسى: فوالله إنه ليأتيه البدوى يبول على ساقيه فلا يمسى عليه الماء إلا وقد وصله إلى الله يا زكى: أبو العباس هو الرجل الكامل. وقال أبو العباس نفسه كنت إذا أوذيت من بعض أصحاب شيخنا أبى الحسن الشاذلى يقول يا أبا العباس اصبر فوالله ما هى إلا لك أى ما الوراثة إلا لك.

وقال ابن عطاء الله وخرجت يوما عند الفقيه مكين الدين الأسمر رحمه الله تعالى وخرج معى أبو الحسن الحريرى وكان فى أصحاب الأستاذ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه فسلمت عليه فسلم على ببشاشة وإقبال وقال له: من أين تعرفنى؟

قال: وكيف لا أعرفك كنت يوما جالسا عند الشيخ-أبى العباس المرسى وكنت أنت عنده فلما نزلت قلت يا سيدى إنه ليعجبنى هذا الشاب انقطع فلان وفلان عن الملازمة وهذا الشاب ملازم.

قال: فقال الشيخ يا أبا السحن: لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعيا يدعو الخلق إلى الله.

قال ابن عطاء فكان ما قاله الشيخ والحمد لله على ما أنعم به علينا.

وقال أيضًا وكنت قد قلت لبعض أصحاب شيخنا أبى العباس أريد لو نظر إلىّ الشيخ بعنايته وجعلنى فى خاطره فلما دخلت على الشيخ قال رضى الله عنه لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا فى خاطره ولكن طالبوا انفسكم بأن يكون الشيخ فى خاطركم فعلى مقدار ما يكون عندكم تكونون عنده ثم قال أى شىء تريد أن تكون والله ليكوننّ لك شأن عظيم والله ليكونن كذا والله ليكونن كذا فكان من فضل الله سبحانه ما لا ننكره.

وقال له الشيخ أبو العباس أيضًا فى أول اجتماعه به: الزم فوالله لئن لزمت لتكونن مفتيا فى الشريعة والحقيقة وقال عنه أيضًا فى غيبته: والله لأجعلنه عينا من عيون الله يقتدى به فى علم الظاهر والباطن. وكان الأمر كذلك.

وقال أيضًا سافرت إلى قوص ومعى خمسة أنفس الحاج سليمان وأحمد ابن الزينى وأبو الربيع وأبو الحسن المرسى وفلان فقال لى إنسان ما الذى تقصد بسفرك يا سيدى؟ فقلت له: أدفن هؤلاء بقوص وأجىء فدفنت الخمسة بها[1] أما الحاج سليمان فما مات حتى شرب من نهر الكوثر.

وبالجملة فهذا الشيخ أبو العباس المرسى هو ممن أطلعه الله على حقائق الغيوب المطلقة والمقيدة[2] فصار يغترف من فيض البحر الإلهى والمداد الربانى.

---

(١) هذا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [سورة لقمان - الآية رقم ٣٤].

(٢) ربما تكون هذه كرامات أما الغيب فلا يعلمه إلا الله، وقد وردت آيات متعددة فى ذلك ما عدا آية واحدة بجواز أن يطلع الله عليه أحد رسله. قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [سورة الجن - الآيتان ٢٦، ٢٧].

بل أخبر عنه شيخه الأستاذ أبو الحسن الشاذلى أنه من حين وصل إلى الله تعالى لم يحجب، ولو طلب الحجاب لم يجده وقال ابن عطاء الله أيضًا وأخبرنى بعض أهل البهنسا قال قدم علينا الشيخ أبو العباس فقال: لى الآن خمسة وعشرون سنة ما حجبت فيها عن الله طرفة عبن قال ثم غاب عنا خمسة عشرة سنة، ثم قدم علينا فقال: لى الآن أربعون سنة ما حجبت فيها عن الله طرفة عين، وكان رضى الله عنه من مذهبه أنه لا يلزم أن يكون القطب شريفا حسينيا بل يكون من غير هذا القبيل وتكلم يوما فى القطب وأوصافه ثم قال وما القطبانية ببعيدة من بعض الأولياء وأشار إلى نفسه.

وقال بعض أصحابه رأيت وأنا بالمغرب دائرة من الرجال ورجل فى وسطها وكل من فى تلك الدائرة متوجه إليه فقلت فى نفسى هذا هو القطب وعرفت ذلك الرجل بصفته وبقيت كلما ذكر لى عن رجل آتى إليه وأقول عسى أن يكون ذلك الرجل حتى قيل لى عن الشيخ أبى العباس المرسى فأتيت إليه فإذا هو ذلك الرجل الذى رأيته فى وسط الدائرة فأخبرته فقال: نعم أنا القطب، أما الذين يقابلون بطنى لهم المدد من باطن حقيقتى. وأما الذين يقابلون جنبى لهم المدد من العلوم التى بين جنبى.

وله أيضًا كرامات كثيرة وإسراءات ومعارج ليس هذا محل ذكرها وسأبسط الكلام على ترجمته فى كتابنا "طبقات الشاذلية" إن شاء الله تعالى.

تحقيق القول فى قطب الغوث ومدة مكثه:

تذنيب:

قال الشيخ صفى الدين بن أبى المنصور فى كتابه "العطايا الوهبية فى المراتب القطبية" موضوعه الرد على من زعم أن القطب الغوث لا يمكث فى المرتبة القطبية إلا عشرة أيام ما نصه: ولم يسمع أحد من القوم تضييق مدة القطبية ولا حصرها فى زمن معين ولا فى نسبة معينة كما ذهب إليه بعض الأكابر، إلا أنها لا تكون إلا فى أهل البيت.

وكان صاحب هذا القول شريفًا من أهل البيت. وهذا القول ما عليه اتفاق والواقع عند من أدركته خلاف ذلك نسأل الله ببركاتهم أن ينفعنا بهم ويحشرنا فى زمرتهم.

مراتب الأولياء:

واعلم أن الأولياء المعدودين لهم مراتب معلومة بحسب مقاماتهم لأن منهم نقباء ونجباء وأبدالا وعمدًا وغوثًا، فالنقباء ثلاثمائة، والنجباء سبعون، والأبدال أربعون والأخيار سبعة، والعمداء أربعة، والغوث واحد، فمسكن النقباء المغرب والنجباء مصر والأبدال الشام، والأخيار سياحون فى الأرض والعمداء فى زوايا الأرض والغوث بمكة فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النقباء ثم النجباء ثم الأبدال ثم الأخيار ثم العمد فإن أجيبوا وإلا ابتهل الغوث فلا يتم مسألته حتى تجاب دعوته[1] كذا صرح بها ابن الملقن فى "طبقات الأولياء" تبعا لجماهير العلماء وكذا البونى فى "شرح الأسماء الحسنى" وغير واحد من الأئمة الأعلام، كالتاج السبكى، والجمال الأسنوى فإن السبكى أخبر عن قضيب البان أنه كان بدلا، والأسنوى أخبر عن الشافعى أنه تقطب قبل موته.

وقال أبو عبد الله الأنطاكى فى رسالته حدثنا أبو الحسن على بن عبد الحميد بحلب بإسناد عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن هذه قال: إن البدلاء بالشام والنجباء بمصر والعصائب بالعراق والنقباء بخراسان والأوتاد بسائر الأرض والخضر سيد القوم.

وحدثنا أبو يعقوب السجستانى بإسناده عن سفيان بن عيينة قال إن فى هذه الأمة خلفا لسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين يسلكون طرقهم إلى يوم القيامة ثم تلا: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[2] وبه سمعت الفضيل بن عياض يقول ما من نبى إلا وله نظير فى أمته ثم قال الأنطاكى: وحدثنا محمد بن سعيد

---

(١) هذه حكايات مرسلة ليس لها ما يؤيدها.

(٢) سورة الأنعام - آية ٩٠.

الأعرابى قال حدثنا الحسن بن محمد الزعفرانى عن يزيد بن هارون الواسطى عن سعيد بن جبير عن الحسن البصرى قال: لولا البدلاء لخسفت الأرض ومن عليها ولولا الصالحون لفسدت الأرض ومن عليها، ولولا العلماء لصار الناس كالبهائم ولولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضًا، ولولا الريح لأنتنت الدنيا ولولا الحمقاء لخربت الدنيا.

وقال بعض المتقدمين من أهل الحديث والفقه والتصوف فى ترجمة أبى يزيد البسطامى كانت الإشارة إليه فى التصوف فى الشرق والغرب قيل: إنه كان من أوتاد الأرض ومن السبعة، وقال أيضًا فى ترجمة أبى العباس أحمد بن محمد بن مسروق: كان من كبار مشايخ التصوف كتب الحديث الكثير وكان من أهل العلم بمحل عظيم وكان له أحوال وكرامات وصح عند القوم أنه كان من الأبدال.

قلت: وكذا صرح حجة الإسلام الغزالى فى أول المهلكات بذكر الأبدال ولم تزل علماء الشريعة والحقيقة قديما وحديثا يترجمون بالقطبية والبدلية الأولياء المعدودين أرباب الوظائف والمقامات فى كتبهم ولا التفات إلى قول من زعم أن ذلك ليس له أصل فى السنة لأن من خصائص النبى ﷺ فى أمته أن منهم أقطابًا وأوتادا نجباء وأبدالا دون غيرهم من الأمم السابقة لقوله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله" أخرجه الشيخان فى صحيحيهما عن المغيرة بن شعبة.

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: لكل قرن من أمتى سابقون وأخرج أبو نعم أيضًا عن ابن مسعود قال رسول الله ﷺ إن لله فى الخلق ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم، ولله فى الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى، ولله فى الخلق سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم، ولله فى الخلق خمسة قلوبهم على قلب إسرافيل، بهم يحيى ويميت ويمطر وينبت ويرفع البلاء.

وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: لن تخلو الأرض من أربعين رجلا مثل خليل الرحمن فبهم تسقون وبهم تنصرون ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر" وأخرج الإمام أحمد فى مسنده عن عبادة بن الصامت أن النبى ﷺ قال:

"الأبدال فى هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا".

قال أبو الزناد: لما ذهبت النبوة وكانوا أوتاد الأرض أخلف الله مكانهم أربعين رجلاً من أمة محمد ﷺ يقال لهم الأبدال لا يموت الرجل منهم حتى ينشئ الله مكانه آخره يخلفه وهم أوتاد الأرض انتهى.

قال الإمام اليافعى فى روض الرياحين: والواحد المذكور فى هذا الحديث يعنى الحديث الثانى هو القطب الغوث ومكانه من الأولياء كالنقطة من الدائرة هى مركزها به يقع صلاح العالم. فإن قلت: لم ذكر النبى ﷺ لقلبه أشباها وهو أفضل القلوب؟ قلت إنما لم يذكر النبى ﷺ قلبه فى جملة الأنبياء والملائكة والأولياء إذ لم يخلق الله فى عالمى الخلق والأمر أعز وألطف وأشرف من قلبه ﷺ.

فقلوب الملائكة والأنبياء والأولياء بالإضافة إلى قلبه كإضافة سائر الكواكب إلى كمال الشمس لأن أنوارهم مقتبسة من نوره ﷺ كذا قاله بعض المحققين.

وقال ابو الحسن الديلمى فى أسرار المعارف اعلم أن هذه القلوب المذكورة جليت بمعانى مشتركة من الحق تعالى فجار الاشتراك فيها بخلاف قلب النبى ﷺ فإنه خص بمعنى لا ينقسم ولا يشاركه فيه فى دار الدنيا وهو الرؤية.

وقال الشيخ صفى الدين بن أبى المنصور فى العطايا الوهبية فى المراتب القطبية والنبى ﷺ قد قرن خصوصيات الولايات بخصوصيات النبوءات فقال

ﷺ من أمتى من قلبه على قلب موسى ومن قلبه على قلب عيسى ومن قلبه على قلب إبراهيم".

وتعينه لهؤلاء الرسل بهذا المعنى شامل للكل لرفعة هؤلاء على سائر الأنبياء واستغنى ﷺ لإحاطته المحيطة ودائرته المشتملة على سائر دوائر الأنبياء أن يقول ومن قلبه على قلبى. والله أعلم.

تنبيه:

حكاية فى مراتب الأولياء:

حكى اليافعى فى روض الرياحين والبونى فى شرح الأسماء الحسنى عن بعض الصالحين أنه قال: كنت جالسا فى بيت المقدس عند بئر سليمان رضى الله عنه[1] يوم الجمعة بعد العصر فإذا أنا برجلين يشبه أحدهما خلقتنا والآخر طويل عظيم الخلق كان عرض جبهته أكثر من ذراع وكان فيها ضربة قد خبطت فجلس الذى يشبهنا عندى وسلم علىّ وجلس الآخر بعيدا عنا فقلت له: من أنت يرحمك الله؟! قال: أنا الخضر. قلت: ومن ذاك الرجل؟ قال: أخى إلياس فداخلنى ما يداخل مثلى من الهيبة والرعب[2].

فقال لى: لا بأس عليك؛ نحن نحبك ثم قال من صلى العصر يوم الجمعة ثم استقبل القبلة فقال يا الله يا رحمن إلى أن تغيب الشمس ثم يسأل الله عز وجل شيئًا أعطاه.

قلت له: آنستنى آنسك الله بقربه هل تعرف كل ولى لله فى الأرض؟ قال: المعدودين قلت: وما معنى المعدودين؟ قال: اعلم أن النبى ﷺ لما قبض شكت الأرض إلى ربها سبحانه وتعالى فقالت: يا رب بقيت لا يمشى على ظهرى نبىّ إلى يوم القيامة فأوحى الله سبحانه وتعالى إليها: إنى سأجعل فى هذه الأمة رجالاً مثل الأنبياء قلوبهم على قلوب الأنبياء عليهم السلام.

(١) الصحيح أن يقال عليه السلام فإن سليمان عليه السلام نبى ورسول.

(٢) هذه روايات لا سند لها ولا دليل يسندها وكثير من الوكالات والروايات فى كتب الكرامات والمناقب مرسلة وليس لها ما يؤيدها. فكل ما وافق الكتاب والسنة فعلى الراس والعين وما خالفهما ضربنا عنه صفحا وتركناه.

قال: فقلت لـه: كم هم؟ قال: ثلاثمائة وهو الأولياء، وسـبعون وهم النجباء، وأربعون هم أوتاد الأرض، وعشرة هم النقباء، وسبعة وهم العرفاء، وثلاثة وهم المختـارون، وواحـد وهو الغوث، فـإذا مات الغـوث اختيـر من الثلاثة واحـد فجعل فى مرتـبته واختـير من السبـعة واحد فجـعل فى الثلاثة واختير من العـشرة فضم إلى السبعة ومن الأربعين إلى العشـرة ومن السبعين إلى الأربعين ومن الثلاثمائة إلى السبعين واختير من الدنيا واحد إلى الثلاثمائة إلى يوم ينفخ فى الصور[1]، منهم من قلبه مثل نوح وإبراهيم عليـهما السلام فقلت له: مثل قـلب إبراهيم تعظيمًا له؟ قال: نعم ومـثل قلب جبريل وداود وسليمان عليهما السلام، أما سمعت قول الله: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ فما مات نبى إلا وعلى طريقته رجل يسلكها إلى يوم القـيامة، فلو أن الأربعين اطلعوا على قلوب العشـرة لرأوا قتلهم ودماءهم حـلالٌ وكذلك السبعـون لو اطلعوا على قلوب الأربعين لرأوا دماءهم حلالا، أما ترى ما كان فى قصة موسى؟

ثم قال الراوى: فقلت له: عرفنى أسماء هؤلاء الذين سـميتهم فأخرج دركاً من كمه فيه أسماء القوم كلهم قـد كتبهم، ثم قام فقمت معه، قال لى: إلى أين؟ فقلت: أمشى معك قـال: لا سبيل لك إلى ذلك. فقلت: إلى أين تقصد. فقال: وما تريد من ذلك؟ قلت أصلى فيه أتبرك به. قال: إنى أصلى الغداة بمكة ثم أجلس فى الحجر عند الركن الشامى إلى أن تطلع الشمس، ثم أطوف بالبيت سبعًا، ثم أصلى خلف المقـام ركعتين، ثم أصلى الظهر بالمدينة والعصر ببيت المقدس والمغرب بطور سيناء والعشاء على سد ذى القرنين، ثم لا أزال أحرس إلى الغداة.

وقال الشيخ الإمام العارف بالله شهـاب الدين أحمد الحضرمى الشاذلى

---

(١) روايت ليـس عليها دليل ولا سند لها.

(٢) هذه أمور تخـالف المعقول والمنقول وقـد أدى ذلك إلى أن أفتى بعض السادة الحنفـية بأن الزوجة إذا كانت فى المشرق وسافر زوجها إلى المغرب وحملت ووضعت حملها فى غيابه نسب الولد إليه لأن الولد للفراش كما جاء بالحديث الشريف، وقد يكون الزوج من أهل الخطوة فيـحضر إليهـا ثم يعود. ويؤدى ذلك إلى فساد كـبير. ولذلك فأى أمـر يخالف الكتاب والسنة لا نلقى إليه بالا..

تلميذ الأستاذ وحامل لواء السادة الشاذلية بأرض اليمن إلى الحسن على القرشي: اعلم أن ذات الأولياء واحدة وإن تفارقوا وحرمتهم ثابتة وإن تفاضلوا فالأولياء لا ينحصرون ورجال العدد منهم لا ينقصون إذ لو نقص واحد منهما لما أمطرت السماء ولا أنبتت الأرض، تشريفًا من الله وتكريمًا، وهذه حكمة الله ورحمته(١).

واختلف المحققون فى عددهم فمنهم من عد العشرة وهم خواص الأقطاب، ومنهم من عد الأربعين والأربعون هم خزائن الأسرار ومنهم من عد الثلاثمائة وستين. والثلاثمائة وستون هم مظاهر الأنوار وكلهم على بصيرة من الله وبينة، أعنى العابدين.

ومفهوم كلام الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه أن أنوار الأولياء دائمة الوجود ثابتة البقاء مشرقة الضياء ما دامت الدنيا لدوام أنوار الأنبياء عليهم السلام. إذ هم عمارها على التحقيق، فإن لكل رسول وارثًا ولكل نبى وارث فإن الأمم السابقة قد عجزت عن حمل أسرار أنبيائهم فادخرها الله سبحانه وتعالى لأمة محمد ﷺ إذ هو معدن المدد الحقيقى، وعنصر البيان التشريعى.

فمداد الأنبياء أولاً كان فى مشكاة نبوته ورسالته، وحكموا بما ظهر لهم فى هدايته بقوله ﷺ: "كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين"(٢) فإنه ﷺ قال: كنت نبيا، والنبى هو المبلغ أمره ونهيه ومراده فى عباده قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾(٣).

---

(١) هذا كلام لا أصل له. هناك بلاد لا تمطر، وبلاد صحراء جرداء لا تنبت، فأين هم من هذه وتلك فلماذا تركوها هكذا ما دام بمكنهم ان يُحسِّنوا أحوالها. هذه كلها أقاويل لا دليل عليها.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سورة آل عمران - آية ٨١.

فما بعث الله نبيا إلا وأخذ عليه الميثاق أن يؤمن لمحمد ﷺ وينصره إن أدركه ولهذا قال رسول الله ﷺ: "لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا أن يتبعنى"(١). وقد ورد أن عيسى عليه السلام يظهر خاتما للولاية المحمدية حاكما بشريعة محمد ﷺ ومقررا لها.

قال النبى ﷺ: "كيف بكم إذا ظهر فيكم ابن مريم وإمامكم منكم"(٢) فرجال العدد وهم الذين لا ينقصون على تقدير ما قدره الأستاذ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا والله أعلم بخلقه وأستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه عبودية من لم يقم بحقه وغيرهم من الأولياء فلا ينحصرون: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾(٣).

علة ستر الله لأوليائه عند تقدم الزمان:

وإنما سموا رجال العدد، لأنهم إذا مات منهم واحد أبدل الله عوض مثله أو خيرا منه فلا يخطر ببالك عدم الأولياء فى زماننا لكثرة ما ترى من الجهل والظلم فتحير تحيرا واسعًا وإنما أخفاهم الله وسترهم، غيرة عليهم، ورحمة لخلقه، لغفلتهم عن مواهب الله سبحانه وتعالى فقد كثّر أنوارهم وأجل مقدارهم وأقامهم على مراده لا يدبرون ولا يختارون ولا يقدمون ولا يؤخرون ولا يقفون مع شىء دون الله تعالى، إذ لا يوجد لغيره فعل، فهم عبيد المؤقّت لا عبيد الأوقات.

لا يعرفون السوى، ولا يحل بهم بُعد ولا نوى، قد عافاهم الله من هم الرزق وخوف الخلق، فعليك بالإيمان بأولياء الله ومحبتهم فقد قال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد: التصديق بعلمنا هذا ولاية ومن لم يعتقد رجلا معينا لم ينتفع أبدًا فإنها إمامة ولا تصح الصلاة إلا بموافقة الإمام ومن أنكر عليهم حرم بركتهم وذلك أقل عقوبة ويخشى عليه سوء الخاتمة.

---

(١) رواه أحمد فى المسند.
(٢) رواه البخارى.
(٣) سورة المدثر - آية ٣١.

فنسأل الله العافية والسلامة بفضله وكرمه.

وقال العارف بالله الشيخ أبو المواهب التونسى الشاذلى الوفائى رحمه الله وقد اجتمعت به غير مرة ودعا لى لما سألته الدعاء وقال لى لما رأيته فى بعض المساجد بعد الغروب كلمة لم أفهم إشاراتها إلى الآن لما اشتغلت بعلوم القوم والحمد لله على ذلك قال فى أول كتابه: إخبار الأذكياء بأخبار الأولياء:

أما بعد فإن الأسرار الإلهية والأنوار الربانية جعل الحق تعالى محل ظهورها بالطبيعة الإنسانية فمنها ما هو ظاهر معلوم، ومنها ما هو خفى مكتوم: فالظاهر من هذه المظاهر الرسل المشرعون والأنبياء المقررون، والأخفياء بعض الخلفاء من الأولياء.

وجه الدقة فى إيثار الأنبياء على الرسل فى الحديث:

لكل قدم من الرسل والأنبياء وارث يقوم فيه بحسب استعداده، فلهذا المعنى اختلفت المقامات وتباينت الحالات وتعددت المسالك، وكأن قدم هذا المريد غير قدم هذا السالك، فمن رأيته مجدداً للأحكام والطريق متكلما فيها بالمعنى الرقيق فهو من ورثة المرسلين، ومن رأيته مقررا سالكا لكل مسالك من كان قبله من القوم من غير تجديد فهو من ورثة النبيين، وهؤلاء هم الأكثرون.

ألا ترى أن الرسل أقل عدداً ولكن هم أعظم الأنبياء مدداً وها هنا فائدة وذلك أن قوله ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء". ولم يقل ورثة الرسل لأن الأنبياء لم يؤذن لهم فى التجديد كما أذن لهم فى التقرير فلهذا شارك العلماء الأنبياء فى هذه الصفة فقط.

والوراثة تطلق بأدنى نصيب (فإن قلت) قد أطلقت على بعض أهل الباطن أنهم ورثة الرسل، وصاحب الشرع إنما جعل الوراثة فى النبوة لا الرسالة قلت: إنما أطلقناه يا فهيم لتجديد آداب وحى الإلهام، لا لنسخ وحى شرائع الأحكام.

ثم قال رحمه الله اعلم أن الولاية مقولة بالتشكيك فمن آمن بالله ورسوله وما جاء به فهو ولى قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1] فالإيمان بدايتها والصديقية القصوى غايتها. وبين الغاية والبداية مراتب ومقامات وأحوال تتفاوت فيها أقدام الرجال ثم يلى علماء الظاهر أصحاب الاقتداء بأقوالهم وهم العباد والزهاد وأهل الورع والاجتهاد وترى أحدهم ينقطع فى الجبال وينعزل عن النساء والرجال ويسيح فى الأرض الطول منها والعرض ليس عنده رائحة من المعرفة.

تفاضل الأولياء:

ومنهم الصوفية وهم أعلى درجة من أولئك؛ لسلوكهم على قوانين المعرفة، وهم يكثرون تارة ويقلون أخرى، ومنهم ثلاثمائة على قلب آدم عليه السلام فى كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون ومنهم أربعون على قلب نوح عليه السلام ومنهم سبعة على قلب الخليل عليه السلام ومنهم ما يشاء الله على قلب عيسى عليه السلام ومنهم ثلاثة على قلب ميكائيل عليه السلام، ومنهم واحد على قلب إسرافيل عليه السلام وهو القطب.

ثم قال ومنهم شجاع مقدام كثير الدعوى بحق، يقول حقًا ويحكم عدلاً، وكان صاحب هذا المقام الشيخ الجليل القطب عبد القادر الجيلى كانت له الصولة والاستطالة بحق على الخلق.

ومنهم رجال الماء وهم قوم يعبدون الله تعالى فى قعور البحار والأنهار ولا يعلم بهم كل أحد. قال أبو السعود ابن الشبلى إمام وقته: فى الطريق كنت بشاطئ دجلة ببغداد، فخطر فى نفسى هل لله عباد يعبدونه فى الماء؟ فما استتممت الخاطر إلا وإذ بالنهر قد انفلق عن رجل فسلم علىّ وقال: نعم يا أبا السعود لله رجال يعبدون الله فى الماء وأنا منهم، ثم أخبرنى بأمر يحدث بعد أيام فوقع على نحو ما أخبر[2].

(١) سورة البقرة - آية ٢٥٧.

(٢) هذا يخالف المعقول لأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش تحت الماء، فلو قال أن العباد تحت الماء من الأسماك أو الحيوانات أو النباتات البحرية لصدقناه، أما رجال فلا وألف لا.

ومنهم الأخلاء وهم لا يكتسبون الولاية إلا بمحبة الله تعالى ومحبوب الحبيب حبيب ومنهم سبعمائة رجل: قال الأستاذ الكبير أبو مدين شعيب الأشبيلي دفين تلمسان: سكناهم بمصر ومنهم سبعون هائمون في أطوار الجذب بمصر أيضًا، وصاحب الوقت الآن مسكنه بمصر وروحانيته بمكة، ونائب القطب مسكنه مكة، ومنهم الأفراد وهم الرجال الخارجون عن دائرة القطب، ومنهم الإمامان وهما الشخصان اللذان أحدهما عن يمين الغوث ونظره في الملكوت والآخر عن يساره ونظره في الملك وهوى أعلى من صاحبه وهو الذي يخلف القطب قلت: قال بحر الحقائق محيي الدين بن العربي في كتاب القطب والإمامين: "فمنزل القطب حضرة الاتحاد الصرف فهو الخليفة ومقامه تنفيذ الأمر وتصريف الحكم وحاله الحالة العامية لا يتقيد بحالة تخصيص فإنه البر العام في الوجود، وبيده خزائن الجود، والحق له متجلى على الدوام ولهذا قال الصديق رضي الله عنه:

"ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله" وله من البلاد مكة ولو سكن حيث جسمه فإنما محله مكة ليس إلا، وقال البوني في شرح الأسماء الحسنى: "اعلم أن مركز القطب بمكة وهو مستغرق في أنوار التجلي لا يصحو إلا عند أداء الفرائض السنن"..

تنبيه:

قال بعض أهل الشارات: الأقطاب متفاضلون بالنسبة إلى مقامات مورثيهم قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1] فأكمل الأقطاب المحمدي وكل من نزل عنه فعلى قدر من ورث، فمنهم عيسويون وموسويون، وإبراهيميون ويوسفيون ونوحيون، وكل قطب ينزل على حد من ورثه في الأنبياء، وكل من مشكاة محمد ﷺ لأنه الجامع لمقامات الأنبياء

---

(١) سورة البقرة - آية ٢٥٣.

منهم متفاضلون في المعارف غير متفاضلين في نفس القطبية وتدبير الوجود، وقال سيد علماء الطريقة وإمام أهل الحقيقة القط الشريف أبو الحسن الشاذلي:

"اعلم أن العلوم التي وقع الثناء على أربابها وإن جلت فهي ظلمة في علوم ذوي التحقيق وهم الذين غرقوا في بحار تيار الذات وغموض الصفات، فكانوا هناك بلا هم، وهم الخاصة العليا الذين شاركوا الأنبياء والرسل في العلوم اللدنية، إذ ما من نبي ولا رسول إلا وله من هذه الأمة وارث وكل وارث على قدر إرثه في مورثه..

قال رسول الله ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء" ولا يكون وارث إلا وله نصيب معلوم من مورثه يقوم مقامه على سبيل إرث العلم والحكمة لا على سبيل التحقيق بالمقام والحال؛ فإن مقامات الأنبياء قد جلت أن يلمح حقائقها غيرهم وكل وارث في المنزلة بقدر مورثه، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1] فكما فضل بعضهم على بعض، كذلك فضل بعض الأولياء على بعض، لأن الأنبياء أعين الحق، وكل عين مستمد منها على قدرها وكل ولي له مادة مخصوصة فانقسم الأولياء على ضربين: ضرب منهم أبدال الأنبياء، وضرب منهم أبدال الرسل.

فأبدال الأنبياء الصالحون، وأبدال الرسل الصديقون، وبين الصالحين والصديقين في الفضل كما بين الأنبياء والمرسلين، فمنهم طائفة انفردوا بالمادة من رسول الله ﷺ يشهدونها عن يقين لكنهم قليلون، وهم في التحقيق كثيرون.

وكل نبي وولي مادته من رسول الله ﷺ فمن الأولياء من يشهد عينه، ومنهم من يخفى عليه عينه ومادته، فيفنى فيما ورد عليه ولا يشتغل بطلب مادته بل هو مستغرق بحاله لا يرى غير وقته. والله أعلم.

* * *

(١) سورة الإسراء - آية ٥٥.

الفرق بين الفراسة والإلهام

مذهب ابن القيم:

فصل: قال العلامة شمس الدين بن القيم في شرح منازل السائرين في الكلام على الفرق بين الفراسة والإلهام: "اعلم أن الفراسة على الصحيح قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل وأما الإلهام فموهبة مجردة لا تُنال بكسب البتة".

قلت: هذا يؤخذ من قوله ﷺ: "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله"[1] لأنه يستنبط منه أن غير المؤمن كالراهب مثلا قد تكون له فراسة ولكن لا يتحدث إلا بما ألقاه إليه الشيطان لا بنور الرحمن لكونه محجوبا بظلمة الكفر والنفاق، ولهذا أخرجه بقوله: فإنه ينظر بنور الله".

مذهب الهروي:

وقال الهروي: "الإلهام مقام المحدثين وهو فوق مقام الفراسة: لأن الفراسة ربما وقعت نادرة واستصعبت على صاحبها وقتا، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد، قال القاشاني: هو الحاضر المهيأ".

توفيق بين الآراء:

قلت: هذا الفرق إذا تأملته تجده ليس مخالفًا لما فرقه ابن القيم؛ لأن الإلهام إذا كان موهبة مجردة يلزم منه حينئذ أن لا يتخلف عن وقته ومحله كما هو شأن المواهب الإلهيات التي لا يمنعها مانع ولا يحجبها حاجب، إذ لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع سبحانه وتعالى وهذا بخلاف الفراسة؛ فإنها لما كانت قد تتعلق بواسطة كسب وتحصيل ناسب طاعتها تارة وعصيانها أخرى، لأن فيها شائبة الاتكال على العمل. والله أعلم.

---

(١) سبق تخريجه.

مذهب الإمام الغزالى:

وقال حجة الإسلام الغزالى فى شرح عجائب القلب: والمحدث هو الملهم والملهم هو الذى انكشف له فى باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجة، قال ﷺ: "إن من أمتى محدثين ومتكلمين وإن عمر منهم" قال الحافظ زين الدين العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء فى هذا الحديث: أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة: "لقد كان فيمن قبلكم من الأمم محدثون فإن يك فى أمتى أحد فإنه عمر" ورواه مسلم فى حديث عائشة رضى الله عنها وقرأ ابن عباس: "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ولا محدث" يعنى الصديقين.

وكان أبو يزيد وغيره يقول: "ليس العالم الذى يتحفظ فإذا نسى ما حفظ صار جاهلاً إنما العالم الذى يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء بلا تحفظ ولا درس وهذا هو العالم الربانى وإلى مثله الإشارة بقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[1] مع أن كل علم من لدنه، ولكن بعضها بواسطة تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علم الدنيا، بل العلم اللدنى هو الذى ينفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من خارج. انتهى التنبيه.

هل يقع الخطأ فى الكشف والإلهام؟

قال سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام: أهل المكاشفات والمخاطبات يصيبون تارة ويخطئون أخرى كأهل النظر والاستدلال، فيجب عليهم أن يعتصموا بالكتاب والسنة[2] ولا يكتفوا بمجرد ذلك.

وذكر الأستاذ قطب الدائرة أبو الحسن الشاذلى فى رسالته نحوه، وعلله بأن الله تعالى ضمن العصمة فى جانب الكتاب والسنة[3]، ولم يضمنها فى

---

(١) سورة الكهف - آية ٦٥.

(٢، ٣) وهذا هو المنهج الذى اتخذناه فى تحقيق كتب التراث وأشرنا إليه آنفا فى أكثر من موقع ونبهنا إلى أن ما وافق الكتاب والسنة فعلى الرأس والعين ومال خالفهما ضربنا عنه صفحا.

جانب الكشف والإلهام وقال ابن السبكى فى جمع الجوامع: الإلهام إيقاع شى فى القلب يثلج له الصدر يخص الله تعالى به بعض أصفيائه وليس بحجة لعدم ثقة من ليس معصوما بخواطره خلافا لبعض الصوفية.

هل الإلهام حجة؟

قال الزركشى الإلهام ما حرك القلب بعلم يدعوك إلى العمل به من غير استدلال بآية ولا نظر فى حجة.. قال ابو يزيد: والذى عليه جمهور العلماء إنه خيال لا يجوز العمل به إلا عند فقد الحجج كلها فى باب ما أبيح له عمله بغير علم.

وقال بعض الجبرية إنه حجة[1] بمنزلة الوحى المسموع عن رسول الله ﷺ واحتج بقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[2] أى عرفها بالإيقاع فى القلب، وبقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[3] وبقوله عليه السلام: "اتقوا فراسة المؤمن" وقوله: "الإثم ما حاك فى صدرك فدعه وإن أفتاك الناس وأفتوك" فقد جعل عليه السلام شهادة قلبه بلا حجة أولى من الفتوى.

حجة من أنكر حجية الإلهام:

قال: فثبت أن الإلهام حق وأنه وحى باطن إلا أن العبد إذا عصى ربه وعمل بهواه حرم هذه الكرامة.. وأما حجة أهل السنة فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[4] فألزمهم الكذب لعجزهم عن إظهار الحجة والإلهام حجة باطنة لا

---

(١) الإلهام ليس حجة إلا إذا وافق الكتاب والسنة فالحجة هى لكتاب الله سبحانه وتعالى ولسنة رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

(٢) سورة الشمس - الآيتان ٧، ٨.

(٣) سورة الأنعام - آية ١٢٥.

(٤) سورة البقرة - آية ١١١.

يمكن إظهارها وآيات الأمر بالنظر والاعتبار، ولم يأمر بالرجوع إلى القلب، وكذلك حديث مسعاد تحكم ولم يذكر إلهام القلب ولأن الإلهام قد يكون من الله ومن الشيطان ومن النفس ولا علامة قطعية على التعيين، وأما قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا﴾ أى عرفها طريق العلم.

قال ابن السمعانى: وإنكار أصل الإلهام لا يجوز ويجوز أن يفعل الله تعالى ذلك بعبد بلطفه كرامة له وبقوله فى التمييز بين الباطل والحق "والحق" فى ذلك أن كل ما استقام على شرع النبى ﷺ ولم يكن فالكتاب والسنة ما يرده فهو مقبول. وما لا فمردود يكون فى تسويلات النفس، على أننا لا ننكر زيادة نور من الله كرامة للعبد وزيادة نظر فأما أنه يرجع إلى قلبه فى جميع الأمور فقول لا نعرفه.

القول الفصل

من أثبت الإلهام وحجته

قلت: وممن أثبته الإمام شهاب الدين السهروردى قال فى بعض أماليه هو علوم تحدث فى النفس المطمئنة الذكية وفى الحديث: "إن من أمتى محدثين ومكلمين وإن عمر منهم" وقال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ وأخبر أن النفوس ملهمة، فالنفس الملهمة العلوم اللدنية هى التى تبدلت صفتها واطمأنت بعد أن كانت أمارة ثم نبه على أمر حسن يرتفع به الخلاف فقال: وهذا النوع لا تتعلق به المصالح العامة فى عالم الملك والشهادة بل يخص فائدته لصاحبه دون غيره، إذا لم تكن ثمرة السراية إلى "العين على طريق العموم، وإن كانت له فائدة تتعلق بالاعتبار على وجه خاص قال: وإن لم يكن له ثمرة السراية" على الغير على طريق العموم فى نتائج الملك الذى محله النفس وقربها من الأرض والعالم السفلى بخلاف المرتبة الأولى وهى الوحى الذى قام به الملك الملقى؛ لأن محله القلب المجانس للروح الروحانى العلوى.

وقال فى كتابه رشف النصائح الإيمانية: قد غسلت بتوفيق الله كتاب ابن سينا المترجم بالشفاء نحواً من عشرين مجلداً بإذن شريف مقدس نبوى.. انتهى، قلت: ومما يشهد لمصداق هذا الإلهام النبوى، ما نقل عن علامة الوجود أنه حكى أن بعضهم رأى النبى ﷺ فى النوم فسأله عن الغزالى والفخر الرازى وابن سينا فأثنى على الغزالى خيرا كثيرا وقال فى الفخر الرازى: إنه معاتب وقال فى ابن سينا: إنه أراد أن يصل إلى الله تعالى بغير واسطتى فانقطع، فنعوذ بالله من مقته.

ونسأل الله أن يوفقنا إلى اتباع سنة سيد أنبيائه وخليفته.

سبب انقطاع ابن سينا عن طريق القوم

وسبب ذلك أن ابن سينا ركب له تصوفا على طريقة الفلاسفة وترك سنة سيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ وعكف على سنن قوم كفار ضلال وبنى قواعده ليضل بها، نعم وصل ولكن إلى شفا جرف هار.

الصلة بين التصوف والكتاب والسنة

وقال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر رسول الله ﷺ وقال: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة وقال أيضاً مذهبنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ.

وقال أبو حفص الحداد: من لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعده فى ديوان الرجال. وقال ابن السبكى فى كتابه: "معيد النعم ومبيد النقم" ورأيى فيمن أعرض عن الكتاب والسنة واشتغل بمقالات ابن سينا ومن نحا نحوه وترك قول المسلمين، وقول: قال أبو بكر، وقال عمر، وقال الشافعى، وقال أبو حنيفة وقال الأشعرى،

وقال القاضى أبو بكر الباقلانى إلى قوله قال الشيخ الرئيس يعنى ابن سينا، وقال خواجا نصير، ونحو ذلك ان يضرب بالسياط ويطاف به فى الأسواق وينادى عليه هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واشتغل بأباطيل المبتدعين.

أو ما يستحى من يتخذ أقوال ابن سينا وتعظيمه شعارا من الله تعالى إذا قرأ قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾[1] ويذكر إنكار ابن سينا لحشر الأجساد وجمع العظام فانظر كيف صرح بابتداعه وخروجه عن مذاهب المسلمين من أهل السنة والجماعة بل صرح الغزالى فى المنقذ من الضلال" بتكفير الفلاسفة فى ذلك.

وإني لأعجب أشد العجب ممن يعتقد ابن سينا الذى قال فيه ابن الصلاح: إنه شيطان من شياطين الإنس، وينتقد بجهله عل بحر الحقائق حامل لواء العلم بالله محيى الدين ابن العربى الذى أطبقت على ولايته الصوفية ولم يختلف منهم اثنان فى ذلك بقطبيته فضلا عن ولايته جمع كثيرون من الفقهاء الموفقين الجامعين بين الشريعة والحقيقة كالسهروردى وابن أبى المنصور، وابن عطاء الله وابن عباد، والقرطبى والشيخ كمال الدين الزملكانى، واليافعى والبساطى أحد أئمة المالكية، وابن الهمام أحد أئمة الحنفية وغيرهم من الأئمة الأعلام لأنه لا يعرف علو مقام هذا الحبر الربانى الذى لم تلد النساء مثله بعده ولا قبله من دهر طويل إلا من منحه الله علمى الظاهر والباطن.

وأما من وقف فهمه وصار جبانا جامدا على ظواهر العلوم الظاهرة بحيث لا يترقى عنها فذلك محجوب عن فهم العلوم الذوقية اللدنية مبعد عن درجات الكمل فهو لم يزل يخبط خبط عشوى حتى برز الله بالمحاربة من غير ان يشعر بنفسه فهو كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[2]

---

(١) سورة القيامة - الآيتان ٣، ٤.

(٢) سورة فاطر - آية ٨.

فقد جعل الله أعمـاله القبيحة فى عينه حسنة لتكون سببـا لهلاكه وكان الأمر كذلك فى بعض الناس فى زماننا، وما مثال المنتقدين عند خروجهم من الدنيا إلى عالم البرزخ إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، لأنهم فى دار الدنيا يعتقدون أنهم على شىء من الحق وهم فى محض الباطل فلا يتحققون باطلهم إلا فى عالـم البرزخ لأن هناك يتحقق التمييز بين السعداء والأشقياء فيا خسران المنكرين، ويا فضيحتهم إذا شاهدوا ابن العربى فى موكب الأصفياء والصديقين.

من مناقب ابن عربى

ويا ليت شعرى ماذا يقول القائلون فى أستاذ كمّل لسيد الطائفة الجنيد طريقه فى عالم البرزخ وماذا يقولون أيضًا فيمن أمره الرسول ﷺ بالتصنيف فى علوم الحقائق، وكفى بهذا شرفًا وشتان بين من أمره الرسول عليه الصلاة والسلام بالتصنيف وبين من أمره بغسل تصنيفه وماذا يقولون أيضًا فيمن أكرمه الله تعالى بنشر الزمان بحيث أن مصنفاته زادت على خمسة آلاف فى علوم الحقائق والإشارات.

وماذا يقولون فيمن أكرمه الله تعالى بسماع خطاب آنية الطعام كما سيأتى الكلام على ذلك فى محله إن شاء الله تعالى ولنمسك حينئذ عنان الكلام فإن كراماته كثيرة تخرج عن الحصر ليس هذا محلاً لذكر تفصيل أنواعها والله أعلم.

باب

فى تبرئة القوم من أهل التصوف من الحلول والاتحاد

اعلم أن الأئمة من أهل الفقه والكلام وأكابر أعلام الإسلام ما زالوا يصحبون أهل الطريق ويحضرون مجالس وعظهم ويبالغون فى الثناء عليهم وينقلون عباراتهم وإشاراتهم فى دروسهم وتصانيفهم فلو رأوا ما يشعر بشىء

من ذلك لكانوا أول نافرين، وإلى الإنكار مبادرين . . كان إمام الشافعية أبو العباس أحمد بن سريج من كبار أصحاب الوجوه والمفضل على جميع الأصحاب. حتى قيل أنه أفضل من المزنى كذا قاله الشيخ أبو إسحاق الشيرازى فى ترجمته.

وكان يحضر مجلس الجنيد ويسمع كلامه ويقول: أشهد أن لهذا الكلام صولة ليست بصولة مبطل. وقال ابن السبكى فى الطبقات: وعن ابن سريج أنه تكلم فى العلوم يومًا فتعجب من حسن تقريره بعض الحاضرين فقال ابن سريج لما رأى إعجابه: أتدرى من أين هذا؟ هذا من بركة مجالستى لأبى القاسم الجنيد.

وكان أكابر الأئمة من الفقهاء والمحدثين يحضرون مجلس الأستاذ أبى القاسم القشيرى صاحب الرسالة، ونقل ابن السبكى أيضًا فى طبقاته عن ابن السمعانى: أنه روى بسنده أن أبا القاسم القشيرى حج سنة من السنين وقد حج فى تلك السنة أربعمائة نفس من قضاة المسلمين وأئمتهم فى أقطار البلاد وأقاصى الأرض فأرادوا أن يتكلم واحد منهم فى حرم الله فاتفق الكل على الأستاذ أبى القاسم القشيرى فتكلم هو باتفاق منهم، وكان ولده أبو نصر عبد الرحيم أيضًا يحضر عنده الأئمة. قال ابن السبكى لزمه الأئمة مثل الإمام أبى إسحاق الشيرازى الذى هو فقيه العراقيين فى وقته وأطبقوا على أنه لم ير مثله فى تبحره.

ثم قال ابن السبكى: وأعظم ما كان من أمر أبي نصر أن إمام الحرمين، وهو عصريه نقل عنه فى كتاب الوصية فى النهاية وهذا فخار لا يعدله شىء . . هذا كلام ابن السبكى بحروفه.

وقال اليافعى فى روض الرياحين: وهذا حاتم الأصم من شيوخ الصوفية وقد اجتمع به الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه وسمع كلامه، وسأله فأجابه فاستحسن جوابه. ولم تزل العلماء الصلحاء قديما وحديثا

يعتقدون طائفة الصوفية ويزورونهم ويتبركون بمجالستهم ودعائهم وآثارهم. . من ذلك ما جاء عن الإمام سفيان الثورى فى مجالسته لرابعة العدوية وتأدبه معها، وما جاء عن الإمامين المجتهدين الشافعى وأحمد بن حنبل رضى الله عنهما فى مجالستهما لشيبان الراعى رضى الله عنه وحكايتهما معه مشهورة.

ومن ذلك ما روى أن فقيها من أكابر الفقهاء، كانت حلقته تحت حلقة الشيخ الكبير العارف بالله أبى بكر الشبلى رحمه الله فى جامع المنصور وكان يقال لذلك الفقيه أبو عمران، وكان يتعطل عليه التقدير لأصحابه بكلام الشبلى فسأل أصحاب أبى عمران يومًا الشبلى عن مسألة فى الحيض وقصدوا إخجاله فذكر مقالات الناس فى تلك المسألة والخلاف، فقام أبو عمران وقبَّل رأس الشبلى وقال له يا أبا بكر استفدت فى هذه المسألة عشر مقالات لم أسمعها، وكان عندى من جملة ما قلت ثلاثة أقاويل.

وقيل لأبى القاسم الجنيد: ممن استفدت فى هذه العلوم؟ فقال: من جلوسى بين يدى الله عز وجل ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة وأشار إلى درجة فى داره، وقال رضى الله عنه لو علمت بأن لله علما تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذى يتكلم فيه مع أصحابنا وإخواننا لسعيت إليه وقصدته. وقال أيضًا : ما أخذنا التصوف عن القال والقيل ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات.

وروى أن النجيب ابن النجيب أبا المعالى إمام الحرمين - رحمه الله - كان يدرس يومًا فى المسجد بعد صلاة الصبح فمر عليه بعض شيوخ الصوفية ومعه أصحابه من الفقراء وقد دعوا إلى بعض المواضع فقال إمام الحرمين فى نفسه ما شغله إلا الأكل والرقص فلما رجع الشيخ من المكان الذى دعى إليه، مر عليه وقال: يا فقيه ما تقول فيمن يصلى الصبح وهو جنب ويقعد فى

المسجد ويدرس للناس العلوم ويغتاب الناس فتذكر إمام الحرمين أنه كان عليه غسل، ثم حسن بعد ذلك اعتقاده فى الصوفية.

من أوصاف المتصوفة

وروى أن الإمام أحمد بن حنبل كان مع جلالة قدره يكثر التردد للصوفية العارفين فقيل له أتتردد لزاوية هذا الشيخ؟ فقال عنده رأس الأمور معرفة الله. وقال الشيخ تاج الدين السبكى فى كتابه "معيد النعم ومبيد النقم" فى المثال السادس والستين.

"الصوفية حياهم الله وبيّاهم وجمعنا فى الجنة نحن وإياهم" وقد تشعبت الأقوال فيهم تشعبًا ناشئًا عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المتلبسين بها بحيث قال الشيخ أبو محمد الجوينى: "لا يصح الوقف عليه لأنه لا حد لهم يُعرف، والصحيح صحته وأنهم المعرضون عن الدنيا المشتغلون فى أغلب الأوقات بالعبادة.

ومن ثم قال الجنيد: "التصوف: استعمال كل خلق سنى وترك كل خلق دنى، وقال أبو بكر الشبلى: "هو ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك، وقال ذو النون المصرى الصوفى: من إذا نطق بان نطقه من الحقائق، وإذا سكت نطقت عنه الجوارح، وكان الشيخ الإمام يقول: من لزم الصدق مع الحق والخلق وينشد:

تنازل الناس فى الصوفى واختلفوا
قديما وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى
صافى فصوفى حتى لُقّب الصوفى

والحاصل أنهم أهل الله سبحانه وتعالى وخاصته الذين ترجى الرحمة بذكرهم ويستنزل الغيث بدعائهم فرضى الله عنهم وعنا بهم، وللقوم أوصاف وأخبار اشتملت عليها كتبهم.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيرى "جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله عليهم وجعل قلوبهم معدن أسراره واختصهم من بين الأئمة بطوالع أنواره فهم الغياث للخلق والداثرون فى عموم أحوالهم مع الحق. ومن أوصاف هذه الطائفة الرحمة، والرأفة، والعفو والصفح وعدم المؤاخذة، ومن حقهم تربية المريد إذا لاحت عليه لوائح الخير وإمداده بالخاطر والدعاء.

وقال الشيخ أبو منصور ابن أحمد الأصبهانى أحد الأئمة الجامعين بين الحديث وعلوم الحقائق، وأحد من اجتمع بأصحاب أبى بكر الشبلى، وأبى زرعة الطبرى، وأبى يعقوب الخراط وأبى العباس أحمد الصفار، وأبى عبد الله محمد بن خفيف، وأبى الحسن بن المثنى الطبرى وأبى على الإسفراينى، وغيرهم من الأئمة الأعلام فى كتابه شواهد التصوف من الكتاب والسنة وأقاويل الأئمة وقعت على نسخة منها وعليها خط الحافظ ابن الصلاح ما نصه:

فأما مذهب أهل التصوف على حقيقته وشروطه فمقبول عند العلماء المتقين والأئمة الصالحين والسلف من المحققين المنصفين وذلك الذى جلس على شرط التصوف بالصدق فزهد فى الدنيا واشتغل بالعبادة والذكر والصلاة والصيام ورعاية الفقر، والاستغناء عن الناس، والرضا بالدون، والقناعة فى المطعوم والملبوس فكان جلوسه فى المسجد، وأكله على الضرورة، ولباسه المرقع والرث، ووقته الذكر والتذكار فالكتاب ناطق بذكره والرسول - ﷺ - شاهد بقبوله ولا ينكره فى مذهبه إلا جاهل أو معاند؛ لأن من وفقه الله عز وجل لما ذكرته فأعرض عن الدنيا ورضى عن الله عز وجل في فقره وزهد

وعمر أوقاته: ليله ونهاره بذكر الله عز وجل وخدمته فلا يضيعه الله عز وجل إن شاء الله.

من ثناء الفقهاء على المتصوفة:

ولقد أقر بصحة معرفة التصوف الإمام فى وقته أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثورى حين قال: ما زلت أرانى وأنا لا أعلم حتى لقيت أبا هاشم الصوفى فعلمنى ترك الرياء . . قال الأصبهانى: "وأخبرنى أبو محمد عبد الله بن محمد قال أخبرنا أبو الفضل نصر الطوسى قال: سمعت أبا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن المكى قال: سمعت أحمد بن محمد بن سواكن قال: سمعت الربيع بن سليمان المرادى يقول كنا عند أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنه فتحاورنا فى مسألة إذ مر طائفة من الصوفية فى صحن المسجد فرمقناهم بأبصارنا واشتغلت قلوبنا به.

فقال الشافعى رضى الله عنه ما شأنكم قلنا هؤلاء قوم اجتازوا نبأ الساعة قد تركوا الصنائع وآثروا الجلوس على الكسب فقال الشافعى رضى الله عنه والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما على وجه الأرض فى هذه الساعة أكرم على الله عز وجل منهم قال الربيع فاستعظمنا ذلك منه، فقال رضى الله عنه أستعظمتم ذلك منى؟ قلنا: نعم أيا الشيخ: فقال: إن الله عز وجل خص الأمة بمائة خلة فركبنا نحن خلة واحدة وركب هؤلاء تسعة وتسعين.

وأخبرنا أبو عبد الله محمد بن خفيف إجازة قال: حضرت عند أبى العباس بن سريج إمام الدنيا وحضر هناك أئمة الشافعية والمالكية والحنفية وأصحاب الحديث والمشايخ الأجلة مثل أبى على القشيرى وأصحابه فلما فرغ من المجلس قام عبد العزيز الخيرانى وقال: أيها القاضى مسألة، قال: قل قال: متى يهش الراعى غنمه عن مراتع الهلكة؟

فأجابه على البديهة وقال إذا علم أن عليه رقيبًا ثم قال: يا شيخ هذا علم شريف وله مجلس خاص، فقد كنا نحضر عند أبى القاسم الجنيد، وأبى محمد رويم بن محمد فدخل جماعة يستخبرون الشيخ عن مسائل نفيسة فأجابهم على بديهتهم فأجاب القوم وصار هناك للمتصوفة من المقدار والجاه ما لا يوصف.

قال أبو عبد الله بن خفيف: وحضرت عند الحليمى القاضى وهناك أجلاء الفقهاء مثل أبى حمدان وأبى حسين الكسائى، وابن قيراط فجرى ذكر المتصوفة فقال الحليمى والله ما صرنا من الناس إلا بمجالسة الصوفية وما تعلمنا الأدب إلا منهم وإنى لمتأسف على ما فاتنى منهم . .

وأخبرنى أبو بكر بن حيان قال أخبرنا أبو سعيد بن الأعرابى قال سمعت أبا حمزة البغدادى الصوفى يقول: قال لى أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله غير مرة: ما تقول فى مسألة كذا وكذا يا صوفى؟ وسمعت عبد الله بن محمد البصرى يقول: سمعت أبا الفضل العطار يقول: سمعت أبا زيد هبة الله بن أحمد البغدادى بأنطاكية يقول سمعت الدارى يقول: صلى أبو زرعة الرازى فى مسجده عشرين سنة بعد قدومه من السفر، فدخل عليه يومًا قوم من أصحاب الحديث فتذاكروا فقالوا: هذا بركة بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل عليك.

فقال أبو زرعة حاشا لله هذا بركة صوفى رأيته فقالوا: فبشر فأحمد فقال أبو زرعة: فبشرو أحمد كان عليهما مفارقة ما هما عليه حتى يصيرا مثل ذلك الصوفى، وحكى أبى الحسن الواعظ عن عبد الله بن أحمد بن حنبل أنه قال: جاء رجل إلى أبى رحمه الله فقال: يا أبا عبد الله هؤلاء الصوفية قعدوا فى المساجد بلا علم. فقال: يا ابن أخى ما أحسن قوما رضوا من الدنيا بكسرة قال فإنهم يسمعون ويرقصون، قال: يا ابن أخى هؤلاء قوم فرحوا بالله ساعة.

تأويل ما جرى بين الإمام أحمد والحارث المحاسبي:

وذكر أبو عبد الله بن خفيف في كتاب «السماع» قال: دخلت على القاضي علي بن محمد بن إبان فقال: يا أبا عبد الله ها هنا حكاية لكم تحتاج أن تكتبها بماء الذهب قلت: لا أجد ماء الذهب أكتبها بالحبر؟

فقال: بلغني أنه قيل لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: إن هنا رجلاً يقال له الحارث بن أسد المحاسبي يتكلم في علم الصوفية ويحتج علينا بالآي والسنن والأخبار فقال أحمد: أحب أن أراه وأسمع كلامه من حيث لا يعرفني، فقال رجل: أنا أجمعكم معه فاتخذ دعوة ودعا الحارث وأصحابه ودعا أحمد فأجلسه حيث يرى الحارث قال فدخل وصلى المغرب وأحضر الطعام فجعل يأكل ويتكلم فقال أحمد: هذا من السنة فلما فرغ جلس الحارث وأصحابه قال: من أراد أن يسأل فليسأل، فسئل عن الإخلاص والرياء ومسائل شتى، قال: فأجاب الحارث واستشهد بالآيات والأخبار والحديث والإمام أحمد يسمع ولا ينكر من ذلك شيئًا.

فلما مضى من الليل الثلث الأول أمر الحارث أن يقرأ القرآن فقرا بعضهم ثم دعا بدعوات ثم نهض إلى الصلاة فلما أصبحوا قال أحمد بن حنبل قد كان يقال مجالس الذكر فإن كان فهذا من تلك المجالس، (قلت) فإذا كان الأمر كذلك فكيف أنكر الإمام أحمد بن حنبل على الحارث «المحاسبي» وهجره كما هو مشهور عند العلماء من أهل الفقه والحديث؟

قلت: قال الشيخ تاج الدين ابن السبكي في الطبقات الكبرى ما نصه: «ينبغي لك أيها المتصوف المسترشد أن تسلك الأدب مع الأئمة الماضين وأن لا تنظر إلى كلام بعضهم في بعض إلا إذا أتى برهان واضح، ثم إن قدرت على التأويل وتحسين الظن فدونك، وإلا فاضرب صفحًا عما جرى بينهم؛ لأنك لم تخلق لهذا فاشتغل «عما لا يعنيك» ولا يزال طالب العلم عندي نبيلاً حتى يخوض فيما جرى بين السلف الماضين ويقضي لبعضهم على بعض فإياك ثم

إياك أن تصغى إلى ما اتفق بين أبى حنيفة وسفيان الثورى أو بين مالك وابن أبى ذؤيب أو بين أحمد بن صالح والنسائى، أو بين أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى، وهلم جرا إلى زمان الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ تقى الدين بن الصلاح؛ فإنك إذا اشتغلت بذلك خشيت عليك الهلاك، فالقوم أئمة أعلام ولأقوالهم محامل ربما يفهم بعضها فليس لنا إلا الترضى عنهم والسكوت عما جرى بينهم كما يفعل فيما جرى بين الصحابة رضى الله عنهم أجمعين...

إذا عرفت ذلك فاعلم أن الإمام أحمد رحمه الله كان يشدد النكير على من يتكلم فى علم الكلام خوفًا من أن يجر ذلك إلى ما لا ينبغى.

ولا شك أن السكوت عن ما لم تدع إليه الحاجة أولى، والكلام فيه عند فقد الحاجة بدعة، وكان الحارث المحاسبى - رحمه الله ورضى عنه - يتكلم فى شىء من مسائل الكلام. قال أبو القاسم النصر آبادى: بلغنى أن أحمد بن حنبل هجره بهذا السبب قلت والظن بالحارث أنه إنما تلكم حيث دعت الحاجة ولكل مقصد والله يرحمهما.

وذكر الحاكم أبو عبد الله أن أبا بكر أحمد ابن إسحاق الضبعى أخبره قال سمعت إسماعيل بن إسحاق السراج يقول: قال لى أحمد بن حنبل: بلغنى أن الحارث هذا يكثر «من القول» عندك فلو «أحضرتنى عندك» وأجلستنى من حيث لا يرانى فأسمع كلامه.

فقصدت الحارث وسألته أن يحضر تلك الليلة وأن يحضر أصحابه فقال فيهم كثرة «ولكن لا» تزدهم على الكسب والتمر، فأتيت أبا عبد الله فأعلمته «فأحضر إلى ما طلبته» واجتهد فى ورده وحضر الحارث وأصحابه فأكلوا ثم صلوا العتمة ولم يصلوا بعدها وقعدوا بين يدى الحارث لا ينطقون إلى قريب نصف الليل ثم ابتدأ رجل منهم فسأل عن مسألة فأخذ الحارث فى الكلام وهم يستمعون كأن على رءوسهم الطير فمنهم من يبكى ومنهم من يحن

ومنهم من يزعق وهو فى كلامه فصعدت الغرفة لأتعرف حال أبى عبد الله فوجدته قد بكى حتى غشى عليه، فانصرفت عنهم ولم «تزل على ذلك حالتهم» حتى أصبحوا وذهبوا فصعدت إلى أبى عبد الله فقال: لا أعلم أنى رأيت مثل هؤلاء القوم ولا سمعت فى علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل، ومع هذا فلا أرى لك صحبتهم[1] لقصورك عن مقامهم فإنهم فى مقام ضيق لا يسلكه أحد فيخاف على سالكه «وإذا بأحمد - رحمه الله تعالى - قد بكى وشكر الحارث ولكل رأى واجتهاد حشرنا الله معهم أجمعين فى زمرة سيد المرسلين -.

قال ابن الصلاح وذكر الأستاذ أبو منصور الحارث المحاسبى فى الطبقة الأولى فيمن صحب الشافعى وقال إمام المسلمين فى الفقه والتصوف والحديث والكلام وكتبه فى هذه أصول «علم يركن إليها ويعمل بها» وإليه ينسب أكثر متكلمى الصقالبة.

وقال الخطيب البغدادى: له كتب كثيرة فى الزهد وأصول الديانة والرد على المعتزلة والرافضة، قال ابن السبكى تبعا لجمع من الصوفية: إنها بلغت مائتى مجلد.

(تنبيه) قال ابن الصلاح مستعبدا صحبته: لم ار واحدا ذكرها سواه، وليس أبو منصور من أهل هذا الفن فيعتمد فيما تفرد به والقرائن شاهدة بانتفائها لكن قال السبكى إن كان أبو منصور صرح بأنه صحب الشافعى فالاعتراض لائح أولا فقد يكون أراد بالطبقة الأولى[1] ايضا أبو عامر العبادى

---

(١) فى بعض النسخ زيادة «ثم قام وخرج وفى رواية أن أحمد قال لا ننكر من هذا شيئا، ثم قال ابن السبكى قلت تأمل هذه الحكاية بعين البصيرة واعلم أن أحمد بن حنبل إنما لم ير لهذا الرجل صحبتهم».

وقال كان عاصر الشافعي واختار مذهبهُ ولم يقل كان ممن صحبه فلعل هذا القول مراد أبى منصور والله أعلم قال الحافظ الأصبهانى فى ترجمته: كان - رحمه الله - من العلم بمحل عظيم أظهر علوم الأحوال وعلوم الإخلاص وصفاء التوحيد ومذاهب المتصوفة ببغداد وصنف فى التوحيد والمعرفة ومعانى التصوف كتبًا كثيرة، وله مع الجنيد بن محمد حكايات، وكان أكبر سنا من الجنيد، تكلم فى فنون العلم ورد على المبتدعة بدعهم وله ردود كثيرة، وصنف فى توحيد الله عدة من الكتب فلما قرب وقت وفاته رجع إلى حال العامة فى العلم العزيز معرفته.

فأخبرنى أبو بكر بن حبان قال أخبرنى الحسين بن يحيى قال أخبرنى جعفر بن محمد قال أخبرنى أبو العباس قال دخلت على أبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى فى وقت وفاته وهو فى النزع فقال اشهدوا على أنى أخرج من الدنيا وأنا أعتقد من الدين ما عليه العجوز فى بيتها على مغزل لها، قلت هذا مأخوذ من قوله - عليه الصلاة والسلام: - «عليكم بدين العجائز». أخرجه الديلمى ف حديث ابن عمر بلفظ: «إذا كان آخر الزمان واختلف الأهواء فعليكم بدين البادية والنساء» وسنده واهٍ والله أعلم.

سند التصوف:

فصل: قال الحافظ الأصبهانى فى «شواهد التصوف»: ثم إن التابعين أخذوا جملة العلوم عن الصحابة فنًا فنا وعلما علما، فبثوه فى تابع التابعين وجعلوها شواهد أحوالهم لأنفسهم وعلى غيرهم، فكان الحسن البصرى ممن جمع من فنون العلم من علم القرآن والحديث والفقه والتفسير واللغة، ثم علوم الزهد والمعاملة محلها؛ لأن العلم ذو فنون، فأما التابعون من العلماء

---

(١) زيادة فى بعض النسخ «من عاصر الشافعى وكان فى طبقة الآخذين عنه وقد ذكره فى الطبقة الأولى».

وتابع التابعين من الأئمة فقاموا بحق العلم وأدوا ذلك إلى الطالبين من كل فن، ولكل طبقة منهم علم مفرد وحال منفرد فمنهم من الغالب عليه من العلوم علوم القرآن والتفسير والتقوى وحفظ علوم القرآن مثل أبي جعفر يزيد بن القعقاع، وعبد الله بن كثير، ثم نافع ابن عبد الرحمن، وعاصم، وحمزة بن حبيب، وأبى عمرو بن العلاء وجملة من التابعين وتابع التابعين فصاروا أئمة فى القرآن والقراءات وحفظة لها.

ومنهم من الغالب عليه علوم التفسير مع حفظه للقرآن، مثل مجاهد، وقتادة، وعطاء والسدى، والضحاك وجملة من التابعين وتابع التابعين فصاروا أئمة في التفسير ورواته وحفاظا له، ومنهم من الغالب عليه الحديث مثل سعيد بن جبير، وأمثاله، والزهرى، والأوزاعى، وجملة من التابعين [وتابع التابعين] فصاروا أئمة فى الحديث وحفاظًا له.

ومنهم من كان الغالب عليه من العلوم، علم الفقه مثل سعيد بن المسيب، والشعبى، ثم الثورى، وإبراهيم، ومالك بن أنس، وجملة من التابعين فصاروا أئمة فى الفقه وحفاظا له، ومنهم من كان الغالب عليه من العلوم، «علم» الزهد والمعاملة والاجتهاد والعبادة، مثل مالك بن دينار، وثابت البنانى، وطرف بن عبد الله، وأويس القرنى، والربيع بن خيثم، وجملة الزهاد الثمانية ثم من «تابعى» التابعين جملة فصاروا أئمة فى الزهد والعبادة وحفاظا له ولطرق المعاملة.

كيفية تسلسل رجالات التصوف:

فأما الإمام فى ذلك من التابعين فالحسن البصرى لكن كان الغالب عليه علوم الاختصاص والخصوص والمحبة والمواهب وهو الشاهد على مذهب التصوف بإشارات وعبارات واختصاص علمه من بين العلوم، وإفراد مجلسه

بالصيانة عن غير أهله، فأما سائر «الفنون» فكان «يبثها من» جملة العلماء فى مجالس العامة.

وأما علوم الباطن والتصوف والنسك فكان له أصحاب، مخصوصون بذلك كانوا له إخوانًا مثل عبد الواحد ابن زيد، ومالك بن دينار «وغيرهما» فأما الذى نصب نفسه بعد الحسن للكلام فى علوم الخصوص والمحبة والوجود وصفاء الأفكار وعلوم الأسرار فعبد الواحد بن زيد وتبعه على ذلك المتصوفة والنساك، مثل عقبة الغلام، ورياح القيسى، وحبان الحريرى، وموسى الأشج، وأحمد بن عطاء الهجيمى، مع جماعة كثيرة ولكل واحد منهم أخبار وحكايات فى علوم المحبة والتصوف.

ثم كان بعد عبد الواحد بن زيد أحمد بن عطاء الهجيمى فنصب نفسه للأستاذية وتكلم فى الأحوال والتصوف ووقف دارا فى بلهجيم للمتعبدين والمريدين والمنقطعين فقام مذهب التصوف بشرائطه وكثر فيه المريدون والطالبون والمحققون فصار مذهبا منفردا برسومه وأحواله وحقائقه وظاهره وباطنه فبين طرق التصوف والمرسومات ثم تكلم المتصوفة فى جميع الهمم، وإفراد التوحيد، والمعاملة والأسرار، والحضور والأذكار والشواهد، والوجود، فكثر مذهب التصوف من وقت التابعين وانتحله المريدون فكان بعضهم يزيد على البعض فى حقائق التصوف طبقة بعد طبقة فى عصر بعد عصر ووقت بعد وقت حتى كثر فى الأمصار وكان شاهد التصوف فى ذلك الوقت إلى هذا الوقت المحبة والوجود.

ثم كان بعد أحمد بن عطاء الهجيمى أحمد بن غسان فجلس للناس وتبعه المتصوفة النساك وكان أحسن عبادة وأدق معنى من ابن عطاء الهجيمى وكان مجمع الكلام حسن العبارة وكتب الحديث الكثير ونصب نفسه لمذهب التصوف والكلام فى أحواله ووقف دارا على المريدين وكان يتكلم عليهم فلما كانت المحنة فى أيام المعتصم امتحنوه وطالبوه بأن يقول بخلق القرآن فأبى

فحمل إلى بغداد وحبس هناك فاتفق مع أحمد بن حنبل وأبى يعقوب البويطى فى الحبس فتكلم أحمد بن غسان فى علوم التصوف والأحوال والإخلاص فاستحسنا كلامه وأعجبهما هديه وكان فى وقته بالبصرة جماعة مثل «حمويه الحنجرى» وأبى بكر الغطيشى وأبى عبد الله الجمال وجماعة كثيرة كانوا يسمون الغسانية نسبوا إلى أحمد بن غسان وكان أبو حاتم العطار بالبصرة فى وقتهم فكان علم التصوف منشورا فى وقته وكان أحسن المشايخ عبارة أحسنهم إشارة فى التوحيد وكان يقول من ذكر نعم الله وقديم منه نسى عمله، ومن ذكر الله نسى نفسه. وكان يقول فى إشاراته يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ويقال إن أبا حاتم قال لأبى تراب النخشبى: ما خابت سياحتك بعد أقطار الأرض.

وأخبرنا أبو بكر بن حبان قال قال أبو سعيد بن الأعرابى: قال لى أبو جعفر: دخلت البصرة أنا وأبو يوسف الزيات فسألنا عن دار أبى حاتم العطار فأرشدنا إليها فوقفنا على الباب فقال: من هذا؟ قلت: رجل يقول الله، ففتح الباب: ووضع خده بالأرض، وقال بقى من يحسن أن يقول الله.

ثم بعد أحمد بن غسان ظهر الحسن المسوحى ببغداد فكان أحسن الناس كلاما من المتقدمين فى التصوف، وأغرب إشارة وكان فى وقته السرى السقطى، وإسحاق اللبان، والحداد الكبير، وأبو حمزة البغدادى والحارث بن أسد المحاسبى، وأحمد بن مشروط، وأبو الحسين النورى وابن أبى الورد، ونصر بن رجاء، والحسن بن المثنى وأحمد بن عمرو بن أبى عاصم، والشماخى، وابن خيثمة.

وكل هؤلاء كانوا أئمة التصوف وكانوا من العلم بمحل، فغلب عليهم مذهب التصوف فقبلهم الخاصة والعامة؛ لصحة مذهبهم وحقائقهم فى التصوف، وكان الجنيد ابن محمد فى ذلك الوقت من المزيدين، بمجلس المسوحى ثم كان بعد المسوحى، أبو حمزة وكان تلميذ الحسن المسوحى وكان يسميه الأستاذ.

حدثنى ابن حبان عن الأعرابى يقول: غير واحد يقولون سمعنا أبا حمزة يقول: أستاذنا فى هذا المذهب الحسن المسوحى وسمعت الحسين بن يحيى يقول سمعت جعفر الخلدى يقول سمعت الجنيد بن محمد يقول: كلمت يوما الحسن المسوحى فى شىء من الأنس فقال: ويحك لو مات من تحت السماء ما استوحشت.

فأما أبو حمزة فكان مقبولا معروفا بالتصوف وكان له حلقة فى الجامع[1] يجتمع فيها المتصوفة وأهل هذه المذاهب وكان يجالس أبا عبد الله أحمد بن حنبل - رحمهما الله - فكان أبو عبد الله يسميه الصوفي حدثنا بذلك ابن حبان قال حدثنا ابن الأعرابى فقال سمعت أبا حمزة غير مرة يقول قال لى أحمد بن حنبل: يا صوفى ما تقول فى مسألة كذا وكذا؟

وكان كمال التصوف وإقباله وغرائب علومه ذائعة فى وقت بشر بن الحارث ومعروف الكرخى، وسرى السقطى، ومحمد بن منصور الطوسى، ومنصور المسوحى، فلما جلس أبو حمزة فى الجامع اجتمع فى مجلسه الحارث ابن أسد المحاسبى وأحمد بن مسروق والجنيد بن محمد وغيرهم فكان التصوف حينئذ فى الإقبال. وكان أبو حمزة أبسط فى علوم المعرف والخصوص من أستاذه الحسن المسوحى ثم لما مات أبو حمزة رحمه الله جلس أبو القاسم الجنيد بن محمد فى الجامع فى إقبال التصوف وأوى إليه بقية المشايخ واجتمع إليه جملة المتصوفة فأذعنوا له وكان كلامه أجمع وأعرف وأحسن من كلام أستاذه وأستاذ أستاذه[2] فرزق من التصوف «ما فاق» به أقرانه بإمامته فى التصوف، فلما وقعت محنة المتصوفة من غلام خليل تفرق

---

(١) فى بعض النسخ (ناحية فى المساجد) ولعل صحتها فى المسجد وهو يتوافق مع م اخترناه فى المتن

(٢) زيادة فى بعض النسخ.

المتصوفة ولذلك قصة طويلة فحبس جماعة من - المتصوفة - كان فيهم ابو الحسين[1] النورى ثم أطلق فى سنة اربع وستين ومائتين أبو الحسين فسار من وقته لما خرج من السجن إلى الرقة ورجع فى سنة ثمان وسبعين وجرت للمتصوفة محنة عظيمة امتحن فيها من أصحاب بشر بن الحارث ومعروف وسرى السقطى وجماعة كثيرة فلما سكنت المحنة جلس الجنيد بن محمد للمذاكرة فى هذا المذهب فاجتمع إليه مثل أبى العباس ابن مسروق، وإسماعيل ابن أبى بكر السكرى، وموسى الحفرى، وأبى محمد الحريرى، وأبى محمد القلانسى، وأبى جعفر الحايك، وإبراهيم البنا، وأبى جعفر بن وهب، ويعقوب الزيات وأبى العباس ابن عطاء وجماعة كثيرة.

فكان هؤلاء أفصح المشايخ فى لسان التصوف وأدق المشايخ إشارة فتكلموا فى صفات الأحوال والتوحيد - والمواجيد والموارد والمشاهدة والحضور فكثر ذلك فى البلدان وانفرد المتصوفة بعزيز المذهب ووضعوا على علومهم إشارات ورموزا انفردوا بمعرفتها ليصونوا بذلك حقائق التصوف من غير أهلها فكانت الدنيا تزهو فى ذلك الوقت من الأئمة المتصوفة والمشايخ كالكواكب الدرية.

وبرز المريدون بإشارات التصوف ووحدة الإدارة فقطعوا البوادى والمفاوز بالتجريد وإخلاص التوكل بعدما زهدوا أولا فى الدنيا وتجردوا فى الوقت واستسلموا فى التوكل، وجدوا فى الصبر واجتهدوا فى الخدمة واحترقوا فى المحبة وجنوا فى الوجود، فأدوا حق التصوف وقاموا بشرط التجريد.

فلما بدا لهم علم خصوص المعرفة فى حقائق التصوف جمعوا زهد الزاهدين وصدق الصادقين، وتوكل المتوكلين وعبادة المجتهدين وصبر الصابرين، وذكر الذاكرين وسائر «أصول العالمين» بإشارات التصوف وتجريد التوحيد فعاملوا الله عز وجل بمعنى انفردوا به عن جملة الموسومين بإقامة

---

(١) فى بعض النسخ (أبو الحسن).

الأحوال والقيـام بحقها بالخدمة لأنهـم وجدوا روح التوحيد فغـيبوا عن رؤية الأحوال بمشاهدة محول الأحوال - سبحانه -.

ثم انفردوا فى علومـهم بإيجاز لسان الحكمـة واختصار القـول والكلمة ودقيق الإشـارة فى التوحيـد والمعرفة فـما زال يغرب بعـضهم على بعض فى غرائب علوم التصوف حتى انفـردوا فى المذهب برموز وإشارات «على» لسان سائر العلوم فكانت علوم المتصوفة فى العلوم أدقـها وأخفاها وأعزها وأصفاها فصـارت مخصـوصة لأهلهـا فتكلموا فى الجـمع والتفـريق، والفرق الأول، والفـرق الثانى، والفنـاء، والبقـاء والصحـو والسكر والمشـاهدة، والحضـور والمراقبة، والخفاء والكشف، والمواريد والمـواجيد والشواهد، والطوالع وأحوال كثيرة كلهـا فى معانى القلوب وأسباب الغيوب ثم كـثر ذلك فى البلدان وكثر المشايخ فى التصـوف وكثرت المكاتبات والرسائل بين العارفـين، وزاد بعضهم على بعض[1] فى دقـائق الإشـارات فى التـصوف بـالفصـاحـة على لسـان التوحيد.

فلمـا كانت أيام الجنيـد بن محـمد الإمام فـى التصوف كـانت الأرض مشرقة مضيـئة فى مشايخ التصوف شرقا وغربا ممن كـانوا قبل الجنيد فى وقته وبعده بقريب إلى سنة ثلاثمائة وجرت حـقائق التصوف فى أهله ثم أدبر وعاد التصوف فى الإدبار ومات أكثر مشـايخه قبل سنة ثلاثمائة، وبعدها بقليل ثم غرب الإسلام وحقائقه وغرب التصوف بغربته. انتهى.

وقال أبو عبد الله محمـد بن أبى الفوارس أحد أئمة التصوف فى بعض كتبه: فـإن قال قائل اسم الصوفى هو اسم محدث فهو مـجاب بما روى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ارغبوا فى دعاء أهل التصوف أصحاب الجوع والعطش فإن الله ينظر إليهم ويسرع إجابتهم»[2].

---

(١) فى بعض النسخ (على بعـضـهم) وساقطة فى البعض الآخـر. ولعل الاصح ما أثبـتناه والكلام يستقيم باى منها او بدونها.

(٢) لم نستدل عليه.

ثناء العلماء على طريق أبى الحسن الشاذلى:

وقال سفيان الثورى لولا أبو هاشم الصوفى ما عرف حقائق الرياء، قيل ولما جاء قطب الزمان أبو الحسن الشاذلى من الغرب الأقصى إلى ديار مصر يدعو الخلق إلى الله تعالى فتصاغر وخضع لدعوته أهل المشرق والمغرب قاطبة - فكان يحضر مجلسه أكابر العلماء من أهل عصره مثل سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام، والشيخ تقى الدين بن دقيق العيد، والشيخ عبد العزيز المنذرى، وابن الصلاح وابن الحاجب، وغيرهم من الأئمة قال يدخلهم على الله.

وقال ابن عطاء الله أيضا: وأخبرنى الشيخ العارف مكين الدين رضى الله عنه حضرت بالمنصورة فى خيمة فيها الإمام سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام والشيخ تقى الدين بن دقيق العيد، والشيخ محيى الدين بن سراقة والشيخ مجد الدين الإخميمى، والشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ورسالة تقرأ عليهم وهم يتكلمون والشيخ أبو الحسن صامت إلى أن فرغ كلامهم فقالوا يا سيدنا نريد أن نسمع منك، قال: فقال أنتم سادات الوقت وكبراؤه وقد تكلمتم. فقالوا: لابد أن نسمع منك قال فسكت الشيخ ساعة ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة فقال الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة وفارق موضعه: اسمعوا هذا الكلام القريب العهد من الله. . . . انتهى.

وسيأتى الكلام عن ذلك عند الكلام على تحقيق العلم اللدنى إن شاء الله تعالى. ولقد كان الشيخ تاج الدين السبكى إمام وقته تفسيرا وحديثا وفقها وكلاما وأصولا ومنقولا ومعقولا، وقد ذكر فى بعض كتبه أخذه عن الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله وحضور مجلسه ونقل عنه بعض كلامه وقال إنه كان متكلم الصوفية على طريق الشاذلية.

وقال ولده العلامة تاج الدين فى الطبقات: أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الشيخ الإمام العارف تاج الدين أبو الفضل أستاذ أبى - رحمه الله - فى طريق التصوف كان ذا قدم راسخة فى التصوف وزهد مفرط زائد وله كتاب «التنوير فى إسقاط التدبير» وغيره ثم قال ابن السبكى فى آخر الترجمة وكان أبى رحمه الله كثير التعظيم والإجلال له. وفى المعجم المخرج للسبكى قراءته ولا تخريجه فى معجمه وروايته ولو كان فى طريق الشاذلية أدنى عوج لم يثن عليها السبكى ولا ولده ولا أئمة عصره ومن قاربهم.

ولما كانت طريق التصوف دخل فيها الدخيل [وكان] أصح الطرق القويمة الخالية من البدع الجارية على قوانين الشريعة طريقة الجنيد وأتباعه. قال السبكى فى جمع الجوامع: وإن طريق الشيخ الجنيد وصحبه طريق مقوم، وطريق الشاذلية فى المتأخرين هى عين طريق الجنيد فإنها كما تعرف من كلام الشاذلى فى التعاليق التى دونت عنه وكلام الشيخ تاج الدين فى كتبه دائر مع الكتاب والسنة، واقف مع الشرع، زاجر عن الخواطر التى لم توزن بميزان الشريعة.

قال العارف بالله سيدى داود المناخلى صاحب عيون الحقائق وأحد أصحاب الشيخ تاج الدين بن عطاء الله وأستاذ سيدى محمد وفا فى شرح «حزب البحر»: «فليتأمل المنصف أحوال الشاذلية وسداد طريقتهم وقوة يقينهم وكثرة أنوارهم وفتحهم وكشفهم وذكاء عقولهم وقلوبهم مع غرق كثير منهم فى الأسباب: وتلبسهم ظاهرا بأحوال «العوالم» فتراهم أبدا محافظين على أعمالهم قد أشرق فى قلوبهم أسرار العلوم ولاحت لهم حقائق الحكم والمفهوم فترى أحدهم فى صورة العامى يلهج بالحقائق وينطق بالحكمة مما يعز وجوده لأرباب الانقطاع والخلوات وأهل التجلى والمشاهدات وهذا يدل على كثرة الأنوار وحصول الغاية وأنهم فى صون وحماية، وأن مشايخ هذه الطريقة

لهم من الله نصيب وافر ونور مستظافر وقد قال أستاذ هذه الطائفة الشيخ أبو الحسن الشاذلى - رضى الله عنه - «أنا حملت التعب عن أتباعى» وقال خليفته[1] سيدى إبو العباس المرسى - رضى الله عنه - «ليس الرجل من ذلك على نفيه إنما الرجل من ذلك على راحته» وقال سيدى داود بعد ذلك «وليتأمل المصنف فى أحوال هذه الطائفة وكلام أهلها فى السلوك والحقائق والمقامات والأحوال والحكم والمواعظ مما لا تكاد تسمعه فى هذه الطائفة بأسلوب خاص ومنهم غريب وآثار فى القلب عظيمة فتجد المنزلة الواحدة سلوكا عظيما بلفظ قليل ومعنى جليل كل منزلة تحتمل مجلدا شرحا ولا يفى بمعانيها؛ لأنها تصير أمرا باهرا ودليلا ظاهر فى طريق الأبرار والمقربين دلالة بالعلم والنور وتربية بالأحوال من الأفعال والأقوال؛ لأنها قد جمعت بين المواعظ والحقائق والمعانى والرقائق.

قال بعض العلماء بالله تعالى «الشاذلية لهم رقيقة من الوحى» قلت: ولهذا امتازت هذه الطائفة بين الصوفية بالمشرب الغريب والمأخذ القريب والفتح العجيب.

وقال بعض العارفين «الشاذلية» أصول لهم أساس من الرسول، وقال بعض «الشاذلية قضاة الطريق»، وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه «إذا أراد الله أن ينزل بلاء سلم منه أمة النبى ﷺ فإن كان عموما سلم منه الشاذلية كذا وجد بخط شيخ الإسلام قاضى القضاة ناصر الدين ابن الميلق رحمة الله عليه.

وقال القطب العارف بالله سيدى ناصر الدين محمد الشاذلى لتلميذه العارف بالله سيدى محمد الشريفى «يا محمد إذا أراد الله بعبد سوءا سلطه على شاذلى» وقال بعض الصالحين من الشاذلية للسيد الكبير العارف بالله «ماضى» خادم الشيخ أبى الحسن الشاذلى «يا سيدى إن الأمير الفلانى شوش

---

(١) فى الأصل خليفة وهو تصحيف.

على فقال له سيدى ماضى «اذهب إليه وقل له ما بقى إلا السادة الشاذلية تشوش عليهم، بعد ثلاثة عشر يوما تضرب عنقك، فأتى إليه وأخبره كما قال له الشيخ، فما مضت عليه المدة المذكورة حتى ضربت عنقه.

وكان الأستاذ الملك قطب الدائرة شمس الدين الحنفى يقول: إن أدنى رسل الشاذلية إلى من عاداهم العمى والكساح وخراب الديار، وأنا من الشاذلية لأنه رضى الله عنه جاءه رجل فقال له: يا سيدى إن الأمير الفلانى ظلمنى فأرسل إليه رسولا يطلبه فامتنع الأمير ولم يأت إليه فأرسل إليه ثانيا وقال للرسول: قل له إن لم تأت إلى الشيخ أرسل إليك رسولا من رسله فإذا قال لك من رسله؟ قل له العمى والكساح وخراب الديار.

فلما أتى الرسول إلى الأمير أخبره بما قاله الشيخ فامتنع أيضا عن الحضور بين يديه ثم لم يمض إلا ليال قليلة وابتلاه الله بالعمى والكساح إلى أن مات وخربت داره إلى يومئذ.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال رأيت الشيخ العارف بالله أبا المواهب التونسى رحمه الله فى المنام وبعض تلامذته معه أوراق يقرأ عليه فيها وعلى حاشيتها مكتوب الشاذلية «تعلو ولا يعلى عليها» فانظر رحمك الله بعين الأدب إلى هذه الطائفة أرباب المقامات السنية وإلى ما خصهم الله من العلوم اللدنية والمنازلات القريبة فعليك يا هذا بحبهم فعسى تظفر بقربهم وتدخل فى حمايتهم «وتصير فى حزبهم» كما قيل.

تمسك بحب الشاذلية تلق ما ... تروم «وحصن» ذا «الرجال» وحصل

ولا تعدون عيناك عنهم فإنهم ... شموس هدى فى أعين المتأمل

وكن عبدهم وألق السلاح ولا تكن ... جموحا فتهوى فى الوهاد الأسفل

ولا تحتجب عنهم بلبس لباسهم ... فأنوارهم فى السر والجهر تنجلى

وجاهد تشاهد كى تراهم حقيقة ... فما فقدوا كلا ولكن بمعزل

على كل «عين» ليس ينحو طريقهم ... مطيع لشيطان غوى وأندل

وما حجبوا إلا على أكمه غدا عميا عن البدر المنير «المكمل»
تراهم إذا جليت مرآتك التى «تعاينها» محجوبة بتغفل
هم أهل بيت «للأفاضل» قد حووا فيا حبذا بيت حوى كل أفضل
وخذ عنهم وصف الكمال لعل أن تحوز مقاما بالسماك الأعزل
فهم قادة لله جل جلاله وهم مطر يسقى به كل أمحل
وهم رحمة منشورة وكرامة وهم مرهم يشفى به كل «معضل»

وقال آخر:

تمسك بحب الشاذلى ولا ترد سواه من الأشياخ إن كنت ذا لب
فأصحابه كالشمس زاد ضياؤها على النجم والبدر المنير من الحب

وقال آخر:

تمسكَ بحب الشاذلى لتلق ما تروم وحقق ذا الرجاء وحصل
مريدوه أقطاب الوجود (بأسرهم) شموس الهدى للسالك المتأمل
[ولا تبرحن عنهم بقلب وقالب فتحظى بما تهوى وتنجو من الجهل]

وقال آخر:

تمسك بحب الشاذلى فإنه له طرق التسليك فى السر والجهر
أبو الحسن السامى على أهل عصره كراماته جلت عن الحد والحصر
مريد له فى عالم الذر مقتف لآثاره [حى] إلى الحشر والنشر
يفوز بجنات ورؤية ربه [وقد فاز بالغفران من جاء بالذكر]

وقال آخر :

تمسك بحب الشاذلى وحققن لتحصيل ما تختاره وتروم
فحسبك من شيخ له الله فاطر وفى قلبه حب الإله يدوم

وقال آخر :

تمسك بحب الشاذلى لتلق ما تروم وحقق ذا المناط وحصلا
توسل به فى كل حال تريده فما خاب من يأتى له متوسلا

وقال الإمام البوصيرى صاحب البردة المشهورة فى قصيدة طويلة :

أما الإمام الشاذلى طريقه فى الفضل واضحة لعين المهتدى
فانقل ولو قدما على آثاره فإذا فعلت فساك أخذ باليد

منها قال رحمه الله تعالى :

أفدى عليا بالوجود وكلنا بوجوده من كل سوء تفتدى
قطب الزمان وغوثه وإمامه عين الوجود لسان سر الأوحد
ساد الرجال فقصرت عن شأوه همم المآزب للعلا والسؤدد
فيتلق ما يلق إليك فنطقه نطق بروح القدس نعم المقتدى
أو ما مررت على مكان ضريحه وشممت ريح الند من ترب ندى
ورأيت أرضا فى الفلاة بخضرة مختصة منها بقاع الفرقد
والوحش آمنة لديه كأنها حشرت إلى حرم يأول مسجد
ووجدت تعظيما لقلبك لو سرى فى جلمد سجد الورى للجلمد
فنقل السلام عليك يا بحر الندى الطامى ويا بحر العلوم المزبد

وقال الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن الميلق رحمه الله:

ولو قيل من فى ذا الرجال مكمل ... لقلت إمامى الشاذلى أبو الحسن
لقد كان بحرا فى الشرائع راسخا ... ولا سيما علم الفرائض والسنن
ومن منهل التوحيد قد عب وارتوى ... فلله كم روى قلوبا بها محن
وحاز علوما ليس تحصى لكاتب ... وهل تحصر الكتاب ما جاز من فنن
فكن شاذلى الذات تحظى بسره ... ومن سائر الأوقات مستغنيا تغن
وإنى له عبد وعبد لعبده ... فيا حبذا عبد لعبد أبى الحسن
إذا لم أكن عبدا لشيخى وقدوتى ... إمامى وذخرى الشاذلى أكن لمن
فيا رب بالسر الذى قد وهبته ... تمن علينا بالمواهب والفطن

وما أحسن قول العارف بالله سيدى على بن عمر القرشى تلميذ العارف بالله تعالى قاضى القضاة ناصر الدين بن الميلق رحمه الله تعالى حيث قال:

أنا شاذلى ما حييت وإن أمت ... فمشورتى فى الناس أن يتشذللوا

قلت: قد قيل فى وصف هذه الطائفة الشاذلية كثير من الشعر يتضمن التنبيه على عظيم قدرها فإن الشعر سلك تنظيم فيه دور الصفات وتنجلى فى مرآته محاسن الهيئات ويهز الطباع الزكية للمعانى العلية «ويسجع جَنانَ الفهوم» ويهيئ الطبع الإنسانى لقبول ما اندرج فى الوزن المنظوم والمقصود من ذلك الاختصار دون التوسع والإكثار.

تنبيه: قال قطب الدائرة شمس الدين الحنفى اختصت الشاذلية بثلاثة أشياء لم تكن لأحد قبلهم ولا بعدهم:

الأولى أنهم مختارون من اللوح المحفوظ.

الثانية أن المجذوب منهم يرجع إلى الصحو.

الثالثة إن القطب منهم دائما أبدا إلى يوم الدين...

قال سيدى أبو الحسن الشاذلى سألت الله تعالى أن يكون القطب فى بيتى إلى يوم القيامة فسمعت النداء: يا على قد استجبنا لك. وإلى هذا أشار الأستاذ القطب سيدى على بن وفا بقوله: تلميذهم أستاذ كل زمان، وقال بعض المتأخرين من أهل الحقائق مضمنًا لذلك حيث يقول:

نشروا لواء العز فى الأكوان بعناية سبقت من المنان
وسعادة حكمت لهم بجنان أهل الوفا عزوا بعز الشأن

تلميذهم أستاذ كل زمان

إن السعادة عبدهم قد حازها ومراتب التحقيق فضلا جازها
وطيورهم قد صاد منها بازها وهو المذقق للنهى الفردانى

تلميذهم أستاذ كل زمان

من ساوره بسرهم فى سره أو أدخلوه لدورهم فى دورهم
نال المرام بأمرهم فى أمره يا سعده خصوه بالعرفان

تلميذهم أستاذ كل زمان

هم أدخلونى للحما عناية وكسوا لحالى فى الأنام سيادة
عبد أنا تلميذهم يا سادة حالى بهم عالى على الأقران

تلميذهم أستاذ كل زمان

فلكم فؤادى يمنحون مواهبا وكذاك كم فتحوا إليه مطالبا
وبهم ذكرت مشارقا ومغاربا هم سادتى عزى بلوغ أمانى

تلميذهم أستاذ كل زمان

قلت: ومن المحكى فى ذلك مـا اشتـهر عن بعض الفـقراء من السـادة الرفاعية إنه كان سائرا ذات يوم فى البرية وإذا هو بسبع قد خرج عليه ليفترسه فقال: يا ابن الرفاعى فـإذا هو بيد رجل ردت عنه السبع[1]، ثم إنه دخل إلى الإسكندرية وسأل عمن بها من الأولياء فقـيل له بها سيدى على البدوى أحد أصحاب سيـدى ياقوت العرشى فأتى إليه واستأذن فـى الدخول عليه فأذن له فقال: له سيدى على المذكـور: أتذكر غيرنا؟ أما علمت أن الوقت لنا إلى يوم القيامة؟ أين ابن الرفاعى حين ذكرته لما خرج عليك السبع؟

ومن خصائـصهم أيضا ما قاله الأسـتاذ سيدى على بن وفـا قدس الله سره:

مـــــا ثـم وهاب؟ يـؤمـن عنـده من سلب نعـمتـه سـوى سـاداتى

يعنى الشاذلية وإلى هذا أشار والده سيدى محمد وفا بقوله:

عطايـا كـــرام أمنـوا الميل فى العطا ولـم يسلبـوا الموهـوب ممن له أعطوا

نسب الشاذلى وصفات طريقته:

فصل: قال الشـيخ العالم المحقق سيـدى داود المناخلى فى شرح حزب البـحر: القـول الأول فى شىء من ذكـر بعض أوصـاف هذا الدعاء وجـلالة مقداره وفخامة منزلتـه وظهور أنواره؛ فإن صاحب النور الذى قسم له نصيب من السعادة إذا وصـف له شىء من صفات الأكابر ولو طرفـا من أخبارهم أو لاح له لامع من بوارق أنوارهم هش بقلـبه إليـها وأقـبل بالود عليهـا وذلك لوجود المجانسة الحقيقية لما جاء فى الحديث: «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف».

---

(١) هذه حكايات يرويها الأتباع بلا سند ولا دليل، ولا يجوز استغاثته بالرفاعى أو غيره وإنما الاستغاثة وطلب العون من الله تعالى. وحكاية الأسد هذه تروى عن آخرين كلهم يسندها إلى كرامة شيخه. وكثير من هذه الروايات لا يصح.

فأهل السعادة يعرف بعضهم بعضًا بصفاتهم كما قيل فى المعنى يعرفه الباحث فى جنسه وسائر الناس له منكر وذلك معلوم عند أهله، فهو السيد الأجل الكبير القطب العارف الوارث المحقق الربانى صاحب الإشارات العلية والحقائق القدسية والأنوار المحمدية والأسرار الربانية والمنازلات العرشية الحامل فى زمانه لواء العارفين والمقيم دولة المقيم دولة المحققين كهف قلوب السالكين وقبلة همم المريدين وزمزم أسرار الواصلين وجلاء قلوب الغافلين، منشئ معالم الطريقة بعد خفاء أثارها ومبدى علوم الحقيقة بعد ضعف أنوارها ومظهر عوارف المعارف بعد خفائها واستتارها الدال على الله تعالى وعلى سبيل جنته والداعى على علم وبصيرة إلى جنابه وحضرته أوحد أهل زمانه علمًا وحالاً ومعرفة ومقالا، الشريف الحسيب النسيب ذو النسبين الطاهرين الجسدية والروحية والسلالتين الطيبتين الغيبية والشاهدية والوارثتين الكريمتين الملكية والملكوتية المحمدى الصلوى الحسنى الفاطمى الصحيح النسبتين والكريم العنصرين فحل الفحول إمام السالكين على الشاذلى الذى تغنيك سمعته عن مدح أو قول متحل، الأستاذ المربى الكامل أبو الحسن على بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز، بن حاتم بن قصى بن يوسف ابن يوشع، بن ورد، بن بطال، بن أحمد، بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه جاء فى طريق الله تعالى بالأسلوب العجيب والنهج الغريب والمسلك العزيز القريب جمع فى ذلك بين العلم والحال والمهمة والمقال.

اشتملت طريقته على السلوك والجذب والمجاهدة والعناية واحتوت على الأدب والقرب والتسليم والرعاية شيدت بالعلمين الظاهر والباطن فى سائر أطرافها وقرنت بصفات الكمال شريعة وحقيقة من جميع أكنافها، تيامنت عن سكر يؤدى إلى تعدى الآداب الشرعيات وتياسرت عن صحو يفضى إلى الحجاب عن أولى الألباب وتدلت على حقائق التوحيد وأسرار المشاهد وتسامت عن انقباض يوقع فى الانكماش وسوء الظن وتحجبت عن روح

الرجاء ولذاذة الشـوق والطلب وتناءت عن انبـساط ينزل بصاحبه عن مـقام الاحتشـام والحياء ويؤول به إلى سوء الأدب فـاستوت بتوفـيق الله تعالى فى نقطة الاعـتدال وظفـرت بهداية اللـه دون كثـير من الطرق بوصف التـوسط والكمال.

ثم قال أيضًا: وأما جـلالة هذا السيد الكبير سيـدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه خصـوصًا فهو أمر قـد ظهر وانتشر وشاع فى البـدوة والحضر وهو أستاذ هذه الطائفة ورأس طريقهم وحامل لواء جيشهم وعلى يديه بسقت أغصانها وأينـعت ثمارها وبعناية الله تعالى فيه وعظيم منتـه رسخت أصولها وفـاحت أزهارها وبما أودع الله فـيه وخـصـه به من النور المحـمدى هتـفت حمائمـها، وانهزم جيش ظلام غوايتـها، وطلعت فى نهار شهـودها شموس معـارفها وفى دليل رجوعـها إلى خدورها بشمـوسها وأقمـارها... ظهر - رضى الله عنه وعنى به آمين - ونشر أشياخه المتقدمين وأسس القواعد لأتباعه المتأخرين.

من أخبار أبى الحسن الشاذلى - رضى الله عنه:

اجتمع على إثبات ولايته وعظيم خصوصيته من كان فى زمانه من أولياء الله العارفـين، واعتـرف بعلو منزلته من عاصـره من أكابر علمـاء الدين أما الأولياء العارفون فـقد ذكره الشيخ الصفى ابن أبى المنصور رحـمه الله تعالى فى رسالته وأثنى عليه الثناء العظيم على حـسب مـعرفته به، وذكره الشيخ ابن النعمان وشهد له بالقطبية، وذكره الشيخ قطب الدين القسطلانى فى جملة من لقيه من المشايخ.

وقد ذكـر الإمام تاج الدين ابن عطاء الله - رضى الله عنه - فى كـتابه المرسوم «بلطائف المنن فى فضـائل الشيخ أبى العباس وشيـخه أبو الحسن» من ذلك جملة كـافية مـقنعة تنشـرح بمطالعتهـا الصدور، ويزداد المحـبة بأنوارها وبسماعها نورًا على نور. قلت: وممن ترجمه من أكابر الفقهاء المتأخرين شيخ

الإسلام ابن الملقن فى طبقات الأولياء وغيره من الأئمة ممن عاصره وتأخر بعده وكان رضى الله عنه مُتبحّراً فى سائر علوم الدين بحيث لم يدخل فى طريق الله مثله حتى كان يعد للمناظرة فى العلوم الظاهرة.

سلوكه طريق القوم:

قال ابن الصباغ فى «درة الأسرار وتحفة الأبرار»: وأما مولده - رضى الله عنه - فبغمازة ثم دخل مدينة تونس صغيراً وتوجه على الديار المصرية - وحج حجات كثيرة ودخل العراق.

قال رضى الله عنه: لما دخلت العراق اجتمعت بالشيخ الصالح ابن أبى الفتح الواسطى فما رأيت بالعراق مثله وكان مطلبى القطب فقال لى بعض الأولياء: أنت تطلب القطب وهو ببلادك ارجع إلى بلادك تجده، فرجع إلى بلاد الغرب إلى أن اجتمع بأستاذه وهو الأستاذ العارف الشيخ الصديق القطب الغوث أبو محمد ابن عبد السلام ابن بشيش.

قال رحمه الله: لما قدمت عليه وهو ساكن بمغارة فى راقطة فى رأس الجبل اغتسلت فى عين أسفل ذلك الجبل وصرت على طهارة وخرجت عن علمى وطلعت إليه فقيراً وإذابه هابط إلىّ وعليه مرقعة وعلى رأسه قلنسوة من خوص، فقال لى: مرحبًا بعلى ابن عبد الله بن عبد الجبار فذكر نسبى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لى: يا على طلعت إلينا فقيراً عن علمك وعملك فأخذت منًّا غنى الدنيا والآخرة...

قالُ: فأخذنى منه الدهش وأقمت عنده أيامًا إلى أن فتح على بصرى ورأيت له خرق عادات، فمنها أنى كنت جالسًا بين يديه وفى حجره ابن له صغير فخطر ببالى أن أسأله عن اسم الله الأعظم فقال: فقام إلىّ الولد ورمى بيده فى طوقى وهزنى وقال: يا أبا الحسن... أنت أردت أن تسأل الشيخ عن اسم الله الأعظم، إنما الشأن أن تكون أنت هو اسم الله الأعظم[1]، يعنى أن

(١) لا يجوز إطلاق هذا الكلام على أى احد من الناس فاسم الله الأعظم مختص به رب العزة والجلال، أما شرح المؤلف أن معناه سر الله مودع فى قلبه، فهو كذلك فى كل القلوب وليس مختصا بشخص بعينه.

سر الله مودع فى قلبك، قال: فتبسم الشيخ وقال لى: جاوبك فلان عنى. وكان إذ ذاك قطب الزمان ثم قال لى: يا على ارتحل إلى أفريقية واسكن ببلد تسمى شاذلة، فإن الله عز وجل يسميك الشاذلى وبعد ذلك تنتقل إلى الديار المصرية وبها ترث القطابة.

فقلت له: ياسيدى أوصنى، فقال: يا على الله الله، والناس الناس[1] ترد لسانك عن ذكرهم وقلبك عن التماثيل فى قِبَلِهِم وعليك بحفظ الجوارح وأداء الفرائض وقد تمت ولاية الله عندك ولا تذكرهم إلا بواجب حق الله عليك وقد تم ورعاك، وقل اللهم ارحمنى من ذكرهم ومن العوارض من قبلهم، ونجنى من شرهم، وأغننى بخيرك من خيرهم وتولنى بالخصوصية من بينهم، إنك على كل شىء قدير.

قال ابن الصباغ رحمه الله تعالى -: ولما توجه عن أستاذه إلى أفريقية وأمره بالنقلة إلى شاذلة وصل إلى مدينة تونس إلى جهة مصلى العيد فتلقى بها حطّابًا من أهل شاذلة قال فخرجت معه متوهجًا إليها على نحو ما أمر الأستاذ به، فنسى الحطاب حاجة فى السوق فرجع قاصدًا إليها وترك الحمار عندى، فلما توجه قال فى نفسه هذا رجل غريب يهرب لى بالحمار وأبقى فى عدمه، فناداه الشيخ فرجع إليه فقال له: يا رجل خذ حمارك معك وانتظرك حتى تعود إلى لئلا أهرب لك بالحمار على زعمك وتبقى فى عدمه.

فقال الحطاب فى نفسه: والله ما اطلع على هذا إلا الله تعالى فبكى وعلم بولايته فجعل يقبل يديه ويسأله الدعاء ثم انصرف لحاجته وعاد إليه فحلف عليه أن يركب الحمار وأردفه خلفه قال: فمشينا قدر الميل، وإذا بالشيخ نزل، وإذا نحن عند الساقية بطرف شاذلة قال: فأخذنى الدهش وهجمت عليه وقلت له يا سيدى أنا مبتلى بالفاقة أحتطب الحطب وأبيعه فما أصل إلى القوت إلا بعد جهد، وكان فى طرف ردائى شعير اشتريته برسم

(١) فى هامش المخطوط: «الأول إغراء والثانى تحذير...».

قوت العيال وعلف الحمار فقال لى هات ذلك الشعير فحللت طرفئ، فأدخل يده فيه وقال: اجعل ذلك الشعير فى قفة وأغلق عليه وأدخل يدك وكلوا منه وما بقيت تشتكى الفاقة أبداً أسأل الله أن يغنيك ويغنى ذريتك فلم ير فى ذريته فقيرا إلى الآن.

قال: فجعلت أدخل يدى وأخرج وأنصرف وحرثت على الحمار وزرعت منه فوجدت إصابة كبيرة وحللت عليه وكِلْته فوجدته على نحو ما كان فلما دخلت عليه قال لو لم تكله لأكلتم منه ما دام عندكم.

وكان أول من صحبه بشاذلة الشيخ الإمام الولى المكاشف أبو محمد عبد الله بن سلامة الحبيبى من شاذلة كان يدخل مدينة تونس ويحضر مجلس الإمام العارف بالله تعالى أبى جعفر الجاسوس قال: فأخذت بيده يومًا فقلت له: يا سيدى: أتخذك شيخى، فقال لى: يا بنى ارتقب أستاذك حتى يصل إلى الغرب، حتى من كبار الأولياء هو أستاذك وإليه تنسب.

وكان يرتقبه وكل من الفقراء المغاربة يصحبه حتى قدم الشيخ إلى شاذلة فاجتمع به وصحبه ولازمه، وتوجه إلى جبل زغوان تعبد معه وجاهد معه وقتًا طويلاً ورأى منه كرامات، كثيرة فمنها ما حكى عنه قال: قرأ يومًا على زغوان سورة الأنعام إلى أن بلغ قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾[1]، أصابه حال عظيم، وجعل يكررها ويتحرك فكلما مال إلى جهة مال الجبل نحوها حتى سكن الشيخ فسكن الجبل...

قال ابن الصباغ: وحدثنا الشيخ الصالح ابو الحسن على الأَبَرى المعروف بالخطابى قال: قلت: يومًا لسيدى أبى محمد عبد الله الحبيبى: أخبرنى عن بعض ما رأيت لسيدنا أبى الحسن الشاذلى قال: رأيت أشياء كثيرة وسأحدثكم بعض ذلك، أقمت معه بجبل زغوان أربعين يومًا افطر على العشب وورق الدفلا[2] حتى تقرحت أشداقى فقال لى: يا أبا عبد الله كأنك اشتهيت

(١) سورة الانعام - آية ٧٠.

(٢) نوع من الشجر يوجد فى الأودية وطعمه مر.

الطعام فقلت: يا سيدى نظرى إليك يغنينى عنه، فقال لى: غدًا إن شاء الله نهبط إلى شاذلة وتلقى فى الطريق كرامة قال: فهبطنا فى صبيحة غد فلما هبطنا قال لى فى وطاء الأرض حين مشينا: يا عبد الله إذا خرجت عن الطريق فلا تتبعنى.

قال: فأصابَه حال عظم وخرج عن الطريق حتى بعد عنى فرأيت طيورًا أربعة على قدر البلاّرجة تنزل من السماء وصفتْ على رأسه ثم جاء إليه كل واحد منهم وحادثه ثم طاروا ومعهم طيور على قدر الخطاطيف وهم أيضا يحفون به من الأرض إلى عنان السماء ويطوفون حوله ثم غابوا عنى ورجع على فقال: يا عبد الله هل رأيت شيئا؟ فأخبرته بما رأيت فقال لى: أما الطيور الأربعة فمن ملائكة السماء الرابعة أتوا إلىَّ يسألونى عن علم فأجبتهم عنه وأما الطيور التى على شكل - الخطاطيف فأرواح الأولياء أتوا إلىَّ يتبركون بقدومنا.

وأقام بجبل رغوان زمنا طويلا واتبع الله تعالى له عينًا تجرى بالماء العذب، وله هناك مغارة كان يسكنها ويسمع الآذان من أسفل الجبل عند أوقات الصلاة فيصعد إليها فلا يوجد أحد يعمرها غير أصحابه من مؤمنى الجن قال - رضى الله عنه -: قيل لى يا على اهبط إلى الناس تنتفع بك، فقلت يا رب أقلنى من الناس فلا طاقة لى بمخاطبتهم فقيل لى: انزل فقد صحبناك السلامة ورفعنا عنك الملامة فقلت: يا رب تكلنى إلى الناس آكل من ذرياتهم فقيل لى: أنفق يا على فأنا الملئ إن شئت من الجيب، وإن شئت من الغيب.

فدخل إلى تونس وسكن بها داراً بمسجد البلاط وصحبه جماعة من الفضلاء منهم الشيخ أبو الحسن على بن مخلوف الصقلى وأبو عبد الله الصابونى، والشيخ أبو محمد عبد العزيز الزيتونى، وخدامه أبو سلطان ماضى وأبو عبد الله البخارى الخياط، وأبو عبد الله الخارجى. . . كلهم

أصحاب كرامات ومعارف وأسرار نفعنا الله بجميعهم وأقام - رضى الله عنه - مدة إلى أن اجتمع عليه خلق كثير فسمع به الفقيه أبو القاسم ابن البراء وكان إذ ذاك قاضي الجماعة فأصابه منه حسد فوجه إليه فلم يقدر على التمكن منه فقال للسلطان: إن هنا رجلاً من أرض شاذلة سراق الحمير يدعي الشرف وقد اجتمع إليه خلق كثير، ويدعي أنه الفاطمى ويشوش عليك فى بلدك.

قال الشيخ رضى الله عنه: يا رب لم سميتنى الشاذلى ولست بشاذلى؟ فقيل لى: يا على ما سميتك الشاذلى، إنما الشاذَّلى بتشديد الذال المعجمة يعنى المنفرد لخدمتى ومعرفتى، وكان السلطان الأمير أبو زكريا - رحمه الله - فجمع ابن البراء جماعة من الفقهاء وجلس السلطان خلف حجاب وحضر الشيخ رضى الله عنه وسألوه عن نسبه مراراً والشيخ يجيبهم عليه والسلطان يسمع وتحدثوا معه فى كل العلوم فأفاض عليهم بعلوم أسكتهم بها، وما استطاعوا أن يجاويوه عليها من العلوم الموهوبة والشيخ يتكلم معهم فى العلوم المكتسبة ويشاركهم فيها.

فقال السلطان لابن البراء: هذا الرجل من أكابر الأولياء وما لك به طاقة. فقالوا والله لئن خرج فى هذه الساعة لتدخلن عليك أهل تونس ويخرجونك من بين أظهرهم فانهم مجتمعون على بابك قال: فخرج الفقهاء وأمر الشيخ بالجلوس.

فقال: لعل أن يدخل على بعض أصحابى، فدخل عليه بعض أصحابه فقال له: يا سيدى الناس يتحدثون فى أمرك ويقولون به كذا وكذا من أنواع الأذى وبكى بين يديه فتبسم وقال لولا أننى أتأدب مع الشرع لخرجت من هاهنا ومن هاهنا وأشار بيده فمهما أشار إلى جهة انشق يعنى الحائط ثم قال ايتنى بإبريق ماء وسجادتى وسلم على أصحابى وقل لهم: ما يغيب عنكم إلا يوما واحدا وما يصلى المغرب إلا معكم إن شاء الله تعالى ثم توضأ الشيخ وتوجه إلى الله.

قال رضى الله عنه: فهمت أن أدعو السلطان فقيل لى: إن الله لا يرضى لك أن تدعوا بالجزع فى مخلوق فألهمت أن أقول يا من ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[1] أسالك الإيمان بحفظك إيمانًا يسكن به قلبى من هم الرزق وخوف الخلق، واقرب منى بقدرتك قربًا تمحق به عنى كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك، فلم يحتج لجبريل رسولك، ولا لسؤاله منك، وحجبته بذلك عن نار عدوه، وكيف لا يحجب عن مضرة الأعداء من غيبته عن منفعة الأحبّاء؟ كلا.

إنى أسالك أن تغيّبنى بقربك منى حتى لا أرى ولا أحس بقرب شىء ولا ببعده عنى إنك على كل شىء قدير... وكان عند السلطان جارية من أعز نسائه عليه أصابها وجع فماتت فى حينها فغُسلت فى بيت سكناها واشتغلوا فى دفنها فنسيت المجمرة بالنار فى البيت فلهبت النار ولم يشعروا بها حتى احترق كل ما[2] فى البيت فى الفرش والثياب وغير ذلك من الذخائر.

فعلم السلطان أنه أصيب من قبل هذا الولى فسمع بذلك أخو الملك أبو عبد الله اللحيانى فأتى مبادرًا إليه وكان كثير الاعتقاد والزيارة للشيخ فقال لأخيه: ما هذا الذى أوقعك فيه ابن البراء؟ أوقعك والله فى الهلاك أنت ومن معك، فدخل عليه وجعل يقول له يا سيدى أخى والله غير عارف بمقدارك وجعل يقبل يده ويسأله الصفح عنه فقال والله لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورا فكيف يملكها لغيره كان ذلك فى الكتاب مسطورًا.

وخرج الشيخ أبو عبد الله اللحيانى صحبة الشيخ رضى الله عنه إلى داره فأقام الشيخ أيامًا، ثم باع ربعه الذى بناه بمسجد بلاط وأمر أصحابه بالنقلة إلى الديار المصرية ووجه إلى ابن البراء وقال له: ترانى أوسع عليك

---

(١) سورة البقرة - آية ٢٥٥.

(٢) فى الأصل: كلما.

مدينة تونس قال خادمه الشيخ أبو العزايم ماضى رحمه الله: لقى الشيخ يومًا ابن البراء فسلم عليه الشيخ فأعرض عنه ولم يرد عليه السلام وإذا بالفقيه أبى عبد الله بن أبى الحسن خادم السلطان فلما رآه ترجّل عن بغلته وبادر إلى الشيخ وجعل يقبل يديه ويبكى ويسأله الدعاء، قال: فدعا له وانصرف فلما دخل الدار قال خوطبت الآن فى هذين الاثنين فقيل لى: يا على وُسِمَ عبد بالشقاء علم الحق وتعامى عنه ولو علم ما علم، ورسم عبد بالسعادة علم الحق واتى عليه ولو عمل ما عمل، قال: وما سمع من الشيخ انه دعى عليه، ولا ذكره بسوء حتى كنا بعرفات يوم عرفة قال: أمنوا على دعائى فالآن أمرت بالدعاء على ابن البراء فكان من دعائه أنه قال: اللهم طول عمره ولا تنفعه بعلمه وافتنه فى ولده واجعله فى آخر عمره خادمًا للظلمة.

قال ولما توجه رضى الله تعالى عنه سمع السلطان فتغير لخروجه من بلاده فوجه إليه من يرده فقال الشيخ: ما خرجت إلا بنية الحج إن شاء الله تعالى. ولكن إن قضى الله حاجتى أعود إن شاء الله. فلما توجهنا إلى السوق ودخلنا الإسكندرية عمل ابن البراء عقدًا بالشهادة أن هذا الواصل إليكم شوش علينا ببلادنا وكذلك يفعل فى بلادكم فأمر السلطان أن يعقل بالإسكندرية فأقمنا أيامًا.

وكان السلطان رمى رميّة على أهل البلد وكان مشايخ البلد يقال لهم القبائل فلما سمعوا بالشيخ أتوا إليه يطلبونه فى الدعاء فقال لهم غدًا إن شاء الله تعالى نسافر إلى القاهرة ونتحدث مع السلطان فيكم.

فسافرنا وخرجنا من باب السدرة والباب فيه الحيادرة والولى: فلا يخرج أحد ولا يدخل أحد حتى يفتش فما كلمنا أحد ولا علم بنا، فلما وصلنا القاهرة أتينا القلعة: فاستؤذن على السلطان فقال: كيف ونحن أمرنا أن يعقل بالإسكندرية؟ فدخل على السلطان والقضاة والأمراء مجتمعون فجلس معهم ونحن ننظر إليه فقال له الملك: ما تقول أيها الشيخ؟ قال جئت أشفع إليك

فى القبائل: فقال: اشفع فى نفسك، هذا عقد بالشهادة فيك وجهه ابن البراء فيك من تونس بعلامتـه فيه ثم ناوله إياه فقال له أنا وأنت والقبـائل فى قبضة الله، وقام الشيخ: فلما مشى قدر العشرين خطوة حركوا السلطان فلم يتحرك ولم ينطق. فـبادروا إلى الشـيخ وجعلوا يـقبلون يديه ورجليـه ويرغبـونه فى الرجوع فرجع وحركـه بيده فتحرك ونزل عن كرسيـه وجعل يستحله ويرغب منه فى الدعاء ثم كـتب إلى الوالى بالإسكندرية أن يرفع الطلب عن القـبائل ويرد جـميع مـا أخذه لهم وأقـام عندهم فى القلعـة أياما واهتـزت بنا الديار المصرية إلى أن طلعنا إلى الحج ورجعنا إلى مدينة تونس.

وسكن الشيخ القلعـة بداخل باب الحديد ببطحاء الشمـرية - داراً تفتح للجنوب وأقام بهـا وقتا إلى أن قدم سيـدى الشيخ الكبير أبو الـعباس المرسى الذى ورث مقـامه فقـدم من بلاد الأندلس صغيـرا وأخوه أبو عبـد الله وكان معلما للصـبيان بالإسكندرية. فلما اجتمع الشـيخ به ورآه قال: ما ردنى إلى تونـس إلا هذا الشاب فرباه وسلكه وسار إلى الديار المصرية.

قال رضى الله عنه: رأيت رسول الله - ﷺ - فقال لى: يا على انتقل إلى الديار المصرية تربى بها أربعين صديقًـا وكان فى زمان الصيف وشدة الحر فقلت: أخاف العـطش، فقال: إن السماء تمطركم فى كـل يوم أمامكم، قال فوعدنى فى طريقى سـبعين كرامة قال فأمـر أصحابه بالحركة وسافر متوجها لديار مصر وكان ممن صحبه فى سـفره الإمام الولى الصالح أبو على السقاط، نفع الله ببركتهما فى الدنيا والآخرة.

قال ابـن الصبـاغ حدثنى والدى - رحـمه الله - قـال حدثنى الشـيخ الصالح المعرى أبو عبد الله الناسخ قال توجـهت صحبتهم فى خدمة أبى على كلما وصلنا إلى مدينة طرابلس قال الشيخ نتوجه على الطريق الوسطى واختار الشيخ أبو علـى طريق الـساحل، فرأى الشـيخ أبو على رسول الله ﷺ فـقال له: يا أبا على أنت ولـى الله، وأبو الحسـن ولى الله ولن يجـعل لولى على

ولى من سبيل امشى على طريقك التى اخترت وهو على طريقه التى اختارها. قال فافترقنا إلى أن اجتمعنا بمقبرة فى الإسكندرية فلما صليت الصبح توجه الشيخ أبو على إلى خباء الشيخ أبى الحسن ونحن بصحبته: فدخل عليه وجلس بين يديه وتأدب معه أدبا لاعتقاده فيه وتحدث معه بكلام لا نعرفه ولا فهمنا منه كلمة، فلما أراد الانصراف قال هات يدك أقبلها فقبل يده وانصرف وهو يبكى فتعجبنا من ذلك.

فلما كان فى أثناء الطريق التفت إلى أصحابه وقال: البارحة رأيت رسول الله ﷺ وقال لى: كان أبو الحجاج الأقصرى بالديار المصرية وكان قطب الزمان فمات البارحة، فأخلفه الله بأبى الحسن الشاذلى. قال: فأتيت إليه وبايعته بيعة القطابة، فلما وصلنا إلى الإسكندرية، وخرج الناس يتلقون الركب رأيت الشيخ أبا على يضرب بيديه على مقدم الرحل وهو يبكى ويقول يا أهل هذا الإقليم لو علمتم من قدم عليكم لقبلتم أخفاف بعيره، قدمت عليكم البركة.

قال الشيخ أبو الحسن - رضى الله عنه - لما قدمت على الديار المصرية. قيل لى: يا على ذهبت أيام المحن وأقبلت أيام المنن عشرا بعشر اقتداء بجدك - ﷺ سكن رضى الله عنه ببرج من أبراج السور حبسه السلطان عليه وعلى ذريته وأقام أعواما يحج عاما ويقيم عاما فلما كان فى العام الذى يحج فيه تحرك الترك على الديار المصرية واشتغل السلطان بالحركة عليهم فلم يجهز الجيش للركب فاخرج الشيخ خيامه إلى البركة التى ينزل بها الحاج خارج القاهرة واتبعه ناس قال: واجتمع بالفقيه الأجل سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام وسألوه عن السفر على الفور وعزم الجيش، فأخبر بعض الناس الشيخ بذلك فقال اجمعونى به: فاجتمع به فى الجامع يوم الجمعة فاجتمع عليهما خلق كثير فقال له: يا فقيه أرأيت أن رجلا جعلت له الدنيا خطوة واحدة هل يباح له السفر فى المخاوف أم لا؟ فقال له: من قام على هذه الحال لله فخارج عن الفتوى وغيرها، فقال أنا أقسم بالله إنى ممن جُعلت

لى الدنيا خطوة واحدة بسهلها وجبالها وبرها وبحرها فإذا رأيت ما يخيف الناس أتخطى بهم إلى الأمن. ثم سافر رضى الله عنه فظهرت له فى الطريق كرامات كثيرة فمنها أن اللصوص كانوا يأتون إلى الركب فيجدون سورا مبنيا كالمدينة فإذا أصبحوا يأتون إليه ويخبرونه ويتوبون إلى الله تعالى ويسافرون صحبته إلى الحج فلما قضى الحج ورجع ودخل أول المشاة إلى القاهرة وأخبروا بها. رأوا فى مواهب الله تعالى له فخرج الشيخ الفقيه عز الدين بن عبد السلام لملاقاته إلى البركة، فلما دخل عليه قال له: يا فقيه لولا تأدبى مع جدى رسول الله ﷺ لأخذت الركب من هاهنا يوم عرفة وتخفيت به إلى عرفات. فقال له الشيخ عز الدين: آمنت بالله، فقال له انظر حقيقة ذلك فنظر كل من حضر إلى البيت العتيق فصاح الناس وحط الشيخ عز الدين رأسه فى الأرض يعنى نكس رأسه وقال له: أنت شيخى فى هذه الساعة، فقال الشيخ: أجل.

فصل

تدرج القطبية

قال العارف بالله تعالى شهاب الدين أحمد بن الشيخ فخر الدين بن أبى بكر اليمنى القرشى:

وأول أقطاب الأمة الشريفة الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ثم واحد بعد واحد إلى أن وصلت إلى الشيخ الإمام القطب الغوث الفرد الجماع سيدى عبد القادر الكيلانى - رضى الله عنه - فتصرف بأمر[1] الله وتحرك بإذنه وتحكم فى خلقه بحقه، وولى وعزل، وهدى وخذل وأحيا وقتل[2] وأمرض وشفى، ومنح وأعطى، ووصل وقطع، وحمى ودفع، وسلب وحجب، وأعطى المحب ما طلب وفعل بأمر الله ولا عجب، ثم بعده

---

(١) فى الأصل: بأمد.

(٢) الحياة والموت بيد الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [سورة النجم - آية ٤٤]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [سورة آل عمران - آية ١٥٦]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ [سورة ق - آية ٤٣] وغير ذلك كثير.

حكم الإله بإخفاء صاحب هذا المقام وعـزته وصونه وقوته وفيضه على الدوام وإخفائه جل وعلا عن الخلق بحكمة من الله الملك الحق المبين.

ثم أظهر الله الولى الكبير ذا النور الكثيـر القطب الشهير صاحب المنهل العزيز الشريف الحـسنى الفاطمى القاصمى المحمدى ظاهر الوارثـين الشريعة والحقيـقة، وإمام الطريقتـين السلوكية والجذبيـة، أستاذنا الإمام شـيخ شيوخ الإسلام أوحد العلمـاء الأعلام بركة الأنام القطب الغوث الفرد الجـامع البحر المحيط أبا الحسن الشاذلى - رضى الله تعالى ونفعنا بعلومه -.

فظهر بالخلافة الكبرى والولاية الكبرى والقطبية العظمى والغوثية الفردية وخـصه الـله بعلوم الأسـماء ومن عليـه بإعـلاء مـقامـات الأوليـاء وأخص خصـوصيات الأصـفياء وانـفرد فى زمنه بالمقام الأكـبر والمدد الأكـثر والعطاء الأنفع والنوال الأوسع وتصـرف فى أحكام الولاية ومـددها بالإذن والتـمكين وانفرد بسـؤددها حق اليقين، وأمد الأولياء اجـمعين وأم بالصـديقين، ونال المقام الفرد الذى لا تجوز المشاركة فيه بين اثنين عند المحققين.

وأجمع على ذلك من عـاصره من العلمـاء العارفين والأوليـاء المقربين وخواص الـصديقيـن، وشهدوا بـقطبانيـته وفـرديته وأمر أن يقول بحـضور أكابرهم: قدمى هذا على جبهة كل ولى لله، وقـالَ ذلك ممتثلا للأمر معظما للقدر مقـرا بالعبودية ولا فخر ولما قال لبـعض الأولياء: إنه ليتنزل على المدد فأرى سريان الحوت فى الماء والطيران فى الـهواء، فقال له ذلك الولى: فأنت إذا القطب، فقال أنا عـبد الله أنا عبد الله، وما نازعه أحـد من أولياء عصره وعلماء زمانه لظهوره بالحق المبين غيـر أن ابن البراء قاضى القضاة بالمغرب فى بدايته عـاداه حسدا فمـات كمدا فلمـا استحكمت عداوته وزاد حـسده سلب العلم فعاش طويلا يتكفف بالأبواب ولا يجد القوت.

قال سيـدى أبو الحسن على بن عمر الـقرشى قيل إن الشيخ أبا سـعيد

القليوبى والشيخ على بن الهيتى قالا يوما للشيخ أبى الحسن الشاذلى: يا سيدى هل يأتى بعدك من هو مثلك فى هذا الشأن ويتكلم بهذا اللسان ويظهر بما ظهرت فى الفرقان، فقال رضى الله عنه مجيبا لهم ببيتين من الشعر:

أنا راغب فيمن تقرب وصفه ومناسب لفتى يلاطف لطفه
ومعارض العشاق فى أسرارهم فى كل معنى لم يسعهم كشفه

وقال القرشى أيضا إذا ذكرت سيدى أبا الحسن الشاذلى: فقد ذكرت سيدى عبد القادر الكيلانى وإذا ذكرت سيدى عبد القادر الكيلانى فقد ذكرت سيدى أبا الحسن لتوحد المقام فهما، ولأن سرهما واحد لا يفترقان ولذلك قال شيخنا الإمام رضى الله عنه فى ذلك من الأقوال:

الشاذلية قادرية وقتهم قد خصصوا بحقائق الفرقان
صرح بذكرك فضلهم تحظى بما قد شاهدوا فى فضله ببيان

وقال القرشى أيضا: رأيت النبى - ﷺ - وأنا ببيت المقدس فقال لى: اقتد بأبيك أبى الحسن الشاذلى فخطر لى أن مشايخ الشاذلية بالشام ومصر وبالمغرب أكثر فرأيته - ﷺ - ثانيا فقال خذ عن سيدك الشيخ ناصر الدين بن المليق، قال فتوجهت إليه بأمر النبى - ﷺ - وأخذت الميراث المحمدى الأحمدى القاسمى الشاذلى.

قلت: أخبرنى شيخنا أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المبيلق المعروف بابن الشيخ العارف بالله تعالى سيدى على بن عمر المذنى القرشى أنه قال: رأيت النبى ﷺ فى المنام وسألته عن القطب الربانى: أين هو؟ فقال لى بمصر يا على فقلت: يا رسول الله ما اسمه؟ فقال: اسمه محمد، فقلت يا رسول الله اسم محمد كثير فقال يعرف بابن المليق، فأتيت إليه من بلاد اليمن فسألت عنه فقيل لى: إنه بجامع المارداني يتكلم على الناس هناك فأتيت إليه،

وجلست عنده حتى فرغ فأخبرنى بجميع ما وقع لى فى عمرى من حين بلغت إلى ذلك الوقت.

(تنبيه) قال الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله فى لطائف المنن أدخل الشيخ مَسلم السلمى على سيدى أبى الحسن الشاذلى وهو بقلعتى إسكندرية، فقلت يا سيدى: دلونى عليك أنك تدل الخلق على الله فقال له: تلك لعامة الأولياء بل الرجل الكامل من يقول لك ها أنت وربك.

وقال - رضى الله عنه: قيل لى: يا على مننت عليك بخصلتين لم أعطهما لأحد قبلك ولا بعدك:

إحداهما: من صحبك لا يصحب غيرك أبدا.

والثانية: من يسمع كلامك لا يسمع كلام غيرك أبدا.

فإن تصحبوا غيرى فلا أمنعكم فإن رأيت منهلا أعذب من هذا المنهل فردوه، وقال أيضا - رضى الله عنه - عند موته: والله لقد جئت فى الطريقة بما لم يأت به أحد، وقال رضى الله عنه: أعطيت سجلا مد البصر فيه أصحابى وأصحاب أصحابى إلى يوم القيامة عتقا لهم من النار وقال أيضا - رضى الله عنه -: قيل لى: يا على ما شقى من رآك بعين المحبة والتعظيم ولا من رأى من رآك ولو شئت لأطلقت ذلك إلى يوم القيامة.

قال الشيخ أبو عبد الله القاطبى: كنت أترضى عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى فى كل ليلة مرارا وأسأل الله به فى جميع حوائجى فأجد منها النجاح والقبول. فرأيت النبى - ﷺ - فى المنام فقلت: يا رسول الله إنى أترضى فى كل ليلة عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى بعد صلاتى وأسأل الله به حوائجى فأجد فيها القبول. أترى على فى ذلك شيئا إذا تصديتك؟ فقال - ﷺ - أبو الحسن ولدى حسا ومعنى والولد جزء من الوالد فمن تمسك بالجزء تمسك بالكل، فإذا سألت الله تعالى بأبى الحسن فقد سألته بى.

وقال الشيخ العارف بالله تعالى سرى الدين محمد بن المليق: تكلم القطب أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فى دمنهور الوحش بالبحيرة بكلام عظيم غريب لم يسمع من أحد قبله وصار يقول فى تقرير كلامه: قال لى جدى رسول الله ﷺ وكان فى المجلس رجل مغربى من أكابر الأولياء المتمكنين، فأنكر ذلك فى نفسه فقال: أين الشيخ وأين جده فى هذا الوقت؟ فقام من المجلس وتوجه إلى زاوية الشيخ مجاهد المغربى بدمنهور المذكور.

فلما دخل الليل ونام، فرأى النبى - ﷺ - وهو يقول له: يا فلان ما صدقت ولدى أبا الحسن! نعم كل ما قاله قلت له، فانتبه من نومه، وقال للشيخ مجاهد: امض بنا إلى الشيخ أبى الحسن الشاذلى فقال له: ما حاجتك بالشيخ أبى الحسن فى هذا الوقت فقال: لا بد لى من ذلك فلما حضر ميعاد قال له: يا فلان ما صدقت حتى سمعت بأذنيك، وعزة الله لئن لم تخرج من هذه البلدة لأسلبنك، فخرج من وقته، وقال رضى الله عنه: إنا الله مكننى من ناصية كل ولى الله إلى يوم القيامة.

وقال أيضا رضى الله عنه: ليلة أخذت ميراثى من رسول الله - ﷺ - مكنت من خزائن السماء فلو أن الجن والإنس يكتبون عنى إلى يوم القيامة لكلوا أو ملوا[1].

من صفاته الجسدية - رضى الله عنه -

وقال خادمه السيد الكبير العارف بالله تعالى أبو العزايم ماضى - رضى الله عنه - كان سيدى أبو الحسن الشاذلى آدم اللون، نحيف الجسد، طويل القامة، خفيف العارضين، طويل أصابع اليدين كأنه حجارى، فصيح اللسان، عذب الكلام، كان رضى الله عنه يقول إذا تكلم واستغرق فى الكلام: ألا رجل من الأخيار يعقل عنا هذه الأسرار. هلموا إلى رجل سفينة بحر الأنوار.

---

(١) هذه حكايات وأمور لا دليل عليها.

فصل

وفاته

وأمـا وفاته رضى الله عنه ومـا جـارى له فى ذلك من خرق العـادات واستخلافه لسيـدى أبى العباس المرسى - قدس الله روحه - قال: لما وصلت إلى الديار المصـرية وسكنت بهـا. قلت يا رب أسكنتنى فى بلاد القـبط أدفن بينهم، فقال لى يا على تدفن فى أرض بكر ما عصى الله عليها قط.

قال ابن الصباغ حدثنى الشيخ أبو العزايم ماضى رحمه الله قال لما توجه سيـدى أبو الحسن رضى الله عنه فى سفـرته التى توفى فيـها وكنت تزوجت امرأة من أهل مدينـة الإسكندرية، فجعلت تبكى وتقول: كـيف تتركنى على ولادة وتسافر عنى؟ قال فأخبرت بذلك سيـدى الشيخ فقال ادعها إلى، فأتيت بها إليه فلمـا دخلت عليه قال لها يا أم عبد الدايم: اتركى لى مـاضى يـافر معى وأرجو لك من الله خـيرًا، فقالت له: يا سيدى السمـع والطاعة، فدعا لها وانصرفت ثم ولدت ذكرا ونحن مسافرون فسمته عبد الدايم.

قال فلما تجـهزت للـسفر قال الشيـخ احملوا معكم فأسا ومسـحاة، فإن توفى منا أحد وارينـاه التراب ولم يكن له بذلك عادة مـتقـدمة فى جمـيع ما سافرت معه فكانت تلك إشارة منه لوفاته.

وقال ابن الصـباغ أيضا حـدثنى الشيخ صالح شـرف الدين ولد الشـيخ رضى الله عنه ببلد دمنهـور فى عام خمسـة عشر وسبـعمائة، قال كـان معنا شاب يقـرأ القرآن وهو يتيم لا أب له فـيأتى معنا وأمـه فى الدار عندنا، فلما أراد الشيخ السـفر فأمـرنا أن نتحـرك معه بجـميع الأهل والأولاد، فتـشوق الشـباب للسفر معنا فقال الشـيخ: احملوه معكم فجاءت أمه للشيخ وقالت يا سيدى لعل يكـون نظركم عليه فقال لهـا: يكون نظرنا عليه إلى حميـثرا قال فسافـرنا فلما دخلنا البرية، مرض الشيخ - رضى الله عنه - والشـاب فمات

الشاب، قبل أن يصل إلى حميثرا بمرحلة، فأردنا دفنه قال فلما غسلناه وصلى عليه الشيخ ودفناه بها فكان أول من دفن بها وتوفى الشيخ فى تلك الليلة قال وكان قد جمع أصحابه فى تلك العشية وأوصاهم بحزب البحر وقال لهم: حفظوه أولادكم فإن فيه اسم الله الأعظم وخلا بسيدى أبى العباس وحده وأوصاه بأشياء واختصه بها يعنى بما خصه الله من البركات وقال لهم إذا انامتُ فعليكم بأبى العباس المرسى فإنه الخليفة من بعدى - إن شاء الله سبحانه وتعالى - وسيكون له بينكم مقام عظيم وهو باب من أبواب الله سبحانه وتعالى -.

قال فلما كان بين العشائين قال لى: يا محمد املأ لى إناء بالماء من هذا البئر فقلت يا سيدى ماؤها ملح زاعق والماء عندنا عذب، فقال ائتنى منها فإن مرادى غير ما أنت تظن، فأتيته بإناء منها فتوضأ ثم قال لى بردّه إليها، فرددته إليها فحلا ماء البئر وعذب وكثر بإذن الله تعالى وبات تلك الليلة متوجها إلى الله تعالى ذاكرا فكنت أسمعه يقول: إلهى إلهى إلى السحَر، فلما كان وقت السحر ظننا أنه نام فحركناه فوجدناه ميتا - رحمه الله - واستدعينا سيدى أبا العباس فغسله وصلينا عليه ودفناه بحميثرا وهذا الموضع ببريّة "عيذاب" فى واد على طريق الصعيد(١).

قال ابن الصباغ وقد شربت من ماء البئر وررت ضريحه ورأيت له بركات عظيمة نفع الله به فى الدنيا والآخرة، قلت: اللهم إنى أسالك أن تتفضل علىّ تيسير زيارته قبل الموت بعنايتك ورحمتك يا أرحم الراحمين، قال ولما دفناه اختلفوا فى الرجوع والتوجه فقال لهم الشيخ أبو العباس المرسى: سيدى أمرنى بالحج ووعدنى بكرامات فتوجهنا ورأينا تهوينات وبركات ورجعنا صحبته وظهر من بعده ظهورا عظيما.

---

(١) حميثرا تتبع الآن مركز القصير بمحافظة البحر الأحمر. وكانت منطقة صحراوية لا ذكر لها وبعد أن دفن فيها الشيخ أبو الحسن الشاذلى اصبحت مزارا عامرا بالزوار الذين يحضرون من جميع انحاء مصر والعالم العربى لزيارته.

قال الشيخ أبو الحسن - رضى الله عنه - قلت إلهى متى يكون اللقاء؟ فقيل إلى حميثرا فحينئذ يكون اللقاء، وقال ابن الصباغ حدثنى الشيخ الفقيه القاضى المفتى قاضى الجماعة بتونس أن أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الرفيع - رَحمه الله - قال: لما توجه أبو الحسن الشاذلى للحج فى سفرته التى توفى فيها قال فى هذا العام أحج حجة النيابة فمات قبل أن يحج، فلما رجع أصحابه إلى الديار المصرية سألوا سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام وأخبروه مقالته فبكى فقال لهم الشيخ أخبركم أنه يموت، وما عندكم به علم وقد أخبركم أنه يحج عنه الملك نائبا لأنه جاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: "إنه من خرج من بيته قاصدا للحج ومات قبل أن يحج فإن الله عز وجل يوكل ملكًا ينوب عنه بالحج فى كل عام إلى يوم القيامة"(١).

وقال أيضًا حدثنى الفقيه القاضى الأعدل الأفضل الأكمل عماد الدين قاضى القضاة بالإسكندرية فى عام خمسة عشر وسبعمائة. قال توفيت امرأة بالإسكندرية وكانت مسرفة على نفسها، رآها بعض الصالحين فى حالة حسنة فقيل لها: ما فعل الله بك؟ قالت: مات اليوم الشيخ أبو الحسن الشاذلى ودفن بحميثرا فغفر لمن دفن اليوم من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فغفر لى من أجله تعظيما له وإكراما به، فلما قدم الحاج أخبروا بوفاته، فوجدوا التاريخ صحيحا.

تاريخ وفاته - رضى الله عنه - وعُمْره حينئذ:

وتوفى - رضى الله عنه - فى ليلة الاثنين لعشرين من ذى القعدة سنة ست وخمسين وستمائة وهو ابن ثلاث وستين سنة رضى الله عنه ونفعنا بعلومه. قلت من جملة ما تفضل الله به علىّ أننى اقتديت بهذا الأستاذ وصرت من أتباعه ولله الحمد على ذلك فأول اقتدائى بهذا الإمام بواسطة

(١) رواه البيهقى فى شعبه بلفظ «من خرج حاجًا أو معتمرًا أو غازيًا ثم مات فى طريقه كتب له أجر الغازى والحاج والمعتمر إلى يوم القيامة».

الأخذ عن شيخنا وأستاذنا العارف بالله تعالى شاذلى زمانه سيدى محمد بن عمر بن على المغربى نفعنا الله به وهو صحب واقتدى بالسيد الكبير الذى خضعت لقطبيته الأكابر أبى العباس المرسى الحنفى.

وهو صحب واقتدى بالشيخ الإمام العارف صاحب الخوارق والكرامات والتجلى والمشاهدات سيدى شمس الدين محمد الحنفى القطب المشهور شرقًا وغربًا وهو صحب واقتدى بالشيخ الإمام العارف بالله تعالى شيخ الإسلام ناصر الدين الشهير بابن الميلق.

وهو صحب واقتدى بجده لأمه الشيخ الإمام العلامة المحقق الأصولى صاحب المناقب والكرامات شهاب الدين أحمد بن الميلق الإسكندرى وهو صحب واقتدى بالشيخين الإمامين العارفين بالله تعالى الشيخ ياقوت العرشى والشيخ تاج الدين بن عطاء الله وهما صحبا واقتديا بقطب العارفين سيد علماء الطريقة وإمام أهل الحقيقة أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه ونفعنا بعلومه.

وهو صحب واقتدى بقطب زمانه السيد الشريف عبد السلام بن بشيش - بفتح الباء الموحدة وكسر الشين المعجمة وبالياء المثناة فى أسفلها الساكنة ثم شين معجمة - بن منصور ابن إبراهيم الحسنى ثم الإدريسى من ولد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه القمارى المالكى.

وهو صحب واقتدى بعارف وقته السيد الشريف الحسنى القطب الفرد الشيخ أبى محمد عبد الرحمن المدنى العطار المعروف بالزيات.

وهو صحب واقتدى بعارف وقته السيد القطب الربانى الشيخ تقى الدين الفقير الصوفى الذى لقب نفسه بتُقَىّ الدين الفُقَيْر بالتصغير فيهما، وذلك بأرض العراق.

وهو صحب واقتدى بالقطب الشيخ تاج الدين وهو صحب واقتدى بالقطب الشيخ أبى القاسم أحمد المروانى.

وهو صحب واقتدى بالقطب الشيخ أبى محمد سعيد وهو صحب واقتدى بالشيخ القطب سعيد القيروانى وهو صحب واقتدى بأول الأقطاب أبى محمد الحسن السبط الشهيد المسموم بن على بن أبى طالب.

وهو صحب واقتدى بجده رسول الله ﷺ فإن قلت كيف يكون الحسن أول الأقطاب وقبله أبو بكر الصديق رضى الله عنه وعمر وعثمان وعلى رضوان الله عليهم أجمعين فالجواب أن يقال: إن الحسن أول من كانت له الخلافة الباطنة مفردة عن الظاهرة وإن القطب خليفة النبى ﷺ ووارث الأمر من بعده.

وكان الحسن لما ترك الخلافة الظاهرة ابتغاء وجه الله وحقن دماء المسلمين عوضه الله ما هو أجل منها وهى الخلافة الباطنة؛ لأن من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه.

وأما الخلفاء الأربعة رضى الله عنهم فكانت لهم الخلافتان الظاهرة والباطنة معا ولم يجتمعا لأحد بعدهم إلا أن يكون عمر بن عبد العزيز والله أعلم.

سلسلة لبس أبى الحسن رضى الله عنه للخرقة:

(تنبيه): هذا آخر ما يتعلق بسلسلة الأستاذ أبى الحسن الشاذلى فى الطريقة الاقتدائية وأما طريقته فى الخرقة والصحبة المجردين عن الاقتداء وهما أقدم من طريق اقتدائه المذكور فنقول لبس الشيخ أبو الحسن خرقة الصوفيه من شيخه الأول العارف القدوة أبى عبدالله محمد بن الشيخ أبى الحسن على بن خوارزم ويعرف أيضا بابن - حرزهم - بكسر الحاء المهملة تلميذ الشيخ العارف بالله تعالى أبى محمد صالح بن بنصار بن عقيان الذكيالى الاسفينى تلميذ الشيخ العارف بالله الكبير القدوة المفتوح على يديه أبى مدين شعيب شيخ العارف بالله تعالى محيى الدين بن العربى لا بالنسبة لشيخه الشيخ عبد القادر بن الشيخ عبد السلام بن بشيش قدوة ليس فيها خرقة البته وإنما كلها

بالصحبة والاقتداء والتوصل وطريق هذه الخرقة التى من جهة الشيخ أبى عبدالله محمد بن الشيخ أبى الحسن على بن خوارزم بالصحبة واللباس فقط فمن قال طريقة الشاذلية الخرقة اى من طريق خوارزم المذكور الأول شيخه الذى صحبه ولم يقتد به.

ومن قال ليست طريقه الخرقة أى من طريق شيخه الثانى ابن بشيش الذى اقتدى به قلت قد لبست هذه الخرقة من طريق أعلى من الأولى بدرجة وذلك أننى اجتمعت على الشيخ الإمام العالم العابد السالك المربى سيدى خير الدين بن محمد بن قطب الزمان شاذلى عصره ووقته الشيخ شمس الدين الحنفى قدس الله روحه يوم الأحد رابع عشر ربيع الأول سنة أربع وسبعين [وثمان مائة] فتلقنت منه الذكر والبسنى الخرقة مع إسبال العزبة ثم صافحنى فى المجلس كما كان يفعل والدى المذكور - رضى الله عنا به - ولقننى لفظ المبايعة فقلت بايعتك على ذلك ثم كتب لى إجازة بذلك، وأذن لى فى فعل ذلك لمن يكون أهلا بالشرط المعتبر عند أهله.

وهو تلقى جميع ذلك وأخذه عن والده المذكور - رضى الله عنه - وهو أخذ ذلك عن قطب الدائرة شيخ الإسلام قاضى القضاة ناصر الدين بن الميلق سوى العذبة فإنه تلقى ذلك عن رسول الله ﷺ وسيأتى الكلام على قصتها إن شاء الله تعالى.

وهو أخذ ذلك عن الشيخين القطبين الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله والشيخ ياقوت العرشى وهما اخذا ذلك عن قطب الوجود الشيخ أبى العباس المرسى.

وهو أخذ ذلك عن سيد أهل زمانه القطب المحمدى صاحب المقام الرفيع العلى الشيخ أبى الحسن الشاذلى.

وهو أخذ ذلك عن شيخه الأول الكبير العارف بالله القدوة أبى عبدالله محمد بن الشيخ أبى الحسن على بن خوارزم ويعرف أيضا بابن حرزهم وقد تقدم ذلك والله أعلم.

وأما قصة شمس الدين الحنفى أن رجلا من أهل العلم والصلاح يقال له السيد الشريف كان يسمع ويرى من الشيخ شمس الدين الحنفى المذكور بأنه يلبس الأثواب الجميلة الأنيقة الغالية الأثمان وينكح النساء الحسان المنعمة ويركب الخيول المسوّمة وإذا ركب ذاهبا أو آيبًا فالأمراء وأكابر العسكر تحجبه والجند تحجب حجبته والعلماء والصلحاء والفقراء تحفه ومنهم من لا يركب ليفتخر ويتبرك بالسعى فى ركابه ومنهم من يركب والحافون به يودون لو مشوا معه على الرءوس فضلا عن الأقدام فرحًا بقربهم منه والتذاذا برؤيته وسماع خطابه.

ويقول كل من رآه فى طريقه أو فى سيره: ما أسعد هذا اليوم وأبركه الذى صدفته فى طريقى ورأيته وحل نظره على ويحمد الله على ذلك.

وكان يفرح برؤيته المسلمون والنصارى واليهود ويدعون بطول بقائه لشفقته على خلق الله تعالى إقامة لتفريج المكروبين وتفريج المحزونين وإطلاق المسجونين وجبر قلوب المكسورين وإغاثة الملهوفين وتخليص المساكين من أيدى الظالمين وكثر هذا الأمر وشاع عنه وذاع حتى عم نفعه على أهل بلده وأهالى البلاد وصار كهفًا للغريب وكنزًا للفقير وأمنًا للأيتام وبَعْلا للأرامل وعلما مقصودًا بين الخلائق.

أهل الغرب والشرق يأكلون من رزق الله على يديه وأهل الحجاز واليمن والشام والروم والعجم والعرب يتواردون لحيِّه وينال كل منهم من فضل الله تعالى على يديه ما يغنى فقره ويجبر كسره ويعز قدره بحيث إن علماء زمانه أثنوا عليه الثناء العظيم فى تواريخهم وأنشدوا فى ذلك النظم البديع والقصائد التى لو ذكرناها لخرجنا عن المقصود لكثرتها فمن جملة ذلك ما قاله العلامة قاضى القضاة بدر الدين العينى شارح البخارى وصاحب المصنفات المشهورة فى ترجمته أن قال:

حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفر

وقال فيه بعض علماء زمانه فى قصيدة مدحه بها فيها أبيات كثيرة وأمداح جليلة فمن جملة ذلك أن قال:

الله أكبر ما أعلى علاك إلى رأى سديد وما أحظاك بالسبق، وكتب له بعض الكتاب بقلم الظفار على باب خلوته التى يخرج منها للصلاة وللميعاد فى ورقة مذهبة ومن جملة ما قال:

يا فاعل الخير عش هنيئا فإن عقباك السلامة

وفاعل الشر ما يُهَنا فإن عقباه الندامة

ثم إن السيد الشريف كان يظن أن الأولياء أهل تقشف فقط وكان يرى أن الأستاذ المذكور ما هو إلا ملكا من الملوك أو رئيسًا من أعز رؤساء زمانه فبينما هو فى ليلة من الليالى نائم وإذا هو يرى أن جماعة من الفقراء سائرون وبينهم رجل راكب وهم محتفون به وهو جائى من طريق ذاهب إلى فضاء من الأرض وعليه وعليهم سكينة ووقار.

فقال الشريف: من هؤلاء ومن هذا الذى معهم؟ فقال له قائل: هذا سيدى إبراهيم الدسوقى ذاهب لرسول الله ﷺ ليزوره ويتبرك به، فقال الشريف ورسول الله ﷺ فى أين حتى يزوره؟ فقيل له فى هاتيك الخيمة التى فى صدر هذا الفضاء، فلما انقضى أواخر من معه وإذا بجماعة أكثر من أولئك وبينهم رجل راكب وعليهم السكينة والوقار فقال من هؤلاء ومن هذا الرجل؟

فقيل له: هذا سيدى أحمد البدوى آتى لزيارة رسول الله ﷺ فأراد الشريف أن يتبعه وإذا بخلق آخرين وبينهم رجل راكب فقال من هؤلاء ومن هذا الرجل؟ فقيل له: هذا سيدى أحمد بن الرفاعى أتى لزيارة الرسول ﷺ فهمَّ لأن يتبعه فما قدر.

ثم وجد طائفة أخرى وبينهم رجل راكب وعليه مهابة وسكينة فقال من هذا ومن هؤلاء؟ فقيل له هذا سيدى عبد القادر الكيلانى وهؤلاء كلهم أتباعه

أتوا لزيارة رسـول الله ﷺ فأراد الشـريف أن يذهب معـه وإذا بخلق لا يكاد أحد يحصى لهم عددًا كالرمل والمطر لكثرتهم وعليـهم مهابة وسكينة فبعد ما ساروا بساعات[1] وإذا برجال شبه الأمراء وبعدهم شبه الحجاب وبعدهم شبه الأتابك وبعدهم شبه الخلفاء وإذا هم يحجبون راكبا عليه من المهابة والأنس ما لا يستطيع الحاكى يصـفه وإذا بأنوار ساطعة فأحدق الشريف حتى يتحقق من هو وكان يغلب على ظنه أنه ملك وإذا بقائل يقول هذا الشيخ محمد الحنفى أتى لزيارة رسـول الـله ﷺ فنظر الشـريف إلى ذلـك وإذا برسـول الله ﷺ وحوله من الـسادة والأصحـاب ما شاء الله والخلق بيـن يدى رسول الله ﷺ كل واحد قربه منه على قدر منزلته وفى محل رتبته.

فقال رسول الله ﷺ لأبى الحسن الشاذلى: إنى لأحب من أتباعك هذا الرجل إلا عمامـته الزعراء وقال الصمّاء أشـار بذلك إلى الشيخ شمس الدين الحنفى فقـال الشيخ أبو الحسن الشـاذلى أتأذن لى يا رسول الله ألف عمامـته وأرخى له العذبة؟ فـقال رسول الله ﷺ على رَسْلك يا عـلى ليقم لذلك أبو بكر فقام أبو بكر رضى الله عنه وقلع عـمامته من على رأسه والبسـها للشيخ الحنفى وأخذ عمامة الشيخ الحنفى ووضعـها على رأسه ولفها بالعذبة وطواها فى جانب العـمامة وأتـى بالشيخ الحنفى بين يدى رِسـول الله ﷺ فارخى له عليه الصلاة والـسلام العذبة بيده المباركة وقال للشيخ الحنفى: البسها وألبسها لمن شئت.

وجاء الشريف لرسول الله ﷺ يقبل يديه، ويسلم عليه، فظن ان رسول الله ﷺ يريد الإعراض عنه فـقال: يا رسول الله أعلم أنى من ذريتك فـقال أعلم. أنى أحب هذا الرجل فـلا تعـترض عليـه أو قال عليـه السلام: فـلا تعرض عنه فـقلت: يا رسول الله أخـشى أنى إذا رأيته أخـبرته بما رأيتـه فلا يصدقنى فقـال له: قل له بأمارة الصلاة التى ابتكرتها لم يطلع عليـها أحد إلا الله ورسوله.

---

(١) فى الأصل بساعاة.

فصل

"حكم القائلين بالحلول والاتحاد"

صرح سادات القوم من أهل التصوف بكفر القائلين بالحلول والاتحاد فممن نص على كفرهم من أئمة التصوف الحافظ أبو نعيم الأصبهانى فى أول (الحلية) وكذلك القاضى ناصر الدين البيضاوى الإمام في التفسير والفقه والكلام والأصول والتصوف فانظر تفسيره المشهور تجده مشحونا بالتصوف وقد نص فى سورة المائدة على كفر من قال بالحلول والاتحاد.

وقال القونوى فى شرح التعرف فى حديث "كنت سَمْعَه"[1] تأويل الحديث أن الله يتولى من أحبه فى جميع أحواله كما يتولى الوالد جميع أحوال الطفل بحيث إنه لا يمشى إلا برجل أحدهما ولا يأكل إلا بيده فكأنه فنيت صفاته وقامت صفات الوالدين مقامها لشدة اعتنائهما بحفظه وتسخير الله إياهما له ولذلك ورد فى الحديث "اللهم كلاءه ككلاء الوليد".

ومعنى كنت سمعه إلا آخره، أحاطت عنايتى ولطفى به بحيث يصير فعله وإدراكه كأنه فعلى وإدراكى وما يشير إليه أصحاب القول بالاتحاد فى ادعائهم كون الحديث على ظاهره وأن الحق سبحانه وتعالى ما زال سمعًا وبصراً ويداً حقيقة بدليل قوله "كنت" وهذا لا يخفى لاستحالة كون القديم صفة للحادث والله أعلم.

وقال الفاكهى أحد أئمة المالكية وأحد أئمة التصوف وأحد أئمة الشيخ أبى العباس المرسى فى حديث "كنت سمعه" هو ما يظهر لى على حذف مضاف والتقدير كنت حافظ سمعه الذى يسمع به فلا يسمع إلا ما يحل سماعه وحافظ بصره الذى يبصر به كذلك إلى آخره، قلت هذا عين ما قاله الأستاذ شهاب الدين بن المليق فى ديوان المراسلات.

وقال الفاكهى أيضًا: ويحتمل فيه رضائى ورجله كذلك قال شيخ

---

(١) رواه البخارى.

الإسلام ابن حجر رحمه الله وحمله بعض متأخرى الصوفية على ما يذكرونه من مقام الفناء والمحو وأنه الغاية التى لا شىء وراءها وهو أن يكون قائما بإقامته له، محبا بمحبته له، ناظراً بنظره له، من غير أن يبقى معه بقية تقال باسم أو تقف على رسم أو تتعلق بأمر أو بوصف، قال: ومعنى هذا الكلام أنه يشهد إقامة الله له حتى قام، ومحبته له حتى أحبه، ونظره إلى عبده حين أقبل ناظراً إليه بقلبه انتهى.

ثم قال شيخ الإسلام ابن حجر وحمله بعض أهل الزيغ على ما يدعونه من ان العبد إذا لزم العبادة الظاهرة والباطنة حتى تصفى من الكدر ورأى أنه يصير فى معنى الحق تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وأنه يفنى عن نفسه جملة حتى يشهد أن الله هو الذاكر لنفسه المجيب لنفسه، وأن هذه الأسباب والرسوم تصير عدمًا صرفًا فى شهوده.

ثم قال: ويرد على الاتحادية والقائلين بالوحدة المطلقة قوله فى بقية الحديث "ولئن سألنى ولئن استعاذنى" فإنه كالصريح فى الرد عليهم قال بعض مشايخنا: يعنى حيث أثبت سائلا ومسئولا ومستعيذا ومستعاذا به. قلت: هذا الاعتراض باطل ولا أصل له بإجماع محققى التصوف وبيان ذلك أن الصوفى إذا تحقق فى الفناء كان حينئذٍ فى حضرة الجمع والأحدية التى مات فيها موتًا معنويًا وصارفى شهود الحق تعالى عدمًا مجازيًا لا وجود له ولا رسم لأن العين الحادثة لا تنفتح فى شمس القدم، كما أن النور لا يجتمع مع [الظُّلَم] فلا وجود إلا الله الواحد الأحد كما كان في الأزل بحيث إن الله تعالى أشهده الحضرة الأحدية تارة يُوَحِّد نفسه على لسان عبده كقوله على لسان الحلاج: أنا الحق، وقوله على لسان أبى يزيد البسطامى سبحانى ما أعظم شأنى، فصار لسانهما فى حضرة التوحيد الذاتى كالآلة لتوحيد نفسه كقوله تعالى "فبى ينطق" وتارة يوحِّد ذاته بذاته على لسان نفسه بعد فناء

الخلق ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[1] فلا يجيبه أحد، فيقول: لله الواحد القهار وسيأتى إن شاء الله تعالى فى باب التوحيد.

ولا يرد هنا القول بالحلول والاتحاد إلا عند كل دخيل لم يفهم دقائق القوم من زعم أن قوله ولئن استعاذنى ولئن استعاذنى كالصريح فى الرد عليهم وعلى مذهبهم وليس الأمر كما زعم لأن ذلك إشارة إلى صحوهم فى حضرة الجمع التى لا نطق لهم فيها ولا رسم إلى عالم الفرق الذى منه نطقهم ورسمهم ونسبة الأفعال والأقوال إليه وكأنه يقول إذا مات عبدى غريقًا فى بحر نشأة توحيدى وكنت على لسانه موحدًا نفسى بنفسى ولئن سألنى ولئن استعاذنى بعد الصحو من نشأته لأعطينه ولأعيذنه إكرامًا له وحقًا على فإذا تقرر ذلك علمت أن سؤالهم إنما هو فى صحو عالم الفرق بعد الموت من نشأة سكر حضرة الجمع.

فإن قلت؛ قد قضيت على الفناء بأنه موت وعدم فما الدليل على ذلك؟ قلت: دليل ذلك ما ورد أن الله يوقف يوم القيامة هذه الطائفة بين يديه فيقول عز وجل: أولياءى لم أرو عنكم الدنيا لهوانكم على ولكن زويتها عنكم لتستوفوا اليوم نصيبكم عندى اذهبوا فاخترقوا الصفوف فمن سلم عليكم من أجلى أوزاركم من أجلى أو عرفكم من أجلى أو أطعمكم من أجلى فخذوا بيده وأدخلوه الجنة فيأتون إلى المحشر يجرون أذيال الفخر فيقول الله تعالى: أنتم متم فى الدنيا مرة واحدة وهؤلاء الواحد منهم يموت فى اليوم سبعين مرة.

وقال ابن الحاج فى المدخل بعد أن ساق هذا الحديث: وقد قال سيدى أبو مدين رحمه الله من مات رأى الحق ومن لم يمت لم ير الحق فإذا كان المرء إذا مات موتة واحدة رأى الحق فما بالك بسبعين مرة فى كل يوم؟ وقال العلامة شمس الدين البرماوى أحد شراح البخارى وأحد أئمة المتأخرين فى أصحابنا من شرح خطبة الحاوى الصغير: لمخالطة التوحيد الذاتى عدل إلى

---

(١) سورة غافر - آية ١٦.

قوله المتوحـد أى الذى هو واحد بذاته وإن لم يوحده موحـد لأن الواحد قبل إيجاد الموحِّدين له وإذا تقرر فى مذهب الصوفى فى التوحيد بهذا التقرير وهو عدم ملاحظة نفسه وغيره عمـا سوى الله تعالى كان حقا ولا يلزم معه حلول ولا اتحاد مع شىء من خلقـه فإن ذلك محال وباطل فانظر كـيف صرح بنفى الحلول والاتحاد فى هذا المقام الذوقى.

وقال شيخنا وإمـامنا العارف بالله تعالى سيدى محـمد المغربى والاتحاد المذكور فى كتب القوم هو نتيجة الحب لقول الأستاذ شرف الدين ابن الفارض رضى الله عنه معرضا بهذا البيـت.

أفـاد اتحـادى حـبنا لاتحـادنا نوادر عن عـاد المحـبـين شـذَّت

واستدل على إتيانه بإشارة حديـث الحب الصحيح المذكور فيه ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه إلى آخره وقال:

وجـاء حـديـث باتحـادى ثابت روايتـه بالنقل غـير ضـعـيـفة
مشـيرا بحب الحق بعـد تـقـرُّب إليـه بنفل أو أداء فـريضـة
ومـوضع تنبـيـه الإشـارة ظاهر بكنت له سـمـعا كنور الظـهـيـرة

ولأن الحب هو المعنى الواحد الجامع بين المحبين معنى وإن افـترقا ذاتا وصفـاتا وحدوثًا وقدمًا، فإن قلت: قال القاضى عـياض فى الشفا مـا معناه المسلمون على كفر أصحاب الحلول. ومـن ادعى حلول البارى سبحانه وتعالى فى بعض الأشخاص كقول بعض المتصوفة والباطنية والنصارى والرافضة.

وقال الشيخ عز الدين بن جماعة فى شرح "الكواكب الوقاد" يجب أن ينزه الله تعالى عن الحـلول خلافا للنصارى وبعـض الصوفية فـإذا تقرر ذلك فـابن العربى وابن الفـارض فى زمن الشيـخ زكى الدين عبـد العظيم المنذرى ورأى ابن الفارض واجتمع به وسمع من شعره وترجمه فى معجمه ولم يصفه بسوء عقيدة وقد أثنى عليه كثيرون من أكـابر علماء الشريعة والحقيقة كالشيخ

عفيف الدين اليافعى فى كتابه "كفاية المعتقد ونكاية المنتقد" وغيره من مصنفاته وناهيك بهذا الإمام الذى يحتج به وترجمه من الشافعية جمال الدين الإسنوى حيث قال فى الطبقات ابتدأت بالشافعى وختمت باليافعى وقال ابن الملقن فى طبقات الأولياء: هو ممن تنزل الرحمة عند ذكره.

وأما ابن العربى فبأثنى عليه تاج الدين ابن عطاء الله فى لطائف المنن وجده العلامة المحقق عبد الكريم تاج الدين أحد أئمة المالكية فى كتابه "مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح" وختم آخره بالنقل عنه من الفتوحات المكية وقد عظمه الشيخ كمال الدين الزملكانى المترجم فى طبقات الإسنوى والسبكى فى مصنفه الذى ألفه فى الكلام على الملك والنبى والصديق والشهيد فقال فى الفصل الثانى المتعلق بالصديقية والشيخ محيى الدين ابن العربى البحر الزاخر فى المعارف الإلهية وذكر من كلامه جملة.

وقال فى آخر الفصل وإنما نقلت كلامه وكلام من جرى مجراه من أهل الطريق؛ لأنهم أعرف بحقائق هذه المقامات وأبصر لدخولهم فيها وتحققهم بها ذوقًا عن عين اليقين فاسأل به خبيراً ثم قال ومن شعره.

إذا حلّ ذكرهمُ خاطرى ... فرشت خدودى مكان التراب
وأقعدنى الحب فى بابكم ... قعود الأُسارى لضرب الرقاب

قلت ومن شعره:

خصصت بعلم لا يحيط بمثله ... سواى من الرحمن ذى العرش والكرسى
وأشهدت من علم الغيوب عجايبًا ... تُصَان عن التذكار فى عالم الحس
فيا عجبا إنى أروح وأغتدى ... غريبا وحيدا فى البلاد بلا جنس
لقد أنكر الأقوام قولى وشنعوا ... علىَّ بعلمٍ لا ألوم به نفسى

فلا هُمْ مع الأحياء في نور ما أرى ولا هم مع الأموات في ظُلمة الرمس
فسبحان من أحْيَا فؤادي بنوره وأفقدهم نور الهداية بالطمس
تحلى بها من كان قلبا مجردا عن الفكر والتخمين والوهم والحدسِ

نبذه عن ابن عربى رضى الله عنه

تنبيه

مولده رضى الله عنه ونفعنا به فى شهر رمضان سنة ستين وخمسمائة بمرسية من الأندلس ثم نشأ واشتغل بسائر العلوم وانتهت إليه الإمامة فى زمانه وذكر أنه سمع من ابن بشكوال وغيره وسكن الروم مدة وكتب الإنشاء لبعض الأمراء بالغرب ثم تزهد وتعبد وتفرد وتوجه وسافر وتجرد كذا قاله ابن الملقن فى طبقات الأولياء..

وسبب الفتح الذى حصل له أنه رأى رؤيا عظيمة تدل على ذلك فقال رحمه الله مخبراً عن نفسه في كتاب "الباء" ما نصه: اعلم أنى كنت ببجاية فى رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة فرأيت ليلة كأنى أنكحت نجوم السماء كلها فما بقى نجم فى السماء إلا نكحته بلذة عظيمة روحانية ثم لما أكملت نكاح النجوم أعطيت الحروف فنكحتها كلها فى حال إفرادها وتركيبها وسخر لى حروف فى الرؤيا الباء الظرفية وأعطيت فيها سراً إلهيًا يدل على شرفها وما أودعه الله من الجلال عندها.

وعرضت قصتى هذه على رجل يعرضها على رجل عارف بالرؤيا وتعبيراتها وقلت للذى عرضتها عليه لا تذكرنى فلما ذكر المنام له استعظم ذلك وقال: هذا هو البحر الذى لا يدرك قدره وصاحب هذه الرؤيا يفتح له من العلوم وعلوم الأسرار وخواص الكواكب ما لا يكون بيد أحد من أهل زمانه ثم سكت ساعة، وقال: إن كان صاحب هذه الرؤيا فى هذه المدينة فهو هذا الشاب الذى وصل إليها فسمانى، فبهتَ صاحبى وتعجب ثم قال: ما هو

إلا هو فلا تخف عنى فقال له صاحبى: نعم هو صاحب الرؤية وقال لا ينبغى أن يكون فى هذا الزمان إلا له فسعى أن تحملنى إليه لأسلم عليه فقال: لا أفعل حتى أستأذنه فاستأذننى فأمرته أن لا يعود إليه وسافرت عن قريب ولم أجتمع به.

وقال الشيخ صفى الدين ابن أبى المنصور فى رسالته ورأيت بدمشق الشام الشيخ الإمام العارف بالله تعالى محيى الدين ابن العربى من أكابر علماء الطريق من بين سائر العلوم الكسبية وما وقع له من العلوم الوهبية وشهرته به عظيمة وتصانيفه كثيرة وكان غلب عليه التوحيد علما وخلقا وحالا لا يكترث بالوجود كان مقبلا أو معرضا وكان بينه وبين سيدى الأستاذ الخزاز إخاء ورفقة فى السياحة.

وقال العلامة المحقق السيد الشريف عبدالله الحسنى كنت مجاوراً بمكة شرفها الله تعالى وعظمها وكنت اطالع كتاب "الفتوحات المكية" للشيخ المحقق محيى الدين بن محمد بن العربى قدس الله روحه وكثير من أصحابى العلماء والزهاد ينكرون على بسبب اشتغالى بمطالعة مصنفاته.

وكنت ليلة من الليالى طفت حتى ما بقى لى أن أطوف وجئت إلى مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام ثم صليت ونمت على مكانى فرأيت النبى ﷺ داخلا فى مقام الصفا فقمت له عليه الصلاة والسلام وسلمت عليه فقال ﷺ السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ثم قلت: يارسول الله ما تقول فى كلام ابن العربى حق أم لا؟ فقال ﷺ. حق لمن فهم ثم قال: اما علمت أن جميع كلامه فى تفاريغ الأصول التى مهدتها لهم؟

فقلت: أعلم بعض ذلك ولكن بعض الناس ينكرون عليه فأردت أن أسالك عنه يارسول الله، فقال ﷺ المنكر معذور من وجه قال: فأردت أن أسأله عن المواضع التى ينكرون فيها فلما أخذت فى السؤال قال: اغتنم الدعاء فقلت: ادع لى يارسول الله فقال: ثبتك الله على الطريق ثم أردت أن أقبل قدمه فأخذ برأسى وأقامنى قائما فاستيقظت وأنا قائم. انتهى.

وقال القطب العريني الذى نفهمه من كلامه حسن والذى يشكل علينا نكِلُ أمره إلى الله ولا كُلِّفنا بيانه ولا اتباعه ولا العمل بكل ما قاله، وقال بعض المحققين فى بعض تصانيفه ما نصه: اجتمع الشيخان العارفان الإمامان المحققان الربانيان الشيخ شهاب الدين السهروردى والشيخ محيى الدين ابن العربى رضى الله عنهما فأطرق كل منهاما ساعة وافترقا من غير كلام، فقيل للسهروردى: ما تقول فى الشيخ محيى الدين فقال: بحر الحقائق.

القول فيمن طعن فى ابن عربى من العلماء

وبلغنى عن بعض المشايخ الكبار العارفين أنه قرأ عليه أصحابه كلام ابن العربى ويشرحه لهم فلما حضرته الوفاة نهاهم عن مطالعة كتب ابن العربى وقال أنتم ما تفهمون مراده ومعانى كلامه.

فإن قلت صرح سلطان العلماء عز الدين ابن عبد السلام بالحط عليه وأخبر عنه أنه يقول بقدم العالم قلت أنت على حد قول الشاعر:

قل للذى يدعى فى العلم فلسفة فهمت شيئًا وغابت عنك أشياء

اعلم أن الشيخ عز الدين له فيه كلامان بحسب السائل قال الإمام اليافعى فى الإرشاد وسمعت أن الشيخ الإمام الفقيه عز الدين بن عبدالسلام كان يطعن فى ابن العربى ويقول: هو زنديق فقال له يوما بعض أصحابه من الصوفية أريد أن ترينى القطب فأشار بيده إلى ابن العربى وقال له: هاذاك هو فقيل له: فأنت تطعن فيه فقال: حتى أصون ظاهر الشرع أو كما قال رضى الله عنهما أخبرنى بذلك غير واحد ما بين مشهور بالصلاح وفضل ومعروف بالدين ثقة عدل من أهل الشام وأهل مصر إلا أن بعضهم روى أريد أن ترينى وليا من أولياء الله وبعضهم روى القطب وقد مدحه وعظمه طائفة من شيوخ الطريقة وعلماء الحقيقة كالشيخ نجم الدين الأصبهانى وطعن فيه طائفة لا سيما من الفقهاء وتوقف فيه طائفة والله أعلم.

قلت: هذا عين ما أجاب به سيد علماء الطريقة وإمام أهل الحقيقة أبو

الحسن الشاذلى فإنه رضى الله عنه لما سئل عنه وكان السائل فقيها فقال له هو زنديق ثم سأله بعض الصوفية عنه أيضا فقال هو صديق فأجاب كل واحد بما يعتقده وما اشتهر عن الشيخ عز الدين بن عبدالسلام وحكاه أيضا عن نفسه أنه كان لما يمر عليه الشيخ محيى الدين بن العربى وقت التصنيف يسقط القلم من غير اختيار فيعلم أنه قد مر عليه الأستاذ.

حكم ما جرى فى كلامهم مما يخالف ظاهر الشرع

فإذا تقرر ذلك فاعلم أن علماء الباطن الذين أطلعهم الله على الحقائق والمعارف والحكم تارة يصنفون كتبا واضحة فى هذا الشأن لينتفعبها أهل الظاهر والبطان كمصنفات الغزالى والقشيرى والسهروردى والشيخ تاج الدين بن عطاء الله الشاذلى السكندرى وغيرهم من أئمة الأعلام، وتارة يصنفون كتبا لا يفهمها إلا أهل الباطن بحيث لا يجوز لأحد مَن علماء الظاهر النظر فيها لما فى ظاهر عبارتها من الإشكالات والرموز المقفلة التى لا يفتحها إلا العلماء بالله وذلك كمصنفات الشيخ محيى الدين بن العربى وأمثاله من أئمة السلوك.ولهذا قال رضى الله عنه: نحن قوم يحرم النظر فى كلامنا إلا لأرباب الأحوال، فانظر كيف صرح بذلك وانتبه له فما بعد هذا القول إلا محض العنا.

وقال القطب العارف بالله تعالى سيدى محمد وفا الشاذلى والد سيدى على وفا فى أول كتابه "شعائر العرفان من أنفاس الرحمن": فهذه علوم لا يعلمها إلا علماء السِّير والوقوف، ولا يكتسبها المنكر للدين الغير معروف[1]، ولا تدل عليه الحروف، برزت من غياهب الغيب الذى لا يشعر به الغير، ولا ينتهى إليه نهاية السير، وإنما هى إشارات وتلويح لا عبارات وتصريح، فمن كان صديقا لله خابتا خُبُوت العبد الأوّاه فليدخل من أبواب جناتها ويحظر فى

(١) الصحيح أن يقال: غير المعرف فكلمة غير لا يدخل عليها «ال» التعريف.

حظائر حضراتها يقتطف من أنواع زهراتهـا ويتفنن فى أفنان تفكهاتها ويفتض من أبكار حور لمحاتها، فعسى أن تلحظه أعين تلك العين بلحظاتها وتنكشف عنه كمـة أكمام الفكر فيـرى ما لا عين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومن كان مورطا فى ورطات الأوضـاع جامدا على عوائد الطباع مـقيدا فى القول والسـماع فلا يطمع أبدا فى كـشف القناع فليرد العلم لأهله ويتـبرأ من سوء ظنه فإن الحقائق من وراء وهمه ومدارك العلوم الوهبية فوق فهمه.

وقال الـشيخ تاج الدين بن السـبكى فى كتـاب "معـيد النعـم ومبـيد النقم": فـالله الله فى ألفـاظ جرت مـن بعض سادات القـوم لم يعنوا بهـا ظواهرها وإنما عنوا بهـا أمورا صـحيحـة، فلا ينبـغى للشيخ ذكـرها لمريد لا يفهمها فإنه يضله مثل ما يقال عن بعضهم العلم حجاب فإنه لا يريد به ظاهر ما يفـهمه المبـتدى ولكن له معنى لا يناسب حـال المبتدئ الكشف عنه وغير ذلك من الألفاظ.

فربما جـرى بعضها فى حـال السكر فإنها مما لا يقتـدى بها ولا توجب القدح فى قائلها بل نسلِم إليـه حاله ونقيم عنده فيما سقط بين شـفتيه بحالة الغيبة فإن الشارع لا يكلف غائب الذهن هذا إذا فقدت أسباب التأويل بكلامه بالكلية ولم نجد ذلك إن شاء الله تعالى فى كـلام أحد من المعتدِّين بل قد نزه الله ألفاظهم عن الأباطيل ومالهم كلمة إلا ولها محمل حسن.

وقال أيضا فى موضع آخر: فـالواجب تسليم أحوال القوم وإنا لا نأخذ أحدا إلا بجريمة ظاهرة ومتى أمكننا تاويل كلامه وحمله على محمل حسن لا نعدل عن ذلك لا سـيما من عـرفناه منهم بالخير ولـزوم الطريقة ثم برزت لفظة عن غلطة أو سقطة فإنها لا تهدم ما مضى وهذه الطائفة من الفقهاء التى تنكر على الصوفـية مثلهـا مثل قوم من التـرك التى تنكر على الفقهـاء، وقد جربنا فلم نجد فقـيها ينكر على الصوفية إلا ويهلكه الله تعالى وتكون عـاقبته

وخيمة ولا وجدنا تـركيا يهزؤ بالفقهاء إلا ويهلكه الله تعالى، وتـكون عاقبته شديدة فسبيل هذه الطائفة التوبة إلى الله تعالى وحـسن الظن بخلق الله تعالى لا سيـما من انقطع إلى الله تعـالى ورفض الدنيا وراء ظهـره، هذا علاج داء هذه الطائفة.

ثم قال: فهؤلاء القوم لا يعاملون بالـظواهر، ولا يفيد معهم إلا الباطن ومحض الصـفا وهم أهل الله تعـالى وخاصتـه نفعنا الله بهم وأكـثر من يقع فيهم لا يفلح انتهى.

تنبيه

فضيلة حسن الظن بالناس، وخطر المبادرة إلى التكفير

اعلم أن حسـن الظن وعدم الوقيـعة هو الذى دلت عليـه الأخبـار ففى الحديث "لأن يخطىء الإمام فى الـعفو خير من أن يصـيب فى العقوبة"(١). وقال السـيد عمر: لا تظن بكلمة خرجت من أخيك سُـوءًا وأنت تجد لها فى الخير محملا.

وقـال بعض العلماء. لو عـاش الإنسان عـمره كـله لم يلعن إبليس لم يسأله الله عز وجل(٢)، وقال الشيخ تقى الدين السبكى فى فتاويه. اعلم إنما يستضعف القول بـالتكفير وأنه محتاج إلى تحرير المعتـقد وهو صعب من جهة الاطلاع على ما فى القلب، ويكاد الشخص يصعب عليه اعـتقاد نفسه فضلا عن غيره، واعتراف الشخص به هيهات أن يحصل.

وقال الإمام الـيافعى فى نشر المحـاسن ما نصه: وإنما قلنا لا تستـعجل التكفيـر لأن المبادرة إلى دون ذلك غير مـحمودة وصاحبـها راكب متن الخطر

---

(١) رواه الترمذى: «فإن الإمام أن يخطئ فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة».

(٢) عدم لعن إبليس ليسمن حسن الظن، فقد لعنه الله، وواجب علينا لعن لأنه كافر والكافر ملعون. قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة - آية ٣٤]، وقال تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [سورة الحجر - الآيتان ٣٤، ٣٥].

فكيف بالمبادرة إلى تكفير المسلمين مع عدم الاطلاع على قلوب الخلق واحتمال إرادة التخصيص وغيره، وعظم حرمة المؤمن الذى قتل بغير حق أعظم عند الله من زوال الدنيا. وقد صرح الإمام حجة الإسلام الغزالى بأن ترك قتل نفوس استحقوا القتل أهون من سفك محجمة دم المسلم بغير حق، قال وكذا المؤمن إن صدر منه كفر صريح تعمده وارتد عن الإسلام، لا يبادر إلى قتله بل يستتاب وجوبا واستحبابًا على خلاف فى ذلك فكيف من لم يعلم أنه تلفظ بالكفر ولفظه يحتمل وجوها ممن أراد التخصيص وغيره، ويحتمل أيضا السهو وسبق اللسان وغير ذلك فينبغى التثبت والتأنى فى التكفير وسفك دماء المسلمين، فليس ذلك الهيِّن وينبغى إذا نقل عن أحد لفظ ظاهره الكفر أن يتأمل فى ذلك ويمعن النظر فيه فإن احتمل ما يخرج اللفظ على ظاهره من أراد التخصيص أو المجاز أو غير ذلك مما قد عرف فى القاعدة الأصولية يسأل اللافظ عن مراده وإن كان الأمثل فى الكلام هو الحقيقة والعموم وعدم الإضمار وغير ذلك، لأن الضرورة ما نسبته إلى الاحتياط فى هذا الأمر، واللفظ محتمل فاذكر ما ينفى عنه الكفر مما يتحمله اللفظ بخلاف ظاهره أو اذكر غير ما يحتمل فإن ذكر شيئا ما استتيب منه فإن تاب قبلت توبته وإن لم يتب وأصر على ذلك فإن كان مدلول ذلك الظاهر كفرا مجمعًا عليه حكم بكفره وقتل مرتدا، ويترتب عليه أحكام المرتدين.

وإن كان فى محل الخلاف نظر فى الراجح من الأدلة فإن لم يكن فى الظاهر أهلية النظر فى الأدلة نظر فى الراجح عند المحققين من أهل النظر فإن كان الراجح عندهم التكفير ترك، وإن عادل الخلاف أخذ بالأحوط وهو عدم التكفير، وينبغى أن يستتاب ويهدر إن لم يتب وإن رجحوا التكفير فالحكم ما حكم به الفقيه.

وقال اليافعى أيضا فى كتاب الإرشاد ما نقل ونسب إلى المشايخ رضى الله عنهم مما يخالف العلم الظاهر فله مجال الأول أن لا نسلم نسبته إليهم حتى يصح عنه الثانى بعد الصحة يلتمس له تأويل عند أهل العلم الباطن

العارفين بالله، الثالث صدور ذلك عنهم فى حال السكر والغيبة والسكر إن كان مباحا غير مؤاخذ لأنه غير مكلف فى ذلك الوقت فسوء الظن بهم بعد هذه المخارج من عدم التوفيق نعوذ بالله من الخذلان وسوء القضاء ومن جميع أنواع البلاء.

وقيل كان الشيخ الكبير أحمد بن الرفاعى - قدس الله روحه - ونور ضريحه - كثيرا ما ينشد ويردد هذا البيت المفرد.

فإن عبرت وأنت سليم قلب من البلوى فتهنيك السلامة

يعنى تعبر سفينته فى بحر الدنيا قلت قال شيخنا العارف بالله تعالى سيدى محمد المغربى فإن عبرت يعنى سلكت الطريقة وخرجت من الدنيا على دين الإسلام سليما من الكفر والإنكار على أولياء الله تعالى فتهنيك السلامة لذلك.

وقال بعضهم وكان فقيها إذا أردتنا فاترك القولين والوجهين، قلت وأنشد اليافعى فى هذا المعنى قوله:

وإنى جبان حين أخشى عواقبا وإن كان فى ذاك السلامة راجحه
أقدم غيرى طالبًا لسلامتى وإن ظن مع ذاك التجارة رابحه

وقال أيضا رضى الله عنه:

وقائلة مالى أراك مجانيًا أمورا وفيها للتجارة مربح
فقلت لها مالى بربحك حاجة فنحن أناس بالسلامة نربح

ثم قال وهذا مذهبى أميل إليه وأقول به وأعتمد عليه وقد صرحت بذلك فى كتاب "روض الرياحين" حيث قلت وأما من اختلف فى تكفيره فمذهبى فيه التوقف وتوكلى فيه إلى الله تعالى.

وقال حجة الإسلام: ولا ينبغى أن يظن أن التكفير ونفيه ينبغى أن لا يدرك قطعا فى كل مقام بل التكفير حكم شرعى يرجع إلى إباحة المال وسفك

الدم وحكمه الخلود فـى النار فمأخـذه كمأخـذ سائر الأحكام الشرعـية وتارة يدرك بيقين وتارة يظن غالبـا وتارة يتردد فيه ومهما حصل تردد فـترك التكفير أولى، والمبادرة فى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل.

وقال بعض العلماء: اعلم أن دقائق علم التصوف لو عرضـت معـانيها على الفقهاء بالعبارة التى ألفوها فى علومهم لاستحسنوها كل الإحسان وكانوا أول القائلين، وإنما ينفرهم منها إيرادها بعبارة مستغربة لم يألفوها ولهذا قال بعضهم: الحقيقة أحسن ما يعلم وأقبح ما يقال.

وها أنا أضرب لك مـثلا تعرف به صحة ذلك، قـال الهروى فى منازل السائرين[1]: حقيقة التوبة ثلاثة أشياء ذكر من جملتها وهى عمل صالح وإنما يتوب من المعاصى، وتقرير معناه أن العبد إذا كمل فى رجوعه إلى الله تعالى لم يلتفـت لأعماله بقلة توبة كـانت أو غيـرها فيؤوب من سكونـه إلى توبته وأزيدك أيضا أن التوبة وإن كانت من كسب العبد وهى من خلق الله وتوفيقه فهو التائب عليـه، ولو لـم يتب عليه لما تاب، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾[2] فأى صنع للعبد فى التوبة وغيـرها وهو الذى وفقه لفعلها، فرؤية العبـد للتوبة ذنب يستغـفر منه، بل عليه أن يشـهد محض مِنَّةِ الله عليـه بها وتوفيقـه لها، وينفى نفـه أصـلا عن درجة الاعتبار وهذا هو مـقام الفناء فى التـوبة، وهى أول منازل السـائرين، فـإذا تقـرر ذلك علمت أن هذا المعنى لو عرض على الفقيه بهذه العبارة المألـوفة كان أول قائل به وناصر له، لأن الفقيه السنى يقابل على إثبات الأفعال. ونفيها عن العـبد مخالفة للمعتزلة والقدرية ونحوهم ممن يزعم أن العبد يخلق أفعال نفسه.

وسئـل الشيخ ولى الدين العـراقى عن الشيخ مـحيى الدين بن العـربى وابن الفـارض فقال رحـمه الله تـعالى: ينبـغى عندى أن لا يحكم على ابن العربى نفسه بشىء فإنى لست على يقـين من صدور كتاب الفصوص عنه ولا

---

(١) منازل السائرين للهروى بتحقيقنا - نشر مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة.

(٢) سورة التوبة - آية ١١٨.

من استمـراره عليه إلى وفاته وأما ابن الفارض فالاتحـاد فى شعره ظاهر لكن معاصـروه من أهل الحديث رووا عنه فى معـاجمهم ولم يترجـموه بشىء فى ذلك.

ثناء العلماء على ابن الفارض

فقال الحافظ الكبير زكى الدين عـبد العظيم المنذرى فى معجمه: إن ابن الفارض الشافـعى الأديب سمع من القاسـم بن أبى القاسم بن عسـاكر بعد أن حدث عنه وسمعت شـيئا من شعره ثم قال فى آخر التـرجمة فرضى الله عنه ورحمه.

وقال الحافظ رشيد الدين العطار فى معجمه الشيخ الفاضل الأديب كان حسـن المنظر متـوقد الخـاطر وكان يسلك التـصوف وينتـحل مذهـب الإمام الشافعى وأقام بمكة وصحب جماعة من المشايخ.

وقال الحافظ أبو بكر بن مسدى فى معـجمعه برع فى الأدب وكان رقيق الطبع عـذب النبع فصيح الـعبارة دقـيق الإشارة سلس القـياد نبـيل الأضداد متظرف مـتصـرف كالروض البهـيج تخلق بالزى وجمع من كـرم النفس كل مفترق انتهى.

وقال ابن الملقن فى طبقات الأولياء عمر بن الفارض بن أبى الحـسن على بن المرشـد بن على الحـموى الأصل المـصرى المولد والدار والوفـاة المنعـوت بالشرف صاحب الـديوان المعروف الفائق جاور بمكة ومنى ومـات فى جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ودفن تحت المقطم بجبل العارض وولد فى ذى القعدة سنة ست وسبعين وخمسمائة.

والفارض الذى يكتب الفروض للنساء على الرجال انتهى.

ثناء العلماء على ابن العربى

وقال أيضا فى ترجمة الشيخ محيى الدين بن العربى محمد بن على بن محـمد بن أحمد الطائى الحـاتمى المرسى محيى الدين بن العـربى نزيل دمشق

وأما قوله وقد حط عليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام فجوابه ما تقدم، مات رضى الله عنه بعد الشيخ شرف الدين ابن الفارض سنة ثمان وثلاثين وستمائة.

تنبيه

الفرق بين المتصوف والمتشبه

قال السهروردى فى "عوارف المعارف" فى باب ذكر المتصوف والمتشبه أخبرنا الشيخ الإمام شيخنا شيخ مشايخ الإسلام أبو النجيب السهروردى إجازة قال أخبرنا أبو محمد ابن صاعد قال حدثنا ابن الحسن المروزى قال أخبرنا عبدالله بن المبارك قال حدثنا المعتمر بن سليمان قال أخبرنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله متى قيام الساعة؟ فقام رسول الله ﷺ إلى الصلاة فلما قضى الصلاة قال: أين السائل عن الساعة فقال الرجل: أنا يا رسول الله قال ما أعددت لها؟ قال ما أعددت لها كثير عمل إلا أنى أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: المرء مع من أحب وأنت مع من أحببت.

قال أنس فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الإسلام كفرحهم بها.(١)

فالمتشبه بالصوفية وما اختار التشبه بهم دون غيرهمُ من الطوائف إلا لمحبته إياهم وهو عن تقصيره عن القيام بما هو فيه يكون معهم لموضع إرادته ومحبته، وقد ورد بلفظ آخر أوضح من الخبر الذى رويناه بهذا المعنى. روى عبادة ابن الصامت عن أبى ذر الغفارى قال: قلت: يا رسول الله الرجل يحب القوم ولا يحسب أن يفعل كفعلهم قال أنت يا أبا ذر مع من أحببت،

---

(١) حققنا هذا الكتاب ونشرته مكتبة الثقافة الدينية - بالقاهرة.

(٢) رواه البخارى ومسلم بلفظ أن رجلا سأل النبى ﷺ متى الساعة يا رسول الله؟ قال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ولكن أحب الله ورسوله. قال: أنت مع من احببت.

قال: فقلت: إنى أحب الله ورسوله قال: فإنك مع من أحببت، قال فأعادها أبو ذر فأعادها رسول الله ﷺ(١).

قال السهروردى محبة المتشبه إياهم لا يكون إلا لشبه روحه لما تنبهت له أرواح الصوفية لأن محبة أمر الله وما يقرب منه يكون مجاذب الروح غير أن المتشبه تعوّق بظلمة النفس والصوفى تخلص من ذلك والمتصوف متطلع إلى حال الصوفى وهو مشارك يبقى شىء من صفاء نفسه عليه للمتشبه.

منزلة الإيمان بطريق القوم

وطريق الصوفية أوله إيمان ثم علم ثم ذوق فالمتشبه صاحب إيمان فالإيمان بطريق الصوفية أصل كبير وقال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد: الإيمان بطريقنا هذه ولاية، ووجه ذلك أن الصوفية يتميزون بأحوال عزيزة وإشارات مستغربة عند أكثر الخلق فإنهم مكاشفون بالقدرة وغرائب الأمور إشاراتهم إلى عظيم أمر الله والقرب منه والإيمان بذلك إيمان بالقدرة وعلوم نفيسة من هذا القبيل فلا يؤمن بطريقهم إلا من خصه الله تعالى بمزيد عناية فالمتشبه صاحب إيمان والمتصوف صاحب حقيقة علم؛ لأنه بعد الإيمان المكتسب عنده مزيد علم بطريقهم وصار له من ذلك مواجيد يستدرك على سائرها فالصوفى صاحب ذوق والله أعلم.

فصل

حكاية آخر حجة للسهروردى

لما حج الشيخ شهاب الدين السهروردى صاحب عوارف المعارف وكان آخر حجة فى سنة ثمان وعشرين وستمائة، وكانت وقفة الجمعة وحج معه خلق كثير من أهل العراق ورأى كثرة ازدحام الناس عليه فى الطواف بالبيت والوقوف بعرفة، واقتدائهم بأقواله وأفعاله، وبلغه أن الشيخ شرف الدين عمر

---

(١) رواه أحمد فى مسنده مع بعض اختلاف فى اللفظ.

بن الفارض فى الحرم فـاشتاق إلى رؤيته وبكى وقـال فى سره يا ترى هل أنا عند الله تعالى كـما يظن هؤلاء القوم بى؟ وياترى هل ذكـرت فى حضرة[1] الحبيب فى هذا اليوم؟ فظهر له الشيخ عمر شرف الدين بن الفارض رضى الله عنه وقال له: يا سهروردى لك البشارة فاخلع ما عليك فقد ذكرت ثَمَّ على ما فيك من عوج.

فصرخ الشيخ شهاب الدين وخلع كل ما عليه وخلع المشايخ والفقراء الحاضرون كل مـا كان عليهم[2] وطلب الشيخ فلم يجده فقال السهروردى: هذا إخبـار من كان فى الحـضرة، ثم اجتـمعـا بعد ذلك فى الحـرم الشريف واعتنقا وتحدثا وتسارا زمانا طويلا.

وسئل القطب سيدى على وفا عن ابن الفارض فقال: يدور حول حمانا وسئل عنه أيضـا مرة أخرى فقال: ذاك عـاشق وأنا معشوق وأنشـدنى شيخنا العلامة نور الدين الأشمونى لنفسه:

رفـضـوا بجـهل قطب دائرة الورى عـمـر الولى العـالم ابـن الفـارض
ومـضـيـت سنّيًـا أرى حـبى له فـرضًـا علىَّ ورافـضًـا للـرافـضى

فصل
فى التستر

قال بحر الحقائق محـيى الدين بن العربى رضى الله عنه فى كتابه "الفنا فى المشاهـدة": والعلم يجب سترّه عن الكشف على الخلق لما فيـه، فقـعُره بعيد، والتلف فـيه قريب، فإن من لا معـرفة له بالحقائق ولا بامـتداد الرقائق يقف على هذا الفن وهذا الشهد نم لـسان صـاحبه المحقق به وهو من لم يذقه ربما قال: [أنا من أهوى ومن أهوى أنا] فلهذا نستره ونكـتمه وقد كان الحسن

(١) فى الأصل حضرت.
(٢) هل يجوز أن يخلع هؤلاء الصـوفية ملابسـهم ويقفوا أمـام الناس فى هذا الجمع العظيم عرايا، ينظر الناس إلى سوءاتهم، إن هذا يتنافى مع هديه ﷺ القائل: (لا يطوفن بالبيت بعد اليوم مشرك ولا عريان) فقد كان من بعض العادات الجاهلية الطواف عرايا.

البصـــرى إذا أراد أن يتكلم فى مـثل هذه الأسرار التى لا ينبـغى لمن ليس فى طريقها أن يقف عليها دعا فرقد السبخى ومالك بن دينار ومن حضر من أهل هذا الفن فلولا وجوب كتمه ما فعل هذا.

وكذا قال أبو هريرة فيما ذكره البـخارى فى صحيحه حملت على النبى ﷺ جرابين أما الواحد فـبثثته فيكم وأما الآخر فلو بثثته فيكم قطع منى هذا البلعوم وقال ابن عبـاس فى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾[1] لو ذكرت تفسيرهن لرجمتمونى وقلتم: إنى كافر.

وكـان علىّ بن أبى طالب كـرم الله وجهـه يقـول ويضرب بيـده على صدره: آه إنَّ ها هنا لعلومـاً جمة لو وجـدت لها حملة، وقال عليـه الصلاة والسلام: "مـا فضلكم أبو بكر بكثـرة صلاة ولا صيـام ولكن بشىء وقر فى صدره"[2] ولم يُبيِّـن ذلك الشئ وكتمـه عليهم فلـيس كل علم يلزم معـرفة العالم به.

تنبيه

فائدة فى كيفية النظر فى دقائق العلم

قال عليه الصلاة والسلام: "خاطبوا الناس على قدر عقولهم[3] فينبغى لمن وقع فى يده كتاب فى علم لا يعـرفه ولا يسلك طريقه أن لا يبدى به ولا يعيد، وأن يرده علـى أهله، ولا يؤمن به ولا يكفر، ولا يخوض فيـه ألبته، فرب حامل فقـه ليس بفقيه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾[4]، ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾[5] قد ورد فيـهم الذم حيث تكلموا فيـما ليس يسلكون طريقه وإنما سـقنا هذا كله؛ لأن كتب أهل طريقنا مشحـونة من هذه الأسرار

---

(١) سورة الطلاق - آية ١٢

(٢) رواه أبو يعلى.

(٣) رواه الديلمى.

(٤) سورة يونس - آية ٣٩.

(٥) سورة آل عمران - آية ٦٦.

ويتسلط عليها أهل الإنكار بإنكاره، وأهل الظواهر بأول احتمالات الكلام فيقعون فيهم، ولو سئلوا عن مجرد اصطلاح القوم للذى تواطئوا عليه فى عباراتهم ما عرفوه، فكيف ينبغى لهم أن يتكلموا فيما لم يحكموا أصله؟ وربما قالوا إذا عاينوهم يتكتمون بمواجيدهم مع أصحابهم: دين مكتوم مشئوم" وما عرفوا جهات الدين وهؤلاء ما تكتموا بالدين قط بل تكتموا بنتيجته وما وهبهم الحق تعالى فى طاعته حين أطاعوه.

ثم قال رحمه الله تعالى: وأنا والله أخاف على المنكرين على هذه الطائفة، وقد قال: من قعد معهم يعنى مع أهل الحقائق من أهل الصوفية وخالفهم فى شىء مما يتحققون به نزع الله نور الإيمان من قلبه قلت: وكذا قاله الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله فى لطائف المنن: ومن أنكر كرامات الأولياء رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فالدلائل النقلية والعقلية ترد عليه ويخشى على مَنْ هذا مذهبه سوء الخاتمة أعاذنا الله من ذلك بفضله وكرمه.

وقال ابن العربى رضى الله تعالى عنه فى كتابه المسمى "بالعظمة": فهم الشهود والأمناء وهم الأبرياء الأخفياء لا يعرفهم سواه، مجهولة أحوالهم من حيث الشبه بالصورة واختلاف البواعث والمعانى فهم يأكلون ويشربون وينكحون ويمزحون ويضحكون ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾[1] انظر ما فعلت مشاركة الصور وإن اختلفت آيات السور فبهذا اللسان نطقوا وعن هذه الحقيقة ترجموا ولو عزا عليهم رحموا هكذا قال ابن عباس رضى الله عنهما: فسبحان من سترهم عن أعين المنكرين وإن كانوا مسلمين صالحين.

قال بعض العارفين: لا يبلغ الرجل درجة الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق أنه زنديق. معنى هذا الكلام لو نطق بما يقتضيه مقامه وحاله مستور لكن لا ينطق إلا بالأمر المعتاد فيخفى بين العباد.

---

(١) سورة الفرقان - آية ٧.

وقال الإمام اليافعى فى الإرشاد ما نصه قال شيخ الطريقة وبحر الحقيقة محيى الدين بن العربى رضى الله عنه: كنت أنا وصاحب لى فى المغرب الأقصى بساحل البحر المحيط وهناك مسجد يأوى إليه الأبدال فرأيت أنا وصاحبى رجلاً قد رفع حصيراً فى الهواء على مقدار أربعة أذرع من الأرض وصلى عليه فجئت أنا وصاحبى ووقفت تحته وقلت:

شغل المحب عن الحبيب بسره　　فى حب من خلق الهوا أو سخره

العارفون عقولهم معقولة　　عن كل كون يرتضيه مطهره

فهم لديهم مكرمون وعندهم　　أسراره مخزونة ومحرره

قال فأوجز فى صلاته وقال: إنما فعلت هذا لأجل المنكر الذى معك وأنا أبو العباس الخضرِ، ولم أكن أعلم أن صاحبى ينكر كرامات الأولياء فالتفت وقلت: يا فلان كنت تنكر كرامات الأولياء قال: نعم قلت: فما تقول الآن قال بعد العيان ما يقال. وقال القرطبى: أحد أئمة المالكية فى منظومة قواعد الإسلام:

قد جمعت طهارة الأعضاء　　ألف بلا شك ولا امتراء

ذكرها محمد بن العربى　　خزانة العلم وقطب المغرب

قلت هو الحاتمى الطائى صاحب "الفتوحات المكية" وغيرها من المصنفات لا كما يظن بعض الناس أنه القاضى أبو بكر تلميذ الغزالى لأنه وإن كان إماما فى العلوم الشرعية فلم يشتهر عنه التبحر فى التصوف كشهرته فى العلوم الظاهرة فضلا عن أن يترجم بالقطبية التى هى ثمرة العلوم الباطنة.

أخبرنى بعض الثقات من الفضلاء قال سمعت علامة الوجود حنفى زمانه كمال الدين بن الهمام يقول: ابن العربى لست أقول فيه شيخ الإسلام بل إنما هو شيخ مشايخ الإسلام انتهى.

تنبيه

الفرق بين ابن العربى مُعَرَّفًا وابن عربى منكَّرًا

اعلم أن الشيخ محيى الدين بن العربى الصوفى معرف بالألف واللام كالقاضى أبى بكر ابن العربى الفقيه وإنما نكره بعض المتأخرين للتمييز بينهما وهاهنا لطيفة لا بأس بذكرها وهى قول شيخنا العارف بالله تعالى سيدى محمد المغربى إنما نُكِّر الصوفى لأنه مُعرَّف فى نفسه غير مفتقر للتعريف ولقد ترجمه معرفا بالأداة جماعة من العلماء كالشيخ صفى الدين بن أبى المنصور الذى رآه واجتمع به والشيخ تاج الدين بن الملقن فى طبقات الأولياء وغيرهما من الأئمة الأعلام.

فصل

قال الشيخ عبد الغفار القوصى فى كتاب "الوحيد" ولما جاء أبو العباس المرسى صاحب الشيخ أبى الحسن الشاذلى إلى مدينة قوص قال لى الشيخ جلال الدين الدشناوى: قلت: وهو أحد أئمة الشافعية المترجمين فى طبقات الشيخ السبكى وكذا الإسنوى وكان حبرا فاضلاً: دخل معى إلى الشيخ أبى العباس فدخلنا عليه فأجد الشيخ جالسا القرفصاء وعليه الحال وعيناه محمرتان وأسنانه تطقطق ولحيته تلعب على صدره، فلم أسلم ولم أتكلم؛ لأنه لا يليق بذلك الوقت فى أحوال القوم وتباعدت، فقال الشيخ أبو العباس: والله الذى لا إله إلا هو ما أنكر من كلام الفقهاء إلا خصلتين:

الواحدة يكفرون الحلاج.

والثانية يحكمون بموت الخضر.

إيش تقول أنت فى الخضر؟

فقال الشيخ جلال الدين: الناس يختلفون فى موته.

فقال الشيخ أبو العباس: قد دخل علىَّ وعرفنى نفسه واكتسب فيه

أرواح المؤمنين بالغيب فوالله لو جاء مائة فقيه ما رجعت إليهم، فقال الشيخ جلال الدين يا سيدى لو رأيت روحى فى أرواح المؤمنين؟ قال الشيخ عبد الغفار فالتفت الشيخ جلال الدين إلى ليشهدنى عليه بذلك ثم قال الشيخ: فاى شىء تقول فى الحلاج؟ قال يا سيدى: كنت أحبه حتى سمعت عنه أنه قال: على دين الصليب يكون موتى، فحصل لى شىء، فقال الشيخ فى هذا: وهل الدين إلا الوقت والحين قال الله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[1] وهو إشارة إلى أنه يموت مصلوبًا وكذلك كان، ثُمَّ أنشد الشيخ على لسان بعض العارفين فقال:

تعالوا ندخل الحانا ونقضى فيه أو طارا

ونكسر منبر الجامع ونعمل فيه مزمارا

وننتف لحية القاضى ونعمل منه أوتارا

وجعل يعبر عن ذلك بعبارات لطيفة من كون الجامع مجمع اللعب والمنبر منبر الشيطان والقاضى إبليس.

تنبيه

سبب قتل الحلاج

ذكر ابن خلكان فى تاريخه أن بعض أصحاب الحلاج ادعى أنه رآه يوم قتله وهو راكب على حمار فى طريق النهروان وأنه قال لعلكم تظنون أنى هو المضروب المقتول.

وكان سبب قتله أنه جرى منه كلام فى مجلس حامد بن العباس وزير المقتدر فأفتى القضاة والعلماء بقتله وإباحة دمه فأمر المقتدر بتسليمه إلى محمد ابن عبد الصمد صاحب الشرطة فتسلمه بعد العشاء خوفا من العامة أن تنزعه من يده ثم أخرجه يوم الثلاثاء لست بقين من ذى القعدة سنة تسع وثلثمائة

---

(١) سورة الفاتحة - آية ٤.

عند باب الطاق واجتمع عليه خلق كثير فضربه الجلاد ألف سوط، فما استعفى ولا تأوه، ثم قطع أطرافه الأربعة وهو ساكن لا يضطرب، ثم حز رأسه وأحرق جثته وألقى رمادها فى الدجلة ونصب الرأس ببغداد ثم حمل وطيف به فى النواحى والبلاد.

واتفق أنها زادت الدجلة تلك السنة زيادة وافية فادعى أصحابه أن ذلك بسبب إلقاء رماده فيها وادعى أصحابه أنه لم يقتل وإنما ألقى شبهه عند قتله ولما خرج ليقتل أنشد عند قتله:

لم أسْلِم النفس للأسقام تتلفها ... إلا لعلمى أن الموت يشفيها

ونظرة منك ياسؤلى ويا أملى ... أشهى إلىَّ من الدنيا وما فيها

نفس المحب على الآلام صابرة ... لعل متلفها يوما يداويها

وكان الحلاج رضى الله تعالى عنه قد صحب الجنيد ووقع بينه وبين الشبلى وغيره من مشايخ الصوفية وذكر عز الدين بن عبد السلام المقدسى فى حل الرموز ومفاتيح الكنوز أنه لما أتى به ليصلب ورأى الخشب والمسامير ضحك ضحكا كثيرا ثم نظر فى الجماعة فرأى الشبلى فقال يا أبا بكر هل معك سجادة قال: بلى قال: أفرشها لى ففرشها فتقدم فصلى ركعتين بفاتحة الكتاب ومن بعدها: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾[1] الآية ثم قرأ فى الثانية الفاتحة وبعدها ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[2] الآية ثم ذكر كلاما كثيرا ثم تقدم أبو الحارث السياف ولطمه لطمة هشم وجهه فصاح الشبلى وأغمى على أبى الحسن الواسطى وجماعة من المشايخ المشهورين.

وكان الحلاج يقول: اقتلونى واعلموا أن الله تعالى قد أحل لكم دمى، فاقتلونى ليس للمسلمين اليوم شغل أهم من قتلى وقال أيضا: فى قتلى قيام الحدود ووقوف مع الشريعة ومن جاوز الحدود أقيمت عليه الحدود.

---

(١) سورة البقرة - آية ١٥٥.

(٢) سورة آل عمران - آية ١٨٥.

تنبيه

قال الشيخ عبد الغفار القوصى فى كتاب "الوحيد" : وحكاية الحلاج لما دخل عليه ابن خفيف. وقال أسألك عن ثلاث، فقال: قل.

فقلت: الصبر ما هو؟

فنظر إلى الأغلال والقيود فتفككت ونظر إلى الحائط فانفلق وإذا نحن على الدجلة، فقال الصبر هذا.

فقلت له فما الفقر؟

فنظر إلى حجارة هناك فصارت ذهبا وفضة وقال الفقر هذا وإنى لأحتال على الفلس للزيت.

فقلت: فما الفتوة؟

فقال إلى غد فقتل فى ذلك النهار فلما كان الليل رأيت كأن القيامة قد قامت ومناديًا ينادى أين الحسين بن منصور الحلاج؟ فأوقف بين يدى الله تعالى فقيل له: من أحبك أدخلته الجنة ومن أبغضك أدخلته النار فقال يارب اغفر للجميع ثم التفت إلىّ وقال لى: هذه الفتوة انتهى.

محامل شطحات الحلاج

وقد ذكر الإمام قطب الوجود حجة الإسلام الغزالى فى كتاب "مشكاة الأنوار" فصلا طويلا فى أمره واعتذر عن إطلاقاته بقوله: (أنا الحق وما فى الجُبَّة إلا الله) وحملها كلها على محامل حسنة وقد قال هذا من فرط المحبة وشدة الوجد وهو مثل قول القائل: أنا من أهوى، ومن أهوى أنا".

كان ابن سريج إذا سئل عنه يقول هذا رجل خفى علىّ حاله فى أن أقول فيه شيئا. قال الشيخ كمال الدين الدميري فى حياة الحيوان الكبرى وهذا شبيه بكلام عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وقد سئل عن على ومعاوية رضى الله عنهما فقال هى دماء طهر الله منه سيوفنا أفلا نُطهّر من الخوض فيها ألسنتنا.

وهكذا ينبغي لمن يخاف الله تعالى أن لا يكفر أحدًا من أهل القبلة بكلام يصدر منه يحتمل التأويل على الحق والباطل فإن الإخراج من الإسلام عظيم ولا يسارع به إلا جاهل.

وقال شيخنا العارف بالله تعالى سيدى محمد المغربى انظر إلى كلام ابن سريج كيف أثبت له حالا خفى عليه وعلى مثله وكأنه يقول ردا على المعترض: مالى وأمثالى من أرباب الأقوال والاعتراض على أرباب الأحوال.

وقال قطب الزمان الشيخ عبد القادر الجيلانى قدس الله روحه: بئر الحلاج ولم يكن له من يأخذ بيده ولو أدركت زمانه لأخذت بيده، وقال سيدى عبد القادر الكيلانى معرضا بالحلاج كان بازيا من بزاة الملك مخاط العينين بخيط ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[1] فقوى بصره لما اكتحل من كحل رأيت ربى بعين قلبى فخفى عليه المطار ولم يَقَرّبه القرار فارتفع إلى العلا محاولا ما طلب فصدعه ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[2] فلم يجد ما يحاوله فكرّ هاربا إلى الأرض حائرا فى فضاء ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ﴾ فحملته الحيرة والشوق وما أخذ منه بالطوق أن صفر فى دوحة توحيده بصفير لم يعهد من مثله عرضه إلى حتف أنفه هذا اختصار عبارته بالمعنى رضى الله عنهما وعفى.

علة تسميته بالحلاج

وسمى الحلاج؛ لأنه جلس يومًا على حانوت حلاج واستقضاه حاجة فقال له الحلاج أنا مشتغل بالحلج فقال له امض الآن فى حاجتى حتى أحلج عنك فمضى الحلاج فى حاجته فلما عاد وجد قطنه كله محلوجا وكان لا يحلجه إلا عشرة رجال فى أيام متعددة فمن ثَمَّ قيل له الحلاج.

وقيل إنه كان يتكلم على الأسرار ويخبر عنها فسمى حلاج الأسرار وكان من أهل البيضا بلدة بفارس وكنيته كما قال ابن الملقن فى طبقات الأولياء أبو الغيث والله أعلم.

---

(١) سورة النساء: آية ٢٨.

(٢) سورة البقرة - آية ١١٥.

تنبيه

موقف الجنيد من الحلاج

زعم بعض المتفيهقين من أهل زماننا أن سيد الطائفة أبا القاسم الجنيد أفتى بكفره ظاهرا وباطنا وليس الأمر كما زعم.

والصواب أنه أفتى بقتله لكونه خرق فى ظاهر الشريعة خرقا لا يسده إلا عنقه، وأفتى بما يقتضيه ظاهر الشرع مع أنه يعتقد فى الباطن أنه من أكابر الأولياء المقربين ولأن من أظهر سرًا من الأسرار بغير إذن فدمه هدر كما هو معروف فى مذهب القوم.

ولهذا قال قطب الزمان الشيخ محيى الدين عبد القادر الجيلانى رضى الله تعالى عنه.

فى باطنى من نوركم مالو بدا أفتى بسفك دمى الذى لا يعلم
ولو أننى أبدى سرائر ودكم قال العواذل ليس هذا مسلم

ولقد أحسن سيد علماء الطريقة وإمام أهل الحقيقة أبو الحسن الشاذلى قدس الله روحه ونور ضريحه حيث يقول:

اسكت إلى أن تراها فيك ناطقة فإن وجدت لسانا ناطقا فقل

وقال الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض رضى الله تعالى عنه وأعاد علينا من بركاته.

وما عنه لم تفصح فأنكر أهله وأنت غريب عنه إن قلت فاصمت

وقال شيخ شيوخنا قطب الدائرة شمس الدين الحنفى رضى الله عنه فى ذلك.

ومن شهد الإشارة فليصنها وإلا سوف يقتل بالحديد

وقال بعضهم

وارحمةً للعاشقين تحملوا ثقل المحبة والهوى فضّاح
بالسر إن باحوا نُباح دماؤهم وكذا دماء البائحين تُباح

معنى قولهم: إفشاء سرّ الربوبية كفر

وقال حجة الإسلام الغزالي في "مشكاة الأنوار ولقد ارتقيت أيها السالك مرتقا صعبا تتقلص دون أعاليه أعين الناظرين، وقرعت بابًا مغلقًا لا يفتح إلا للعلماء الراسخين، ثم ليس كل سر يُكشف ويُفشى ولا كل خفية من الحقيقة تُعرض وتُجلى، صدور الأحرار قبور الأسرار.

وقد قال بعض العارفين بالله: إفشاء سر الربوبية كفر قال سيد الأولين والآخرين ﷺ: "إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى فإذ نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله"(١) فإذا كثر الإنكار من أهل الاغترار وجب حفظ الأسرار فيه على وجه الإسرار انتهى.

قلت أشار حجة الإسلام بقوله وقرعت بابا مغلقا لا يفتح إلا للعلماء الراسخين إلى أن الحقيقة كالبيوت والشريعة كأبوابها والمخالفة وشهود الأغيار كظهورها، فكأنه يقول لا وصول إلى الحقيقة إلا من باب الشريعة قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾(٢) وإلى هذا المعنى أشار ابن الفارض رضي الله تعالى عنه.

أتيت بيوت لم تنل من ظهورها وأبوابها عن قرع مثلك سدت
فدع عنك دعوى الحب وادع لغيره فؤادك وادفع عنك غيك بالتي
وجانب باب الوصل هيهات لم يكن وها أنت حَيٌّ إن تكن صادقا مُتِ

(١) رواه الديلمي.
(٢) سورة البقرة - آية ١٨٩.

تذنيب

من كلام الحلاج وتأويله

من كلام الحسين بن منصور الحلاج رحمه الله:

سقونى وقالوا لا تغنى ولو سقوا جبال حنين ما سقونى لغنت

قال شيخنا العارف بالله تعالى شاذلى زمانه سيدى محمد المغربى قوله سقونى أى أحبائى من شراب الحب والوداد بكأس حسن الاتباع للشريعة والامتثال والانقياد لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[1].

وقالوا لا تغنى أى اكتم سرك ولا تبح منه بذرة فإن من كتم سره ملك أمره ولكن من أحب شيئا أكثر ذكره فإن كتم غلب وإن أراد البسط فتغنى بمحبوبه وترنم أو غلب وأراد القبض فأفصح سره البكاء ونمّ عليه وتكلم قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[2].

هذا فى مبادىء الأمر فإذا تناهى حال الموحد وحققَ قلَّ من يثبت والثبات أفضل مهما أمكن وأرفق، وإلا تقطع صاحبه لغلبة الوارد وتمزق، ولسان الحال ينطق ويقول وهو أصدق، كيف لا أتأثر؟ إنما أنا بشر ما أنا حجر لا يلين ولا يطرب عند سماع الطيب من الكلام المحرك للحب الساكن بالقلب على الدوام بل ولو سقوا جبال حنين أى وغيرها من سائر الجبال ما سقونى لغنَّت اىْ غيبت أو تقطعت من هيبة الجلال وتدكدكت كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[3] وكما قال الأستاذ شرف الدين سيدى عمر بن الفارض رحمه الله فى هذا المعنى:

---

(١) سورة آل عمران - آية ٣١.

(٢) سورة المائدة - آية ٨٣.

(٣) سورة البقرة - آية ٧٤.

ولو أن مـابـى بالجـبـال وكـان طو ر سينا بهـا قـبل التـجـلى لَدُكَّتِ

وأنشد الحلاج يقول:

اقـــتلـونى ياثـقـــاتى إن فى قـــتلى حـيـــاتى

وحـــيـــاتـى فى مـاتى ومماتـى فى حـيـــاتى

فـاقـتلونـى واحـرقـونى بعـظامـى البـــاليـــات

ثـم مـــروا برُفـــاتى وعظـامى الـدارســـات

تجـدوا سـر حـبـيـبى فى طـوايا البـــاليـــات

ولقد كان من هذا كلامه فى أحبابه المخصوصين بالولاية وشدة الاقتراب فلذلك أصيب بقدر ما أصاب من علو المقـام وكثرة الثواب قال الله تعالى فى أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[1].

مقياس الولاية عند أهل العلم

باب فى قول الإمامين المجتهدين الشـافعى وأبى حنيفة رضى الله عنهما إذا لم تكن العلمـاء أوليـاء فليس لله ولى وإلا لو قلـنا بعمـوم لفظ مـدلول العلماء الصـادق بأهل الظاهر للزم أن جمـيع علماء الظاهر أوليـاء لله مطلقا كانوا عـاملين بعلمهم أم لا وهذا باطـل بلا شك لأن العلم يناله بالكسب مع فعل المـعاصى بخـلاف العلم الباطن فـإنه لا يحصل إلا للعلمـاء بالله أرباب الولايات.

قال اليافعى فى نشـر المحاسن: اعلم أن العلوم والمعارف اللدنية يخص بها الولى والصديق والعلوم الظاهرة ينالها الصالح والزنديق.

وقال سـفيان بن عيـينة: أجهل الناس من ترك العـمل بما يعلم وأفضل الناس أخشعهم لله. قال السهـروردى فى عوارف المعارف: وهذا قول صحيح

(١) سورة ص - آية ٤٤.

يحكم أن العـالم إذا لم يعمل بعلمـه فليس بعالم لا تغـرك شدته واستـطالته وحذاقته وقوته فى المناظرة والمجـادلة فإنه جاهل وليس بعالم إلا أن يتوب الله عليه ببركة العلم.

العلماء بين الباطن والظاهر

واعلم أن العلماء الذين جمعوا بين الظاهر والباطن لهم حالتان:

منهم من كان الغالب عليه علم الحقيـقة كأبى القاسم الجنيد والسيد أبى الحسن الشاذلى وأضرابهما.

ومنهم من كـان الغالب عليـه الشـريعة كـالشافـعى وأحمـد بن حنبل وأضرابهما من العلماء الصالحين الجامعين بين علمى الشريعة والحقيقة والدليل على ذلك واقعـة سيدنا[1] موسى مع أبـى العباس الخـضر عليـهمـا الصلاة والسلام فإن سـيدنا[2] موسى غلبت شـريعته على حـقيقتـه ولهذا أنكر على الخضر بسبب ظاهر الشريعة.

ولما غلبت حقيقة الخضر على شريعته أظهر شيئًا من محاسنها فى قالب الحكمة التى لا يدركها إلا من وهبه الله الكشف عن الحـقائق الربانية كما قال تعالى حاكيا عنهما ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾، ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ إلى قوله ﴿فَأَقَامَهُ﴾[3] فأقامه" ولهذا قال سلطان أهل المحـبة شـرف الدين عمـر بن الفارض رضى الله عنه ونفـعنا به آمين:

وكنت ظلمت شمس الوجود فأشرقت ... وجـودى وَحُلَّـتْ لى عـقـودٌ أَلِيَّـةِ
وكـانت حـراما قـبل تحـريمـهـا لنا ... فلـمـــا أتاهـا آية الحـــزم حـلت
قـتلت غـلام النفـس بين إقـامـة الـ ... ـجـدار لأحكامى وخـرق سـفـينتى

(١، ٢) فى الأصل (الـيد).

(٢) سورة الكهف - الآيات ٧١، ٧٤ ٧٧.

وقال شيخنا العارف بالله تعالى سيد علماء الطريقة وإمام أهل الحقيقة سيدى محمد الشاذلى المغربى أى وطلعت شمس الحقيقة بواسطة الواقعة التى بين موسى وبين الخضر عليه السلام.

وقوله: وحلت لى عقود أَلِيَّةٍ أى وثيقة وذلك لما صار حالى فى الحقيقة كحال الخضر عليه السلام حيث حلت له عقود أحكام الشريعة من خرق السفينة وقتل الغلام وغير ذلك وكانت هذه الواقعات حراما فى شريعة من قبلنا لقول موسى عليه السلام للخضر ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾[1] وذلك قبل ورودها وقبل خروجها لنا أى علينا "فلما أتاها آية الحزم حلت" أى بباطن الحقيقة والله أعلم... الشيخ أبو العباس المرسى فى قصيدة له يقول:

رفعت مقامات الوصول حجابى ... حتى اجتجبت بكم عن الحجاب
ولزمت محرابى لزوما جامعا ... فرأيت وجه الحق فى محرابى
وخرقت لوح سفينتى لأعيبها ... فنجوت من مَلِك لها غَصَّابِ
ورقيت فى السبع السموت العُلَى ... حتى دنوت فكنت مثل القاب

فحينئذ إذا تقرر ذلك علمت أن العلم الباطن لا ينال بمجرد الكسب فضلا عن التكسب بأفعال المعاصى وكيف يتوهم حصوله بالكسب لكل أحد وقد جعله خصيصة لأصفيائه الذين ورثوا النبوة والرسالة..

قال اليافعى فى نشر المحاسن: أفضل العلماء هم العلماء بالله الذين يكشف لهم الغطاء فشاهدوا الجمال الأسنى وسكروا بمحبة المولى وعرفوه بأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى وتحلوا من صفاته بمحاسن الأخلاق وشاهدوا عجائب ملكوته وغرائب حكمته وعظائم آياته الكبرى، وقرّبهم فى حضرة قدسه وأجلسهم على بساط أنسه، ولقلوبهم بصفات الجمال والجلال تجلى

---

(١) سورة الكهف - الآيتان ٧٢، ٧٥.

وجعلها مطالع أنواره وخزائن أسراره ومعادن المعارف والحكم فسبحان من نشر أعلام ولايتـه، وصرفهم فى المملكة بهـدى رعايته، وشـوقهم إلى النظر إلى وجـهه الكريم، فـزهدوا فى الدنيا والأخـرى، وأحـيى بهم الدين ونفع بهم المريدين، وجلى بهم عن قلوبهم الصدى وأغاث بهـم العباد، وأصلح البلاد، وكشف بهم البلاء.

وقال بعض العـارفين نعم الناطقون بالحق عن الحـقيقـة والمرشدون إلى سلوك الطريقة نطقوا بالحكم من بحور تلاطم أمواجها وثار عجاجها فاستقرت دور التوحيد فى مروجهـا ولاحت الأنوار على ساحاتها وانبسطت فى الأقطار وتشعـشعت فى الأمصـار فاستخـرج منها اللآلى الكبـار وأودعوا من العلوم اللدنية جواهر الأسرار وخرقت لهم الحجب العلوية فارتقت إلى معادن الأنوار واستقروا على بساط الأنس وكشفوا عن سر الأزلية باختيار علت هممهم إلى المراتب العلوية والعلوم الإلهية والأنفاس الروحانية فاتضح لهم العلم وانكشف لهم السر المكنون شربت أرواحهم راح المحبـة فى حضرة القدس فسكرت عند مشاهدة الجمال على بساط الأنس فهم الأصفياء المحبوبون والجلساء المقربون.

وقال السهروردى فى عوارف المعارف: الصـوفية أحكموا أساس التقوى وتعلموا العلم لله تعالى وعملوا بما علمـوا لموضع تقواهم؛ فعلمهم الله مالم يعلمـوا من غرائب العلوم ودقـائق الإشارات واسـتنبطوا من كلام الله تعـالى غرائب العلوم وعجائب الأسرار وتوشح قدمهم بالعلم.

قال أبو سعـيد الخراز: أول الفهم إلقاء السمع والمشـاهدة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1] وقال أبو بكر الواسطى الراسخون فى العلم الذين رسخـوا بأرواحهم فى غيب الغيب، وفى سر السـر، فعـرفهم وأراد منهم من مـقتـضى الآيات ما لم يرد من غـيرهم وخاضوا بحر العلم بطلب الزيادة فانكشف لهم عن مدخور الخزائن والمخزون

---

(١) سورة ق - آية ٣٧.

تحت كل حرف ومـا تضمنه من الـفهم وعجـائب النص فاسـتخـرجوا الدرر والجواهر ونطقـوا بالحكمة وقد ورد فى الخـبر عن رسول الله ﷺ فيـما رواه سفـيان بن عينـيه عن ابن جريج عن عطاء عن أبـى هريرة أنه قال: "إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمـه إلا العلماء بالله فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله".

حقيقة العلم اللدنى

أخبرنا أبو زرعة قال أخبرنا أبو بكر بن خلف إجارة قال أخبرنا أبو عبد الرحمن قـال سمعـت النصر أباذى يقول سـمعت ابن عائـشة يقول سـمعت القرشى يقول: هى أسـرار الله تعالى نبذها إلى أمناء أوليائه وسـادات أتقيائه النبلاء مـن غير سـماع ولا دراسة وهى مـن الأسرار التى لم يطلع عليـها إلا الخواص.

وقال أبو سعـيد الخراز: للعارفـين خزائن أودعوها علومًا غـريبة وأنباء عجيبة ويتكلمون فيهـا بالأسرار الأبدية وبعبارة الأزلية وهو من العلم المجهول فقوله "بلسـان الأبدية وبعبارة الأزلية" إشارة إلى أنهم بالله ينطقـون وقد قال الله على لسان نبيه ﷺ "فبى ينطق[1] وهو العلم اللدنى الذى قال الله تعالى فى حق الخضر ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[2].

وقال اليافعى فى كتابه سراج التوحيد: اعلم أن العلماء إنما تشرفوا على قدر شرف علومهم وشـرف العلوم على قدر متعلقاتها فـعلوم المعارف المتعلقة بالله تعالى وأسمـائه وصفاته أشرف العلوم وأصحابها أشـرف العلماء وبعدها علم الفقه لتعلقـه بأحكام الله وشرعه الذى يستعبد به عبـاده واعلم أن معرفة الله ومعرفة عـبادته واجبة؛ لأن الخلق إنما خلقوا لمعرفة الله وعبـادته كما قال

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة الكهف - آية ٦٥.

الله عـز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1] ومـا خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" ثم العابد مـفتقر إلى معرفة المعبود ومعـرفة كيف يعبده وقول بعض المفسريـن معنى "يعبدون" يعرفون فذلك أيـضا يتضمن ذلك إذا علم هذا فاعلم أن معرفة كثير من العلوم وسيلة إلى العمل والعمل وسيلة إلى طاعة الله والقرب منه سبحانه وذلك هو المقـصود فمن استعمل هذه الوسائل على وجـهها والمراد منهـا وصل منها إلـى المقصود فظـفر بغاية المراد ونـهاية الشرف المحمود ومن جعل مقصوده بعض الوسائل كمن اتخذ علما يُمَارِى به الناس ويجادلهم واشتغل به عن المقصود فهـو الجاهل؛ لأن العالم فى الحقيقة هو العامل.

فيا خسارة من باع غنى آخرته بدنياه باذلا للجواهر بالنحاس وياويح من ضيع منا أوقاته وياخيـبة من أفنى عمره فى المعاصى والتشـدق بكثرة الفضول والجدل خاليا عن خوف الله تعالى تاركل للعمل والعلم النافع.

ويا فضيـحة من عد نفسه من جملـة العلماء أولى الألباب ولم يدر أهو معدود منهم أم من المتشبهين بالحمار والكلب، فى نص الكتاب، القانعين من العلم بالقشـر الخالى عن اللباب المعـرضين عن اكتسـاب الخيرات المتعـرضين للمقت والعقاب نعوذ بالله وبوجهه الكريم من مكره وسخطه وعذابه الأليم.

أدلية عقلية ونقلية على أفضلية العلوم الوهبية وأصحابها

واعلم أن علوم المعـارف الـتى ذكـرت هى أشـرف لأنهـا علوم لا تنال بالكسب وإنما تنال بالوهب فهى أفـضل العلوم وأصحابها أفـضل العلماء فإن قلت لا نسلم ذلك إلا بدليل شرعى قلت الأدلة على ذلك كثيرة فنقتصر منها على ستة: ثلاثة من المعقول وثلاثة من المنقول.

الدليل الأول من المعقـول: اعلم أن العلوم والمعارف الدينيـة يخص بها الولى والصديق والعلوم الظاهرة ينالها الصالح والزنديق.

---

(١) سورة الذاريات - آية ٥٦.

قال الإمام شيخ الإسلام أستاذ الطريقة الجامع بين علمى الشريعة والحقيقة شهاب الدين السهروردى - قدس الله روحه - فى كتابه "عوارف المعارف" : وينبيك عن علم الصوفية وشرفه والعلماء أن العلوم وكلها لا يمكن تحصيلها مع محبة الدنيا والإخلال بحقائق التقوى وربما كان محبة الدنيا عونا على اكتسابها؛ لأن الاشتغال بها شاق على النفوس فجبلت النفس على الجاه والرفعة حتى إذا استشعر حصول ذلك بحصول العلم أجابت إلى تحمل التكليف وسهر الليل والصبر على الغربة والأسفار تعذر الملاذ والشهوات وعلوم هؤلاء القوم يعنى الصوفية لا تحصل مع محبة الدنيا ولا تنكشف إلا بمجانبة الهوى ولا تدرس إلا فى مدرسه التقوى قال الله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[1] انتهى كلامه.

والدليل الثانى: أن فضل العلم على قدر انتفاع صاحبه ونفع الغير به ولا شك أن العارفين بالله هم الذين انتفعوا أو نفعوا حقا وصدقا وبيان انتفاعهم ونفعهم إذا بسطناه احتجنا إلى كتب كثيرة فنلقى من ذلك نبذة فيكفى من انتفاعهم تطهير قلوبهم وتزكية نفوسهم ولم يختاروا غير ما اختار لهم الله وتلذذوا ببلاء الله وسكروا بمحبة الله وغابوا عما سوى الله وسكرنا نحن بمحبة الدنيا وغفلنا عن المولى تعالى وأما نفعهم للغير فبهم يغيث الله العباد فى جميع البلاد ويدفع بهم الفساد وإلا لفسدت الأرض بظهور الفساد ويوجد بهم إقامة الدين وقضاء حوائج المسلمين ويرشد بهم المريدين إلى السوك إلى مقامات الدين والقرب من رب العالمين والبعد عن الغفلة - والفسوق واستحواذ الشياطين وبلوغ النفع عنهم قد بلغ فى الكثرة والشهرة مبلغا خارجا عن الحصر والتعداد مغنيا عن الاستدلال والاستشهاد.

---

(١) سورة البقرة - آية ٢٨٢.

قال اليافعى فى "نشر المحاسن": ويكفى عنهم ما جاء عنهم من الحكايات لصحيح الروايات الصادرات عن العيان والمشاهدات والمستفيضات فى كثير من الجهات منها ما أخبرنى الشيخ الصالح محمد بن سعيد البخارى رحمه الله فى أرض اليمن أنه مَرَّ يوما فى بعض شوارع زبيد أيام بدايته فوقع بصره على السراة عند بابها فافتتن بها واستزله الشيطان فدخل عليها وهَمَّ بها فسمع شيخه العارف بالله تعالى الولى الكبير الفقيه العالم شيخ شيوخنا أبا محمد عبدالله بن أبى بكر الخطيب قدس الله روحه ونور ضريحه يقول له وهو فى عدن هكذا تفعل يا محمد فذهب عنه رجز الشيطان وخرج هاربا عاقلا بعد ما كان كالسكران وأدركه الله بلطفه وسلمه الله من المهالك وجعل الشيخ المذكور سببًا فى ذلك.

وكذلك جرى لبعض أصحاب الشيخ الجليل الفقيه النبيه الشيخ العارف بالله سفيان اليمين - قدس الله روحه - مع امرأة من عدن فلما دنا منها وهم بها ما يشعر إلا وقد لطمه الشيخ المذكور عليم عينيه فرجع عنها يرجف إلى خلفه لا يبصر ثم أخذ معه من يقوده إلى الشيخ فلما وصل إليه تكلم الشيخ عليه فقال يا سيدى ادع الله أن يرد على بصرى وأنا تائب إلى الله تعالى فقال له الشيخ أدعو لك برد بصرك ولكنك ما تموت إلا أعمى قال رضيت فدعا له فرد الله عليه بصره إلى أن بقى من عمره ثلاثة أيام عاد إليه العمى ومات رحمه الله تعالى عليه.

قلت: وهذه القضية تضمنت خمس كرامات للشيخ المذكور.

الأولى اطلاع الله على حال المريد فى وقته.

والثانية لطمته له مع البعد عنه.

والثالثة حفظه ببركته.

والرابعة قبول شفاعته فيه بقبول توبته ورد بصره.

والخامسة اطلاع الله له على عود العمى إليه قبل موته وفى القضية التى

فيها ثلاث كرامات الاطلاع والحفظ وبلوغ الثوت نحو عشر مراحل وكذلك جرى لبعض شيوخ أبى الغيث اليمنى وذلك أنه صحبه بعض القراء من العجم وبلاده بعيدة فأقام عنده مدة ثم أمره الشيه بالعود إلى بلاده فعاد فاما كان بعض الأيام استزله الشيطان إلى امرأة وهم بها وكان ذلك عند صلاة العصر فضربه الشيخ بقبقابه بعد زجر وغضب وهو فى مكانه فى اليمن وأصحابه يسمعون كلامه وينظرون ضربه ولا يدرون من كلم وضرب فصرخوا ذلك الوقت لدهشتهم، وفقد قبقاب الشيخ الذى ضربه به فوقع الضرب فى ظهر الفقير فارتدع عن المعصية وسلمه الله تعالى ببركة الشيخ فعرف قبقاب الشيخ وجاء به بعد مدة من مسيرة شهر إلى الشيخ قدس الله سره متأدبا فى ذلك، وأخبر بما جرى له من المرأة والضرب بالقبقاب، فوافق ذلك الوقت الذى ضربه الشيخ بالقبقاب.

قلت: وفى هذه القضية أيضا ثلاث كرامات اطلاع الشيخ وبلوغ ضربه إلى مسيرة شهر وحفظ صاحبه وكذلك روى مسندا فى كتاب مناقب القطب شيخ شيوخ الأكابر إمام الطريقتين ومقدم الفريقين الجامع بين علمى الظاهر والباطن وشرفى الولاية والنسب سيدنا الشيخ عبد القادر رضى الله عنه أنه توضا فى قبقاب له وصلى ركعتين فى بعض الأيام فلما سلم صرخ صرخة عظيمة ورمى بفردة قبقابه فى الهواء فغابت عن أبصار الحاضرين ثم صرخ أخرى ورمى بالثانية كذلك ولم يجسر أحد يسأله عن ذلك.

ثم بعد ثلاثة وعشرين يومًا قدمت قافلة من بلاد العجم وجاءوا بنذر الشيخ حرير وثياب وذهب وبقبقاب الشيخ الذى رمى به فسألهم أصحاب الشيخ عن خبر القبقاب فقالوا بينا نحن سائرون فى اليوم الفلانى وذكروا اليوم الذى رمى الشيخ فيه بالقبقاب إذ خرج علينا عرب لهم مقدمان فانتبهوا وقتلوا منا فنزلوا واديا يقتسمون أموالنا ونزلنا على شفير الوادى فقلنا لو ذكرنا الشيخ عبد القادر فنذرنا له شيئا من أموالنا إن سلمنا فما هو إلا أن ذكرناه فسمعنا صرختين ملأتا الوادى ورأيناهم مذعورين فظننا أنه قد جاء إليهم عرب فجاء

إلينا بعضهم وقالوا تعالوا خذوا أموالكم وانظروا ما قد دهمنا فأتوا بنا إلى مقدميهم فوجدناهما ميتين وعند كل واحد منهما فردة من هذا القبقاب مبتلة بماء وردوا علينا أموالنا وقالوا إن لهذا الأمر نبأ عظيما. . .

وكذلك روى أن الولى الكبير الفقيه الشهير ذا المناقب الحميدة والكرامات العديدة إمام اليمن وشمس الزمان ذا المجد الفريد أحمد بن موسى بن عجيل رضى الله عنه رمى يوما بفردة من قبقابه فجاء بها بعض أصحابه من بلاد بعيدة وذكر أنه كان نوى نية غير صالحة فرمى بها فعلم أنها للصيد المذكور فاستغفر الله العظيم وتاب من تلك النية وجاء بالفردة إليه.

وكذا القصة المذكورة للأستاذ سيد الطائفة أبى القاسم الجنيد قدس الله روحه فى توبته عن المريد الذى اسود جسمه بمجرد نظرة وحديث نفس صدر منه فى الصلاة فابيض جسمه لما تاب عنه وكان المريد فى بلاد بعيدة فلما قدم على الجنيد قال له لولا أنى تبت عنك لبقيت بذلك السواد إلى أن تلقى الله.

وأمثال ذلك مما يطول ذكره بل يتعذر حصره لتعذر الإحاطة بما صدر عنهم فى جميع الآفاق وقد قال بعضهم لا يكون الشيخ شيخا حتى يمحو خطيئة تلميذه من اللوح المحفوظ.

وقال آخر منهم منكر لهذا القول المذكور لو كان شيخا ما غفل حتى وقع تلميذه فى الخطيئة، قلت وقد كان بعض الكبار لا يصحب أحدا حتى يعرف حاله في اللوح المحفوظ فجاءه إنسان يطلب منه الصحبة وخدمة الفقراء فى بعض الطوائف فأطرق الشيخ ساعة ثم رفع رأسه وقال له ما بقى عندنا وظيفة.

وقال يا سيدى لابد أن تفكر فى خدمة فقال ليس عندنا خدمة إلا إن كنت تقدر تذهب فى كل يوم يأتى بحزمة من الحلفاء فقال نعم يا سيدى فصار كل يوم ياخذ محشا ويذهب ويعود بحزمة منها فلما كان بعد مدة

أوجعته يده فرمى بالمحش وتركط الفقراء وذهب فبينما هو في بعض الطريق، رأى في منامه كأن القيامة قد قامت والناس يجوزون على الصراط فمنهم الناجي ومنهم الواقع في النار فسأل الله السلامة فلم يقدر على المرور وبقي في حصر عظيم يكاد يقع فيها فطلب شيئا يتمسك به فلم يجد فبقي متحيرا مشرفا على الهلاك وإذا بحزمة من حزم الحلفاء تحته في النار مارةكعليه ولم تحترق فرمى بنفسه فوقها فمرت به حتى أخرجته من النار ناجيًا بلطف الله تعالى فاستيقظ مرعوبا من هول ما رأى فرجع إلى الشيخ فلما وقع بصر الشيخ عليه قال له أما قلنا لك ليس عندنا خدمة تصلح لك سوى الحلفاء فاستغفر الله وعاد على ما كان عليه وصبر على ذلك حتى فتح الله عليه رضي الله تعالى عن جميع الصالحين ونفعنا بهم فنفعهم اللازم صار متعديا إلى هذا النفع العظيم الذي نفع غيرهم بالنسبة إليه حقير.

فكم أصلح الله بالواحد منهم من فساد، وكم أغاث به من العباد، وكم أحيا ببركته من البلاد، وكم كشف به عن الخلق من البلاء، وكم انالهم به من العطاء فنفع غيرهم إذا صحت فيه النية كالمثقال ونفعهم كأمثال الجبال...

والدليل الثالث: أن معرفة العبادة ليس فضلها كمعرفة المعبود ولست أعني بمعرفة المعبود المعرفة العامة المشتركة التي هي العلم في لسان علماء الظاهر إذ عندهم كل علم معرفة وكل معرفة علم وكل عالم عارف وكل عارف عالم ولكني أعني بالمعرفة الخاصة المختص بها الخواص أرباب المشاهدة وهي عند القوم اجتماع أوصاف عديدة في عبد اصطفاه الحق سبحانه وتعالى ثم تكلموا فيها وأشاروا إليها بعبارات مختلفة ومعاني مؤتلفة.

وإلى ذلك أشار الإمام الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله عنه حيث قال: المعرفة عن القوم منك عرف الحق سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته ثم صدق الله تعالى في معاملاته ثم اتقي من أخلاقه الردية ثم طال بباب وقوفه ودام بالقلب عكوفه فحظي من الله تعالى بجميل إقباله وصدق الله تعالى في

أحواله وانقطع عنه هوى نفــه ولم يصغ بقلبه إلـى خاطر يدعو إلى غيره فإذا صار عن الخلق أجنبـيا وعن آفات نفسه بريا ومن المشككـات والملاحظات نقيا وأدام فى السر مع الله مناجـاته وحق فى كل لحظة إليه رجوعه وصـار محدثا من قبل الحق سبحانه وتعالى بتعـريف أسراره فيما يجرى من تصاريف أقداره يسمى عند ذلك عارفا وتسمى حالته معرفة.

وقال أيضا المعرفـة اتصال بصائر التعريف بعين العلم فـإذا اتصل بيقين العلم داوم المناجاة مع الله تعالى بالقلب وحصل من الله تعالى التعريف على دوام الأوقات باختلاف الحالات فـعند ذلك تظهر أنواع أنوار المعرفة وإذا تجرد العلم واتضـحت البراهين وانتفت الشـكوك بالكلية وحصل ثـلج الفؤاد وبرد اليقـين لا يسمى العـبد فى هذه الطريقـة عارفـا حتى يحـصل بينه وبين الله أحوالا زائدة على العلم فى فنون الكشوفات وصنوف التعريفات وتحدث الحق مع العبـد من غيـر سماع تعلق بالجـارحة والعـارف تبدو فى قلبـه فى ابتداء التعريف لوائح ثم لوامع ثم كشوفات وبصائر أنوار وطوالع أسرار.

فالعارف كأنه يخاطبه سـبحانه وتعالى بكل شىء ويلقى إليه كل خطاب ويعوده فى كل وقت بنوع تعريف وكاشفـة وفى كل حال بسرائر متآلفة ثم من صفـة العارف أنه لا يخلو من معلومـات منها المحبة والتـعظيم والهيبـة ومنها الأسف والقربة ومنها الحياء فى الحضور والغيبة.

وإذا تحقق فى ابتداء طلبه بدوام المراقبة وصل إلى المشاهدة والمراقبة علمه بأن الله سبحانه وتعالى يراه ويعلمه على دوام الأوقات ثم أنوار المشاهد تلوح فى القلب والمشاهدة غلبه نور الحق على القلب وانتـفاء إحساسك وذكرك لك وخبرك عنك فتكون مـخاطبًا عن جملتك باستيلائـه عليك فكلما زاد شهودك له زادت أجنبـيتك عنك وعن الكون بالجـملة وإذا طلعـت شمس العـرفـان استهلك فى يائها نجوم العلوم كما قيل:

ولما استنار الصبح أدرج ضوءه بأسفاره أنوار ضوء الكواكب

انتهى كلامه.

قلت: فلما استولى على قلوبهم سلطان المعرفة خضعوا لصفات الربوبية وتحلوا بصفات العبودية وخرجوا عن نفوسهم بالكلية فرضوا بكل مقدور وصبروا على كل بلية بل تلذذوا بأنواع البلاء وعدوه من جملة العطايا السنية والدليل السرابع وهو الأول من المنقول قوله عز وجل: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[1].

وقول موسى عليه الصلاة والسلام ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[2] الآية ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾[3] الآية مع كون الخضر عليه السلام وليًّا من الأولياء على الصحيح لا نبيا وهو الذى اختاره جمهور العلماء وقطع به العلماء العارفون بالله تعالى وكون موسى عليه الصلاة والسلام أفضل منه بلا خلاف ومفضلا عليه بالنبوة والرسالة والتكلم ومع هذا رحل إليه وتعلم والتمس منه الصحبة والتعليم فأطلعه على علوم غامضات وأمور عجيبات فى ضمنها آيات باهرات وكرامات ظاهرات.

والدليل الخامس وهو الثانى من المنقول ما ورد فى فضل أويس القرنى رضى الله عنه وكونه أفضل التابعين فى بعض روايات صحيح مسلم مع ما فى التابعين من العلماء الكبار وهو بشغله بالله وولهه بمحبته تنبه إلى الجنون والأشرار وقد نوه بفضله ﷺ فى الأخبار المشهورات فى جميع الأمصار.

والدليل السادس وهو الثالث من المنقول ما روى عن جماعة من كبار علماء الظاهر أنهم وافقوا علماء الباطن على تفضيل علم العارفين بالله ومن جملة الجماعة المذكورين الفقيه الإمام فتى الأنام رفيع المقام عز الدين بن عبد

---

(١) سورة الكهف - آية ٦٥.

(٢) سورة الكهف - آية ٦٦.

(٣) سورة الكهف - آية ٦٩.

السلام رضى الله عنه صرح بذلك فى بعض تصانيفه أعنى تفضيل العارفين بالله تعالى وكذلك ما اشتهر عنه أنه حضر هو والشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبو الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه وجماعة من العلماء فى بعض الجوامع فتكلم جماعة من العلماء فى حالة قراءتهم رسالة الشيخ الإمام الأستاذ أبى القاسم القشيرى رضى الله عنه والشيخ أبو الحسن المذكور ساكت فالتمسوا منه الكلام فتكلم بالحكم والمعارف المشتملة على الأسرار واللطائف.

فقال الشيخ عز الدين المذكور اسمعوا الكلام العجيب الغريب القريب العهد من ربه وصار يرجع إلى خلقه حتى بعد من صدر المجلس إلى الباب.

وكذلك ما اشتهر عن جماعة من علماء الباطن العارفين امتحنهم علماء الظاهر بمسائل دقيقة فأجابوا عنها بأجوبة فائضة من بحر علوم الحقيقة فى قلوب فاضت عليها الأنوار فصارت معادن الأسرار فتحير من تلك الأجوبة أصحاب السؤال واعترفوا لهم بعلو الشأن وعظيم النوال وثنوا العنان من ميدان الانتقاد إلى ميدان الاعتقاد.

من ذلك الأستاذ أبو القاسم الجنيد مع عبيد الله بن سعيد بن كلاب لما سأله عن التوحيد وقضية الشيخ أبى الحسن النورى لما ألقى عليه القاضى مسائل فقهية وغير ذلك مما هو فى التصانيف مذكور وعنهم مسطور رضى الله عنهم أجمعين.

وكذلك ما اشتهر فى بعض بلاد اليمن أنه لما غاب الفقيه محمدَ بن حسين البجلى فى بعض الأيام درس لأصحابه الشيخ محمد بن أبى بكر الحكمى رضى الله عنهما مع كونه أميًّا فشرح لهم شرحا شارحا للصدور ظاهرا فى خلال النور، وإلى شرف علمهم المشكور أشار السيد المشهور سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه حيث قال لو علمت أن تحت أديم السماء أشرف من علمنا هذا لسعيت إليه وقصدته.

وقال الشيخ الإمام العارف بالله تعالى شهاب الدين السهروردى رضى الله عنه قد ورد فى الخبر "فضل العالم على العابد كفضلى على أمتى"(١) والإشارات فى هذا العلم ليست إلى علم البيع والشراء والطلاق والعتاق وإنما الإشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين وقد يكون العبد عالما بالله تعالى ذا يقين وليس عنده علم من فروض الكفايات.

وقد كان علماء التابعين فيهم من هو أقوم بعلم الفتوى والأحكام من بعضهم يعنى من بعض الصحابة قال: والعلماء الزاهدون بعد الأخذ مما لا بد لهم منه يعنى فرض العين أقبلوا على الله وانقطعوا إليه وخلصت أرواحهم إلى مقام القرب فاضاءت أرواح قلوبهم بأنوار تهيأت بها لإدراك العلوم وصار العالم الربانى راسخا فى العلم.

لطيفة فى فضل العلم الباطن على الظاهر

قلت: وفى فضل العلم بالله الذى هو العلم الباطن على علم الظاهر قال بعضهم: كم من يشق الشعرة بعقله لو اختل من مزاجه ذرة اضطرب إيمانا، وآخر رأسه بين ركبتيه لو وقعت السماء على الأرض لم يرفع رأسه لقوة يقينه وكمال معرفته بالله وصدق توكله على الله وعلمه بأن تصرفات الحق فى جميع مقاديره كلها حق متحقق؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٢) ولقوله ﷺ: ما أصابك لم يكن ليخطئك "وما أخطئك لم يكن ليصيبك"(٣) وقوله ﷺ: "جف القلم بما هو كائن"(٤).

---

(١) رواه الحارث فى مسنده.

(٢) سورة التوبة - آية ٥١.

(٣) رواه ابن ماجة بلفظ «فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك وأنك إن مت على غير هذا دخلت النار» سنن ابن ماجة جـ١ ص٣ رقم ٧٧.

(٤) رواه الترمذى بنحوه.

وقال بعضهم العالم به يقتدى والعارف به يهتدى وقال الشيخ الكبير السيد الجليل بحر الحقائق أبو الغيث ابن جميل رضى الله عنه إن العز لأهل العلم والإيمان فى السموات والأرض الذين يحمونه عن غير أهله كبار خلق الله أين ما كانوا، قال ولم يزل العاقل يرافق الأشياخ بعلمه وعمله فإذا اجتنى من ثمار جنة المأوى وشرب من ماء عين اليقين المصفى بنار الفقر يرد العقل روحا بصيرا بطبع الحياة فرضا، وحينئذ يفارق الأشباح وأوصافها قطعا، ويسجد الوجه عند نعمة الله شكرا، ولم يزل الله يبدى ويعيد ويحيى ويميت، وقال: من ذاق طعم الأنس بالله تعالى نسى إساءته حقيقة وإحسانه مزية ومهما بقى من الحس ومدركات الحس والعقل هنا فهو مخبول وإذا لم يبق حس ولا محسوس سلخ العقل من خياله حقًا وبرا عن خسة احتياله.

ولا شك أن سلطان العقل يقاتل حزب الشيطان طبع الغافلين باطنًا بنور علم اليقين، وخواص جنود وحزب الله تعالى يقاتلون جنود الأحزاب كل بنور شمس العلوم إلى أن يبقى الله كما لم يزل وهم كما لم يزالوا سرمدًا بحكم الضرورة.

وقيل إن الحس والمحسوس حجاب عين الله وإذا ظهر سلطان حب الله بنار نور القلب بالله أحرق حرارق الهوى بنا سلطانه الذى لا يقدر أحد منا ينفيه بحال وقيل: كل خيال نقاب لوجه الله الكريم فضلا لئلا يبرز من ذلك الجلال ذرة فلا يبقى أحد منك الثقلين ولا ممن سواهما يعرف لله طاعة ولا عصيانا قلت: هذا الكلام والذى قبله كلام عظيم شريف فى غاية الحس والتحقيق والمعنى الدقيق.

معنى قولهم لا يعرف لله طاعة ولا عصيانا

وقوله لا يعرف لله طاعة ولا عصيانا يظهر لى فيه احتمالان.

أحدهما: الإشارة إلى الفناء الكلى واصطدام الحس والمحسوس وفقدان جميع الوجود لاستيلاء سلطان جلال الجمال وحالة الشهود فلا يشعر حينئذ بطاعة ولا معصية ولا مطيع ولا عاص.

والاحتمال الثانى: أن يشهد المقدر سابقا للمقدور بشرط القضاء المبرم وقائدا له العلم السابق بزمام الحكم المحكم فصار مزعجا بالخروج إلى حيز الوجود من حيز العدم واقعا لا محالة بقدرة الملك القادر وإيجاد خالق كل شيء العزيز القاهر المهزوم منه إليه المستعان به منه سبحانه وتعالى.

تأويلات بعض أقوالهم الباطنة

قلت: وإذا فهم هذا فهم قوله إذا طلعت شمس من أفق قلبه إلى الأفق الأعلى أخذ كل من الأفق الأدنى نصيبه من شعاعها وليس كل مدرك بالحس هو هي فأما إذا طلعت من كل مكان فانتفت رؤية التعاقب عنا يقينا لم يبق ليل ولا نهار ولم يبق كفر ولا إسلام قطعا ووجب حينئذ ظهور الشيء الذى حال بيننا وبين الأحوال وكثرت المقالات والأفعال كما يحول السحاب يقينا فإذا لم يبق ثَمَّ حائل ظهر الشيء الذى لا يشبهه شيء بشرط الفناء، ولا حضور بشرط البقاء فإن كنت هاهنا رأيت ما رأينا وإن لم تر شيئا فكن حجرًا أصم يدق به النوى.

وقال كل عالم يعلمه الله يجب عليه تعليم الخلق بما علمه الله تعالى بلا علة إجلالا وتعظيما لجمال جلال سبحات وجه الله العلى الكبير، قال: وإذا اختلط ماء الأمطار بماء البحر كان منه الدر واللؤلؤ والياقوت الأحمر قطعا قلت: يحتمل أنه إذا اختلط ماء أمطار المدامع وغيث الفضل المنهل من سحائب الجود عند مشاهد الجمال وشرب كؤوس الوصل بماء بحر توحيد القلوب المنورة الطيبة الزكية المطهرة يكون من ذلك المطر در المعارف ولؤلؤ العلوم وياقوت الحكم الأحمر ويحتمل إذا اختلط ماء أمطار العلوم الباطنة بماء بحر العلوم الظاهرة فى ظروف القلوب الطاهرة تتابعت الحكمة.

وقال ابن عبيد: الهوى حلالا كان أو حراما عند من يملك الهوى يقينا فى صحيح الفقر قطعا قلت يعنى من صار حرا من رق الهوى وملك جميع

ما ملكه سواء كان ذلك الهوى حلالا في الشرع أو حراما لأن العبد وما ملكت يداه ملك لمالكه ومعنى ذلك أن الأحرار من رق هوى نفوسهم بسبب موتها وحياة قلوبهم سادات لكل من لم يخلص من رق هوى نفسه التى ملكته بشهواتها فمنهم من بقى عليه من صفاتها بقية فهو ملك لها لأن المكاتب من ما بقى عليهم درهم فالحر من رقها من جميع الوجوه التخلص من أسر شهواتها حلالا وحراما عزيز جدا ولهذا قال قائلهم.

أتمنى على الزمان محالا أن ترى مقلتاى طلعة حر

نبذة عن الشيخ اليمنى الصياد رضى الله عنه

قلت فجميع هذه الأوصاف المشكورة فى هذه الأقوال المذكورة إنما هى أوصاف علماء الباطن العارفين بالله تعالى ومما يدل أيضا على فضلهم وفضل علمهم وطريقتهم بالروايات الصحيحة والإسناد فى سيرة الشيخ الكبير العارف بالله تعالى اليمنى الصياد رضى الله تعالى عنه أنه قال: الفقهاء يقولون لى من أيام البداية: يا صياد لو عبد الجاهل ربه إربا إربا لم يزدد من ربه إلا بعدا فأبكى لذلك بكاء شديدا فأرى الخضر عليه السلام يقول لى يا صياد وإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1] فالعلماء كل من يخشى الله من عباده.

قال: فكانوا يقولون لى اقرأ فى الفقه وارقد بالليل وكل بالنهار فهو خير مما أنت عليه فأبكى بكاء شديدا فأرى الخضر عليه السلام فيقول لى يا صياد إن الله تعالى قال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[2] ولم يقل "من قرأ" وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[3] وأعطونى مرة ثوبا أبيض وأمرونى أن

---

(١) سورة فاطر - آية ٢٨.

(٢) سورة آل عمران - آية ٧٤.

(٣) سورة البقرة - آية ٢٨٢.

أغتسل غسلا نقيًا زائدًا وقالوا سَبِّع مشعلك يعنون الركوة اغسلها سبع مرات بالماء ففعلت ذلك فرأيت الخضر عليه السلام فقال: يا صياد دع هذين والبس خرقك فإنهم لا يعرفون الطريق فرميت الثوب ولبست خرقى وتغبرت بالتراب فضحكوا على ثم ذكر كلاما كثيرا ومراجعات بينهما وبينه وأن الخضر عليه السلام قال له لما أكثروا عليه: يا صياد جاهد فى الله فإن الله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(١).

قال فلما فتح الله على بالفتوح استوفيت من جميع أصحابى يعنى الذين كانوا يضحكون عليه وذكر أن الفقهاء سلموا له العلم وقالوا: يا صياد لقد غلبتنا عَاصِيًا وعالما وسلم له المشايخ وتبعه أكثر الذين كانوا يرمونه بالحجارة من الصبيان وكشف للعامة الذين كانوا يسخرون منه فقالوا: والله يا صياد لقد فضحتنا وبينت عيوبنا، ما كان لنا ولك!!.

قال: ثم أمرت بصحبة المريدين فصحبنى جمع كثير قدر ألفين أو ثلاثة آلاف ونالنى خيرات كثيرة وكنت إذا وصلت قرية مطرت مطرا شديدا ونزل بأهلها البركة والرحمة وتبعنى أكثرهم.

قال: ولما حججت دخلت مسجد "الخيف" فإذا بشاب يتكلم ويقول: من أحب أن يسأل عن المعرفة فليتقدم فلقد رأيتُ الشاب جالسا بالمسجد وهاب الخلق منه وأنا قاعد على ثياب رثة فنظرت إلى الشاب فإذا هو غير عارف فتقدمت إليه فقلت له استحى من الله وتب ثم إن ذلك الشاب سأله عن مسائل، فأجاب فقام الشاب إليه وقبَّل راسه... إلخ.

ثم التفت إليه الإمام الفقيه العالم ابن أبى الغيث ومعه جماعة وقالوا: أحسنت أحسنت يا صياد والله ما علمنا أن معك هذه المعرفة وهذا العلم كله قال: ووفد علينا فى مكة رجل من سادات العارفين عليه هيبة وجمال فسأل

---

(١) سورة العنكبوت - آية ٦٩.

أحدهم عن أشياء فأجبته فقال: صدقت ثم قال: يا شيخ أخبرنا عن المعرفة فقلت: المعرفة وجود تعظيم فى القلب يمنع الشخص عن الانقياد لغير معروفه فصاحا عند ذلك وخرا مغشيا عليهما ساعة طويلة ثم أفاقا.

من كرامات الشيخ الصياد:

وقال تلميذه الشيخ العارف إبراهيم بن شارة رضى الله عنه بينما نحن ذات يوم مع الشيخ العارف بالله تعالى أبى العباس أحمد بن أبى الخير الصياد إذ دخل علينا القاضى الأجل أبو بكر بن أبى عقامة فتحدث مع الشيخ. ثم أقبل بوجهه على الجماعة ثم ذكر كلاما مختصره أنه "اشْهَدُوا على شهادتى أن هذا الرجل مر علىّ وأنا فى جماعة فقام الجماعة وقمت موافقة لهم ثم ذهب فقلت لهم: أتقومون لرجل عامىّ لا يعرف شيئا من العلم والقيام لا يكون إلا للعلماء ولو سئل هذا عن مسألة ذكرها الغزالى فى البسيط والوسيط فى الطهارة لم يعرفها ولا يقدر أن يجيب عنها.

فرجع الشيخ بعد أن غاب ولم يقم منا أحد فلما وصل إلينا قمنا له فقال: اقعدوا مكانكم ثم قال: يا قاضى كأننى ببعض الناس يقول: أتقومون لرجل لا يعرف شيئا من العلم وذكر الكلام المتقدم فى ذكر المسألة ثم قال والله إنى لأفهمها وهى كذا وكذا وقرأها من أولها إلى آخرها فقال القاضى: اشهدوا على بهذه الزيادة.

قال الراوى: فتبسَّم الشيخ قال: وأخبرنى بعض الصالحين أنه دخل هو وجماعة مسجد الفارة قلت: هو بالفاء والراء مسجد مبارك مشهور بساحل زبيد فوجدوا الشيخ الصياد قاعدًا فيه وشاب جالس معه فى أول ما أمر بصحبة المريدين قال: فقلت له يا صياد هذا تلميذك فسكت فقلت: للشاب هذا شيخك فقال: نعم فقلت له من طريق الإدلال عليه وقد صار لك يا صياد مريدون فغضب غضبا شديدا ثم قال: نعم هو تلميذى فقال بعضنا إن كان تلميذا فمره يمشى على هذا البحر بحالك فيأتينا من الجبل الفلانى بحجر

وبيننا وبين الجبل مسيرة نصف يوم فى البحر إذا طابت الريح قال: فهاج الشيخ وخرج إلى صحن المسجد وقال للشاب: اخرج وامش على هذا الماء وائتنى بحجر من الجبل فى هذه الساعة.

قال: فسار الشاب مسرعا كأنه على الأرض فتبعه الشيخ فى البحر وهو يسير فأقسمت عليه أن يرجع فلم يرجع ثم أقسمت عليه وقلت له: بحرمة الشيخ إلا ما رجعت فاستقام قائما فناداه الشيخ: ارجع فرجع فندم الجماعة عند ذلك ندما شديدا وقبلوا رأس الشيخ واسترضوه فرضى عنهم وقال فى وقت ذلك: والله إنى لأعرف الجنة قصرا قصرا، وأعرف النار حانوتا حانوتا، وأعرف أصحابهما واحدا واحدا.

وقال أيضا: كشف لى عن الشمس فرأيت ملكين عظيمين يجريانها على العجلة فى الفلك من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق، وقال الراوى: فقلت: صف لى الملكين فقال: هما ملكان عظيمان لهما كذا وكذا من مخلب لو نظر إليهما أهل الدنيا لماتوا.

وقال: ولم أسأله عن كيفية جريان القمر فى الفلك، وقال لى يا أبا إسحاق: والله إنى لأعرف سدرة المنتهى كما تعرف السدرة بينكم وفيها نهران يفجّان بالماء وهو أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وذكر أشياء من الآيات والعبر مالا يحتمله هذا المختصر.

وله كرامات عظيمات وأحوال سنيات، ومشاهدات غميضات، وفضائل عديدات، وسيرة مشتملة على عجائب، وغرائب، وغوامض، علوم من كل سر من علماء الظاهر وقد أسبل عليهم من دونه الحجاب، وكشف للأولياء علماء الباطن والعارفين أولى الألباب. كما قال الشيخ القرشى رضى الله عنه: العالم من نطق عن سرك واطلع على عواقب أمرك، وقال أيضا: الولى منك يرى الأشياء منك وراء حجاب الشرع. رضى الله عنهم أجمعين ونفعنا

بهم آمين. قلت: وقد اقتصر من فضلهم على هذا القدر وهو قطرة من بحر الله در القائل حيث قال:

قلوب العارفين لها عيون ترى مالا يراه الناظرونا
وألسنة بسر قد تناجى بغيب عن كرام كاتبينا
وأجنحة تطير بغير ريش فتأوى عند رب العالمينا
فترتع فى رياض القدس طورا وتشرب من بحار العارفينا
عباد قد سروا بالسر حتى دنوا منه وصاروا واصلينا

قال الشيخ قطب الدين أبو بكر القسطلانى أحد أئمة الشافعية المترجمين فى طبقات الإسنوى فى كتابه "تحفة المفاد والمفيد فى صفة المراد والمريد" وقد ورد فى بعض الأخبار عن بعض الأنبياء صلى الله عليهم وسلم أنه قال حاكيا عن ربه "إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بى؛ جعلت همته ولذته فى ذكرى أحبنى فأحببته ورفعت الحجاب فيما بينى وبينه لا يسهو إذا سها الناس ولا يفتر إذا فتر الناس، كلامهم كلام الأنبياء أولئك الأولياء حقا أولئك للذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذابا ذكرتهم فصرفته بهم عنهم!.

ثم قال وقد روينا بالسند المتصل عن سفيان بن عيينة: إن فى هذه الأمة خلفا كسائر الأنبياء عليهم السلام يسلكون طريقهم إلى يوم ينفخ فى الصور ثم تلا هذه الآية: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[1] وسمعت والدى أحمد ابن على بن محمد القسطلانى رحمه الله بمكة وسمعت أيضا غيره يحكى عن الشيخ الإمام قدوة العارفين شيخنا الشيخ شهاب الدين السهروردى قال: قصدت زيارة الشيخ أحمد بن محمد بن عيد بالبصرة فلما قربت من موضعه قلت:

---

(١) سورة الأنعام - آية ٩٠.

أفتتح قراءة سورة الأنعام فحيث انتهيت إلى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[1] فتمسكت به وعلمت مكانه من الله وقربه هذا آخر كلام القسطلاني.

نبذة عن القسطلاني

وهو من أكابر علماء الحديث ومن الجبال الراسخين في التصوف أخذ عن السهروردى واجتمع بالقطب الأستاذ أبى الحسن الشاذلى وقال الإسنوى فى ترجمته: كان ممن جمع العلم والعمل والزهد والورع والكرم طلب من مكة وفوضت له مشيخة دار الحديث "بالكاملية" وإلى أن توفى فى شهر المحرم سنة ست وثمانين وستمائة قاله الذهبى فى العبر انتهى.

تنبيه

قال: بحر الحقيقة والشريعة حجة الإسلام الغزالى رحمه الله فى بعض كتبه: "اعلم أن مقام الصوفية الأكابر مقام المكاشفة ومن كان فى مقام المكاشفة رأى حقا وغيره باطلا فلا جرم كان الغالب على ألسنتهم اسم الحقيقة وأما المتكلمون فهم فى مقام الاستدلال بغير الله على وجود الله فلا جرم كان الغالب على السنتهم اسم الشرع.

شبهة وجواب

فإن قلت: كيف يصح دعوى القول بأن علم الباطن لا ينال بالكسب كما تقدم وقد شوهد حصوله بذلك لأهل الظاهر قلت: لا شك أن علوم الأنبياء والرسل عليهم السلام إنما كان حصولها بالوحى غالبا أو بالفيض الإلهى الذى قذفه الله فى بواطن قلوبهم وأبرزوه للأنام فى باطن الكشف عن الحقائق الربانية ومعلوم أن هذا ليس بكسب وهو واقع أيضا لحقائقهم من

---

(١) سورة الانعام - آية ٩٠.

القوم حيث أفصحوا عنه بعبارات الأزل التى يقصر عنها نطاق نطق أهل الظاهر فى الأبد.

قال الشيخ تاج الدين السبكى فى الطبقات الكبرى ما نصه "ذكر أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يقرأ بين يديه رسالة القشيرى فحضره مرة الشيخ أبو العباس المرسى لما قدم من الإسكندرية إلى القاهرة فقال له الشيخ عز الدين: تكلم عنى هذا الفصل فأخذ المرسى يتكلم والشيخ عز الدين يزحف فى الحلقة ويقول: اسمعوا هذا الكلام الذى هو حديث عهد بربه.

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله فى لطائف المنن: أخبرنى ابن الشيخ مكين الدين الأسمر قال: حضرت بالمنصورة فى خندقها فرأيت الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ مجد الدين الأخميمى والشيخ أبى الحسن الشاذلى ورسالة القشيرى تقرأ عليهم وهم يتكلمون والشيخ "أبو الحسن" صامت إلى أن فرغ كلامهم فقال: يا سيدى نريد أن نسمع منك.

فقال: أنتم سادات الوقت وكبراؤه وقد تكلمتم فقالوا: لابد أن نسمع منك، فسكت الشيخ ساعة ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة فقال الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة وفارق موضعه: اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله:

قلت: وفى رواية ساقها الحافظ ابن كثير "كان الشيخ عز الدين يحضر مجلس الأستاذ أبى الحسن الشاذلى فيسمع تقريره فى الحقائق ويشاهد حسن إفصاحه عن العلم اللدنى فعند ذلك يحصل له وارد من جانب الحق ويركض على قدميه طربا من المريدين، وهو يقول تأملوا هذا التقرير فإنه قريب العهد من ربه انتهى.

هذا هو العلم الباطن الحاصل لهم من الفيض الإلهى منك غير اكتساب، وأما حصوله لأهل الظاهر بالتلقى عن الأستاذين، فصار ملحقا به، والحالة هذه بالعلوم العادية الكسبية التى تؤخذ بالتقليد وليس هذا الآن من

العلم الغريب القريب العهد بربه لكونه يخرج عن مقتضى العلم اللدنى بسبب تلقيه عن الخلق دون الخالق، قال عبد السلام المقدسى فى كتابه "حل الرموز ومفاتيح الكنوز" : اعلم أن العلم علمان:

علم الظاهر وهو الشريعة:

وعلم الباطن وهو الحقيقة.

قال رسول الله ﷺ: "العلم علمان علم باللسان وعلم بالقلب فأما علم اللسان فهو حجة الله على عباده، وأما علم القلب: فهو العلم الأعلى الذى لا يخشى الله العباد إلا به"(١) فعلم القلب هو العلم اللدنى الذى لم يسطر فى الطروس ولم يحفظ بالدروس وإنما هو تلقين من الله تعالى بغير واسطة ملك ولا سفارة رسول.

كما أن الخضر عليه السلام علم بالعلم اللدنى ما لم يعلمه موسى عليه السلام بعلم الوحى فقتل النفس الزكية بغير نفس، هذا على ظاهر الشرع عدوان محض لكن ظهر تحقيق فعلمه بعلم آخر لدنى لم ينقل من الكتب والأوراق، وإنما هو وحى من الملك الخلاق، فوجب على موسى عليه الصلاة والسلام إنكار ذلك واستقباحه قياما بالحدود وعملا بالشريعة إذ هو متشرع ومقتد بها فلو سكت على الإنكار لما قام به غيره وكذلك الخضر عليه السلام معه بقوله عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾(٢) على ما يخالف الشريعة ثم لما أعلمه الخضر عليه السلام بما لم يدخل فى علم الشريعة علم موسى - عليه السلام - أن الشريعة جسد والحقيقة روحها.

وقال فى موضع آخر: اعلم أن العلوم مقدمة نتيجتها العلم والعمل مقدمة نتيجتها الحال فالعلم والعمل كسبى والحال وهبى قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(٣) فالمجاهدة للعبد بالعلم والعمل والهداية

---

(١) رواه المنذرى فى الترغيب والترهيب كتاب العلم.

(٢) سورة الكهف - آية ٦٧.

(٣) سورة العنكبوت - آية ٦٩.

مواهب الله تعالى فى الأحوال وهذا معنى قوله ﷺ "من عمل بما يعلم ورثه الله علم مالم يعلم"[1] فالذى ورثه الله لعبده لم يكن من كسبه بل بفضل الله وبرحمته وبذلك منّ الله تعالى به على نبيه فقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[2].

تحقيق الهروى للعلم اللدنى

وقال الهروى فى منازل السائرين:

الدرجة الثالثة علم لدنى إسناده وجوده، وإدراكه عيانه، ونعته حكمه، ليس بينه وبين الغيب حجاب" قال شارحه العارف بالله تعالى كمال الدين القاشانى أى علم لا يكون إلا من لدنه رحمه وموهبة لقوله سبحانه وتعالى فى حق الخضر عليه السلام ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[3] ولا يثبت بالإسناد كسائر العلوم المنقولة التى ثبت صحتها بالإسناد بل إسناده وجوده وإدراكه عيانه أى لا يحصل بالإدراك العقلى والفهم كسائر العلوم المنقولة بل إدراكه شهوده.

ولما كان العيان الذى هو الإدراك البصرى أجل الإدراكات أطلق على كل إدراك يكون فى غاية الجاء فأطلق على الشهود الحقانى ونعته حكمه: أى لا يمكن نعته بعبارة تفهم معناه ولا يمكن نعته ووصفه لمن ليس له ذلك فلا يمكن تعريفه للغير فلا يعرفه إلا من ظهر عليه، ليس بينه وبين الغيب حجاب.

ماهية الغيب وغيب الغيب

المراد بالغيب غيب الغيوب الذى هو علم الحق بعينه وهو التجلى الذاتى، قال شيخنا العارف بالله تعالى سيدى محمد المغربى: الغيب هو ما

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية.

(٢) سورة النساء - آية ١١٣.

(٣) سورة الكهف - آية ٦٥.

غاب عن بصرك من الملك والملكوت، وغيب الغيب: هو علم الله تعالى بذاته والمراد بالتجلى الذاتى: التجلى بالعلم بالذات بذلك العلم شهدت الذات المقدسة فحينئذ لا تجلى لها أى لا شهود للذات إلا بالعلم بها والصورة العلمية معنوية لا توصف بكيف ولا أينية.

قال الشيخ تاج الدينبن عطاء الله فى لطائف المنن اعلم أن اطلاع العبد المخصوص على غيب من غيوب الله تعالى ليس بجسمانية ولا وجود صورة وإنما هو بنور الحق تعالى فيه، دليل ذلك قوله ﷺ "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله"(١) فكيف يستغرب أن يطلع على غيب من غيوب الله تعالى بعد أن شهد له الرسول ﷺ أنه إنما ينظر بنور ربه لا بوجود نفسه.

وكذلك قوله فى الحديث "فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به"(٢) الحديث إلى آخره ومن كان الحق بصره فليس الاطلاع على الغيب عليه بمستغرب وفى بعض طرق الحديث فإذا أحببته كنت سمعا وبصرا وقلبا وعقلا ويدًا ومؤيدا فإن قلت: فكيف تصنع بهذه الآية وهى قوله سبحانه: ﴿فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾(٣) فلم يستثنى أحدًا إلا الرسول ﷺ؟

واعلم أنى سمعت شيخنا العارف بالله تعالى أبا العباس المرسى رضى الله عنه يقول فى معناه: أو صديق أو ولى، قلت هذه زيادة على ما تضمنه الكتاب العزيز فاعلم أنه إذا قيل: إنك السلطان لم يأذن اليوم إلا للوزير وحده وربما دخل مماليك الوزير معه وكان الإذن لمتبوعهم إذنا لهم كذلك الولى إذا أطلعه الله تعالى على غيب من غيوبه فإنما ذلك لانطوائه فى جاه النبوة وقيامه بصدق المتابعة فما رأى ذلك بنفسه وإنما رآه بنور متبوعه. وأيضا إن الآية تشير

---

(١) رواه الترمذى.

(٢) رواه البخارى.

(٣) سورة الجن - الآيتان ٢٦، ٢٧.

إلى نفى اطلاع العباد على غيب الله إلا من اطلعه الله تعالى، وبين سبحانه وتعالى سبب اطلاع من اطلعه على غيب منك غيوبه وإن ذلك إنما كان لأنه مرضى عنده بقوله ﴿إلاَّ مَنِ ارْتَضَى﴾ وقوله منك رسول خص "الرسول" بالذكر ولم يذكر النبى ولا الصديق والولى وإن كان كل منهم ممن ارتضى لأن الرسول أولى به مما سواه والله أعلم.

أقسام الغيب عند ابن عربى

وقال بحر الحقائق حامل لواء العلم بالله محيى الدين بن عربى - رضى الله عنه - فى كتابه مفاتيح الغيب: الغيب بالنظر إلينا ينقسم إلى قسمين:

إلى غيب لا ندركه أبدا وإن كان جائز الإدراك بالنظر إلى ذاته.

وإلى غيب ندركه.

ثم الغيب منه:

ما هو مطلق كقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾[1] فجاء بالألف واللام الشاملة لجميع أقسامه وهما حرف الشمول وتسميها النحويون حرف الجنس كما يقال: أهلك الناس الدنيا والدرهم.

ومنه ما هو مقيد كقوله تعالى: ﴿فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾[2] فغيب "الهوى لا يدرك أبدا والمفاتيح الأول التى هى عنده لا يعلمها إلا هو لأنها عنده وقوله: ﴿إلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[3] فإنه يطلع على غيوب مخصوصة شريفة لا يطلع عليه غيره أى: ولكن من الغيوب التى شملتها الألف واللام فى قوله "عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول" فإنه يعلمه ببعض الغيب الداخل تحت حرفى الشمول وذلك بعد أن يحفه

---

(١) سورة الأنعام - آية ٥٩.

(٢) سورة الجن - آية ٢٦.

(٣) سورة الجن - آية ٢٧.

بالأنوار الملكيـة من جميع جـوانبه وقـاية وحماية وحـفظا من الأرواح النارية الشيطانية.

علة تسلط الشياطين

فإن المناسبة الطبـيعية هى التى يتسلط علينا فإنه محـمول فى ناريته مثل حملنا لكن غلب عليه العنصر الألطف فناسب روحانيته فكان روحانيا وغلب علين العنصر الأكثف فبعدت المناسبة عن روحانيتنا من حـيث أعيانا وذواتنا فكنا جسمانيين بالنظر إلى الغالب علينا فلما كان بين الثقلين هذه المناسبة لم نتمكن أن نعصم نفوسنا عنه بأعيانا عند التنزلات فاحتجنا إلى أمر نحتمى به عن سلطانه بهذا الجذب النسبى؛ فتنزلت الأرواح النورية من كونه رصدا على مسالكه من الأمـزجة الطبيعية فـاقعدوا له كل مرصد فاحـتمى الملقى إليه فى عالم العنصر فسمى ذلك عصمة إن كان نبـيا وحفظا إن كان وليا.

وقال العارف بالله تعالى سيـدى داود المناخلى الشاذلى فى شرح حزب البحـر "اعلم أن القلب له مطالعة عـالم الغيب كمـا للحواس مطالعـة عالم الشهادة ولهذا كلفنا الله تعالى بالإيمـان بالغيب وبما وعدنا وأوعدنا فما كلفنا حتى وهبنا مـا به نعلم؛ ذلك لأنه ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[1] ومطالعة الغيب المأمـور بالإيمان به على حسب منزلة القلب المـطلع لذلك فقلب يكون له ذلك وقلب يكون خفيا عن ذلك وتارة يكون نظرا وتارة يكون خبرا.

مضادة عالم الغيب لعالم الشهادة وأحوبتها

ومراتب القلوب فى ذلـك لا تنحصر وجـعل الله تعالى عالم الشـهادة مانعا من عالم شهود الغيب لأنه ضده لكن إذا وفق العبد نظر فى خلال ذلك لمحات من النـظر إلى عالم الغـيب فيؤمن به ولـهذا كان النائم يـبد وله شىء منك المغيـبات لركود عـالم حـسه لكثرة الاشـتغال بعـالم الحس والميل إليه لا سيمـا للمحظور منه شرعـا يحدث فى القلب شكوكا وأوهاما. وظنونًـا تستر

(١) سورة البقرة - آية ٢٨٦.

عنه مطالعة الغيب فيضعف الإيمان لذلك ولهذا تجد كثيرا من اشتغل بالدنيا يضعف إيمانه بالآخرة. وقال حجة الإسلام الغزالى فى كتابه: "الأمالى على مشكل الإحياء" فإن قيل ألم يقل الله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[1] وسماع الله عز وجل بحجاب وبغير حجاب وعلم ما فى الملكوت ومشاهدة الملائكة وما غاب عن المشاهدة والحس من أجلّ الغيوب فكيف يطلع عليها من ليس برسول؟

قلنا فى الكلام حذف يدل على صحة تقديره الشرع الصادق والمشاهدة الضرورية وهو: أن يكون معناه إلا من ارتضى من رسول ومن اتبع الرسول بإخلاص واستقامة وعمل بما جاء به لأنّ النبى ﷺ قال اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله"[2]، وفى القرآن العظيم ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[3] فعلم ما غاب عن غيره من إمكان إثبات ما وعد به وزاد أنه قدر عليه ولم يكن نبيا ولا رسولا.

وقد أنبأك الله سبحانه عن ذى القرنين من إخباره عن الغيب وصدقه فيه حين قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾[4]، وإن وقع الاختلاف فى نبوة ذى القرنين من إخباره عن الغيب وصدقه فالإجماع على أنه ليس برسول وهو خلاف المشروط فى الآية وإن رام أحد المدافعة بالاحتيال لما أخبر به ذو القرنين وما ظهر على يدى الذى كان عنده علم من الكتاب وأراد أن يجوزه على غرر بأن يفرق بين السنة والحقائق، فما يصنع فيما جرى للخضر وما أنبأه الله سبحانه عنه وأظهره عليه من الغيوب الغيبية وهو بعد أن يكون نبيا فليس على الوفاق من الجميع والله تعالى يقول: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن

---

(١) سورة الجن - الآيتان ٢٦، ٢٧.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سورة النمل - آية ٤٠.

(٤) سورة الكهف - آية ٩٨.

رَسُولٍ﴾ فدل على أن في الآية حذفا ينقاد معناه إلى ما ظهر من الكلام وكان سعد رضى الله عنه يرى الملائكة عليهم السلام وهم غيب الله، وعلم أبو بكر بما في البطن وهو من غيب الله عز وجل وشواهد ذلك في الشرع كثيرة جدا تعجز المتناول وتبهر المعاند.

هذا والقول في تخصيص العموم أظهر من الجرأة وأشهر كما نقل الكافة ويحتمل أن يكون المراد في الآية بالرسول المذكور فيها ملك الوحي الذي بواسطته تنزل العلوم وتكشف الغيوب فمتى لم يرسل الله عز وجل ملكا بإعلام غيب أتى بخطاب مشافهة وإلقاء معنى في روع، أو ضرب مثل في يقظة أو منام فإنه يطلع على ذلك أيضا ويكون فائدة الإخبار بهذا في الامتنان على من رزقه الله تعالى علم شيء من مكنوناته وإعلامه به أنه لم يصل إليها بنفسه ولا بمخلوق سواه إلا الله عز وجل حين أرسل فيه الملك بذلك وبعثه إليه حين تبرأ المؤمن من حوله ومن حول كل مخلوق وقوته ويرجع إلى الله سبحانه وحده ويتحقق أنه لا يرد عليه شيء من علم أو معرفة أو غير ذلك إلا بإرادته ومشيئته.

ويحتمل وجها آخر وهو أن يكون معناه والله أعلم فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ويريد من سائر خلقه وصواف عباده ويكون معنى من رسول أي على يد رسول من الملائكة.

وقال: القاشاني رحمه الله في باب الهيمان من شرح منازل السائرين في تلاطم أمواج التحقيق العلمي وهو العلم اللدني الذي هو ميراث للعمل الصالح عند صفاء القلب وزكاء النفس بالمكاشفة الذوقية العيانية فإنكها بعد الفرق، وذلك أن للعلوم الشرعية حكما، ووجوها، وحيثيات واعتبارات ينقل عنها علماء الرسوم ولا يتحققها إلا العالمون بها على التقليد فإنهم إذا صفت بواطنهم بالعمل على الإخلاص، وكحلت بصائرهم بنور الهداية الحقانية انصبت أنهار العلوم إلى أودية فهوك مهم، وتلاطمت أمواج بحار الحكم في

قلوبهم، وانجلت بصائرهم فأدركت معانى من عالم القدس وحقائق من أسرار الغيب من يراهم تحقق تلكم العلوم وتواصلت إلى أسرارهم عجائب أسرار الغيب وخزائن عالم الألوهية واشتد هيمانهم وطاشت عقولهم وتلاشت أفكارهم فظهرت تلك الحكم والمعارف على ألسنتهم بطريق الورود من غير نكير.

قلت: هذا تحقيق قول سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام: إن التجلي والمشاهدة عبارة عن العلم والعرفان.

قال ابن السبكى فى الطبقات الكبرى: ومن هذا يؤخذ أن جميع ما أفصح به القوم من العلوم اللدنية والاستنباطات إنما هى أثر من أثر التجليات. انتهى.

ما تشترك فيه النبوة والولاية

وقال بحر الحقائق محيى الدين ابن عربى فى كتابه "رسالة الأنوار فيما يمنح به صاحب الخلوة من المعارف والأسرار": "اعلم أن النبوة والولاية يشتركان فى ثلاثة أشياء:

الواحد: فى العلم من غير تعلم كسبى.

والثانى: فى الفعل فى المهمة فيما جرت العادة به أن لا يفعل إلا بالجسم أو لا قدرة للجسم عليه.

والثالث فى رؤية عالم الخيال فى الحس.

ما يفترقان فيه

ويفترقان بمجرد الخطاب فإن مخاطبة الولى غير مخاطبة النبى ولا يتوهم أن معارج الأولياء ليس الأمر كذلك لأن المعارج تقتضى أمورا لو اشتركا فيها بحكم العروج عليها لكان للولى ما للنبى وليس الأمر على هذا عندنا وإن اجتمعنا فى الأصول وهى المقامات لكن معارج الأنبياء بالنور الأصلى ومعارج الأولياء بما يفيض من النور الأصلى وإن جمعهما مقام التوكل فليست الوجوه

متحدة والفضل ليس فى المقام وإنما هو فى الوجوه، والوجوه راجعة للمتوكلين وهذا فى كل حال ومقام من فناء وبقاء وجمع وفرق وغير ذلك، واعلم أن كل ولى لله تعالى فإنه يأخذ ما يأخذ بواسطة روحانية نبيه الذى على شريعته ومن ذلك المقام يشهد فمنهم من يعرف ذلك، ومنهم من لا يعرفه ويقول: قال لى الله وليس غير تلك الروحانية.

اختلاف ميراث الأولياء فى هذه الأمة

وهنا أسرار لطيفة تضيق هذه الأوراق عنها لما أردناه من التقريب والاختصار غير أن الأولياء من أمة محمد ﷺ الجامع لمقامات الأنبياء - عليهم السلام - قد يرث الواحد منهم موسى - عليه السلام - ولكن من النور المحمدى لا من النور الموسوى فيكون حاله من محمد ﷺ حال موسى عليه السلام منه ﷺ وربما يظهر منك ولى عند موته ملاحظة موسى أو عيسى فيتخيل الجاهل ومن لا معرفة له أنه قد تهود أو تنصر لكونه يذكر هؤلاء الأنبياء عند موته وإنما ذلك من قوة المعرفة بمقامه والاتصاف به إلا القطب فإنه على قلب محمد ﷺ.

وقد رأينا رجالا على قلب عيسى وهو أول شيخ لقيته ورجالا على قلب موسى وآخرين على قلب إبراهيم وغيرهم عليهم السلام ولا يدرى ما نذكره إلا أصحابنا.

واعلم أن محمدا عليه الصلاة والسلام هو الذى أعطى جميع الأنبياء والرسل مقاماتهم فى عالم الأرواح حتى بعث بجسمه ﷺ وتبعناه والتحق بنا من الأنبياء فى الحكم من شاهده أو ترك بعده فأولياء الأنبياء الذين سلفوا يأخذون عن أنبيائهم وأنبيائهم يأخذون عن محمد ﷺ فشاركت الولاية النبوة فى الأخذ عنه ولهذا ورد فى الخبر "علماء هذه الأمة كأنبياء بنى إسرائيل"(١) وقد قال الله تعالى فينا: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(٢) وقال فى حق الرسول

---

(١) لم نستدل عليه.

(٢) سورة البقرة - آية ١٤٣.

عليه الصلاة والسلام ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾[1] فنحن والأنبياء شهداء على أتباعهم فاصرف الهمة في الخلوة للوراثة الكلية المحمدية. هذا آخر كلامه رضي الله عنه.

دليل شرف علم الحقيقة

وقال السهروردي في "عوارف المعارف" في أثناء الكلام على علوم المشاهدة: وهذه كلها علوم من ورائها علوم، عَمِل بمقتضاها وظفر بها علماء الآخرة الزاهدون وحرم ذلك علماء الدنيا الراغبون، وهي علوم ذوقية لا يكاد النظر يصل إليها إلا بذوق ووجدان، : كالعلم بكيفية حلاوة السكر لا يحصل بالوصف فمن ذاقه عرفه.

ويكفيك من شرف علوم الصوفية وزهاد العلماء أن العلوم كلها لا يمكن تحصيلها مع محبة الدنيا والإجلال بحقائق التقوى وربما كان محبة الدنيا عونا على اكتسابها لأن الاشتغال بها شاق على النفوس فجبلت النفس على محبةِ الجاه والرفعة حتى استشعرت حصول ذلك بحصول العلم أجابت على حمل الكلف وسهر الليل والصبر على الغربة والأسفار وتعذر الملاذ والشهوات.

وعلوم هؤلاء القوم لا تحصل مع محبة الدنيا ولا تنكشف إلا بمجانبة الهوى ولا تدرس إلا بمدارسة التقوى وعلوم غير هؤلاء القوم متيسرة من غير ذلك بلا شك فعلم فضل علماء الآخرة حيث لم يكشف إلا لأولى الألباب، فأولوا الألباب حقيقة: الزاهدون في الدنيا.

قال بعض الفقهاء: إذا أوصى الرجل بماله لأعقل الخلق يصرف إلى الزهاد؛ لأنهم أعقل الخلق. قال سهل بن عبدالله التستري للعقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك الدنيا"[2] قلت بعض الفقهاء

---

(١) سورة النحل - آية ٨٩.

(٢) عوارف المعارف بتحقيقنا - ط. مكتبة الثقافة الدينية.

هم الإمامان الشافعى وأحمـد بن حنبل - رضى الله عنهما -: كذا صرح به الإمام اليافعى - رحمه الله - وغير واحد من العلماء ثم السهروردى:

"فعلوم الولاية مستخرجة من علوم الدراسة ومثال علوم الدراسة كاللبن الخالص السائغ للشاربين ومثال علوم الوراثة كالزبد المستخرج منه فلو لم يكن لبن لم يكن زبد، ولكن الزبد هو الدهـنية المطلوبة من اللبن والمائيـة فى اللبن جسم قائم به روح الدهنية والمائية بها القوام ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(١)، ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾(٢) أى ميتًا بالكفر فأحييناه بالإسلام فالإحياء بالإسلام هو القوام الأول والأصل الأول.

عين اليقين حق اليقين

وللإسلام فروع بعد التحقيق بالإسلام وهى مراتب.

كعلم اليـقين وعـين اليقين وحـق اليقين وقـد يقال التوحـيد والمعـرفة والمشاهدة والإيمان فى كل نوع من فروعه علوم، فعلوم الإسلام علوم اللسان وعلوم الإيمان علوم القلب ولها وصف خاص ووصف عام.

فالوصف العام علم اليقين وقد يتـوصل إليه بالنظر والاستدلال ويشترك فيه عـلماء الآخرة وهى السكينة التى أنزلت فى قلوب المؤمنين ليـزدادوا إيمانا مع إيمانـهم والمشاهدة وصف خـاص فى اليقين وهـو عين اليقـين وفى عين اليـقين وصف خاص وهو حق اليـقين فـحق اليقـين إذًا فوق المشـاهدة وحق اليقين موطنه ومستقـره فى الآخرة وفى الدنيا منه لمح يسير لأهله وهو من أعز ما يوجـد منه أقسـام العلم بالله، لأنه وجدان، فصـار علم الصوفـية وزهاد العلمـاء نسـبتـه إلى علم علمـاء الدنيـا الذين ظفـروا باليـقـين بطريق النظر والاستدلال كنسبة ما ذكرنا من علم الوراثة والدراسة، علمهم بمثابة اللبن لأنه اليقين والإيمان الذى هو الأساس.

---

(١) سورة الأنبياء - آية ٣٠.

(٢) سورة الأنعام - آية ١٢٢.

وعلم الصوفية بالله تعالى من أنصبة المشاهدة وعين اليقين وحق اليقين كالزبد المستخرج من اللبن ففضيلة الإنسان بفضيلة العلم وقد ورد في الخبر "فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي"[1] والإشارة في هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء والطلاق والعتاق وإنما الإشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين وقد يكون العبد عالما بالله ذا يقين صادق وليس عنده علم من فروض الكفايات.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أعلم من علماء التابعين وقد كان علماء التابعين فيهم من هو أقوم بعلم الفتوى والأحكام من بعضهم روى أن عبدالله بن عمر كان إذا سئل عن شيء يقول سلوا سعيد بن المسيب وكان عبدالله بن عباس يقول سلوا جابر بن عبدالله لو نزل أهل البصرة على فتياه لوسعهم.

وكان أنس بن مالك يقول سلوا مولانا الحسن فإنه قد حفظ ونسينا فكانوا يردون إليهم في علم الفتوى والأحكام ويعلمونهم حقائق اليقين ودقائق المعرفة لأنهم كانوا أقوم بذلك من التابعين صادفهم طراوة الوحي وغمرهم عزيز العمل المجمل والمفصل.

وما أحسن قول الإمام العارف حامل لواء العلم بالله محيي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه في كتابه الإسراء إلى مقام الإسراء ثم نشأ في نشأة أخرى، وتلى.. ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾[2] فسويت جناح اللطائف، وامتطيت متون الرفارف وطوت في حق العارف، وإذا هي ثلثمائة رفرف، تدعى بالملأ الأعلى الأشرف:

---

(١) رواه الحارث في مسنده.

(٢) سورة المؤمنون - آية ٤٤.

فعاينت من علم الغيوب عجائبًا تصان عن التذكار من رأى من وعى
فمن صاحات فوق غصن أراكها تزعزع بلبال الشجى إذا خلا
ومن نيرات سائلات ذواتها تفيض علينا النور من فيضة البها
ومن نافثات السحر فى عشق الدجا عسى ولعل الدهر يسطو بهم غدا
وأبصرت أقوامًا كرامًا تبرقعوا ولو حسروا أضحت على أرضها هبا
فمنك سالك نهج الطريق مسافر إلى سفر يسمو وفى الغيب ما سما
ومن أصل سير للحقيقة صامت ولو تطور المسكين عجزه الورى
ومن قائم بالحال فى بيت مقدس فلا نفسه تظما ولا سره ارتوى
ومن واقف للخلق عند مقامه ورتبته فى الغيب مرتبة الأسا
ومن ظاهر وسط المكان مبرز وله مكنة تسمو على كل من سما
ومن شاطح لم يلتفت لحقيقة قد أنزله دعواه منزلة الهبا
ومن نيرات فى القلوب طوالع تدل على المعنى ومن يتصل برى
ومن عاشق سر الذهاب متيم قد انحله الشوق المبرح والجوى
رصاحب أنفاس تراه مسلطا على نار أشواق بها قلبه اكتوى
ومن كاتم للسر يظهر عنده عليه لطلاب المشاهد بالتقى
ومطن فاضل والفضل حق وجوده ولكن ما يرجوه فى راحة الندا
ومن سيد أمسى أديب زمانه فيلقاه من يلقاه من حيث ما جرى
ومن ماهر حاز الرياضة واعتلى فصار ينادى بالأسنة واللها
ومن متحل بالصفات التى جرى بأجسادها حادى المنية للبلا

ومن متجل طالب الأنس بالذى تأزر بالجسم الترابى وارتدى
ومستيقظ بالانزعاج لعله أصابته مطروحا على فرش الضنا
فقام له سر التجلى بقلبه فلم يفن فى الغير الدنى ولا الدنا
ومن شاهد للحق بالحق قائم وله همة تفنى الأوابد والفنا
ومن كاشف وهو الإمام حقيقة ولولا أبو العباس ما انصرف الفضا
ومن حائر قد حيرته لوامح تقول له قد أفلح اليوم من رقى
ومن شارب حتى القيامة ما ارتوى ومن ذائق لم يدر مسا لذة الطوى
ومن غربة والمكر فيها مضمن ومنك اصطلام حل من مضمر الحشا
ومن واجد قد قام من متواجد فابد له الوجد المجرد ومازها
ومن حائز علما وزى إشارة إلى عارف فوق الأقاويل والحجا
ومن ناشر طوعا جناح يقينه يسر ويسرى فى الهواء بلا هوى
ومن باسط كفيه وهى بخيلة ولولا وجود الفيض ما مدح الندى
وصاحب أنس لم يزل ذا مهابة وصاحب محو عن نسيم قد انبرى
وصاحب إثبات عظيم جليلة تتوج بالجوزاء وانتعل السُّهى

فصل

بيان وجه البقاء بعد الفناء

هذا آخر الكلام على تحقيق العلم اللدنى وهو نتيجة البقاء بعد الفناء والتوحيد وبين ذلك أن السالك إذا تحقق فى توحيده فنى عن أوصافه البشرية وتخلق بأوصافه البقائية الربانية لأن الحادث لا يقابل القديم. واعلم أن هذا

الشاهد الدليل هو الدليل المشاهد فى عين أهل البصر وهو العالم على ما هو عليه غين لا عين هذا الذى يجب اعتقاده وفى عين أهل البصيرة عين لا غين بشرط تحوله الذى هو عليه إلى حالة صاحب الحال الوارد به ومنه وإليه قال سلطان أهل المحبة شرف الدين بن الفارض - رضى الله عنه - حيث يقول:

فلما اجتليت العين عنى اجتليتنى مفيقا معنى العين بالعين قرَّت

فحال أهل البصيرة كمن هو فى النهار لا يشهد إلا نهارا وليس لليل فى عين شهوده أثر وكما أن جبريل عليه السلام فى الصورة البشرية هو عند النبى ﷺ ملك لا بشر وعند غيره بشر لا ملك، وكما أن من كان مع نفسه فهو مع هواه محجوب به عن الله لا يشهد إلا إياه لحديث "حبك الشىء يعمى ويصم"(١).

أى يعمى عن رؤية غير محبوبه ويصم عن السماع من غيره لأن المرء ما جعل الله له من قلبين فى جوفه ولا لقلب من وجهين، وليس له إلا وجهة واحدة فإذا توجه إليها حجب عن غيرها ومفهوم هذا الحديث حب الله لا الشىء يسمع ويبصر لقوله: "فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به"(٢) الحديث.

فكذلك لا يسمعون إلا بمحبوبهم، ومن محبوبهم، ولا يبصرون إلا به، ولا يرون إلا هو ولو رأوا كل شىء؛ لأنه لما طاب مشربهم تقرب مشهدهم ولما تقرب مشهدهم منه تغيّب غيره عنهم..

أثر زيادة الحب

وفى قصة يعقوب عليه السلام مع بنيه دليل وإرشاد وأسوة للهائمين بمحبوبهم بكل واد حين عمى عن رؤية غير يوسف ولم يبصر إلا به يشم

---

(١) سنن أبى داود كتاب الأدب، باب فى الهوى جـ٢ ص٦٨١، مسند أحمد جـ٥ ص١٩٤.

(٢) سبق تخريجه.

رائحة أثره بثيابه لأنه عين المراد فإذا ثبتت رؤيته تعالى بهذا الدليل على هذه الكيفية لأهلها، فلا إمكان للقول بالحلول والاتحاد ولا التفات إلى قول بعض الفقهاء القح الذين حجبهم الله عن العلوم الذوقية لما زعموا أن شهود الحق تعالى بعد الفناء يلزم منه الحلول والاتحاد وليس الأمر كما زعموا لأن الحلول والاتحاد مذمومان شرعا إذ من شأنهما وجود الغيرية المقتضية للفرق بين الاثنية فإن الروح مثلا متحدة بالبدن؛ لكونها مدبرة له.

ومعلوم قطعا أن الروح غير الجسم والفناء لا يكون كذلك لأن شرطه عدم الغيرية التي فيها السالك بحيث قد ماتت نسبتها إليه لما مات عنها بالموت المعنوى ومن مات رأى الحق فعند ذلك يدخل برزخ البقاء ويخلع عليه خلع أوصاف القدم فيحيا حينئذ بالتخلق والتحلى بها ثم يأتى إليه شراب المشاهدة فى كؤوس المقامات فيلتقى القدم بالقدم.

تحقيق المغايرة شعرا فى نظم أكابر القوم

وما أحسن قول القطب الربانى سيدى على بن وفا:

يظنوا بى حلولا واتحادا وقلبى من سوى التوحيد خالى

فانظر كيف تبرأ من الحلول والاتحاد الذى قاله بعض الفقهاء فى حق سادات القوم بل يترتب على القول بنسبته إليهم تكفير الأصفياء وأكابر الصديقين أعاذنا الله من ذلك ونسأله السلامة من الوقوع فى هذه المهالك.

وقال بحر الحقائق حامل لواء العلم بالله محيى الدين ابن العربى - رضى الله عنه - فى كتابه مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم.

من ظن أن طريق أرباب العلى قول فسجهل حائل وتعذر

إن السبيل إلى الإله عناية منه بمن قد شاءه وتعذر

لا يرتضى بحقيقة ذو غرة ... إلا إذا ضم السنابل بيدر

الحال يطلبه بسر مقامه ... فمن ادعاه فحاله لك يشهر

يتخيل المسكين أن علومها ... ما بين أوراق الكتاب تسطر

هيهات بل ما أودعوا فى كتبهم ... إلا يسيرا من من أمور تعسر

لا تقرأ الأقوام غير نفوسهم ... فى حالهم مع ربهم هل تحصر

فترى الدخيل يقيس فيه برأيه ... ليقال هذا منهم فيكبر

وتناقضت أقواله إن لم تكن ... عن حاله فيما يقدم تخبر

علم الطريقة لا ينال براحة ... ومقايس فاجهد لعلك تظفر

عزت علوم القوم عن إدراك من ... لا تعتريه صبابة وتحير

وتنفس مما يجن وإنه ... وجوى يزيد وعبرة لا تفتر

وتدله وتوله فى غيبة ... وتلذذ بمشاهد لا تظهر

وتقبض عند الشهود وغيرة ... إن قام شخص بالشريعة يسخر

وتخشع وتفجع وتسرع ... بتشرع لله لا يتغير

هذا مقام القوم أو حالاتهم ... ليسوا كمن قال الشريعة مزجر

ثم ادعى أن الحقيقة خالفت ... ما الشرع جاء به ولكن يستر

تبًا لها من قالة من جاحد ... ويل له يوم الجحيم تسعر

أو من يشاهد فى المساجد مطرقا ... ليقال هذا عابد يتفكر

هذا امرؤ لا يستلذ براحة ... فى نفسه إلا سويعة ينظر

لكنه فى ذاك أسعد حالة ... ولو النعيم إذا الجهول يقصر

قال الشيخ الإمام العـارف بالله أبو المواهب التونسى الشاذلى رضى الله عنه فى هذا المعنى شعرا.

وليـست علوم الـكشف إلا مـوهبا تسامت عن الأوهام والكسب والحصر
ومن ذاق طعم الشـهد أدرك سـره وحـقق سـر الطعم بالذوق والخبـر
ومن ليس ذا ذوق جـحود كل مـا يخـالف منه الطبـع للعـرف والفكر
فـلا تلتـفت يـومـا لخـذلانه الذى يدوم له عـذرا فـمـا لك عن عـذر

* * *

(١) فى الأصل: كلما.

تحقيق القول في التوحيد عند الصوفية

وجه موافقة الاستشهاد للهروى

باب في توحيد القوم قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾[1] إنما خصت بعض الآية بالذكر كصنيع الهروى في منازل السائرين لأن هذا محض التوحيد الجمعى وهو أن لا يكون شيء فلو ذكروا الملائكة وأولى العلم لكان نزولا عن الجمع إلى الفرق فيكون معه غيره فلا يبقى التوحيد فهو الشاهد لنفسه فلم يشهد أن لا إله إلا الله غيره فمن تحقق هذا بالذوق فقد شهد التوحيد بالحقيقة هكذا حققه القاشانى رحمه الله.

ومن هنا يعلم أن التوحيد الذاتى مرادف للتوحيد الجمعى لأنهما لا يكونان إلا في الحضرة الأحدية التى يوحِّد الله فيها ذاته بذاته سواء كان يوحد ذاته على لسان عبده كقول الحلاج: أنا الحق وقول البسطامى: سبحانى ما أعظم شأنى وهذا لا يكون إلا بعد فناء الفناء أو ذاته بذاته كقوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[2].

واعلم أن التوحيد هو أصل التوكل قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3]، وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[4]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[5]، وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[6]. فطالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل وهو المكذب لهذه الآية

---

(١) سورة آل عمران - آية ١٨.

(٢) سورة غافر - آية ١٦.

(٣) سورة المائدة - آية ٢٣.

(٤) سورة إبراهيم - آية ١١.

(٥) سورة الطلاق - آية ٣.

(٦) سورة الزمر - آية ٣٦.

فإنه سؤال فى معرض استنطاق بالحق أى: إنكار بالحق كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[2]، بين أن كل ما[3] سوى الله تعالى عبد مسخر حاجته مثل حاجتك فكيف تتكل عليه وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾[6].

وكل ما ذكر فى القرن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار وأما الأخبار فقد قال ﷺ: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصا وتروح بطانا"[7]، وقال ﷺ: "من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها"[8].

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال "قوموا إلى الصلاة"[9]. ولما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقد رمى فى النار من المنجنيق: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلاو، وفاء بقوله "حسبى الله" إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى به، وأوحى الله إلى داود يا داود ما من عبد يعتصم بى دون خلقى فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له مخرجا.

قال حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى رحمه الله فى كتاب التوحيد من ربع المنجيات ما نصه: اعلم أن التوكل من باب الإيمان لا ينتظم إلا بعلم

---

(١) سورة الزمر - آية ٣٦.
(٢) سورة الأعراف - آية ١٩٤.
(٣) فى المخطوط (كلما).
(٤) سورة العنكبوت - آية ١٧.
(٥) سورة المنافقون - آية ٧.
(٦) سورة يونس - آية ٣.
(٧) رواه ابن ماجة مع اختلاف فى اللفظ.
(٨) رواه البيهقى فى سننه والطبرانى فى المعجم الكبير.
(٩) رواه أحمد مع اختلاف فى اللفظ.

وعمـل وحال والتوكـل كذلك ينتظم من علم هو الأصل وعـمل هو الثـمرة وحال هو المراد باسم التوكل فلنبدأ بـبيان العلم الذى هو الأصل وهو المـسمى إيمانا فى أصل اللسان إذ الإيمان هو التصـديق وكل تصديق بالقلب فهو علم فإذا قوى سـمى يقينا لكن أبواب اليقين كـثيرة ونحن إنما نحتـاج منها إلى ما ينبنى عليه التوكل وهو التوحيـد الذى يترجمه قولك: لا إله إلا الله وحده لا شـريك له والإيمـان بالقدرة الـتى يترجم عنـها قـولك: له الملك والإيمـان بالوجود والحكمة الذى يدل عليه قـولك: وله الحمد ومن قال: لا إله إلا الله وحـده لا شريك له الملك ولـه الحمـد وهو على كل شىء قـدير فقـد تم له الإيمان الذى هو أصل التـوكل أعنى أن يصير مـعنى هذا القول وصفـا لازما لقلبه غالبا.

فأما التوحيد وهو الأصل والقول فيه يطول وهو من علم المكاشفة ولكن بعض علوم المكاشفات يتعلق بالأعـمال بواسطة الأحوال ولا يتم علم المعاملة إلا به، فإذاً لا يتـم القدر الذى يتعـلق بالمعاملة بالتـوحيد الـذى لا ساحل له فنقول: التوحيد أربع مراتب:

مراتب التوحيد

وهو ينقسـم إلى لب، ولب اللب وإلى القشـر، ولنمثل ذلك تقريبا إلى الفهم الضعـيف يعنى بالجوز فى قشرته العليا فـإن له قشرا وله لب ودهن هو لب اللب.

فالمرتبة الأولى من التوحيد أن يقول الإنسان باللسان لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافق.

الثانية: أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كـما يصدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد.

والثالـثة: أن يشاهـد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مـقام المقربين وذلك بأن يرى أشياء كثيـرة لكنه يراها على كثرتها صادرة من الواحد القهار.

الرابعة: ألا يرى فى الوجود إلا واحدا وهى مشاهدة الصديقين، وتسمية الصوفية الفناء فى التوحيد؛ لأنه من حيث لا يرى إلا واحدا فلا يرى نفسه أيضا، وإذا لم ير نفسه لكونها مستغرقة بالواحد كان فانيا عن نفسه فى توحيده: بمعنى أنه فنى عند رؤية نفسه:

فالأول موحد بمجرد اللسان وذلك يعصم صاحبه فى الدنيا عن السيف والسنان.

والثانى: موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه ومفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقد على القلب ليس فيه انشراح وانفتاح ولكنه يحفظ صاحبه عن العذاب فى الآخرة إن توفى عليها ولم يضعف بالمعاصى عقدها، ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله يسمى بدعة، وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها أيضا إحكام هذا العقد بقلوب العوام حتى لا تنحل عقدته.

والثالث: موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلا واحد وقد انكشفت له الحقيقة؛ فإن ذلك رتبة العوام وعلماء الكلام إذا لم يفارق المتكلم العاصى فى الاعتقاد بل فى صفة تلقين الكلام الذى به يدفع حيل المبتدع فى تحليل هذه العقد.

والرابع: موحد بمعنى أنه لم يحضر فى شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد، وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد فالأول: كالقشرة العليا من الجوز والثانى: كالقشرة السفلى، والثالث: كاللب، والرابع: كالدهن المستخرج من اللب.

وكما أن القشرة العليا لا خير فيها بل إن أكلت فهى مرة المذاق وإن نظر إلى باطنها فهى كريهة المنظر وإن اتخذ حطبًا أطفأ النار وأكثر الدخان وإن ترك فى البيت ضيق المكان؛ فلا يصلح ذلك القشر إلا أن يترك مرة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب

عديم الجدوى كثير الضرر ومذموم الظاهر والباطن لكنه ينفع مدة فى حفظ القشرة السفلى إلا وقت الأكل والقشرة السفلى هى القلب والبدن فكذا توحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب بالسيف وإنما يصيب جسم البدن وهو القشر وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده.

وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا فإنها تصون اللب وغرسه عن الفساد عند الادخار وإن فصل أمكن أن ينتفع به حطبا لكنه نازل القدر بالإضافة إلى مجرد النطق باللسان ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التى يتحصل بانشراح الصدر وانفساحه وانشراح نور الحق فيه إذ ذلك الشرح هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾(١)، ولقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾(٢).

بيان وجه الحصر فى مشاهدة الله لا غير

وكما أن اللب نفيس فى نفسه بالإضافة إلى القشر فكان المقصود لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد إلا الواحد الحق.

فإن قلت: كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحدا. وهو يشاهد السموات والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهى كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا؟ فاعلم أن هذا غاية علوم المكاشفة وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر فى كتاب فقد قال العارفون: "إفشاء سر الربوبية كفر" ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار، وهذا كما أن الإنسان كثير إذا التفت إلى روحه وجسده

---

(١) سورة الأنعام - آية ١٢٥.

(٢) سورة الزمر - آية ٢٢.

وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ يقول: إنه إنسان واحد فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده والفرق بينهما وهو فى حالة الاستغراق والاستتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفرق وكأنه فى عين الجمع والملتفت إلى الكثرة فى قومه فكذلك كل ما فى الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبار واحد.

وباعتبار آخر سواه كثير وبعضه أشد كثرة من بعض ومثال الإنسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه بالجملة على كيفية مصير الكثرة فى حكم المشاهدة واحدا ويستفيد بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم يبلغه ويؤمن به إيمان تصديق فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وإن لم تكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبيا كان لك نصيب منها بقدر قوة إيمانك.

وهذه المشاهدة التى لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم نظراً كالبرق الخاطف وهو الأكثر والدوام نادر عزيز والى هذا أشار العارف بالله الحسين بن منصور الحلاج حين رأى الخواص يدور فى الأسفار فقال: فيما ذا أنت؟ قال: أدور فى الأسفار لأصحح حالى فى التوكل وقد كان من المتكلمين؛ فقال الحسين رضى الله عنه قد أفنيت عمرك فى عمران باطنك فأين الفناء فى التوحيد فكان الخواص فى تصحيح المقام الثالث من التوحيد فطالبه بالمقام الرابع فهذه مقامات الموحدين فى التوحيد على سبيل الإجمال. انتهى كلام حجة الإسلام بحروفه وأنشدنا شيخنا العارف بالله سيدى محمد المغربى لنفسه فقال:

وجودك كالزجاجة والسراج بها حكم الفناء بمن تناجى
وليل الغيسر لما أن تبدا ضيا المحبوب فى جنح الدياجى

تولى مسرعا فالوقت صبح وأهل الود أضحوا بابتهاجى
كذا الأرواح تجلى فى نفوس شراب فى كؤوس بابتلاجى
كذا تجلى العروس بكل زى جمال فى جلال بامتزاج
فدو نكهها بكل واختطبها ببذل النفس فى نقع العجاج
ولا تلفت عنانك كن جوادا فأهل الجود مطلب كل راج
فمن ولى إلى الدنيا فرارا بيوم الزحف منا غير ناج
ومن يرضى بها دارا ستأتى إليه النار من كل الفجاج
على عجل فتب ودع التوانى فإن القلب عنه فى انزعاج

القصد من هذا وجودك كالزجاجة ومشهود الحق تعالى كالسراج لها لأنها صارت فى حكم الفناء المعنى؛ للاشتغال بشهود البقاء وهو السراج الذى مثلنا به؛ وأن السالك من القوم إذا تحقق فى سلوكه صار مستغرقا فى شهود الحق - تعالى - فانيا عن شهود الأغيار بحيث إن العالم كله صار عنده عدما كليا؛ لاشتغاله بمشاهدة شمس القدم فيبقى حينئذ كالزجاجة المستهلكة فى وجود السراج.

فأرباب المشاهدات فنوا عن رؤية الزجاجة لاشتغالهم بشهود سراجها وهو الحق تعالى فلم ينظروا ولم يشاهدوا إلا شعاع القدم ولهذا قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى خطبة البيان.

"هو نور يشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد آثاره".

وما أحسن قول حجة الإسلام رحمه الله حيث يقول:

رق الزجاج وراقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وفرق بين أن يقال: الخمر قدح وبين أن يقال: كأنها قدح وهذه الحالة التى غلبت سميت بالإضافة إلى صاحب الحالة فناء الفناء لأنه فنى عن نفسه وفنى عن فنائه؛ فإنه ليس يشعر بنفسه عن تلك الحالة ولا بعدم شعوره بنفسه ولو شعر بعدم شعوره بنفسه لكان قد شعر بنفسه وتسمى هذه الحالة بالإضافة إلى المستغرق بلسان الحال اتحادا وبلسان الحقيقة توحيدا، وقال سيد علماء الطريقة وإمام أهل الحقيقة الشيخ أبو الحسن رحمه الله:

إننا لننظر إلى الله - تعالى - ببصائر الإيمان والإيقان فأغنانا بذلك عن الدليل والبرهان ونستدل به على الخلق هل فى الوجود شىء سوى الملك الحق؟ فلا تراه وإن كان ولابد فتراهم كالهباء فى الهواء إن فتشتهم لم تجد شيئا.

مراتب التلاوة عند ابن عربى

قال بحر الحقائق حامل لواء العلم بالله محيى الدين ابن العربى رحمه الله فى كتابه "مواقع النجوم" عند الكلام على الفلك اللسانى: فإذا وفقك الله تعالى وتريد أن يسمع الحق جل جلاله منك تلاوتك ويسمك فى ديوان التالين ويقول لك على الكمال حمدنى عبدى فاعلم منازل التلاوة وموطنها وكم التالين منك وذلك: بأن تعلم أن على اللسان تلاوة وعلى القلب تلاوة وعلى الروح تلاوة وعلى السر تلاوة.

فتلاوة اللسان ترتيب الكتاب على الحد الذى رتب المكلف له، وتلاوة الجسم المعاملات على تفصيلها فى الأعضاء التى على صحته، وتلاوة النفس: التخلق بالأسماء والصفات، وتلاوة القلب الإخلاص والفكر والتدبر، وتلاوة السر الاتحاد، وتلاوة سر السر الأدب وهو التنزيه الوارد عليه فى التلقى منه جل وعلا فمن قام بين يدى سيده بهذه الأوصاف كلها ونظر إليه جل اسمه

فلم ير جزءا منه فردا إلا مستغرقا فيه على ما يرضاه منه كان عبدًا كليا وقال له الحق - تعالى - إذ ذاك حمدنى عبدى أو ما يقول: على حسب ما ينطق به العبد قولا أو حالا وإن كان فيه بعض هذه الأوصاف وتعلق عقله ببعض التالين فليس بعبد كلى ولا يكون فيه للحق من عبودية الاختصاص إلا قدر ما اتصفت به ذاته؛ فثم عبد يكون لله فيه السدس ولهواه ما بقى وعبد الله فيه الخمس ولهواه ما بقى والربع والثالث والنصف على قدر ما يحضر منه مع الحق من حيث هو ومن حيث هو نودى كما جاء فى الصلاة: "إنه لا يقبل منها إلا ما عقل عشرها تسعها ثمنها سبعها سدسها خمسها ربعها ثلثها نصفها"(١).

فإن حضر له بالكل حصل له الكل فإن محبة الحق تعالى لك على قدر محبتك له أليس الله تعالى يقول "منك تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعا ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعًا، ومن أتانى يسعى أتيته هرولة".

تفسير الهروى للتوحيد نظما وبيان ابن القيم له،

تنبيه قال الهروى فى باب التوحيد فى منازل السائرين:

ما وحد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد

توحيد من ينطق عن نعته عارية أبطلها الواحد

توحيده إياه توحيده ونعت من ينعته لاحد

قال شارحه العلامة شمس الدين بن القيم رحمه الله أى ما وحد الله أحد حق توحيده الخاص الذى يفنى فيه ويضمحل فيه كل أحد ويتلاشى فيه كل مكون فإنه لا يتصور منه التوحيد إلا بفناء الرسم وهو الموحد وتوحيده

---

(١) رواه أبو داود والكسائى عن عمار بن ياسر بلفظ «إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته تسعها ثمنها سبعها سدسها خمسها ربعها ثلثها نصفها» الترغيب والترهيب جـ١ ص١٨٤.

القائم به فإذا وحده شـهد فعله الحادث ورسمه الحادث وذلك جحـود لحقيقة التوحـيد الذى تفنى فيه الرسـوم وتتلاشى فيه الأكـوان فلذلك قال إذ كل من وحده جاحد هذا أحسن ما يحمل عليه كلامه.

تفسير القاشانى كلام الهروى

وقال القاشانى: يعنى ما وحـد الحق تعالى حق توحيده الذاتى أحد، إذ كل من وحده أثبت فعله ورسمه بتوحيده فقد جحده بإثبات الغير إذ لا توحيد إلا بفناء الرسوم والآثار كلها توحيد من ينطق عن نعته عارية، إذ لا نعت فى الحضرة الأحـدية ولا نطق ولا رسم لشىء، والنطق والنعت يقتضـيان الرسـم وكلما يشـم منه رائحة الوجـود فهو للحق عارية عند الغير فـيجب علية ردها إلى مالكها حتى يصح التوحيـد ويبقى الحق واحدا أحدًا فلذلك أبطل الواحد الحقيقى تلك العبارة التى هى ذلك التوحيد مع رسم الغير فإنه باطل فى نفسـه فى الحضرة الأحدية "توحيده إياه توحيده أى توحيد الحق تعالى ذاته بذاته هو توحيـده الحقيـقى "ونعت من ينعتـه لا حد" أى وصف الذى يصـفه هو أنه مشترك جائز على طريـق الحد ماثل عنه لأنه أثبت النعت ولا نعت ثمَّة وأثبت رسمه بإثبات النعت ولا رسم لشىء فى الحضرة الأحدية ولا أثر وإلا لم تكن أحدية انتهى.

• تفسير الكروانى لكلام الهروى:

وقال القطب الربانى أبو المحـاسن يوسف بن عبد الله عـمر الكورانى: اعلم أن القاعـدة فى علم التوحـيد الذاتى بقـولهم التوحيـد إسقـاط الحدث وإثبات القـدم فقـوله ما وحده الواحـد أى ما وحـد الله تعالى حق توحـيده الذاتى أحد إذ كل من وحده أثبت وجـوده وفعله بتوحيده فقـد جحده بإثبات وجود نفسه وفعله فما بقيت ذات الله تعالى وحدها بل ذات الله تعالى وذات العبد الموحد فـإنه ما يصح التوحيد الحقيقى الـذاتى على لسان العبد إلا بفناء

وجوده المجازى الهالك المشار إليه بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾(١) وقوله. «فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ولسانا فبى ينطق الحديث وقوله ﷺ قال الله تعالى على لسان عبده: «سمع الله لمن حمده» وقوله ما قلت له وَلكِن قاله الله».

• تأييد المؤلف لذلك:

ومما يؤيد هذا المعنى ضرب المثل لو فرضنا أن شخصين فى دار واحدة وقال أحدهما للآخر ما فى الدار إلا أنت فعلى الحقيقة وجود القائل يكذب قوله، لأن وجوده أيضا معه فى الدار فما فى الدار وجود واحد بل وجودان، فما صح قوله فما فى الدار إلا أنت فصح ان كل من وحده جاحد أى وجوده جاحد قوله.

وأيضا لو قلنا إن نور القمر والكواكب من نور الشمس فبالليل ما يصح منهم توحيد نور الشمس بأن يقولوا لا نور إلا نور الشمس لأن انوارهم اندرجت فى نور الشمس أو يقول إن أنوارهم كانت عارية عندهم من جهة الشمس فلما تجلت الشمس تجلى الذات أخذت عاريتها وأبطل نورها وجودهم المستعار، تمثل المحسوس على المعنى بعيد على الحقيقة جدا ولكن العقل يقرب المعنى إلى الفهم المحسوس أكثر منه بالمعنى وهذا مقام جمع الجمع المشهور فى اصطلاح الصوفية من قولهم الفناء والبقاء وفناء الفناء وبقاء البقاء والتفرقة وجمع الجمع.

وقد طلب رسول الله ﷺ فى دعائه هذا وما فوقه بقوله واغسلنى بالماء والثلج والبرد والقافية الثانية «توحيد من ينطق عن نعته عارية» إذ لا نعت فى الحضرة الأحدية ولا نطق ولا رسم لشىء فالنطق والرسم يقتضيان الرسم وكل ما يشم منه رائحة الوجود فإنه للحق تعالى وعند الغير عارية فيجب عليه

---

(١) سورة القصص - آية ٨٨.

ردها إلى مالكها حتى يصح التوحيد ببقاء الحق تعالى واحدا أحد فلذلك أبطل الواحد الحقيقى تلك العبارة التى هى ذلك التوحيد مع بقاء رسم الغير فإنه باطل فى نفسه فى الحضرة الأحدية كالسراب يرى أن له وجودا وهو باطل فى نفسه من حيث ما يرى أن له وجودا لا مطلقا لأن الله تعالى قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ أى من حيث ما رأى وقال ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾[1] أى من حيث الحقيقة لا من حيث المجار السرابى.

فلما أن وجد الله تعالى عنده ما خيبه بل أراه حسابه حق الوفاء، والقافية الثالثة «توحيده إياه» أى توحيد الله تعالى ذاته بذاته هو توحيده الحقيقى سواء كان على لسان عبده فبى ينطق أو بنفسه ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[2] «ونعت من لا ينعته لأحد» أى وصف الذى يصفه الواصف وهو حائد طريق الحق تعالى مائل عنه لأنه أثبت النعت ولا نعت ثم أثبت رسمه بإثبات النعت ولا رسم لشىء فى الحضرة الأحدية ولا أثر وإلا لم يكن أحدية هذا آخر كلامه.

• تفسير آخر للأبيات:

وقال بعض المحققين ممن تكلم على هذه الأبيات واعلم أن التوحيد الذاتى هو انفراد الرب سبحانه وتعالى بالوجود فلا يكون معه موجود وهذا معنى قولهم التوحيد إسقاط الحدث وإثبات القدم، والتوحيد فعل مغاير له والموحد كذلك فإثباتهما معه فى الوجود ينافى فى التوحيد الذاتى قال تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[3].

ولا شك أن الوجود الحقيق هو الذى وجوده واجب فأما الذى وجوده

---

(١) سورة النور - آية ٣٩.

(٢) سورة غافر - آية ١٦.

(٣) سورة القصص - آية ٨٨.

جائز فقد كان عدما ويصير عدما فالمعنى ما وحد الواحد وهو الله تعالى حق توحيده الذاتى أحد، لأنه يكون حينئذ قد أثبتت مع الله تعالى نفسه ورسمه.

قال العلامة شمس الدين البرماوى فى شرح خطبة الحاوى الصغير قلت: ولعل صاحب الحاوى لما لحظ هذا المعنى عدل إلى قوله: «المتوحد» أى الذى هو واحد بذاته وإن لم يوحده موحد لأنه الواحد قبل إيجاد الموحدين له وإذا تقرر مذهب الصوفى فى التوحيد بهذا التقرير وهو عدم ملاحظة نفسه وغيره مما سوى الله كان حقا ولا يلزم منه حلول ولا اتحاد مع شىء من خلقه فإن ذلك محال باطل.

ومعنى قوله فى البيت الثانى عارية أن الحضرة الإلهية إذا لم يكن معها نطق ولا رسم على الحقيقة كان إثباتهما عارية معنى استعير له اسم الوجود وهو ما يعبر عنه بالمجاز والاستعارة لأن التفريع على أن الوجود الحقيقى هو الواجب لا الوجود الممكن وهذا على طريق العارية ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾[1] وقال ﷺ فى الكهان «ليسوا بشىء»[2] وقال للمسىء صلاته: «ارجع فصل، فإنك لم تصل»[3] فهذان شاهدان من الكتاب والسنة.

ومما يحكى عن الجنيد سيد الطائفة إنى ليخطر لى النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة وأما على المشهور الشائع فإن الخلاف من كون الوجود ينطلق على القديم والحادث من المشترك أو من المتواطئ أو من المشكل خلاف مشهور ومعنى قوله فى البيت الثالث توحيد إياه أى توحيد الحق تعالى نفسه أى علمه بوحدانيته هو التوحيد لأنه قبل أن يوجد الخلائق كما فى حديث عمران بن حصين «كان الله ولم يكن شىء وكان عرشه على الماء»[4] الحديث ويستمر توحيده نفسه بعد خلق الخلق لأنهم

---

(١) سورة النور - آية ٣٩.

(٢) رواه عبد الرزاق فى مصنفه.

(٣) سورة غافر - آية ١٦.

(٤) رواه البخارى.

لم يوحدوه إلا بأقداره وتعليمه وإعلامه فلسان العبد كالآلة كما قال تعالى: «فبى ينطق» ويستمر بعد فناء الخلق كما قال الله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فلا يجيبه أحد فيجيب نفسه ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[1] وقوله: «ونعت من ينعته لأحد» أى وصف الذى يصفه من خلقه إذا كان مع إثبات رسمه وفعله واعتقاده وجودهما مع وجوده فهو بذلك لأحد أى مائل عن جهة الحق كما سبق تقريره فحقق ذلك واجتنب غيره.

وقال حجة الإسلام الغزالى رضى الله عنه فى مشكاة الأنوار: ومن هاهنا ترقى العارفون من حضيض المجاز واستكملوا معارجهم فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس فى الوجود إلا الله وأن ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[2] لا أنه يصير هالكا فى وقت من الأوقات بل هو هالك أزلا وأبدا لا يتصور إلا كذلك وأن كل شىء سواه إذا اعتبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض وإذا اعتبر من الوجه الذى سرى إليه الوجود من الأول الحق فهو موجود لا فى ذاته ولكن من الوجه الذى يلى موجده فيكون الموجود وجه الله تعالى.

ولكل شىء وجهان: وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه فهو باعتبار وجه نفه عدم وباعتبار وجه الله تعالى موجودا فإذا لا موجود إلا الله ووجهه فإذا ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أزلا وأبدا ولم يفتقر هؤلاء العارفون إلى قيام القيامة ليسمعوا نداء البارى تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أبدا ولم يفهموا من معنى قوله: الله أكبر أنه أكبر من غيره حاشا لله إذ ليس معه فى الوجود غيره حتى يكون أكبر بل ليس لغيره رتبة المعية بل رتبة التبعية بل ليس لغيره وجود إلا من الوجه الذى يليه.

---

(١) سورة غافر - آية ١٦.

(٢) سورة القصص - آية ٨٨.

فالموجود وجهه فقط ومحال أن يقال له أكبر من وجهه بل معناه أنه أكبر من أن يقال لـه أكبر بمعنى الإضـافة والمقـايـة وأكـبر من أن يدرك غـيره كنه كبريائه نبيا كان أو ملكا بل لا يعرف الله كنه معرفته إلا الله.

• حقيقة رؤية الأشياء عند القوم:

اعلم أن أرباب البصائر مـا رأوا شيئا إلا ورأوا الله تعـالى معه وربما زاد على هذا بعضهم فـقال ما رأيت شيئـا إلا ورأيت الله قبله لأن منهم من يرى الله فيرى الأشياء به ومنهم من يرى الأشياء فيراه بالأشياء وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1] وإلى الثانى الإشارة بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾[2] فالأول صاحب مشاهدة والثانى صاحب استدلال بآياته فالأول درجـة الصديقين والثانى درجة العلماء الراسخين فليس بعدهما إلا درجة الغافلين المحجوبين.

• الفرق بين أهل البصرة والبصيرة:

وقال شـيخنا العـارف سيدى مـحمـد المغربى رحمـه الله اعلم أن هذه الأشياء الدليل المشاهد فى أعين أهل البصـر وهو العالم كما هو عليه غين لا عين هذا الذى يجب اعتقاده وفى عين أهل البـصيرة عين لا غين بشرط تحوله إلى حاله الوارد منه وإليه كـما قال سلطان أهل المحبـة ابن الفارض قدس الله روحه حيث يقول:

فلمـا اجتليت الغـين عنى اجتليـتنى مـفيـقـا فمـنى العين بالـعين قـرت

فحال أهل البصر كمن هـو فى الليل لا يشهد إلا ليلا وليس للنهار فى عينه أثر وإن كان له فى عين بصيرته علم وخبر، وحال أهل البصيرة كمن هو

---

(١) سورة فصلت - آية ٥٣.

(٢) سورة فصلت - آية ٥٣.

بالنهار لا يشهد إلا نهارا وليس لليل فى عين شـــهوده أثر وكما أن جبريل فى الصورة البشرية هو عند النبى ﷺ ملك لا بشـــر وعند غيره بشر لا ملك وقد تقدم الكلام على ذلك وإنما ذكرته ثانيا لتقدير المقام التوحيدى.

• المراد بالغين فى اللغة وأرباب السلوك:

• تنبيه:

الغين فى اللغة: الغشاء والتغطية قال أبو عبيدة وأصلة فى غين السماء وهو إطباق الغيم وقال غيره من أئمة اللغة: شىء يغشى القلب ولا يغطيه كل التغطية كالغيم الرقيق الذى يعرض فى الهواء فلا يمنع ضـــوء الشمس، وأما فى اصطلاح أرباب السلوك فهو تغطية شهود الحق تعالى بشهود الأغيار.

• تأويل حديث يوهم الغين له ﷺ:

وليس من قوله ﷺ: "إنه ليغان على قلبى فى اليوم أكثر من سبعين مرة فأستغفر الله"[1] لأنه ﷺ منزه عن شهود الأغيار التى هى حجاب عن شهود الحق تعالى ولأنه لم يزل حـاضرا مع الله تعالى شاهدا لتـجلياته على الدوام وإنما المراد بالغين هنا اخـتلاف التجليـات الواردة على قبله ﷺ لأن كل تجلى من التـجليات غـير التـجلى الآخر لا غـين كمـا أن التجلى الصـفاتى غـين وحجاب عن التـجلى الذاتى لأنه لا عينه فحينئذ فـالغين الوارد على قلبه إنما هو اختلاف التجليات على كثرة أنواعها لا غير ذلك.

ومما يشهـد لهذا التقـرير قول الأستـاذ الربانى أبى الحسن الشـاذلى لقد أشكل على معنى قـوله عليه الســلام: "إنه ليغان على قلبى" فسرأيت الرسول ﷺ وهو يقول لى: يا مبارك ذاك غين الأنوار لا غـين الأغيار كذا نقله الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله فى لطائف المنن.

---

(١) رواه مسلم.

وقال الشيخ عبد السلام المقدسى فى حل الرموز ليس هذا الغين غين حجاب ولا غفلة ومن ظن ذلك بنبيه فقد أخطأ فى حقه وأساء ظنه به وإنما كان ﷺ يستغرقه أنوار التجليات فغيب بذلك الحضور ثم يسأل الله تعالى ان يستر عليه حاله فيطلب المغفرة وهى الستر لأنها مأخوذة من الغفر فكأنه سأل ستر حاله عليهم لأن الخواص لو دام لهم التجلى وما يكاشفهم به لتلاشوا فى ظهور سلطان الحقيقة فالستر لهم هناك رحمة.

وأما الستر للعوام فعقوبة لأنه حجاب لهم وغطاء على أعين بصائرهم فإنهم مستورون عنه بغيره والخواص مستورون به عما سواه.

قلت: والستر حينئذ ليس ستر حجاب شهود الأغيار بل إنما هو ستر نور الذات المحرق المهلك لسائر الموجود وهى التجلى الذاتى بنور تجلى الصفات الرحمانية ولهذا قال سلطان أهل المحبة ابن الفارض على لسان وارد الحقيقة.

ولولا احتجابى بالصفات لأحرقت مظاهر ذاتى من سنا سبحيتى

قال شيخنا العارف بالله تعالى قطب الوجود سيدى محمد المغربى أى ولولا احتجاب الذات بالصفات عند التجليات لأحرقت سائر الموجودات التى هى مظاهر أدلة ثبوت وجود مرآه عين شهود ذاتهَ: إذ لا بقاء للحادث مع إشراق شمس القدم والسناء هو الإشراق والسبحية هى جلال الحق سبحانه.

• وجه إيثار صفة الرحمة فى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾:

ومنه قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[1] ولم يقل «الله» فسرى سر الرحمانية فى العرش فما دونه إلى تحت تخوم الثرى فثبت ولو قال (الله) على العرش استوى لدك العرش فما دونه دكة واحدة من هيبة جلال الذات التى تقطع جبل طور سيناء وصار دكا فى بارقة من نور جلاله.

---

(١) سورة طه - آية ٥.

• أنواع التجلى:

والتجلى تجليات: تجلى ذاتى وتجلى صفاتى فالذاتى جلالى والصفاتى جمالى فكل إيجاد وإنشاء من أثر إيجاد الجمال وكل إعدام وإهلاك من أثر إشراق الجلال مثال ذلك إشراق الشمس على التدريج شيئا فشيئا فلو تجلت بجرمها بلا حجب من السماوات تكفها وتضعف حدة إشراقها لتركت النبات هشيما والحيوانات رميما وأهلكت هلاكا عظيما ولكنها بذاتها احتجبت وبلطيف جمالها ونورها اقتربت فربت وأثرت فانظر إلى أثر صفة هذه الذات وهو إشراق الشمس باللطيفة المنتجة قبل الشديدة المنضجة على النبات ثم انظر إلى أثر رحمة الله كيف يحى الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات.

وقال العارف بالله تعالى الحسين بن منصور الحلاج قدس الله روحه حجبهم بالاسم فعاشوا ولو أبرز لهم علو القدرة لطاشوا ولو كشف لهم عن الحقيقة لماتوا.

• شبهة وجواب

* تذنيب: قد يستشكل وقوع الاستغفار من النبى ﷺ مطلقا من غير غين وهو معصوم والاستغفار يستدعى وقوع خطيئة وأجيب عن ذلك بعدة أجوبة:

أحدها: ما قدمناه فى الغين المخصوص بمقامه ﷺ.

ثانيها: على الإطلاق وهو هفوات الطباع البشرية التى لا يسلم منها أحد.

• تفسير الحديث: إنه ليغان على قلبى

والأنبياء وإن عصموا من الكبائر فلم يعصموا من الصغائر كذا صرح به ابن الجوزى وهو مفرع على خلاف المختار والراجح عند جمهور العلماء عصمتهم من الصغائر أيضا.

ثالثها: قول ابن بطال: الأنبياء أشد الناس اجتهادا فى العبادة لما أعطاهم الله تعالى من المعرفة فهم زائدون فى شكره معترفون له بالتقصير انتهى ومحصل هذا الاستغفار من التقصير فى أداء الحق الذى يجب لله تعالى ويحتمل أن يكون لانشغاله بالأمور المباحة من أكل أو شرب أو جماع أو نوم أو راحة أو مخاطبة الناس والنظر فى مصالحهم ومحاربة عدوهم تارة ومداراته أخرى وتأليف المؤلفة وغير ذلك مما يحجبه عن الانشغال بذكر الله والتضرع إليه ومشاهدته ومراقبته فيرى ذلك ذنبا بالنسبة إلى المقام العلى وهو الحضور فى حظيرة القدس.

رابعها: أن استغفاره تشريع لأمته ليستغفروا.

خامسها: أن استغفاره كان بسبب ما اطلع عليه من أحوال أمته من ذنوبهم وما يكون منها بعده فكان يستغفر لهم.

سادسها: ما ذكره حجة الإسلام الغزالى فى الإحياء حيث قال: كان النبى ﷺ دائم الترقى فى المقامات سريع التنقل فى المنازلات فكان إذا ترقى من مقام إلى غيره اطلع على المتنقل عنه فظهر له أنه نقص بالنسبة إلى المتنقل إليه فكان يستغفر الله تعالى من الأول ويتوب منه كما فى الحديث الآخر «يا أيها الناس توبوا فإنى أتوب إلى الله فى اليوم مائة مرة»(١).

وقد أشار سيد الطائفة الجنيد إلى هذا بقوله حسنات الأبرار سيئات المقربين وتعقبه شيخ الإسلام ابن حجر بأنه يدل على وقوع الاستغفار موقوفا بحسب تعدد الأحوال وظاهر ألفاظ الحديث يخالف ذلك لكن قال شيخنا الحافظ قاضى القضاة قطب الدين الخيضرى.

وعندى فى هذا نظر بل الذى يدل عليه مجموع الأحاديث أنه كان يفعل ذلك تارة فى مجلس واحد وتارة مفرقا لقوله «فى اليوم» وهو على الاحتمال مع أن فى رواية أحمد من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله

---

(١) رواه مسلم.

عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إني لأستغفر الله في كل يوم وليلة مائة مرة» فهذا ظاهره التفرقة ويحتمل الاجتماع مرة ليلا ومرة نهارا والأول أقرب، وثم أقوال أخر غير ذلك فمنها ما يظهر لي وهو إظهار الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى فإنه وإن كان في غنية عنه أحب ان يكون مستديما للتذليل والانكسار وذلك مثل سؤاله في الفاتحة هداية الصراط المستقيم مع أنه على أعظم الطرق المستقيمة والله أعلم.

ومنها ما ذكره ابن الفارض بأن عدد السبعين ورد في حديث آخر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ «والله إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة» أخرجه البخاري والترمذي عن أبي هريرة بلفظ «إني لا استغفر الله في اليوم سبعين» فحينئذ يحتاج إلى الجمع بين الروايات والذي يظهر أن رواية أكثر من سبعين مبهمة فيحتمل تفسير الأكثرية ببلوغ المادة، وإنما نص على السبعين لأنها العدد المعروف وأما رواية الجزم بالتعيين فالحديث يحتمل العدد فتارة كان يفعل مائة وتارة سبعين وتارة أكثر والله أعلم.

فصل

تفسير الغين اللائق بمقامه ﷺ

لقد ساق القاضي عياض في الشفا اختلاف العلماء في تفسير الغين اللائق بمقامه ﷺ.

وها أنا أذكره بالحرف ليكون شرحا وبيانا لما تقدم فقال ما نصه: فإن قيل فما معنى قوله عليه السلام «إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله كل يوم مائة وفي طريق في اليوم أكثر من سبعين مرة» فاحذر أن يقع ببالك أن يكون هذا الغين وسوسة أوريبا وقع في قلبه عليه السلام بل أصل الغين في هذا ما يتغشى القلب ويغطيه. قاله أبو عبيدة وأصله من غين السماء وهو إطباق الغيم عليها.

وقال غـيره: والغين شيء يغشى القلب ولا يـغطيه كل التغطية كـالغيم الرقيق الذى يعـرض فى الهواء فلا يمنع ضوء الشمس، وكـذلك لا يفهم من الحديث أنه يغان على قلبـه مائة مرة أو أكثر من سبعـين مرة فى اليوم إذ ليس يقتـضيه لفظه الذى ذكـرناه وهو أكثر الروايات وإنما هذا عـدد للاستغـفار لا للغين فيكون المراد بهذا الغـين إشارة إلى غفلات قلبه وفترات نفـسه وسهوها عن مداومة الذكر ومشاهدة الحق تعالى بما كان ﷺ دفع إليه من مقامات البشر وسياسـة الأمة ومعاناة الأهل ومـقاومة الولى والعدو ومصلحـة النفس وكلفة أعباء أداء الرسالة وحمل الأمانة وهو فى كـل هذا فى طاعة ربه وعبادة خالقه ولكن لما كـان رسـول الله ﷺ أرفع الخلق عـند الله مكانة وأعـلاهم درجـة وأتمهم به معرفة وكانت حاله عند خلوص قلبه وخلو همته وتفرده بربه وإقباله بكليته عليه ومـقامه هناك أرفع حالة رأى عليه السلام حال فـترته عنها وشغله بسواها غصـا من على حاله وخفضا من رفيع مـقامه فاستغـفر الله تعالى من ذلك.

هذا أولى وجوه الحديث وأشهرها وإلى معنى مـا أشرنا به مال كثير من الناس وحـام حوله فـقارب ولم يرد الماء وقـد قـربنا غامض مـعناه وكشـفنا للمستـفيد محـياه وهو مبنى على جواز الفتـرات والغفلات والسهـو فى غير طريق البلاغ على ما سيأتى.

وذهبت طائفة من أرباب القلوب ومشيخـه المتصوفة ممن قال بتنزيه النبى ﷺ عن هذا جملة واحـدة وأصله أن يجوز عليه فى حـال سهو أو فـترة إلى معنى الحديـث ما يهم خاطره ويغم فكره من أمر أمـته عليه السلام لاهتـمامه بهم وكثرة شـفقته عليـهم فيستغـفر لهم قالوا وقد يكون الغـين هنا على قلبه السكينة التى تتغشاه لقوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾[1] ويكون استغفاره عليه السلام عندها إظهار العبودية والافتقار.

---

(١) سورة التوبة - آية ٤٠.

وقال ابن عطاء: استغفاره وفعله هذا تعريف للأمة بحملهم على الاستغفار، وقال غيره: ويستشعرون الحذر ولا يركنون إلى الأمن وقد يحتمل أن تكون هذه الإغانة حاله خشية وإعظام تغشى قلبه فيستغفر حينئذ شكرا لله وملازمة لعبوديته كما قال فى ملازمة العبادة «أفلا أكون عبدا شكورا»[1] وعلى هذه الوجوه الأخيرة تحمل ما روى فى بعض طرق هذا الحديث عنه عليه السلام «إنه ليغان على قلبى أكثر من سبعين مرة فأستغفر الله» انتهى كلام القاضى رحمه الله. وقال النووى فى شرح مسلم قوله ﷺ «إنه ليغان على قلبى وإنى لأ استغفر الله فى اليوم مائة مرة».

قال أهل اللغة: الغين بالغين المعجمة والغيم بمعنى واحد والمراد هنا ما يغشى القلب ثم نقل كلام القاضى النووى عياض وقال فى آخره: وقيل هو شيء يعترى القلوب الصافية مما تتحدث به النفوس فيهو شها وهذا زاده على كلام القاضى.

وقال البرماوى فى شرح البخارى فهو: إن كان ﷺ معصوما لا ذنب له أصلا لكن استغفاره نفسه عبادة فهو يتبعد به أو تعليم لأمته أو من ترك الأولى أو تواضعا أو «عما» لعله سهى فيه أو لما قبل النبوة أو لأنه لما اشتغل بمصالح الأمة على عظيم مقامه وهو حضوره مع الله تعالى وفراغه عما سواه رأى ذلك ذنبا بالنسبة إليه وإن كان الذى اشتغل به من أفضل الطاعات لكنه نزول عن عالى درجاته، أو أنه لما كان دائما فى الترقى فى الأحوال السنية فإذا رأى ما قبلها دون ما صار إليه استغفر منه كما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين أو أنه تتجدد غفلات الطبع فيفتقر للاستغفار، قلت: وبعض هذه الأوجه من بعض والقصد ظاهر الحديث.

• تنبيه

سئل الحافظ أبو زرعة العراقى عن قوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبى» فإن

---

(١) رواه البخارى.

الأقوال كثرت وانتشرت فى تفسير معناه فأى قول أصح وأشبه بحاله ﷺ وهل قوله بعد ذلك «وإنى لأستغفر الله» معقب عليه أم يحتمل أن يكون كلاما برأسه؟ فأجاب رحمه الله بكلام القاضى عياض المتقدم بحروفه ثم قال والحديث المذكور هو المذكور فى صحيح مسلم وفى سنن أبى داود من حديث الأغر المزنى بهذا اللفظ: «إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة» هذا لفظ مسلم.

وقال أبو داود «فى كل يوم» والظاهر أن الجملة الثانية مترتبة على الأولى وأن سبب الاستغفار الغين ويدل لذلك قوله فى رواية النسائى فى عمل اليوم والليلة «إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله فى كل يوم مائة مرة» وفى رواية له أيضا فأستغفر الله والألفاظ المختلفة يفسر بعضها بعضا ويحتمل من حيث اللفظ أن تكون الجملة الثانية كلاما ما برأسه غير متعلق بما قبله فيكون عليه الصلاة والسلام أخبر بأنه يغان على قلبه وأنه يستغفر الله فى اليوم مائة مرة وعلى هذا الاحتمال أن يكون عليه السلام هو الذى جمع بين هاتين الجملتين ويحتمل أن يكون الجمع بينهما من الراوى ويكون النبى ﷺ قال كل جملة على انفرادها.

ولكن أظهر الأظهر وإذا قلنا بالأول فنسأل عن الحكمة فى الجمع بينهما والذى يقال فى ذلك أنه أخبر بحصول ذلك الغين مع الاستغفار فى اليوم مائة مرة فما ظنك بمن لم يستغفر أو استغفر أقل من ذلك الاستغفار وعلى هذا فيظهر أن هذه الجملة حالية أخبر أنه يغان على قلبه مع أن حاله الاستغفار فى اليوم مائة مرة وهى حال مقدرة لأن الغين ليس موجودا إلى الاستغفار بل إذا جاء الاستغفار أذهب ذلك الغين وعلى تقدير تعلق أحد الجملتين بالأخرى وان الثابتة مسببة عن الأولى فيحتمل أن يكون هذا الغين تغطية للقلب عن أمور الدنيا وحجابا بينه وبينها فيجتمع القلب حينئذ على الله تعالى ويتفرغ للاستغفار شكرا وملازمة للعبودية.

• ترجيح المؤلف للوجه الأخير:

وقد تقدم هذا الاحتمال فى قول القاضى عياض وقد تقدم أن تكون هذه الإغانة حالة خشية وإعظام تغشى قلبه إلى آخر كلامه وهو عندى حسن جدا وتكون هذه الجملة الثانية مسببة عن الأولى لا بمعنى أنه يسعى بالاستغفار فى إزالة الغين بل بمعنى أن الغين وصف محمود وهو الذى تسبب عنه الاستغفار وترتب عليه، وهذا أنزه الأقوال وأحسنها، لأن الغين حينئذ وصف محمود وهو الذى ينشأ عنه الاستغفار.

وعلى الأول يكون الغين بما يسعى فى إزالته بالاستغفار وما ترتب الإشكال وجاء السؤال الأعلى تفسيره وأهل اللغة إنما فسروا الغين بالغشاء فيحمل على غشاء يليق بحاله ﷺ وهو الذى يصون القلب ويحجبه عن أمور الدنيا لاسيما وقد رتب على هذا الغشاء أمرا محمودا وهو الاستغفار فما نشاهد الأمر الحسن إلا عن أمر حسن والله أعلم.

فصل

تأصيل علم الحقيقة

الأصل فى علم الحقيقة أحاديث وآثار منها ما أخرجه الشيخان عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ أنه قال: «إن موسى قال للخضر هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا قال إنك لن تستطيع معى صبرا يا موسى إنى على علم الله علمنيه لا ينبغى لك أن تعلمه، وأنت على علم علمك الله لا ينبغى لى أن أعلمه».

قال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى قوله: «لا ينبغى لك أن تعلمه» أى جميعه وكذا قوله «لا ينبغى لى أن أعلمه» أى جميعه قال وتقدير ذلك معتبر، لأن الخضر كان يعرف من الحكم الظاهر ما لا غنى بالمكلف عنه وموسى كان يعرف من الحكم الباطن ما يأتيه بطريق الوحى،

وقال شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى قد يستشكل هذا فإن العلم المذكور فى الجهتين كيف لا ينبغى علمه؟ وجواب هذا الإشكال: أن علم الحقائق ينافى علم الظاهر فلا ينبغى للعالم الحاكم بالظاهر أن يعلم الحقائق للتنافى ولا ينبغى للعالم بالحقيقة أن يعلم العلم الظاهر الذى ليس مكلفا به إذا كان ينافى ما عنده من الحقيقة.

• العمل عند تعارض الظاهر والباطن:

قال ويمكن حمل العلم على تنفيذه. والمعنى لا ينبغى لك أن تعلمه لتعمل به لأن العمل به مناف لمقتضى الشرع ولا ينبغى لى أن أعلمه فأعمل بمقتضاه لأنه مناف لمقتضى الحقيقة قال: وهذا لا يجوز للولى التابع للنبى ﷺ إذا اطلع على حقيقة أن ينفذ ذلك بمقتضى الحقيقة وإنما عليه أن ينفذ الحكم الظاهر انتهى.

قال ابن عطية: وكان أبو الفضل الجوهرى يقول فى وعظه: مشى موسى عليه السلام لمناجاة ربه تعالى أربعين يوما لم يحتج إلى طعام ولما مشى إلى بشر لحقه الجوع. والإشارة فى ذلك أن موسى وفتاه يوشع عليهما السلام كانا متعلمين وطالب العلم من حقه أن يحمل كل مشقة ولا يبالى بصيف ولا شتاء ولا جوع ولا ذل، لأن الذى يطلب لا يعرف قيمته إلا صاحبه ومن عرف قدر ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن طلب العظيم خاطر بالعظيم. وقال شيخنا العارف بالله تعالى سيدى محمد المغربى وهذا السيد موسى قد اجتمع فيه النبوة والرسالة والتكلم وهو كما أخبر عليه السلام أنه أعلم أهل الأرض أى بعلم الشريعة التى هى ضرورة الإرسال دون غوامض أسرار الحقيقة التى تنافى ظاهر الشريعة ومع ذلك قال لمن هو دونه فى الرتبة إلى من تكاملت فيه آداب الشريعة أن يطرق بها باب الحقيقة لعل أن يفتح له وهو باب الكمال ليصير فيه.

• تنبيه:

أخرج النسائى والترمذى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن ابى بن كعب وأبى هريرة رضى الله عنهم وهو أول الحديث الذى تقدم تخريجه عن الشيخين أن النبى ﷺ قال «قام موسى النبى عليه السلام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل: أى الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، فعتب الله تعالى عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن عبدا من عبادى بمجمع البحرين هو أعلم منك» وفى الرواية الأخرى، أنه قيل له: «أتعلم أحدا أعلم منك: قال موسى: لا، فأوحى الله تعالى إلى موسى بل عبدنا خضر».

• وجه الحكمة فى اختيار مجمع البحرين للقاء

قال قتادة: مجمع البحرين هما: بحر فارس وبحر الروم مما يلى المشرق وقيل: هما بحر الأردن وبحر القلزم، والحكمة فى جمع موسى مع الخضر عليهما السلام بمجمع البحرين أنهما بحران فى العلم أحدهما أعلم بالظاهر وأعنى علم الشريعة وهو موسى، والآخر أعلم بالباطن علم الحقيقة وأسرار الملكوت وهو الخضر فكان اجتماع البحرين بمجمع البحرين مناسبة...

* **إشارة:** اعلم أن موسى عليه السلام لم يجد من هو دونه وهو الخضر حتى تجرد من كل شىء سواه وكذا العبد لا يجد قرب مولاه وحبه حتى يتجرد من كل شىء سواه قال الشبلى: انفرد بالله حتى تكون مجردا عن الأغيار وتكون واحدا للواحد فردا للفرد.

• الاختلاف فى اسم الخضر

• «تفريع»:

اسم الخضر مضطرب فيه اضطرابا مباينا فقيل: إنه بَليا بن ملكان فالغ ابن شامخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام قاله وهب بن منبه وقيل: إليا بن عاميل بن شمالخين بن أديا بن علقما بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام وقيل: اسمه أرميا بن حليفا من سبط هارون قاله الإمام الثعلبى.

قال الشيخ كمال الدين الدميرى فى حياة الحيوان الكبرى قلت: والأصح ما قاله أهل السير وثبت عن النبى ﷺ كما قاله البغوى وغيره أن اسمه بليا «بباء مفتوحة واللام مسكنة ويا مثناه من تحت وفى آخره ألف» ابن ملكان بفتح الميم وإسكان اللام وبالنون فى آخره» وقيل كليان.

وقيل كان من بنى إسرائيل وقيل كان من أبناء الملوك وكنيته أبو العباس وقال السهيلى: وقد ذكر أن الخضر هو أرميا وهو مردود كذا قاله محمد بن جرير الطبرى وذكر أيضا لأنه اليسع صاحب إلياس.

وقال النقاش: إنه ابن فرعون صاحب السيد موسى قلت هذا قول غريب وأغرب منه وأعجب قول من قال إنه من الملائكة وسيأتى ذلك إن شاء الله تعالى.

قال السهيلى أيضا كان أبوه ملكا وامه اسمها «اتها» وإنها ولدته فى مغارة وانه وجد هناك شاة ترضعه فى كل يوم من غنم رجل من القرية فلما وجده الرجل أخذه ورباه فلما شب طلب أبوه كاتبا وجمع أهل المعرفة والنبالة ليكتب الصحف التى انزلت على إبراهيم وشيث عليهما السلام فكان فيمن أقدم عليه من الكتاب ابنه الخضر وهو لا يعرفه فلما استحسن خطه ومعرفته بحث عن جلية أمره فعرف أنه ابنه فضمه لنفسه وولاه أمر الناس ثم إن الخضر فر من الملك لأسباب يطول شرحها ولم يزل سائحا إلى أن وجد عين الحياة

فشـرب منها فهو حـى إلى أن يخرج الدجال وإنه الرجل الذى يقـتله الدجال ويقطعه ثم يحييه الله تعالى انتهى.

• اسم ذى القرنين:

قال صاحب ابتلاء الأخيار. اسم ذى القرنين الإسكندر قال: وكان أبوه أعلم أهل الأرض بعلم النجوم ولم يرقب أحـد الأفلاك مراقبته وكـان قد مد الله تعالى له فى الأجل فقـال ذات ليلة لزوجته قد قتلنى السهـر فدعينى أرقد ساعة وانظرى فى السماء فإذا رأيت[1] قد طلع فى هذا المكان نجم وأشار بيده إلى موضع طلوعه فـانبهينى حتى أطأك فتعلقين بولد يعيش إلى آخر الدهر، وكانت أختها تسمع كـلامه ثم نام أبو الإسكندر فجعلت أخت زوجته تراقب النجم فلمـا طلع أعلمت زوجها بالقـصة فـوطئها فـعلقت منه بالخضـر عليه السلام فكان الخضر ابن خالة الإسكندر ووزيره.

فلما استيقظ أبو الإسكندر رأى النجم قـد نزل فى غير البرج الذى كان يرقبه فقال لزوجـته لم تنبهينى[2] قال: استحيت والله فـقال لها: أما تعلمين أنى أرقب هذا النجم منذ أربعين سنة والله لقد ضيـعت عمرى فى غير شىء ولكن الساعة يطلع فى أثره نجم فأطأك فتعـلقين بولد يملك قرنى الشمس فما كان إلا قليـلا وطلع النجم فواقـعها فـعلقت بالإسكندر وولد الإسكندر وابن خالته فى ليلة واحدة ثم إن الإسكندر فتح الله تعالى عليه بتمكينه فى الأرض وفتح البلاد وكان من أمره ما كان[3].

• تنبيه:

اختلف فى سبب تلقيب الخضر بـالخضر فقل الأكثرون: إنه جلس على فروة بيضاء فـإذا هى تهتز من خلفه خضراء والسفروة وجه الأرض وقيل: لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله، والصواب الأول.

---

(١) فى المخطوط (رأيتى).

(٢) فى المخطوط (لم لا نبهتينى).

(٣) هذه حكايات لا دليل عليها.

• الاختلاف حول حياة الخضر:

واختلف فى حيـاته فقال الإمام محى الدين النووى وجمـهور العلماء: هو حى موجود بين أظهرنا قال: وهذا متفق عليه عند الصوفية وأهل الصلاح والمعرفـة وحكاياتهم فى رؤيته والاجـتماع مـعه والأخذ عنه وسـؤاله وجوابه ووجوده فى المواضع الشريفة ومواطن الخيـر أكثر من ان تحصى وأشهر من أن تشتهر.

وقال الحـافظ إمـام أهل الحديث أبو عـمرو بن الصـلاح: هو حى عند جماهير العلماء والصالحين، والعلماء معهم على ذلك وإنما شذ بإنكاره بعض المحدثين انتهى، وقال الحسن: إنه مات.

وقـال ابن المناوى لا يثـبت حديث فـى بقائه وقـال الإمـام أبو بكر بن العربى: مـات قبل انقـضاء المائة ويقـرب من هذا جواب الإمـام محـمد بن إسماعيل البـخارى لما سئل عن الخضر و إلياس هل هما فى الإحـياء؟ فقال: كيف يكون ذلك وقـد قال النبى ﷺ: «لا يبقى عـلى رأس مائة سنة ممن هو اليوم على وجه الأرض أحد»(١).

قال الدمـيرى والصحيح بل الصـواب أنه حى وقال بعضهم إنه اجـتمع بالنبى ﷺ وعزى أهل بيـته وهم مجـتمعون لغـسله وقد روى ذلك من طرق صحاح فى التـمهيد لابن عبـد البر إمام أهل الحدث فى وقتـه رحمه الله «أن رسول الله ﷺ حـين غسل وكـفن سمعـوا قائلا يقول: السـلام عليكم أهل البـيت إن لله خلفـا من كل هالك وعـوضـا من كل تالف، وعـزاء من كل مصيبة، فعليكم بالصبر واحـتسبوا ثم دعا لهم ولا يرون شخصه فكانوا يرون أنه الخضر يعنى أصحاب رسول الله ﷺ واهل بيته» انتهى.

---

(١) رواه البخارى.

• الاختلاف حول نبوته:

واختلف فى نبوته فقال الأستاذ أبو القاسم القشيرى واليافعى وجمهور العلماء: هو ولى، وقال بعضهم: هو نبى ورجحه النووى وحكى الماوردى فى تفسيره ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنه نبى.

والثانى: أنه ولى؟

والثالث: من الملائكة وهذا القول غريب.

وقال المازرى: اختلف العلماء هل هو نبى أو ولى فقال جماعة: هو نبى واحتجوا بقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾[1] فدل على انه نبى يوحى إليه وبأنه أعلم من موسى ويبعد أن يكون ولى أعلم من نبى وأجاب الآخرون بأنه يجوز أن يكون قد أوحى الله تعالى إلى نبى ذلك العصر بأن يأمر الخضر بذلك انتهى.

واختلف فى كونه مرسلا فقال الثعلبى الخضر نبى مرسل بعثه الله تعالى بعد شعيب وهو معمر محجوب عن أبصار كثير من الناس قال: وقيل إنه لا يموت إلا فى آخر الزمان حين يرفع القرآن.

• تنبيه:

قال اليافعى فى نشر المحاسن: سأل جماعة من الفقهاء سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام عن الخضر أهو حى؟ فقال: ما تقولون لو أخبركم الشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد أنه رآه بعينه أكنتم تصدقونه أم تكذبونه؟ فقالوا: نصدقه فقال: فقد والله أخبر عنه سبعون صديقا أنهم رأوه بأعينهم كل واحد منهم أفضل من ابن دقيق العيد. انتهى كلامه.

قال اليافعى قلت: وهذا هو الصحيح المختار عند المحققين أن العلماء

---

(١) سورة الكهف - آية ٨٢.

بالله أرباب المعارف الإلهيات أفضل من العلماء بأحكام الله رضى الله عن الجميع، وبهذا قال الشيخ عز الدين المذكور وغيره وقال الشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد بعد أن ذكر أن بعض الأولياء رآه وهو خير صدق أن الخضر عليه السلام حى لأن الصديقين رضى الله عنهم لم يزالوا فى كل زمان يخبرون بأنهم اجتمعوا به وذلك مشهور مستفيض عنهم ويروى عنهم فى الكتب المشهورات التى رواها العلماء والثقات.

• أخبار عن اجتماع الأولياء بالخضر عليه السلام وعن حياته:

وقد روى بعض الشيوخ الكبار أن الشيخ الكبير العارف بالله سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه أقبل على الناس يوما وتكلم بكلام حسن، فقيل له: لو تكلمت كل يوم مثل هذا كنا قد انتفعنا فقال: إنما تكلمت اليوم لأنه جاءنى الخضر عليه السلام فقال لى: أقبل على الناس بوجهك وتكلم عليهم فقد مات أخوك ذو النون وقد أقمتك مقامه فلولا أن أستاذ الأستاذين أمرنى ما تكلمت عليكم.

قال الأستاذ العارف بالله تعالى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: رأيت الخضر عليه السلام فى تربة عيداب فقال لى: يا أبا الحسن أصحبك الله اللطيف الجميل وكان ذلك صاحبا فى الإقامة والرحيل. وليس فى الحديث الذى تعلق به بعض المحدثين فى الاحتجاج على موت الخضر عليه السلام حجة، لأنه متأول عند الجمهور من العلماء المحققين.

قلت: أخبرنى شيخنا العارف بالله قطب الوجود سيدى محمد المغربى أنه رآه واجتمع به غير مرة ونقل بعض المتأخرين أن حافظ العصر زين الدين العراقى اجتمع بالشيخ الإمام العارف بالله عفيف الدين اليافعى فوقع بينهما مناظرة فى حال الخضر فصار العراقى يميل إلى القول بموته تبعا لابن الجوزى ويقول: لو كان حيا لاجتمع بالنبى ﷺ ولو اجتمع به لورد وصار اليافعى يقطع بانه حى موجود عند جماهير العلماء ثم استطال فى الرد عليه بكلام ابن

الصلاح والنووى وغيرهما من الأئمة لاسيما فى اجتماع الصوفية عليه قديما وحديثا ثم قال اليافعى: إن لم ترجع للحق عن هذا الاعتقاد دعوت عليك، فرجع فى الحال قبل انفضاض المجلس انتهى.

• ورود ما يدل على حياة الخضر فى السنة:

فإن قلت: هل ورد شىء ثابت فى السنة يدل على حياته؟ فإن ابن المناوى وابن الجوزى زعما انه لم يثبت حديث فى بقائه قلت ورد ما يدل على بقائه فى عدة أحاديث وإن كانت ضعيفة فكثرة الطرق والأخبار يقويها فمن جملتها ما أخرجه ابن عدى والبيهقى عن كثير بن عبد الله بن عمْر بن عوف عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كان فى المسجد فسمع كلاما من ورائه فإذا هو بقائل يقول: اللهم أعنى على ما ينجينى مما خوفتنى فقال رسول الله ﷺ حين سمع ذلك: ألا تضم إليها أختها فقال: اللهم ارزقنى شوق الصالحين إلى ما شوقتهم إليه فقال النبى اذهب إليه فقل له يقول لك رسول الله ﷺ: تستغفر لى فجاء أنس فبلغه فقال الرجل: يا أنس أنت رسول رسول الله إلى، قال نعم، قال اذهب فقل له: إن الله فضلك على الأنبياء مثل ما فضل رمضان على سائر الشهور وفضل أمتك على الأمم مثل ما فضل يوم الجمعة على سائر الأيام فذهب ينظر إليه فإذا هو الخضر.

وأخرج الدار قطنى فى الأفراد والطبرانى فى الأوسط وابن عساكر من ثلاث طرق عن انس قال خرجت ليلة مع النبى ﷺ أحمل الطهور فسمع قائلا يقول: اللهم أعنى على ما ينجينى ما خوفتنى منه فقال رسول الله ﷺ: يا أنس ضع الطهور فإن رأيت هذا فقل له: ادع لرسول الله ﷺ أن يعينه على ما أتبعه وادع لأمته أن يأخذوا ما أتاهم به نبيهم من الحق فأتيته فقلت له: فقال مرحبا برسول رسول الله أنا كنت أحق أن آتيه، اقرأ على رسول الله ﷺ منى السلام وقل له: الخضر يقرأ عليك السلام ويقوله لك: إن الله فضلك على النبيين كما فضل رمضان على سائر الشهور وفضل أمتك على

الأمم كما فضل يوم الجمعة على سائر الأيام فلما وليت سمعته يقول: اللهم اجعلني من هذه الأمة المرحومة المتاب عليها انتهى.

ومما اشتهر قديما وحديثا حضوره مجالس الإملاء النبوى قال الحافظ الكبير أبو القاسم الأصبهانى فى الترغيب والترهيب: أخبرنا عبد الواحد بن إسماعيل الروياني فى كتابه قال: أخبرنا أبو محمد الخبازى قال: سمعت أبا الحسن النهاوندى الزاهد يقول لقى رجل الخضر فقال له أفضل الأعمال إتباع رسول الله ﷺ والصلاة عليه، قال الخضر: وأفضل الصلوات عليه ما كان عند نشر حديثه وإملائه يذكر باللسان ويكتب فى الكتاب ويرغب فيه شديدا ويفرح به كثيرا وإذا اجتمعوا لذلك حضرت ذلك المجلس معهم.

وأما قصة سيدنا[1] موسى عليه السلام معه فتركها لطولها وشهرتها لكن قال السهيلى: إن القرية هى برقة وقيل غير ذلك والله أعلم.

فصل

دليل آخر على الحقيقة

ومنها حديث عمر فى سؤال جبريل عليه السلام عن الإحسان قال رسول الله ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه فإنه يراك» أخرجه الشيخان.

• تفسير الهروى للإحسان:

قال الهروى فى منازل السائرين فى هذا الحديث إشارة جامعة لمذهب هذه الطائفة ثم قال فى باب الإحسان بعد أن استدل بقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾[2]: قد ذكرنا فى صدر الكتاب أن الإحسان اسم جامع يجمع أبواب الحقائق وهو أن تعبد الله كأنك تراه قال شارحه المحقق العارف كمال الدين القاشانى رحمه الله: المراد بأبواب الحقائق جميع الأبواب التى

---

(١) فى الأصل: السيد.

(٢) سورة الرحمن - آية ٦٠.

يشتمل عليها الكتاب فإنها حقائق يتحقق بها مذهبهم وإنما يجمعها معنى الإحسان، لأنها عبادات ومعاملات مبنية على المشاهدة التى هى معنى الإحسان فمن لم يبن عمله على ذلك المعنى لم ينفتح له باب الوصول إلى المقصود ولم يرجع بنصيب من اللقاء الموعود، وأما استشهاده بالآية على الإحسان بهذا المعنى فهو ان العبد إذا عبد الله حق عبادته كمن قال تعالى فيه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾(١) بمشاهدته إياه فى رعاية حقوقه وإسلام وجهه كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾(٢).

وقال تعالى فى حديث قدسى «أنا جليس من ذكرنى، وأنيس من شكرنى، ومطيع من أطاعنى».

وقال شيخنا العارف بالله سيدى محمد المغربى: هذا جامع بين الحقيقة والشريعة لأن قوله ﷺ «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» فهذا من علوم المكاشفة المحضة عند أرباب الحقائق بخلاف قوله «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» فهذا مجرد علوم المعاملة التى لا تتم إلا بعلوم المكاشفة كما صرح به الغزالى رحمه الله فى باب التوحيد لأن الكشفية من علوم الباطن التى لابد للسالكين منها ولا غنى للسائرين عنها فأما الملحظ الأول الأكمل فهو رؤية العين بإشارة قوله كأنك تراه ولقوله ﷺ: «وجعلت قرة عينى فى الصلاة»(٣) ومعلوم أن العين لا تقر إلا برؤية محبوبها لقوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾(٤) هذا ملحظ الحقيقة.

وأما الملحظ الثانى: فهو النزول عن رتبة شهود العين إلى رتبة العلم بأنه

---

(١) سورة النساء - آية ١٢٥.

(٢) سورة البقرة - آية ١٥٢.

(٣) رواه أحمد فى مسنده.

(٤) سورة القصص - آية ١٣.

يراك وهذه الرتبة لا يجوز للعارف النزول إليها، لأنها سيئة وردة معنوية عند المقربين ولمثل هذا المقام أشار الأستاذ ابن الفارض بقوله:

وإن خطرت لي في سواك إرادة على خاطري سهوا قضيت بردتي

وأما النزول عن المقام الذي هو من حسنات الأبرار إلى الجهل برؤية الله تعالى لك في عبادتك فهو نزول والعياذ بالله إلى النار. انتهى.

• تنبيه:

تأويل ابن عطاء الله لحديث و«جعلت قرة عيني في الصلاة»:

سئل العارف بالله تعالى الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله عن قوله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» هل ذلك خاص به أو لغيره منه شرب ونصيب؟ فأجاب رحمه الله ما نصه: عن قرة العين بالشهود على قدرة المعرفة بالمشهود، والرسول ﷺ ليس معرفة كمعرفته فليس قرة عين كقرته وإنما قلنا إن قرة عينه في صلاته لشهوده جلال مشهود، لأنه قد أشار إلى ذلك بقوله في الصلاة ولم يقل بالصلاة إذ هو صلوات الله وسلامه عليه لا تقر عليه عينه بغير ربه وكيف وهو يدل على المقام ويأمر به من سواه لقوله ﷺ «اعبد الله كأنك تراه» ومحال أن يراه ويشهد معه سواه.

• تأويل آخر:

وقال بعض المتأولين وقد تكون قرة العين بالصلاة لأنها فضل من الله تعالى وبارزة من منة الله فكيف لا يفرح بها وكيف لا تكون قرة العين بها وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[1].

اعلم أن هذه الآية قد أومأت بالجواب لمن تأمل سر الخطاب إذ قال:

---

(١) سورة يونس - آية ٥٨.

﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ وما قال فبذلك فافرح يا محمد قل لهم يفرحوا بالإحسان والفضل وليكن فرحك أنت بالمتفضل كما قال فى الآية الأخرى ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1] هذا آخر كلامه فى الحكم. قال شارحه المحقق العارف بالله محمد بن عباد: وكانت منزلة نبينا محمد ﷺ عند ربه عز وجل أشرف المنازل ومرتبته فى المعرفة به أرفع المراتب بحيث لا يتصور أن يشاركه فى ذلك غيره به لانفراده بالمرتبة العليا والخاصية الكبرى فقوله صحيح وعليه يدل ظاهر قوله ﷺ «وجعلت قرة عينى فى الصلاة» بعد قوله «إنما حبب على إلى من الدنيا الطيب والنساء».

ولا شك أن حبه لهذين الأمرين ليس على قياس غيره لهما وإنما ذلك لوجود الخاصية التى اقتضت منه ذلك ألا ترى أنه أبيح له ما لم يبح لغيره من عدد الحرائر وأمن لأجل ذلك من وقوع مفسدة التباغض والتشاجر بسبب اجتماع الضرائر واستعماله ﷺ للطيب وحبه إنما هو للقائه الملائكة التى تناجيه وإلا فهو فى ذاته غنى عن الطيب واستعماله كما قال أنس بن مالك رضى الله عنه: «ما مست حريرا ولا خزا ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت رائحة قط مسكا ولا عنبرا أطيب من رائحة رسول ﷺ»[2] فإذا كان حاله فى هذين الأمرين على ما ذكرناه مع أنه لم يذكر فيهما سوى لفظ الحب وهما من لذات الدنيا فكيف يكون حاله فى الأمر الثالث مع أنه عبر فيه بقرة العين وهو غاية المحبة وهو من أعمال الآخرة؟.

ومعنى قوله «من الدنيا» أى فى الدنيا ومن قال إن لغيره منه شربا ونصيبا على المعنى الذى يليق بهذا الغير، فلقوله وجه. وجواب المؤلف رحمه الله محتمل لهذين الوجهين والله أعلم بما أراد منهما ومن غيرها.

---

(١) سورة الأنعام - آية ٩١.

(٢) رواه البخارى بلفظ مختلف.

فصل

تأويل المقدسى لمراتب السلوك

قال الشيخ عبد السلام المقدسى فى «مفاتيح الكنوز» ما نصه: اعلم أن مراتب السلوك إلى منازل الملوك ثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان، فالإسلام أول مراتب الدين لعامة المؤمنين، ثم الإيمان أول مدارج القلب لخاصة المؤمنين، ثم الإحسان أول معارج الروح لخاصة المقربين.

وقد فسر ذلك رسول الله ﷺ فى الحديث المشهور الصحيح وهو ما رواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه قال يا محمد أخبرنى عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلا، فقال له صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه قال: فأخبرنى عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت فأخبرنى عن الإحسان؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» الحديث ثم يبين فى آخر الحديث فقال: «يا عمر أتدرى من السائل قلت: الله ورسوله أعلم قال ذلك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

• إشارات رموز حديث الإحسان:

فاول ما نفتح من الكنوز ما فى هذا الحديث من السر المرموز والمعنى الملغوز وهو أن جبريل عليه السلام هو الفاتح لهذا الباب والسائل عن هذه الأسباب والمتأدب بهذه الآداب ففى ذل سؤاله إجلال لعزة رسول الله ﷺ إذ

هو بين يديه كالمتعلم بعد ما كان معلما ولا عجب إذ أتاه جبريل يتأدب بآدابه ويقف السائل على بابه وكيف لا يكون كذلك وقد خلفه عند سدرة المنتهى وانتهى إلى حضرة ليس لها منتهى وجلس حيث لا أين، على بساط قاب قوسين وتعلم من علم ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾[1] ثم خرج من مكتب «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» فتلقاه سابق الروح الأمين قائما على باب «لو تقدمت أنملة لاحترقت»[2] فناداه بذلة السؤال: يا محمد كنت أظن أنى عرفت الله قبلك، وأنى أقاس فى الرتبة مثلك، وقد عرفت قدرك من قدرى ولك وإلى الله عذرى فأنت فى الحقيقة متقدم وها أنا بين يديك، أخبرنى ما الإسلام أخبرنى ما الإيمان؟ أخبرنى ما الإحسان، فجبريل فى الحقيقة عريف هذه الأمة فى مكتب التعليم من نبى الرحمة ثم فى الحديث معنى خفى يظهر لمن فى قلبه زكى فى قوله «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» فقوله «فإن لم تكن هذا كلام تام وشرط تام ثم فى قوله تراه جزاء هذا الشرط فمعناه فإن لم تكن أنتَ فى البين - ولا لك أثر فى العين فإنك «تراه» لكن اعترض الشيخ تاج الدين ابن السبكى بحسب ظاهر العبارة التى اختطفت منها ملمح الإشارة ولم يحتج إلى تقدير صحة المنطوق فإنه قال فى الطبقات الكبرى:

وفى هذا اللفظ من الفوائد الرد على من حرف الكلم عن مواضعه ووقف على قوله «فإن لم تكن» مشيرا إلى أن المصطفى ﷺ أشار بذلك إلى مقام الفناء قائلا: إن «كان» هنا تامة وإن المعنى: أنك إذا فنيت عن نفسك فلم ترها شيئا شاهدت الله عز وجل، فإن النفس ورؤيتها حجاب دون الحق سبحانه وتعالى فمن نحا الحجاب شاهد الجناب كما قال بعض المشايخ رأيت

---

(١) سورة النجم - آية ١٠.

(٢) رواه ابن السمعانى.

رب العـزة فى النون فـقلت: رب كيف الـطريق إليك؟ فقـال: خل نفـسك وتعالى: هذا كلام من أشرنا إلى أنه حرف الكلام عن مواضعه.

• الرد على فهم الفناء من الحديث:

ولسنا ننكر مقام الفناء ولا حق أهله وإنما ننكر عـلى القائل تحريفه لفظ الحديث وسـوء فهمـه فإنه لو كان الأمـر كما زعم لجـزم لفظ «يراه» على انه جـواب الشرط فـإن تقـدير «فإن لـم تكن» عنده أى عند القـائل «بأن فنيت» وبذلك تم الشرط وصار الجواب «تراه» وجواب الشـرط مجزوم قال إن حرف العلة قد يقلب ويقدر الجزم فيه على حد «ولا ترضاها من قول الراجز:

إذا العـجـوز غـضـبت فـطلق ولا تـرضـــــاها ولا تمـلـق

والجواب إن ذلك غنمـا يجوز فى الضرورة ثم يضيع قـوله «فإنه يراك» ولا يصير بينه وبين ما قبله ارتبـاط والصواب أن «فإنه يراك» جواب الشرط لا يمترى فـي ذلك ذو فهم وهذا اللفظ الذى أخرجه الطيـالسى صريح فى المراد حيث: «فإن كنت لا تراه فإنه يراك» وما أخـوفنى ممن ساء فهمه أن يقف على «لا» ويقول: المعنى فإن كنت عدما تراه كما صنع فى الأول وليس إلى صلاح من هذا مبلغ فهمه سبـيل، ولكنه إذا انتهى إلى هنا وسـلمنا له نترك ما تصوره فطريق الرد عليه أن تـلجئه فنقـول: على هذا التقدير حـديث «فإن لم تكن» معارض بحديث «فإن كنت لا» لأن المعلق عليه ثم عدم كونه وهنا كون عدمه وفرق هائل بين عـدم الكون وكون العدم لسنا لتحـقيقة الآن قـاصدين وليت شعـرى أى داع دعى هذا الرجل إلى هذا التأويـل الذى لا ينساق عليـه لسان عربى ولا فكر صحيح؟ ومقام الفناء به طرق كافلة بتقرير قاضية بأنه حق وإن كان غيره أعلى منه.

انتهى قال شـيخنا العارف بالله الربانى سـيدى محمد المـغربى ردا لهذا الاعتراض مـا نصه: قول الإمام السبكى رحمه الله ننكر مـقام الفناء ولاحق

أهله أى ولا ننكر شيئا مما نسب إلى القوم رضى الله عنهم من رفع الحجاب وكمشاهدة الجناب وهى رؤية الحق تعالى فى جنابها اللائق بها[1] وهو مقام البقاء بالله تعالى وإنما ننكر على هذا القائل تحريفه لفظ الحديث أى لا غير فتبين لك أن الخلاف لفظى وأن المعنى المشار إليه صحيح فإياك أن تفهم من تضعيف الاستشهاد والاستدلال إشارة هذا الحديث المؤدية للفظه ومعناه.

كما قيل بالاختلاف. بطلان المقام الذى فيه الكلام لثبوته بالأدلة الراسخة عند القوم رسوخ الجبال ومنهم الإمام ابن السبكى رحمه الله حيث قال: ومقام الفناء له طرق كاملة بتقريره قاضية بأنه حق وإن كان غيره أى وهو مقام البقاء أعلى منه وأما قوله: ثم يضيع قوله «فإنه يراك» ولا يصير بينه وبين ما قبله ارتباط موجود ولا تضييع فى ذلك لأن التقدير: فإن كنت فى البين ولك أثر فى العين فاعلم أنه يراك وهذا مرتبط بما قبله ولا مرية وبهذا التقدير صحت الإشارة وسلمت العبارة.

ولقائل أن يقول: قد لا يشترط فى الإشارة التى لم يوضع اللفظ لها تصحيح عبارة، لأنها مقتبسة من النص الظاهر كلمحة «برق مختطفة من الضمائر وكل ذلك والركب سائر وسياق اللفظ بصدد معناه الموضوع له كالكأس للشراب عليه دائر فالفقيه النبيه هائم بشراب فقهه ومعانيه مستمسك بكأس دليله اللفظى وبه على غيره يتيه وكذلك الصوفى لما طفح عليه الشراب استخطفته إشارات الأحباب عن رؤية الدليل إلى مشهود المدلول وهو الله تعالى فحضر به وعما سواه غاب وهكذا يكون السالكون ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

---

(١) لا يمكن رؤية المولى عز وجل فى الدنيا لقوله تعالى جوابا على سيدنا موسى عليه السلام حينما طلب الرؤية: (لن ترانى) ومعنى ذلك أن الرؤية فى الدنيا مستحيلة.

(٢) سورة السجدة - آية ١٧.

• من الإشارة إلى الفناء:

ومن الإشارات قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1] قوله (فثم) إشارة إلى الجهات وعند القوم إشارة إلى ما وراء العقل وهو مشهود الذات كما قال الأستاذ ابن الفارض رضى الله عنه.

وراء العقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة

وإذا ثبت عندك أن للقرآن ظهرا وبطنا علمت أن هذا وأمثاله من الوجه الباطن، «وقوله وفرق هائل بين عدم الكون وكون العدم لنا لتحقيقه قاصدين».

أقول: تحقيق الفرق فى ذلك أن قوله إن المعلق عليه ثم أى الرؤية هو الفناء من الحديث الأول المشار إليه بثم أى هناك وهو المراد بعدم الكون وهو الذى يتقدمه وجود من قوله عليه السلام «فإن لم تكن» وهذا صريح فى نفى وجود الشخص الذى لم يتقدم له وجود فى زمن من الأزمنة فعلى هذا استحال الفناء لأن شرط الفناء والحالة سبق الوجود عليه ولا أسبقية هنا فحينئذ لا فناء وأما كون العدم: فهو تسليط العدم على محسوس يتقدم وجوده عليه وهو من الرواية الثانية من قوله عليه السلام «فإن كنت لا تراه» وهذا عين الفناء بلا شك هذا حاصل تحقيق إشكال ابن السبكى.

وأما الجواب عن إشكاله فى الرواية الأولى وهو قوله: فإن لم تكن أى موجودا حسا وصورة بل كنت موجودا علما ويقينا بالإرادة للإيجاد فإنك حينئذ تراه لأنه ما ثم هناك فى الأزل إلا الله وهذا مقام: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[2] العلمى الذى انفصلنا عنه بالوجود الصورى وحينئذ فالإشارة بالفناء فى كلا الروايتين صحيح لا إشكال فيه. والله أعلم وقال بحر الحقائق حامل لواء

---

(١) سورة البقرة - آية ١١٥.

(٢) سورة الأعراف - آية ١٧٢.

العلم محيى الدين ابن العربى فى كتابه «الفانى المشاهدة» فأشار النبى ﷺ لأهل الإشارات بقوله فإن لم تكن تراه أى رؤيته لا تكون إلا بفنائك عنك واثبت «الألف» من «تراه» من أجل ظهور لتتعلق الرؤية به إذ لو حذفهما وقال فإن لم تكن تراه لم يصح الرؤية فإن الهاء من تراه كناية عن الغائب، والغائب لا يرى، والألف محذوفة فكان ترى بلا رؤية هذا لا يصح فلهذا ثبتت وإما حكمة ثبوت الهاء فإنه كان ينفى فإن لم تكن تراه[1] إشارة إلى أنك إذا رأيت بوجود اللف فلا تقل أحطت فإنه تعالى يجل ويتعالى عن أن يحاط به وما لم يحط به فيكون الهاء الذى هو ضمير ما غاب عنك من حقيقة الحق عند الرؤية شهد لك بعدم الإحاطة. انتهى قلت: وله غائب لا يرى والألف محذوفة، يعنى لأن الألف بمثابة ذات الحق تعالى والباء والتاء إلى آخر الحروف بمثابة صفات تجلياتها فتارة تظهر ذات الحق تعالى العلوية المقدسة كظهور الألف نفسه بالخط القويم وهذا يسمى عند القوم بالتجلى الذاتى وتارة تظهر وتتجلى بالصفات فى أفعالها الخلقية كظهور الألف فى مرتبة الحرفية لأنه روح كل حرف وصورته إذ ليس هناك إلا الألف يتعدد ويتكثر بحسب مراتبه وهكذا الحق تعالى يظهر بنفسه لنفسه فى تطورات خلقه وصفاته فلا موجود هناك غيره أزلا وأبدا فحينئذ لو حذفت الألف من تراه لا تنفى شهوده تعالى ذاتا وصفاتا لأن الهاء ضمير الغائب والغائب لا يرى كما قال رضى الله عنه.

---

(١) فى الاصل (تر).

فصل

دليل آخر على الحقيقة

ومنها ما أخرجه الطبـــى فى ترغيبه قال: أخبـرنا أبو بكر بن الحسن قال: أخبـرنا أبو على حامد بن مـحمد الرفـا الهروى قال: أخبـرنا نصر بن أحمد البـورجانى قال: حدثنا عبـد السلام بن صالح قال: حدثنا سـفيان بن عيـنة عن ابن جريج قال: قال رسـول الله ﷺ «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل العلم بالله فإذا انطلقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله.

هذا إسناده ضعيف وعبـد السلام بن صالح هو أبو الصلت الهروى من رجال ابن ماجة كان رجلا صالحا لكنه شيـعى وقد اختلف فيه فقال أبو حاتم لم يكن عندى بصدوق، وضرب أبو زرعة العراقى على حـديثه وقال العقيلى رافضى خـبيث، وقـال النسائى: ليس بثـقة، وقال ابن عـدى، متـهم وقال الدارقطنى رافضى مـتهم بوضع حديث الإيمان لكن أثنى عليـه ابن سـيار فى تاريخ «مرو»، وفيه قال: كان يعرف بالتشيع، فناظرته لاستخراج ما عنده فلم أره يفرط، رأيتـه يقدم أبا بكر وعمر ولا يذكـر الصحابة إلا بالجمـيل، وقال لى: هذا مذهبى الذى أدين الله به فـحينئذ إذا تقـرر ذلك فحديثه فى مـرتبة الضعيف الذى ليس بالموضوع.

وقد ذكر هذا الحديث حجـة الإسلام الغزالى فى مشكاة الأنوار والحافظ الكبير شهاب الدين السهروردى فى عوارف المعارف وقال الحافظ وقطب الدين القسطلانى بعد أن أورده فى كتاب له فى التـصوف: إن له شاهدا من مراسيل سعيد بن المسيب.

فصل

دليل آخر على الحقيقة

ومنها ما أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس بسند مسلسل من طريق أحمد بن غسان عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة مرفوعا «سألت جبريل عن علم الباطن ما هو فقال: قال الله: هو سر بينى وبين أحبابى أودعه فى قلوبهم وأخرجه من وجه عن أحمد بن غسان بلفظ «سألت جبريل عن الإخلاص ما هو؟».

قال الذهبى فى الميزان عبد الواحد بن البصرى الزاهد شيخ الصوفية وواعظهم لحق الحسن وغيره. ضعفه النقاد فقال ابن معين: ليس بشىء وقال البخارى: تركوه، وقال الجوزجانى: سىء المذهب وليس من معارف الصدق، قال الذهبى له مناكير مع أنه كان مجاب الدعوة، حدث عنه وكيع وأبوا سليمان الدارانى وقال: إنه صلى الصبح بوضوء العتمة أربعين سنة انتهى.

فصل

دليل آخر

ومنها ما أخرجه الفريانى فى تفسيره عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل آية ظهر وبطن».

• تفسير الظهر والبطن فى الحديث:

قال ابن النقيب: ظهر الآية ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر وبطنها ما تضمنته من الأسرار التى أطلع الله عليها أرباب الحقائق، وأخرج أبو نعيم عن ابن مسعود قال إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ما فيها حرف إلا له ظهر وبطن وإن عليا بن أبى طالب عنده منه علم الظاهر والباطن.

قلت: ولهذا قال رضى الله عنه ما من آية إلا ولها أربع معان ظاهر، وباطن، وحد، ومطلع فالظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد، أحكام الحلال والحرام، والمطلع مراد الله سبحانه وتعالى من العبد بها...

وحكى عن جعفر بن محمد أنه قال كتاب الله على أربعة أشياء العبارة والإشارة واللطائف والحقائق فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء ويحكى عن بعضهم أن العبارة للسمع والإشارة للعقل واللطائف للمشاهدة والحقائق للاستسلام.

وقال بعضهم: الظهر من ظواهر الخطاب، والباطن ما بطن من المعانى التى لا يتوصل إليها إلا بالتأمل والتوفيق ونحوهما، والحد غاية ما ينتهى إليه من الظاهر والباطن، والمطلع اعلم الله تعالى بمراده من ذلك الكلام وقيل غير ذلك.

وقال السهرودى: أخبرنا أبو الحسن بن شاذان قال: أخبنا دعلج بن احمد قال: أخبرنا أبو الحسن على بن عبد العزيز البغوى قال: أخبرنا أبو عبيد القاسم بن سلام قال: حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن الحسن يرفعه إلى النبى ﷺ قال: «ما نزل من القرآن آية إلا لها ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع» قال فقلت يا أبا سعيد ما المطلع؟ قال مطلع لله تعالى قوم يعملون به.

قال أبو عبيد: أحسب أن أقول الحسن هذا إنما ذهب إلى قول عبد الله بن مسعود قال أبو عبيدة حدثنى حجاج عن شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن مسعود قال ما من حرف أو آية إلا وقد عمل بها قوم، أولها قوم سيعملون بها فالمطلع المصعد يصعد إليه من معرفة علمه فيكون المطلع الفهم بفتح الله به على قلب بما يرزق من النور واختلف الناس فى معنى الظهر والبطن قال قوم الظهر لفظ القرآن والبطن تأويله وقيل: الظهر صورة القصة مما أخبر الله من غضبة على قوم وعقابه إياهم فظاهر ذلك إخبار عنهم وباطنه

عظة وتنبيه لمن يقرأ ويسمع من الآية وقيل: ظاهره تنزيله الذى يجب الإيمان به وباطنه وجوب العمل به وقيل ظهره تلاوته كما أنزل الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾(١) وبطنه التدبر والتفكر قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾(٢).

وقيل: قوله لكل حرف حد أى فى التلاوة لا يجاوز المصحف الذى هو الإمام وفى التفسير لا يجاوز للمسموع المنقول. وفرق بين التفسير والتأويل فالتفسير علم نزول الآية وشأنها وقصتها والأسباب التى نزلت فيها وهذا محظور على الناس كافة القول فيه إلا بالسماع والأثر وأما التأويل فصرف الآية إلى معنى تحتمله إذا كان المحتمل الذى يراه يوافق الكتاب والسنة فالتأويل يختلف باختلاف حال المؤول على ما ذكرناه فى صفاء الفهم ورتبة المعرفة ونصيب القرب من الله تعالى.

قال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة فما أعجب قول أبى عبد الله بن مسعود «ما من آية إلا ولها قوم يعملون بها» وهذا الكلام يحرض لكل طالب صاحب همة أن يصغى لوارد الكلام لفهم دقيق معانيه وغوامض أسراره من قلبه فللصوفى بكمال الزهد فى الدنيا وتجريد القلب عما سوى الله عز وجل مطلع من كل بية وله بكل مرة فى التلاوة مطلع جديد، وفهم عتيد، وله بكل فهم عمل جديد ففهم يدعو إلى العمل وعملهم يجلب صفاء الفهم ودقيق النظر فى معانى الخطاب فمن الفهم علم ومن العلم عمل والعلم والعمل يتناوبان فيه، وهذا العمل أيضا عمل القلوب غير عمل القالب وإعمال القلوب للطفها وصلافتها مشاكلة، للعلوم لأنها نيات وطويات وتعلقات روحية وتأدبات قلبية ومسامرات سرية وكلما أتوا بعمل من هذه الأعمال رفع لهم عملهم من العلم وأطلعوا على مطلع من

---

(١) سورة المزمل - آية ٤.

(٢) سورة ص - آية ٢٩.

فهم الآية جديد ويخالج سرى أن يكون المطلع ليس بالوقوف بصفاء الفهم على دقيق المعنى وغامض السر فى الآية ولكن المطلع أن يطلع عند كل آية على شهود المتكلم بها لأنها مستودع وصف من أوصافه ونعت من نعوته فيتجدد له التجليات بتلاوة الآيات وسماعها وتصير لها مرائى منبئة عن عظيم الجلال.

ولقد نقل عن جعفر الصادق أنه قال: لقد تجلى الله تعالى لعباده فى كلامه ولكن لا يبصرون، فيكون لكل آية مطلع من هذا الوجه، فالحد حدا الكلام والمطلع الترقى عن حد الكلام إلى شهود المتكلم وقد نقل عن جعفر الصادق أيضا أنه خر مغشيا عليه وهو فى الصلاة، فسأل عن ذلك فقال: ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها، فالصوفى ما لاحت له لائحة[1] التوحيد وألقى سمعه عند سماع الوعد والوعيد وقلبه بالتخلص عما سوى الله صار بين يدى الله «حاضرا شهيدا يرى لسانه ولسان غيره فى التلاوة كشجرة موسى حيث أسمعه الله منها خطابه إياه بـ «إنى أنا الله فإذا كان سماعه من الله واستماعه إلى الله»، صار سمعه وبصره وعلمه وعاد آخره أوله وأوله آخره.

ومعنى ذلك أن الله تعالى خاطب الذر بقوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[2] سمعت النداء على غاية الصفاء، ثم لم تزل الذرات تتقلب فى الأصلاب وتنتقل إلى الأرحام قال الله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[3] يعنى تقلب ذرتك فى أصلاب أهل السجود فى أبائك الأنبياء فما زالت تنتقل الذرات حتى برزت إلى أجسادها فاحتجبت بالمحكمة عن القدرة وبعالم الشهادة عن عالم الغيب وتراكم ظلمتها بالتقلب فى الأطوار، فإذا أراد الله بالعبد حسن استماع بأن يضيره صوفيا لا يزال يرقيه فى رتب التزكية والتحلية

---

(١) فى المخطوط (لاحته).

(٢) سورة الأعراف - آية ٧٢.

(٣) سورة الشعراء - الآيتان ٢١٨، ٢١٩.

حتى يخلص إلى قضاء القدرة وتزال عن بصيرته النافذة سجف الحكمة فيكون سماعه ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ كشفا وعيانا وتوحيده وعرفانه بيانا وبرهانا وتندرج له ظلم الأطوار فى لوامع الأنوار، قال بعضهم: أنا أذكر خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ إشارة منه إلى هذا الحال، فإذا تحقق الصوفى بهذا الوصف صار وقته سرمدا وشهوده مؤيدا وسماعه متواليا متجددا يسمع كلام الله تعالى وكلام رسوله حق السماع.

فصل

الخلاف فى مطالع السور

قال شيخ الإسلام العارف بالله قاضى القضاة ناصر الدين بن البلقينى الشاذلى فى «التجارة الرابحة فى الدلالة على مقاصد الفاتحة» ومن خطه نقلت ولهم خلاف فى المطلع هل هو ما استأثر الله سبحانه نفسه به عن خلقه؟ والأكثرون على هذا وهو مما يمكن اطلاع خواص الخلق عليه وإليه ذهب بعضهم، ثم القائلون بهذا منهم من خصه بالنبى ﷺ.

ومنهم من قال بإمكانه لخواص الأولياء ولا شك فى أن لله سبحانه علما بحقائق كلامه لا يشاركه فيه غيره فمن أطلق المطلع على ذلك فهو صحيح لا نزاع فيه ويكون الحد غاية ما ينتهى إليه إدراكات المخاطبين ولاسيما إن تأملت مدلول الحد فى اللغة من كونه المنع فكأن المخاطبين منعوا من التسور على ما وراءه، ويقوى بهذا قول من خص الحد بمقام النبوة، واعلم أن أقواما هجموا بظنونهم وأقدموا بآرائهم على القرآن الكريم فسموا ذلك من علم باطن القرآن.

فمنهم من أصاب من حيث كون ذلك الكلام يتناول ما نبهوا عليه إما بعمومه أو بدلالة التزام قياسى أو غيره.

ومنهم من أخطأ حيث قصر العام على الخاص من غير دليل على

التخـصيص، بل يقع مثل ذلك مـن بعضهم مع وجـود دلالة أخرى على أن ذلك العام لم يرد به الخاص، وإنما هو كما يفهم منه من العموم.

• مواطن الخطأ فى بيان الكلام:

ومنهم من أخطأ حـيث أخرج الكلام عن مـدلوله اللغـوى وموضـوعه العرفى من غـير مـانع بل مع وجود تنصـيص إعلام المفسـرين على أن ذلك المدلول مراد وإنما ألجـأهم التعمق فى استخراج المعـانى الخفيـة إلى القول بما يعكر بالإبطال على قاعدة شـرعية أو قضية عقليـة وربما جالوا فى ذلك حتى انتهوا إلى سوء أدب على احد من الأنبـياء - عليهم الصلاة والسلام - ويزين لهم الشيطان ذلك من حيث أن فيه تفضيلا لنبينا ﷺ.

كما رأيته لبعض من دوَّن تفسير القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[1] فقـال: راعى نبينا ﷺ الأدب مع الله سبـحانه وتعالى فقدم اسمه على المعية فقال: إن الله معنا، فعادت بركة ذلك على أمته وقدم موسـى عليه السلام - المعيـة على الاسم فقال لما قال له أصـحابه ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ قال: ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[2] قال فأصيبـوا بالتيه وما وقع لهم بعد ذلك من تبديل الدين ونحوه فانظر بصرك الله كيف نسب إلى موسى عليـه السلام زينة الشـيطان حتى صـار عند قائله مَن أجل المعـانى التى يزعم التقرب بها إلى الله سبحانه.

واعلم أن حين وقفت على هذا الكلام فى بدأة مـعاناتى بهذا الفن لاح لى كمال حكمة كل النبيين عليهـما السلام حيث أتى كل منهما بخطاب يليق بحال المخـاطب فأما موسى عليـه الصلاة والسلام فكان خطابه مع عـامة بنى إسرائيل الذين فيهم من تكملت معرفته بالله سبحانه وتعالى وفيهم من هو فى

---

(١) سورة التوبة - آية ٤٠.

(٢) سورة الشعراء - الآيتان ٦١، ٦٢.

طريق الاستكمال ولا يتوصلون إلى كمال معرفة الله سبحانه إلا بمعرفة موسى عليه الصلاة والسلام فناسب أن يقدم المعية المضافة إليه قبل اسم الربوبية إذ هو الواسطة ومنه تعرف الربوبية.

وأما نبينا ﷺ فكان خطابه مع أخص أمته وهو أبو بكر الصديق رضى الله عنه - الذى كملت معرفته بالله، ولهذا لم يحتج فى إيمانه إلى ترادف الأدلة وتضاعف البراهين فناسب أن يخبره بالاسم أولا ليشهده المعية المترتبة على كمال الإلهية ثم هنا مناسبات أخرى تتعلق بذكر اسم الله هنا واسم الرب هناك ليس هذا محل ذكرها.

أسباب تعدد الفهم عند القوم

ثم قال رحمه الله: واعلم أن أجل ما جمع من أقوال أشياخ التصوف - رحمة الله عليهم - ما جمعه الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى - رحمه الله تعالى - فى كتابه المسمى بـ «الحقائق» إلا أنه سود فيه ما وقع له، ولم يميز بين رتبه، ومن تأمل ما نقله فيه وجد فيه من الاستنباط الحسن، والتفقه المتين ما تبتهج به روحه.

واعلم انه فتح إلهى[1]، وعلم ربانى أضاء لقائله من مشكاة النبوة منحة من الله سبحانه له بواسطة التدبر العلمى، والتفكر النظرى، والذوق الوجدى كما أن المتأمل لهذا الكتاب المذكور - أيضا - قد يقف فيه على شوارد المفهوم التى ندت عن قواعد العلوم، وبعدت عن مقام الخطاب الشرعى، وموارد الصواب العرفى. فلا تكاد تنتظم مع غيرها من وجوه الصواب فى سلك واحد إلا بتكلف شديد، وتعصب زائد، ولعل السبب فى وقوع ذلك من قائله - والله تعالى أعلم - أحد أمرين:

إما أن تقوم به حالة من الحالات. وتتلى عليه آية من الآيات فيفهم عندها ما يليق بحالته تلك مع الغيبة عن حقيقة الكلام ودلالته كما يتفق ذلك

(١) فى المخطوط إلاهى.

كثيـرا لأرباب الأحوال، ويفهـمون ما يناسبـهم من الحوادث وإن لم تكن من جنس الأقوال، ويكون ذلـك عند الشيء لا منه فيحكى أحـدهم ما فـيه عند سماعه لتلك الآية، فيظن من سمعـه أنه قال ذلك تفسيرا للآية واستنباطا منه وليس كذلك.

وإما أن يبنى ما فهمه مـن تلك الآية على شيء اعتقد دلالة اللفظ عليه إما الاشتراك أو غيـره، وكان هناك ما يمنع من دلالة اللفظ عليه، وإذا علمت اشتمـال كلام الله تعالى على ظهر وبطن وحد ومـطلع مع ما تقدم من الأدلة الشرعية ظهر لك تعـدد المداخل إلى فهم معانى القرآن العظيم وأن الناس وإن تسابقت أفـهامهم في معـانيه لا يبلغون غـايتها إلا أنهم متـفاوتون فليس من وقف على سواحل الخطاب كمن غـاص في قعر بحر التدبر، فاسـتخرج من جواهر المعانى العجب العجـاب هذا مع أن جواهر هذا البحر لا تفنى ويتامى دره كلها لا تحوى.

ولقد يمن الله سبحـانه وتعالى - على كثير من خواص عـبيده العلماء المتدبرين الموفقين فى الآية الواحـدة بل هى فى الكلمة الواحدة بل فى الحرف الواحد بما لا يكاد يـحصى من المعانى التى لا تدرك بمجـرد نور القلب بل لا يدفع ذلك من نور ربانى ليتظافر النوران الخـارجى والوالجى الممنون بهما على من أريد بالهداية لـسابق العناية.

ولقد حكى بعض الأكابر الشيوخ الذين لقـيتهم عن والده - رحمه الله - وكان من أكابر الأوليـاء والعارفين أنه قال: ما قرأت الفـاتحة قط إلا فهمت منها ما لم أكن أفهمه قبل ذلك، فانظر إلى اتساع مجال هذا الرجل، وكم قرأ الفاتحة فى عمره من مرة فى الصلوات وغيرها!.

ولعمرى لقـد اغترف هذا من بحر ممدود بمداده لا ينقـطع، وماذا عسى يكون نـسبة جـملة ما فهمه هذا وأمثاله إلى ما ذكره الله سبـحانه وتعالى فى قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا

بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[1] ولقد قام النبى - ﷺ - ليلة فى آية واحدة يكررها وهى قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2] ومن تأول طويل زمانه - ﷺ - فى التدبر مع كمال نوره وتمام فتحه واتساع إدراكه وارتقائه إلى أعلى مقامات العلم والفهم قضى باتساع مجال الفهم فى القرآن.

ولقد نبه على بن أبى طالب - رضى الله عنه - على ما فتح به عليه فى تلك الفهوم والعلوم حتى قال: لو شئت أن أوقر من فاتحة الكتاب سبعين بعيرا لفعلت. انتهى.

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله فى «لطائف المنن»: اعلم أن تعبير هذه الطائفة لكلام الله ولكلام رسوله - ﷺ - بالمعانى الغريبة كما مضى من فهم الشيخ أبى العباس المرسى - رضى الله عنه - من قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾[3] الحسنات ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ العلوم، أو يزوجهم ذكرنا وإناثا: علوما وحسنات.

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾[4] لا علم ولا حسنة، وكما مضى - أيضا - من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[5] فقال الشيخ: بقرة كل إنسان نفسه والله أمره بذبحها فهذا ليس إحالة للظاهر عن ظاهرة، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلت عليه فى عرف اللسان وثم إفهام باطنه عند الآية والحديث لمن فتح على قلبه.

وقد جاء أنه عليه السلام قال «ولكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع» فلا يصدنك عن تلقى هذه المعانى منهم ذو جهل ومعارضة بأن يقول لك هذا

---

(١) سورة الكهف - آية ١٠٩.

(٢) سورة المائدة - آية ١١٨.

(٣) سورة الشورى - آية ٤٩.

(٤) سورة الشورى - آية ٥٠.

(٥) سورة البقرة - آية ٦٧.

إحالة لكلام الله تعالى وكلام رسوله - ﷺ - فليس ذلك بإحالة وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا وهم لم يقولوا ذلك بل يقررون الظواهر ومراداتها وموضوعاتها ويفهمون عن الله ما أفهمهم، قلت: ومن هنا يعلم عظم قدر تفسير القاشانى وغيره من أئمة القوم ولا التفات إلى قول بعض الجهلة المحجوبين، لأن علوم الباطن لا يفهمها إلا علماء الحقائق.

قال ابن عطاء الله: وربما فهموا من اللفظ ضد ما قصده واضعه كما أخبر الشيخ الإمام مفتى الأنام تقى الدين محمد بن على القشيرى المشهور بابن دقيق العيد - رحمه الله تعالى - قال: كان ببغداد فقيه يقال له «الجورى» يقرأ[1] اثنى عشر علما فخرج يوما قاصدا إلى المدرسة فسمع منشدا يقول:

إذا العشرون من شعبان ولت ... فواصل شرب ليلك بالنهار

ولا تشرب بأقداح صغار ... فقد ضاق الزمان عن الصغار

ففهم من ذلك شيئا أزعجه وأخرجها هائما على رأسه حتى أتى مكة فجاور بها وتعبد وترك التدريس قال الإمام عفيف الدين اليافعى - رحمه الله - قلت: هذا الشعر المذكور يفهم منه الموفق أن عمره قد ولى وقد قارب الفوت وضاق عن الاتساع للاشتغال بالاستعداد للموت، فليبادر بالعزائم الكبار إلى مواصلة الأعمال بالليل والنهار متلذذا بالخدمة والمنادمة للملك القهار معرضا عن دار الاغترار مشتاقا إلى دار القرار.

قال اليافعى: أيضا فى «الإرشاد» ودخل على الشيخ العارف بالله إبراهيم الجعبرى بعض أصحابه فقال له: يا سيدى سمعت بيتين أعجبانى قال: قلهما لى فأنشد:

وقائلة أنفقت عمرك مسرفا ... على مسرف فى تيه ودلاله

فقلت لها كفى عن اللوم إننى ... شغلت به عن هجره ووصاله

---

(١) فى المخطوط (يقرى).

فقال له الشيخ ما هذا مقامك، ولا مقام شيخك، فاطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: يا سيدى وقع لى بيتان غيرهما قال: قلهما لى فأنشد:

وقائلة طال انتسابك دائما إليه فهل يوما خطرت بباله؟
فقلت لها ما كنت أهلا لبحره فما تعترينى شبهة فى وصاله

فقال: هذا مقامك ومقام شيخك، وقال ابن عطاء - أيضا - فى اللطائف. وقرئ بين يدى الشيخ مكين الدين الأسمر - رضى الله عنه - قول القائل:

لو كان لى مسعد بالراح يسعدنى لما انتظرت بشرب الراح أقطارا
الراح شىء شريف أنت شاربه فاشرب ولو حلمتك الراح أوزارا
يا من يلوم على صهباء صافية خذ الجنان ودعنى أسكن النارا

فقال إنسان هناك: لا يجوز قراءة هذه الأبيات، فقال الشيخ مكين الدين الأسمر للقارئ: اقرأ هذه الأبيات، هذا رجل محجوب، والشيخ مكين الدين هذا هو الذى شهد له قطب الدين الشيخ أبو الحسن الشاذلى - رضى الله عنه - بأنه من السبعة الأبدال، وكان يقول عنه - أيضا - بينكم رجل يقال له عبد الله بن منصور أسمر اللون أبيض القلب والله إنه ليكاشفنى وأنا مع أهلى وعلى فراشى.

ومرة أخرى قال الشيخ أبو الحسن - أيضا - فيه: ما سلكت غيبا من غيوب الله إلا وعمامته تحت قدمى قال: ويكفيك فى هذا ثلاثة سمعوا مناديا ينادى يا سعتر برى ففهم كل منهم عن الله مخاطبة خوطب بها فى سره سمع «اسع تربرى» وسمع الآخر «ما أوسع برى» وقال الآخر الساعة ترى برى فالمسموع واحد واختلف أفهام السامعين، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يُسْقَىٰ

بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[2] فأما الذى سمع: «اسع بربرى فمريد يدل على النهوض إلى الله سبحانه وتعالى بالأعمال فيستقبل الطريق بالجد وقيل له اسع إلينا بصدق المعاملة تربرنا بوجود المواصلة وأما الثانى فكان سالكا إلى اله طاولته الأوقات فخاف أن تفوته المواصلة فقيل له ترويحا على قلبه لما أحرقه نار الشغف: الساعة ترى برى وأما الآخر فعارف كشف له عن وسع الكرم فخوطب من حيث أشهد فسمع ما أوسع برى».

وقال الشيخ محيى الدين بن العربى - رضى الله عنه - دعانا بعض الفقراء إلى دعوة بزقاق القناديل بمصر فاجتمع بها جماعة من المشايخ فقدم الطعام وهناك وعاء زجاج قد اتخذ للبول، ولم يستعمل، فقرق فيه رب المنزل الطعام والجماعة يأكلون، وإذا الوعاء يقول منذ أكرمنى الله بأكل هؤلاء السادة منى لا أرضى لنفسى أن أكون بعد ذلك محلا للأذى ثم انكسر نصفين.

قال الشيخ محيى الدين فقلت للجماعة: سمعتم ما قال الوعاء؟ قالوا: نعم، قلت: ما سمعتم؟ فأعادوا القول الذى تقدم، فقلت: ما شرح هذه الكلمات؟ فأطرقوا ولم يتكلم منهم أحد، فقلت: قال قولا غير ذلك، قالوا: وما هو؟ قلت: قال كذلك قلوبكم من أكرمها الله بالإيمان فلا ترضوا بعد ذلك أن تكون محلا لنجاسة المعصية وحب الدنيا، جعلنا الله وإياكم من أولى الفهم عنه، والتلقى منه - آمين -.

وقال ابن عباد النفرى فى شرح الحكم: المستمعون موسومون بالفقر والحاجة إلى معنى ما يستمعون إليه عن المواعظ والحكم وهو قوت قلوبهم، وغذاء أرواحهم كما أن المستطعمين والسؤال موسومون بالفقر والحاجة إلى أقوات أبدانهم، وكما أن أقوات هؤلاء مختلفة فلا يصلح لواحد من هؤلاء ما

---

(١) سورة الرعد - آية ٤.

(٢) سورة البقرة - آية ٦٠.

يصلح للآخر من الأطعمة والأشربة لاختلاف طبائعهم وأمزجتهم، فكذلك أقوات القوم مختلفة فلا يصلح لواحد منهم من العبارات التي تتضمن وجود القوت المعنوى ما يصلح للآخر لاختلاف مذاهبهم وتباين مطالبهم.

فإذا سمعت عبارة من عالم أو عارف أو أحد من أهل هذا الطريق ولم تحط منها بشيء فاعلم أنها لا تصلح لقوتك وغذائك وهى صالحة لقوم آخرين ومما ينتظم فى هذا السلك أن يقرع أسماء بعض الناس العبارة من بعض الأشخاص ففهم منها معنى لم يقصده المتكلم ويتأثر باطنه بذلك تأثيرا عجيبا، وقد يقع ذلك لجماعة من الناس ففهم كل واحد منهم مالا يفهمه الآخر، ويحصل لهم بذلك التأثر مع أن المتكلم لم يرد شيئا من ذلك، وربما كان مضادا له وقد يسمع أرباب القلوب من الجمادات ثم ساق كلام اللطائف المتقدم والله أعلم.

تنبيه:

قال الشيخ تاج الدين بن السبكى فى الطبقات الكبرى ما نصه اختار الإمام فخر الدين الرازى فى التفسير في سورة «الإسراء» أن الجمادات وغير المكلف من البهائم إنما تسبح الله بلسان الحال، ولا تسبح له بلسان المقال، واحتج بما لم ينهض عندنا.

وفصل قوم قالوا: كل حى ونام يسبح دون ما عداه، وعليه قول عكرمة: الشجرة تسبح والأسطوانة لا تسبح، وقال: يزيد الرقاشى للحسن وهما يأكلان طعاما، وقد قدم الخوان، أيسبح هذا الخوان أبا سعيد؟ فقال قد كان يسبح ثمره يريد أن الشجرة فى زمن ثمرها واعتدالها ذات تسبيح، وأما الآن فصار خونان ويستدل لهذا بما ثبت فى حديث ابن عباس أن النبى - ﷺ - «مرَّ بقبرين فقال إنها ليعذبان، وفيه أنه دعا بعسيب رطب وشقه اثنين

وغرس على هذا واحـدا وعلى هذا واحدا ثم قال لـعله يخفف عنهمـا ما لم ييبسا»[1]، فإن فيـه إشارة إلى أنهما ما دامـا رطبين يسبحان وإذا يبـسا صارا جمادين، وذهب قـوم إلى أن كل شيء من جماد وغيره يسـبح بلسان المقال، وهذا هو الأرجح عندنا، لأنه لا اسـتحـالة فيه قـلت: وقد نسبـه النووى فى شرح مسلم إلى المحققين - والله أعلم.

قال ابن السبكى: ويدل له كثيـر من المنقول قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾[2] وقال - ﷺ - كما روى ابن ماجة «لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجـر ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة» وفى صحيح البخـارى أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل عند النبى - ﷺ -، وفى صحـيح مسلم أن رسول الله - ﷺ - قال: إنى لأعرف حجرا بمكة كـان يسلم على قبل أن أبعث» وخبر الجذع فى هذا مشهور.

وروى ابن المبارك فى رقائقه أن ابن مسعود قال أن الجبل ليـقول للجبل هل مر بك ذاكر لله فإن قال: نعم، سر إلى غير ذلك من أخبار وآيات تشهد لمن يحمل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[3] على عمومه غير أنا نقول: لا يلزم من تسبيحها بلسـان المقال أنا نسمعـها، وإنما يكون ذلك على سبـيل المعجزة كمـا كانوا يسـمعون تسبيح الـطعام عند المصطفى - ﷺ - أو على وجه الكرامة انتهى.

* * *

(١) رواه البخارى ومـسلم.

(٢) سورة ص - آية ١٨.

(٣) سورة الإسراء - آية ٤٤.

باب فى شرح ألفاظ مشكلة تتعلق بمذهب القوم

فمنها قول القطب الربانى عبد القادر الكيلانى - رضى الله عنه - ونفعنا بعلومه:

ما فى المناهل منهل مستعذب إلا ولى فيه الألذ الأطيب
أو فى الوصال مكانة مخصوصة إلا ومنزلتى أعز وأقرب
وهبت لى الأيام رونق صفوها فحلت مناهلها وطاب المشرب
وغدوت مخطوبا لكل كريمة لا يهتدى فيها اللبيب فيخطب
أنا من رجال لا يخاف جليسهم ريب الزمان ولا يرى منا يرهب
قوم لهم فى كل مجد رتبة علوية وبكل جيش موكب
أنا بلبل الأفراح أملأ دوحها طربا وفى العلياء باز أشهب
أضحت جيوش الحب تحت مشيئتى طوعا ومهما رمته لها يعزب
أصبحت لا أملا ولا أمنية أرجو ولا موعودة أترقب
ما زلت أرضع فى ميادين الرضا حتى وهبت مكانة لا توهب
أضحى الزمان كحلة مرموقة تزهو ونحن لها الطراز المذهب
أفلت شموس الأولين وشمسنا أبدا على فلك لنا العلى لا تغرب

قال الإمام اليافعى فى نشر المحاسن «قلت هذا البيت الأخير يحتاج إلى تأويل وحمل سالم من قادح غير لائق بجلالة الشيخ عبد القادر، ومحاسن آدابه وجميل مقاصده، وفى ميدان معناه اتساع لمجال التأويل، والعاقل لا يسلك الطريق مع اتساع السبيل».

والمحتـاج إلى تفسير لائـق بالحال مطابق ثلاثة ألفاظ فى البـيت المذكور اللفظ الأول قوله: «شمسنا» إلى من يعود الضـمير فى «شمسنا»؟ هل يختص بالمتكلم لقـوله «أنا بلبل الأفـراح» وقوله: «مـا زلت» إلى قوله حتى وهبت مكانة لا توهب، أو الضمير يعود على الطائفة أى أصحاب الطريقة.

السالكين إلى الله تعالى المكاشفين من الله تعـالى بأسرار الحقيقة، وهم مشايخ الصوفية لقوله:

أنا من رجـال لا يخـاف جليـسـهم ريب الزمـان ولا يـرى مـا يرهب

أى: الرجال صـحبتهم وربونى حـتى حصل لى معـهم نهاية المطلوب، ويكون المعنى وشـمسنا أيتـها الطـائفة، وهذا تأويل أوسع مـسلكا من الأول وأسلم منه، وأقل مـؤاخذة، أو يعـود الضمـير بتأويـل بعيد إلـى هذه الأمة الذاكرين الله تعالى: لقوله - ﷺ - هم القوم لا يشقى جليسهم»[1] الحديث الصحيح الوارد فى القـوم المجتـمعـين على ذكر الله تعـالى، ويكون المعنى و«شمسنا أيتها الأمة» أو أيها القوم الذاكرون الله تعالى - فيه ثلاث احتمالات أرجحها الأول من سياق الكـلام، وقوة القرينة الدالة عليه، والثانى أرجح من حيث اشتراك الطائفـة فى الوصف وشمول اسم المعرفة لجمـيع العارفين وبقاء نور شمس المعرفة فى الوارث من كل مورث منهم أبدا.

اللفظ الثانى:

قوله:

أفلـت شـــمـــــوس الأولـين... .....

---

(١) رواه البخارى مع اختلاف فى اللفظ.

هل المراد بالأولين من تقدم زمانه من الشيوخ على زمانه؟ أو من تقدم زمانه من بعد الصحابة على زمن طائفة الصوفية؟ أو من تقدم زمانه على زمن الذاكرين الله تعالى من هذه الأمة؟ مع بعد هذا الأخير كما تقدم نظيره في ثلاث احتمالات - أيضا - عائدة على الثلاثة الأول، كل واحد من هذه مفهوم من واحد من تلك.

اللفظ الثالث:

قوله:

أفلت شموس الأولين... .....

وقوله في آخر البيت «لا تغرب» هل المراد شموس الأولين غروبها بموتهم؟ فليس أحد يهتدى بنورها بعد موتهم، وشمسنا يهتدى بنورها بعد موتنا لا تغرب أبدا من سماء مجدنا الباقي بعدنا الموروث عنا إرثا بعد إرث على تعاقب الدهور بالولادة المعنوية من لقاح النور إشارة منه إلى عدم انقطاع الأخذ على أتباعه النائبين عنه بل يبقى ذلك مع الجاه الوسيع والشرف الرفيع، أو أن المراد بطلوع شمسنا أفول شموس من قبلنا لا بموتهم.

وشمسنا لا تغرب بطلوع شمس من بعدها أبدا فيه احتمالان ولكون الغروب على الاحتمال الثاني بمعنى الاستتار والانمحاق، لغلبة صفة أحد الشيئين على صفة الآخر على معنى قول القائل:

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقد بلغني عن بعض شيوخ اليمن الكبار أنه بشر بولي يظهر بعده وقال يكون شمس زمانه لكن لا كشمو سنا فظهر كما ذكر - رضي الله عنه - فلما أنشد الشيخ عبد القادر - رضي الله عنه - الأبيات المذكورة أجابه الشيخ أبو المظهر الواعظ المعروف بجراده - رحمه الله - منشدا هذه الأبيات:

بك الشـــهـور تـهنى والمواقـــيت يا من بألفـــاظه تغلـو اليـــواقـيت

البـــاز أنت فـــإن تفـخـــر فـلاعب وسـائر الناس في عـينى فـواخـيت

أشـم من قـديمك الصدق مـجتـهدا لأنه قـــدم فـى نعـله الـصـــيت

(تنبيه):

سئل الشيخ الإسلام عن قول القطب السيد عبد القادر الجيلى تأتى السنة وتسلم على، ويأتـى الشهـر ويسلم على ويـأتى اليوم ويـسـلم على ولا تطلع الشمس ولا تغيب حتى تسلم على.

فأجاب - رحمـه الله - ما نصه: اللهم ألحقنا بعبـادك الصالحين، وقال الله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[2] فالله جل جلاله سلم على أوليـائه، والملائكة سلمت على أوليـائه، فمـا بال الشـمس والقمـر لا يسلمان على أوليائه، والمنكر يعذر مع حرمانه والله اعلم.

وقال اليـافعى - أيضـا - أعلم أنه قد اشـتهر عن بعـض الأكابر، وهو الشيخ الإمام عبـد القادر الجيلانى - رضى الله عنه - أنه كان معتـقد الجهة، وقد استغرب هذا منه وعد شاذا... عن أئمـة المشرق كما عد الإمام ابن عبد البر - رحمه الله شاذا فى ذلك عن أئمة المغـرب لكن قد أخبر الشيخ العارف بالله الشهير نجم الدين - رضى الله عنه - أن الشـيخ الإمام العارف بالله عبد القادر الجـيلانى المذكور رجع آخـرا عما يعـتقده أولا، ذكـر ذلك لما بلغه أن الشيخ الإمـام تقى الدين ابن دقيق العـيد - رحـمه الله تعالـى - تعجب من

---

(١) سورة يس - آية ٥٨.

(٢) سورة الرعد - الآيتان ٢٣، ٢٤.

السيد الكبير الإمام الشهير الجامع بين علمى الظاهر والباطن الحسيب النسيب ذى الشرف والمفاخر محى الدين عبد القادر فى اعتقاده الجهة مخالفا للجمهور، وهذا الشيخ نجم الدين الأصبهانى كان العراق له وطنا، وكان من أهل الكشف والنور والاطلاع ظاهرا وباطنا أخبرنى بالزجوع عن الاعتقاد المذكور غير واحد من أصحاب الشيخ نجم الدين المذكور - رضى الله عنه - مما لا أشك - والله - فى صدقهم.

ثم قال اليافعى بعد أن ساق كلامه فى العائد فهذا كلامه - رضى الله عنه - محتويا على التوحيد والتنزيه مصرحا بنفى التجسيم والتشبيه مفصحا بكون الحق تعالى لم ينتقل إلى مكان ولم يتغير عما عليه كان، وقال فى موضع آخر، وأما من توهم لجهله بأولياء الله تعالى وفساد قلبه أن الشيخ عبد القادر الجيلانى قال: قدمى هذا على رقبة كل ولى لله تعالى[1] بحظ نفس وهوى كامن فى باطنه فهو يظن أن أصفياء الله مثله منطوون على خبث الضمائر ومتصفون بالصفات الرذائل نعوذ بالله العظيم من الخذلان وسوء الظن بأولياء الله أهل العرفان فإن من خضع له أكابر الأولياء هذا الخضوع، ورجع إليه العارفون بالله هذا الرجوع وزفته العناية هذا الزفاف المشعر بعظم جلالته، ورقص الكون جميعه طربا لظهور ولايته وحمل بين يديه علم القطبية، وتوج بتاج الغوثية وألبس خلعة التصريف العام النافذ فى جميع

---

(١) هذا كلام لا يقوم به دليل ولا يقوله ولى لان الله تعالى قال: (الا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فكف يضع الشيخ عبد القادر قدمه على رقابهم. والله سبحانه كرم بنى آدم، فلا يجوز لمن كرمه الله أن يضع أحد قدمه على رقبته كائنا من كان. كما أن ذلك يخالف آداب الإسلام، وآداب الصوفية وأدب الأولياء، والشيخ عبد القادر رضى الله عنه بما هو معروف عنه من تقوى وعلم وورع لا يقول هذا الكلام وقد يكون دسه بعض الاتباع إما رفعا لشأن إمامهم في ظنه وإما لمنفعة دنيوية.

الوجود، ومشتت أكابر الأولياء من الصديقين والبدلاء تحت ركابه بأمر الإله المعبود واشتهرت فى الوجود كراماته، وجمعه بين علمى الظاهر والباطن يستحيل أن يكون قال ذلك بحظ نفس، وهوى كامن فى نفسه.

وفى كتاب مناقبه - رضى الله عنه - فى طرق كثيرة، وروايات شهيرة عن جماعة من المشايخ الأكابر، والعلماء الأفاضل والأخيار الثقات، واشتهر واستفاض حتى فى الجهات البعيدات أنه قال فى مجلسه وهو على الكرسى يتكلم على الناس قدمى هذه على رقبة كل ولى لله[1]، وكان فى مجلسه حينئذ عامة مشايخ العراق، وروى أنهم كانوا نحوا من خمسين، وروى نيفا وخمسين شيخا منهم الشيخ أبو النجيب السهروردى والشيخ قضيب البان الموصلى، والشيخ أبو السعود أحمد بن أبى بكر العطار وغيرهم من المشايخ الأكابر المعدودين.

وروى من طرق كثيرة عن خلائق من الأولياء أنه لم يبق أحد من الأولياء فى ذلك الوقت من الحاضرين والغائبين فى جميع آفاق الأرض إلا حنا له رقبته إلا رجلا بأصبهان فإنه لم يفعل فسلب حاله وروى أن الشيخ أبا النجيب السهروردى طأطأ رأسه حتى كاد يبلغ الأرض وقال: على رأسى، قالها ثلاثا.

وكان من جملة من حنا له رقبته من الغائبين المشهورين الشيخ أبو مدين، والشيخ عبد الرحيم القناوى، والشيخ أحمد الرفاعى فرووا عنه أنه كان جالسا يوما بأم عبيدة فمد عنقه وقال: على رقبتى، وفى رواية أنه قال وحميد منهم فسئل عن ذلك فقال قد قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد قدمى هذه على رقبة كل ولى لله.

---

(١) انظر تعليقنا على ذلك فى الهامش السابق.

وأما الشيخ أبو مدين فرووا أنه حشى رأسه يوما وهو بين أصحابه وقال وأنا منهم، واللهم إنى أشهدك وأشهد ملائكتك أنى سمعت فأطعت فسأله أصحابه عن ذلك فقال قد قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد: قدمى هذه على رقبة كل ولى لله، فأرخوا ذلك وهم فى المغرب ثم جاء المسافرون من العراق وأخبروا أن الشيخ عبد القادر قال ذلك فى الوقت الذى أرخوه.

وأما الشيخ عبد الرحيم فرووا عنه أنه مد عنقه يوما بقنا وقال صدق الصدوق فقيل له: ومن هو؟ فقال الشيخ عبد القادر قد قال: قدمى هذه على رقبة كل ولى لله وتواضع له رجال المشرق والمغرب فأرخوا ذلك الوقت ثم جاء الخبر بذلك فى الوقت الذى أرخوه، وروى بأسانيد كثيرة من طرق متعددة عن جماعة من كبار المشايخ أنه لم يقل ذلك إلا بأمر منهم الشيخ عدى - رضي الله عنه - قال: إنما وضعت الأولياء كلهم روسهم لمكان الأمر ألا ترى إلى الملائكة لم يسجدوا لآدم - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم - إلا لورود الأمر عليهم.

ومنهم الشيخ أبو سعد - رضى الله عنه - قال: فلا بأمر لا شك فيه، وهى لسان القطبية قال ومن لأقطاب فى كل زمان من يؤمر بالقول فلها يسعه إلا القول وهو الأكمل فى مقام القطبية، لأنه لسان الشفاعة.

ومنهم على بن الهيتى - رضى الله عنه لما قال الشيخ عبد القادر مقالته تلك صعد إليه فوق الكرسى وأخذ قدمه وجعلها على عنقه ودخل تحت ذيله فقال له أصحابه لم فعلت ذلك؟ فقال لأنه أمر أن يقولها وأذن له فى عزل من أنكرها عليه من الأولياء فأردت أن أكون أول من سارع إلى الانقياد له.

ومنهم الشيخ أبو محمد القاسم - رضى الله عنه - قال لما أمر الشيخ عبد القادر أن يقول: «قدمى هذه على رقبة كل ولى» رأيت الأولياء بالمشرق

والمغرب واضعين رؤسهم تواضعا إلا رجلا من العجم فإنه لم يفعل فتوارى عنه حاله. قلت صعود ابن الهيتى - رحمه الله - فوق الكرسى وجعله قد الشيخ على عنقه يرد ما قاله شيخ الإسلام ابن حجر - رحمه الله حيث أول القدم بالطريقة بل جميع أقوال المؤلفين لأنه لو أراد بالقدم الطريقة يكن فى هذا خصيصة له على سائر الأقطاب لأن كل قطب طريقة على رقاب أولياء زمانه شرقا وغربا ولأن امتناع الرجل الذى بأصبهان عن الخضوع فيه دلالة على أن الشيخ لم يرد الحقيقة التى من شأنها أن تخضع لها أهل دائرة القطب فى كل زمان بل إنما أرادوا الحالة هذه أعظم من ذلك وهو القدم المعروفة فإذا تقرر ذلك علمت انه صرح بما أعطاه الله تعالى من خصوصية عظمى التى ما نالها أحد من الأقطاب قبله والله أعلم.

وكان الأستاذ القطب سيدى على بن عمر القرشى الشاذلى رضى الله عنه يقول: قول الشيخ عبد القادر الكيلانى قدس الله روحه قدمى هذه على رقبة كل ولى لله. قالها بالإذن، والأولياء الذين شهدوا اله أكثر من أن يحصروا غير رجل «بأصبهان» فأبى عن الطاعة فعزل وقال: من أنكرها فى زماننا هذا أو بعده إلى يوم القيامة عزل أيضا.

ولقد أخبر جماعة من المشايخ الكبار أهل الكشف والأنوار والمعارف، والأسرار عن هيئة الحال، لما قال الشيخ عبد القادر ذلك المقال منهم الشيخ أبو سعد رضى الله عنه قال: لما قال الشيخ عبد القادر قدمى هذه على رقبة كل ولى تجلى الحق عز وجل على قلبه وجاءته خلعة من رسول الله - ﷺ - على يد طائفة من الملائكة المقربين وألبسها. بمحضر من الأولياء من تقدم منهم ومن تأخر الأحياء بأجسامهم وكانت الملائكة ورجال الغيب حافين بمجلسه واقفين فى الهواء صفوفا حتى استد الأفق بهم ولم يبق ولى فى الأرض حتى مد عنقه.

ومنهم الشيخ بقه - رضى الله عنه - قال: لما قال الشيخ عبد القادر رضى الله عنه «قدمى هذه على رقبة كل ولى لله» قالت الملائكة: صدقت يا عبد الله.

ومنهم الشيخ خليفة رضى الله عنه وكان كثير الرؤيا للنبى - ﷺ - وروى عنه الشيخ أبو القاسم بن أبى بكر بن أحمد بن أبى السعادات البندنيجى - رحمه الله - أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قد قال الشيخ عبد القادر: قدمى هذه على رقبة كل ولى، فقال: صدق الشيخ عبد القادر وكيف لا وهو القطب وأنا أرعاه.

قلت: فهذه نبذة يسيرة تتعلق بمقالة الشيخ عبد القادر رضى الله عنه وقد أضربت عن أشياء كثيرة مما يتعلق بذلك طلبا للاختصار وقد ذكر بعض أهل العلم أن كرامات قربت من التواتر يعنى قرب حصول العلم بوجودها من العلم القطعى الحاصل بكثرة الرواة البالغين حد التواتر المعروف لكثرة المخبرين عنها وبالجملة فهذا الذى ذكرته من فضله إنما هو قطرة من بحر فضائله أو غبار من رمال ساحله.

* * *

تنبيه:

أعلم أن الشطح فى جملة ما أمروا به فصدر عنهم امتثالا للأمر ويكون ذلك الأمر تنويهـا بفضلهم. وبيانا لعلو شأنهم وتعـريفا للجاهل لكبـير قدرهم وإرشادا إلى التعلق بهم والتوسل برفيع جاههم وسببا لمصالح العباد ونفعهم.

قال اليافعي فى نشر المحاسن: «إنما يـعرفون الأمر بإعلام الله بإلهام أو كشف أو سماع خطاب أو غير ذلك مـن وجوه التعريفات ومن ذلك ما روى واشتـهر وتواتر فى بلاد اليـمن وما قرب منهـا أن الفقـيه الإمام عـالى المقام وصاحب الكرامات العظام الولى الكبير العارف بالله الشهير بالذبيح إسماعيل بن مـحمـد الحضـرمي - رضى الله عنه - قـال قـال: من قبل قـدمى دخل الجنة[1]. ولم يزل يقبل قدمه كل من زاره من الأكـابر والأصاغر من المشايخ والعلماء وغيرهم من كل باد وحاضر.

ومن ذلك أيضا ما اشتـهر عن السيد الجليل الشيخ الكبـير إمام الطريقة ولسان الحقـيقة العارف بالله أحـمد بن الجعد اليـمنى رضى الله عنه انه التزم الشفاعة لمن رآه ومن رأى من رآه ومن ذلك أيضـا قول بعض المشايخ السادات أصحاب الكرامات: شُفِّعت فى القرن الذى أنا فيه ومن هذا كثير لا ينحصر.

واعلم أن من الشطح ما يعتذر عنه بالتأويل الظاهر كـما اشتهر عن بحر الحقائق، معـدن الأسرار والمعانى الدقائق شيخ الشيـوخ الأكابر أبى الغيث بن جميل قـدس الله روحه - أنه جاء إليه جماعـة من الفقهاء فقال لهم مرحبا بعبيـد عبدى فاستعظمـوا منه ذلك ورجعوا منكرين عليه فلقـوا شيخ الطريقة وإمام الفريقين إسماعيل بن محمد الحضرمي المتقدم ذكره فذكروا له ذلك فقال

صدق أنتم عبيد الهوى والهوى عبده وإلى هذا أشار اليافعى فى قصيدته بقوله:

وبعض له التأويل فى الشطح ظاهر وبعض لتعريف ونصح ليقتدى

فصل:

ومن الشطح أيضا تصريفهم فى المملكة بإذن الله فيتصرفون فيها ويحكمون فينفذ ذلك بإذنه ومشيئته فإذا نازع الولى أحد ممن هو دونه من الأولياء فى ولاية التصريف فى المملكة أو ادعى أنه أعلى منه مقاما أو أنه جاوز مقامات الأولياء جاز أن ينكر عليه قوله ويدعى ذلك لنفسه إذا كان فيه صادقا محقا من ذلك قول الشيخ أبى الغوث بن جميل المشهور مشيرا إلى التصريف المشهور، «فالأرض أرضى والسماء سمائى» لما كتب إليه الشيخ الكبير العارف معدن الأسرار والمعارف أحمد بن علوان رضى الله عنه فى بعض جبال اليمن بهذين البيتين:

جُزْتُ الصفوف إلى الحروف إلى الهجا حتى انتهيت مراتب الإبداع

لا باسم ليلى اسعنت على السرى كلا ولا لبنى شراعى

فأجاب الشيخ أبو الغيث معارضا لقوله فى هذين البيتين:

منهما:

وحبانى الملك المهيمن واجتبى فالأرض أرضى والسماء سمائى

وإلى هذا أشار اليافعى بقوله:

مشيرا ينظم فى جواب منازع يسمى ابن علوان عليا وسيدا

إلى أنه فى وقته الأرض والسما له فيها التصريف بالإذن مفردا

ومعنى قوله: «وحبانى الملك» إلى آخره أى أعطانى ملك الأرض والسماء ولاية التصريف فيهما بطريق النيابة لما علمه فى من توفيقه لى لموافقة مراده فى أحكامه ولهذا أشار اليافعى أيضا بقوله:

مولى على التصريف فى الملك حاكم ويديه فى ظلمة الليل يهتدى

قلت: ولو قال أمير ولاه سلطان بلادا وصرفه فيها يولى ويعزل ويقطع ويصل «هذه البلاد بلادى» لم يكن مستنكرا وقد اشتهر عن الشيخين السيدين الكبيرين العارفين بالله تعالى - إمامى عصرهما وما لكى زمام زمانهما الشيخ محمد بن أبى بكر الحكمى والفقيه محمد بن حسين المشهورين فى بلاد اليمن رضى الله عنهما - أنهما سمعا خطابا من قبل الحق سبحانه وتعالى: إذا شئتما أن تفعلا شيئا فافعلاه ولا تستأذناننى وهذا بعض الخطاب المذكور(١).

وأما البيتان اللذان أرسلهما الشيخ: أحمد بن علوان إلى الشيخ أبى الغيث بن جميل المذكوران ففى تأويلهما صعوبة فكأنه أشار والله أعلم بقوله «جزت الصفوف» أى أنه جاوز مقامات الأولياء وجاوز صفوف الملائكة وقوله: إلى الحروف يحتمل أنه أراد إلى علم الحروف والأسماء وقوله: إلى البحار يحتمل أنه أراد الإطلاع على الأسرار وقوله: حتى «انتهيت مراتب الإبداع» فيه ما فيه وينبغى أن يحمل على أحد ثلاثة محامل:

أحدهما: التصرف بالإذن فيما شاء الله بقدرة الله وقد تقدم أن الخوارق للعوائد تجوز جميعها فى كرامات الأولياء بشرط عدم التحدى، بالنبوة.

والثانى بلوغه إلى مقام اطلع فيه على تكوين الخلق واختراعهم أو سماع صريف القلم الذى أمر بكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة وهذه مقامات المشار إلى بلوغها فى هذا البيت إنما يبلغ إليها بالروح والعلم بطريق الكشف لا بالجسد والعلم بطريق النقل.

---

(١) لا دليل على ذلك.

والثالث: حمل ذلك على صدوره منه فى حال سكر الحال وقوله فى البيت الثانى [لا باسم ليلى استعنت على السرى كلا ولا لبنى ترد شراعى].

فيه أيضا ما فيه وينبغى أن يحمل على الاستغناء عن الاستعانة بالمشايخ إشارة إلى أنه صار مستقلا بنفسه فى التصريف مأذونا له فيه لا يحتاج فى طريق سراه إلى شيخ يدله ولا شيخ يحمل عنه شراع مركبه السارى فى بحر المعارف ويقله لا بنفسه ولا بذبح نفسه أو يحمل ذلك كله على أنه قاله فى حال السكر والله أعلم.

فصل

إن التخريب فى جملة ما يعتذر عنهم عند المحققين وهو أن يفعل من يظن به صلاحه فسادا وذلك بأشياء كثيرة يدل فعل كل واحد منها على تهاونه بالدين كما سيأتى ذلك إن شاء الله تعالى.

وأما التخريب بالشطح فهو أن يتكلم بكلام عظيم يدعى فيه حالا عظيما فوق ما يظن به بحيث يسقط من القلوب ويسأء الظن به فيحصل مقصوده فى نفى الصلاح عنه وإلى ذلك أشار بحر الحقائق محى الدين ابن العربى بقوله:

ومن شاطح لم يلتفت لحقيقة قد أنزله دعواه منزله الهبا

وقال أيضا رضى الله عنه:

ومن كاتم للسر يظهر ضده عليه لظلاب المشاهر بالتقى

قال شيخنا العارف بالله سيدى محمد المغربى نفعنا الله به أشار الشيخ بذلك إلى الملامتية الذين يتلبسون بالمنكرات فى الظاهر وليسوا فى حال الباطن منها فى شىء وقال اليافعى فى كفاية المعتقد اعلم أن مذهب التخريب مبنى على إظهار المساوى وإخفاء المحاسن وأنواع التخريب كثيرة والمخربون كثيرون ولا يزالون يتعاطون ما يؤدى إلى إساءة الظن بهم وسقوطهم من قلوبهم الخلق ورميهم لهم بالعظائم، لا يحتفلون بمدح الخلق ولا بذمهم استجلابا لكمال

الإخلاص واستبراء للنفس من شوائب الشرك الخفى الذى لا يسلم منه إلا الخواص لا يبالى أحدهم بكونه بين الخلق زنديقا إذا كان عند الله صديقا فبعضهم يوهم الناس أنه يصلى ولا يصوم فيما بينه وبين الله وقد شوهد منهم كثير يصلون فى الخلوات ولا يصلون بين الناس.

وبعضهم: إذا بات عند الناس يوهم أنه نائم ويخرج إلى بعض المزابل يوهم أنه يبول وليس يبول ولا نوم بل يصلى الصبح بوضوء العشاء وبعضهم يصلى بين الناس ولكن لا يرى فى الصلاة يحتجب عن الناس بحاله إخفاء للمحاسن كما تقدم.

وبعضهم يكشف عورته بين الناس وبعضهم يشتم الناس بالألفاظ القبيحة[1] وبعضهم يجعل قصبة ويعدو عليها كأنما فرسه وبعضهم يشتغل ببعض الحرف الدنيئة وبعضهم جاءه بعض الملوك يزوره فى بعض عسكره فاستدعى بطعام وجعل يأكله أكلا بشعا شنيعا فانصرف عنه الملك لما رأى ذلك.

وبعضهم يأخذ شيئا للناس حتى ينسبوه إلى اللصوصية وتزول عنه شهرة الصلاح كما حكى عن إبراهيم الخواص رضى الله عنه أنه لا يقيم فى بلد إلا أياما معدودة خوف الشهرة فلما دخل بعض البلاد اشتهر فيها فأراد أن يزيل عنه شهرة الصلاح وما يترتب عليها من الضرر فدخل الحمام ووجد لباس ابن الملك قد نزعه ووضعه عند الحمامى ليحفظه له فغفل الحمامى عنه فلبسه الخواص ولبس من فوقه ثيابه وخرج يمشى رويدا حتى يلحقوه وينسبوه إلى اللصوصية وتزول عنه شهرة الصلاح فلحقوه وأخذوا منه ذلك وضربوه وسموه فى تلك البلدة لص الحمام فقال لنفسه ها هنا طاب المقام.

وقد سأل بعض الفقهاء بعض الفقراء عن هذه القضية بعينها وقال له أريد أن تقيم على جوازها دليلا ظاهرا من ظاهر الفقه وإلا لا أقبل ما يذكره

(١) هذه أمور لا يقبلها العقل ولا دليل لها من النقل وهى ليست مقصورة على الصوفية وحدهم بل تنتشر بين بعض المسلمين كما تنتشر فى بلاد غير إسلامية أيضا. والله أعلم بهم.

الفقراء قال له الفقير ومـا طلبته من الدليل حاصل قال: وما هو؟ قال: أليس يجـوز فى ظاهر الفقـه استـعمـال بعض المحـرمات عند بعض الضـروريات كاسـتعمال النجـاسات فى المداواة قال الفـقيه بلى يجـوز ذلك فقال الفقسير: فكذلك فى هذه المسألة دوى قلبه بهذا المحرم فاعترف الفقيه وقال هذا الجواب هو الفقه بعينه.

قلت: وقـد زدت هذا الجـواب بيـانا إذا جاز أن تداوى الأجـسـام من الأسقام شىء حرام فلأن يجوز أن تداوى القلوب التى هى محل المعرفة والنور بشىء محظور أولى وأبعد من المحذور وشتان ما بين المرضين فمرض الأجسام رحمة وحسنات ومـرض القلوب نقمة وهلكات وأين هلاك الأبدان من هلاك الأديان ففى هلاك الأديان سخط الملك الديان والبعـد من الرحمة والقرب من الشيطان وليس كـذلك هلاك الأبدان فظهر أن مداواة القلب من مـرض ضرر الشهرة وغيرها أولى وأحرى.

وقـد نبـه النبى المكرم ﷺ على شـرف القلب بقـوله ﷺ «ألا وإن فى الجسـد مضـغة إذا صلـحت صلح الجسـد كله ألا وهى القلب» أخرجـاه فى الصحيحين وإلى ذلك أشار اليافعى رضى الله عنه بقوله:

وبعض على التـخريب مـال تسترا	لكيـلا يرى فـيـه الصلاح ويحـمـدا
يداوى لقلـب فى حـرام مـخـفف	لجسـم وبل أولى جـوازا مـؤكـدا
لأن سـقـام الجسـم أجـر ورحـمـة	وبالضد سـقم القلب للدين مفـسـدا
كـمـا فـعل الخـواص فـى لبس	خلعة ابن ملـك بحمام لغـسل تجردا
ليـدعـوه لصـا ثم تذهب شـهـرة	فـلا قط يدعـى صـالحـا متـعـبـدا

قوله «فى حرام مخفف» أى لايد أويه بالتخـريب بحرام مغلظ كالكبائر ونحوها ومع هذا يحتاج إلى معرفـة فلا ينبغى أن يقرب الحرام ألا إذا علم

بنور الله تعالى أنه إن لم يقدم على الحرام المذكور دخل عليه من الفساد والضرر أكثر مما يدخل عليه بارتكاب الحرام، ومع هذا يستدرك ذلك بالاستغفار وبالعفو لمن ظلمه بسبب تخريبه المجاوز للحق الواجب عليه فى ظاهر الشرع، وكذلك إذا حصل الغرض بالتخريب بمكروه ولا يجوز بحرام وقوله ابن ملك ملك هنا بسكون اللام لغة فى ملك بكسرها ومليك بالياء أحد الملوك.

فقلت وللمخربين حكايات كثيرة صحيحة لا يمكن حصرها من ذلك ما حكى عن الشيخ عبد العزيز المتوفى - رضى الله عنه - أنه اشتهت عليه نفسه فى بعض سياحاته شهوة وألحت عليه فيها فعدل إلى بعض القرى فإذا فيها ناس مجتمعون فدعته نفسه إلى الوقوف عليهم لينظر على أى شىء اجتمعوا فإذا فيهم شيخ يضرب لهم بدف أو قال: بطبل فقلت فى نفسى ما لقى هذا الشيخ إلا هذه الصنعة.

قال لى: لو لقينا صنعة أفحش من هذه الصنعة دخلنا فيها ثم مشى بى إلى بيته فدق الباب فخرج «بنية» له صغيرة وقالت يا أبى ترى حاجة الشيخ عبد العزيز قد جهزناها له قال فمقت نفسى ونويت أنى ما بقيت أكلها فقال لها: يابنية هو قد خرج عنها قال: فبت عنده إلى الصباح.

ومن ذلك ما حكى وروى عن بعض الفقهاء أنه قيل له ذات ليلة فى النوم أنت من الأبدال فلما أصبح قال فى نفسه إذا كنت من الأبدال فما بقيت أسلم للسلطان شيئا من المكتب يعنى من خراج الأرض الذى يكتب على أهل الحرث ويؤخذ منهم للسلطان شيئا.

وكان الفقيه المذكور حراثا فأتى إليه أعوان السلطان الذين يجمعون الخراج وطالبوه فأبى أن يعطيهم شيئا فأعلموا الأمير بذلك فلاطفه الأمير فى تسليم ذلك فامتنع فقال له يا فقيه نحن نحترمك ونبجلك وما نشتهى لك إهانة فلا تحوجنا إلى الشر والخروج إلى ما تكره فلم يفعل وقام رجل

«مشـاعلي» ممن يخدم ولاة الأمـير وقال للأمـير ومن عنده من كـبراء الديوان دعونـي أحل بلا فقـيه وأكمـله فقـالوا: ما جـاء منه شيء بكلامنا له يجيء بكلامك أنت؟ فقال: خلوني وما عليكم فقالوا: دونك.

فتباعد به عنهم ثم قال له: يا فـقيه هم قالوا لك البارحةَ في النوم إنك من الأبدال قال: نعم قال: فقـالوا: لك إنك منهم الآن: قال لا قال فأعطهم حـقهم الذى طلبـوه منك وأنت سـالم حتـى يجيء ذلك الوقت: فإذا جـاء فـحينئـذ اقطع وصل وول واعزل ومـا يكون ذلك حـتى أموت أنا فـإذا مت وأعطاهم جعلت في مكاني فقم الساعة واعطهم الـذى لهم مثل غيرك، فقال السمع والطاعـة، فقام وأعطاهم فـتعجبـوا من ذلك وما دروا أنه من الأبدال السادات أولى السعادات ومنهم من ستر بحمل المشعل حاله.

ومن ذلك ما حكى الشيخ المشهور صفى الدين بن أبى المنصور - رضى الله عنه - في رسالتـه قال: لما جاء الشـيخ الإمام شهاب الدين السـهروردى رضي الله عنه إلى دمشق في رسالة الخليـفة إلى الملك العادل بالخلعة والطرق وغير ذلك قال لأصحابه: أريد أن أزور عليا الكردى فقال له الناس: يا مولانا لا ينبغي لك بهذا أنت إمـام الوجود وهذا الرجل لا يصلى ويمـشى مكشوف العورة أكـثر أوقاته في الجـامع حتى دخل عليـه موله آخر يقـال له: يا قوت فساعة دخـوله من الباب خرج الشيخ على من دمشق وسكن جنبـاتها بالباب الصغير وما دخلها بعد ذلك إلى أن مات وياقوت فيها يتحكم.

فقالوا للشيخ شـهاب الدين هو بالجبانة فركب بغلته ومـشى في خدمته من يعرفه فلما وصل إلى قريب مكانه كشف عورته فقال الشيخ شهاب الدين ما هذا شيء يصدعنا عنك وها نحن ضيـفانك ثم دنا منه وسلم عليه وجلس معه وإذا بحمالين قد جاءوا ومعهم مأكول معتبر فقال لهم: من تريدون؟ قالوا الشيخ الـكردى، فقال لهم، دعـوه قدام ضـيفي وقـال الشيخ شـهاب: هذه ضيافتك فأكل، وكان يعظم الشيخ عليا الكردى.

ومما ظهر من كرامات الشيخ على المذكور أنه دعاه رجل من أعيان دمشق يقال له بدر الدين ودعى الفقراء المعروفين فى الجامع وغيره فهم مجتمعون وإذا بالشيخ على قد جاء إلى الدار فرأى فى صفة منها قوالب سكر فقال سكر لصاحب الدار: ارمها كلها فى البركة قال: نعم ثم رمى الجميع فى البركة فصار الفقراء يشربون الجلاب ويسمعون إلى آخر النهار ثم أكلوا وانصرفوا ثم قال الشيخ على لصاحب الدار أخرج القوالب فاخرجها ووجدها كلها صحاحا لم يذهب من السكر شيء وأنشد بعض المخربين بالجنون.

وموت دهرى بالجنون على الورى لأكتم ما بى من هواه فما انكتم
ولما رأيت الشوق بالحب بائحا كشفت قناعى ثم قلت: نعم نعم
فإن قيل مجنون فقد جنن الهوى وإن قيل مسقام فما بى من سقم

وقال شيخ الطريقة ومعدن الحقيقة شهاب الدين المتقدم ذكره فى عوارف المعارف الملامتى: هو الذى لا يظهر خيرا ولا يضمر شرا وشرح هذا أن الملامتى تشربت عروقه طعم الإخلاص وتحققت بالصدق فلا يجب أن يطلع أحد على حاله وأعماله. وقال الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبى الفوارس فى بعض تصانيفه: اعلم أن الصوفية على نعتين سلامتى وملامتى: فالسلامتى هو المتمسك بما نص عليه الكتاب والسنة ظاهرا وباطنا.

والملامتى هو الذى يتمسك بالحقائق المكنونة فى جداول آيات الكتاب والسنة سرا وعلانية.

وقال أيضا السلامتى من عينه إلى عين الطريق والفريق والملامتى من عينه إلى سر الطريق ومن الشطحيات المنقولة عن الملامتية ما حكى أنا أبا زيد البسطامى دخل بعض البلاد فأقبل الخلق عليه فطلع إلى موضع عال ووقف وقال يا قوم إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدون فرجع الخلق عنه وقالوا: إنه مجنون وقواعد مناهج الملامتية محكمة بمعنى هذين البيتين.

فليستك تحلوا والحياة مريرة ... وليستك ترضى والأنام غضاب

فيا ليت ما بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

ومنها: السقول بقدم العالم أعلم أن القائلين بذلك من الصوفية ليس مذهبهم في ذلك كمذهب الفلاسفة معاذ الله ثم معاذ الله فقد قال رئيس القوم وسيد السالكين في زمانه الجامع بين علمي الظاهر والباطن أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في كتابه المنقذ بين الضلال يجب تكفير الفلاسفة في ثلاث مسائل:

الأولى: القول بقدم العالم.

الثانية: قولهم: أن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات.

ثالث: إنكارهم حشر الأجساد.

وقال بعض العلماء: اختلف الناس في معرفة الصانع والمصنوع فقال بعضهم: العالم محدث لما فيه من دلائل الحدث من التأليف والتصوير والحركة والسكون وذلك دليل على أن له صانعا قديما بخلافه.

فقال بعضهم: قديم لأنهم لم يشاهدوا شيئا إلا من شيء كالإنسان لا يكون إلا من نطفة والطير لا يكون إلا في بيضة وإنما يقع نمو ذلك باعتدال الحر والبرد والرطوبة واليبس ويقع فساده بإفراط أحدها فيه ثم اختلفوا من قال بقدم العالم.

فقالت الهيولائية: ومن قال بقولهم هيولاء قديم وتفسير الهيولى أصل الأشياء مثل القطن للثوب وهو هيولى له فالهيولى هو المدبر للعالم وهو أصل له لم يزل وقوة معه فالعالم لم ينفك عن عرض وجوهر فالجوهر القابل للأعراض الهيولى حركة القوة فحدث البرد ثم حركها فحدث الحر فقبلهما الجوهر فالجوهر قديم معه.

وقالت الأطباء ومن قال بقولهم أربع طبائع لما طويل يتعلق بمذاهب الحكماء والفلاسفة لا حاجة إلى الخوض فيها وإنما ذكرت هذا القدر اليسر ليعلم أن من قال من الصوفية بقدم العالم لم يقصد شيئا معارضا لمذاهب أئمة الإسلام. بل إنما قصد والحال هذه قدمه من حيث العلم القديم والإرادة الأزلية لأن العالم وجميع ما حدث فيه من الكائنات كان موجودا وبيان ذلك أن الله سبحانه وتعالى أراد وجود العالم فى الأزل وعلم بإرادته القديمة جميع ما يحدث فيه من الأمور والكائنات إلى يوم القيامة فالعالم حينئذ كان هناك فى الأزل موجودا علما وإرادة وإن كان معدوما حسا وصورة لأن الله تعالى كان فى قدم ولا شيء معه.

قال بعض المحققين: العالم قديم التعيين حديث النبيين فأما قدمه فى التعيير فهو اختيار الحق تعالى إيجاده فى الأزل وأما كونه حديث النبيين فهو إبرازه بهذه الصورة التى هو عليه فى الأبد:

قلت: إذا تقرر ذلك علمت أن هذه المسألة فى كتبهم عين الشريعة بلا شك وغيرها من مسائل المعاينة التى صرح بها القوم وإلى هذا أشار بحر الحقائق حامل اللواء العلم بالله محيى الدين بن العربى قدس الله روحه - بقوله:

لا أقول بتكرار الوجود ولا عود التجلى فما فى الأمر تكرار
فالبحر بحر على ما كان فى قدم إن الحوادث أمواج وأنهار
لا يحجبنك إشكال مشكلة عمن تشكل فيها فهى أستار

قال شيخنا العارف بالله سيدى محمد المغربى: اعلم أن بكل مسألة ذات خلاف تأويلات قل أن يتعين تقيدها بجهة من المعانى دون جهات فمن أثبت الصفة شهد العالم آثار الصفات وإلا شهد مجرد إثبات عين الذات متجلية متوحدة بانفرادها منزهة عن وجود سواها فى جميع الحضرات فحال هذه المعارف حال من استغرقه شهود البقاء بالله تعالى واستهلك عن شهود سائر

الموجودات فوجود الوجود ومسوجوده فى الأزل علما عند أهل النفى والإثبات كالبحر العجاج ووجود ذلك البحر وشهوده هنا فى الأبد عينا كتلاطم الأمواج وليس بين بحـر الأزل وموج الأبد غـيرية سـوى عينيـة اتحاد تصـرف الإرادة بالقدرة السارية الجارية أزلا وأبدا فى جمـيع الأوقات هذا القدر هو المفهوم لنا من ظاهر معانى هذه الأبيات. وما بطن منهمـا فهيهات أن يطلع عليه إلا رب السـمـاوات ومن أيده الله تعـالى بـروح من عنده أطلعـه علـى مـثل هذه الكرامات.

● تنبيه:

اختلف في صفات الأفعال فالأشعرية على أنها حادثة والحنفية على أنها قديمة وإليه ذهب كثـير من الصوفية فقالوا: لم يزل خالقـا واحتجوا بأنها لو كانت حادثة لكان ناقصا فيمـا لم يزل قال القونوى في شرح «التعرف» ويقال لهم يلزمكم على هذا قدم الخلق لأن قولكم لم يزل خـالقا يوجب كون الخلق معه فى القدم قال: وهذه شبهة الفلاسفة فى قدم العالم.

وقد يحكـى بعضهم أنه صـعد المنبـر وقال للحـاضرين ما تـقولون فى رجلين اعتقـاد أحدهما أن الله لم يزل مالكا للملك خالقـا للخلق رازقا غنيا جوادا مفيضا للخيرات له الخلق والأمر أزلا وأبدا، والآخر معتقد أن الله كان فى الأزل وحده لم يكن معه شيء ولا كان له خلق ولا أمر حقيقة ثم تجدد له ذلك أيهما أحق بالأتباع.

فبادر الناس إلى أن القائل الأول أحق بالتصـديق والإتباع وهذه وسيـة فلسفية فليتنبه لها ليتحرز عنها قلت: لا نسلم أن مقالة الأول وسيلة فلسفية أزلا فرق بين المقالتين عند تحـقيق المناط لأن قـوله «إن الله لم يزال مـالكا للملك» أى بالقدرة والإرادة أزلا بالفعل وجودا وصورة وهذا عين قوله الثانى بلا شك حيث قال إن الله كـان فى الأزل وحده أى كان الله فى الأزل وحده مع القدرة والإرادة لخلق الخلق إيجادا لا وجودا ثم قـال القونوى رحمة الله -

ويقال لهم لا نقص مع تحقيق القدرة الكاملة أزلا وأبدا وإنما اقتضت الحكمة الإلهية تأخير الخلق إلى حين إرادة الله لتعلق القدرة الأزلية بإيجاده وإذا استحال كون الحادث أزليا لم يكن تعلق القدرة بإيجاده أزلا لنقص فى القدرة بل لعدم قابلية المستحيل لتأثير القدرة فيه بالإيجاد قلت:

هذا مراد السادة الصوفية ولا يظن بهم خلاف ذلك معاذ الله ولهذا قال شيخنا العارف بالله سيدى محمد المغربى:

«قول السادة الصوفية إن الله تعالى لم يزل خالقا أى لم يزل موصوفا بالقدرة على ذلك أزلا وأبدا ولا يلزم من إيجاد الخلق فى الأبد وجوده فى الأزل لأنه تعالى كان موصوفا أزلا بالقدرة على الفعل إرادة لا بالفعل وجودا إذ لو كان موجودا بالفعل أزلا للزم من ذلك للحادث من القدم أو للقدم من الحدوث ما يلزم والله أعلم.

فصل

ومنها ما صرح به بعض الصوفية فيه تفضيل الولاية على النبوة وهذا القول ليس بكفر عند المحققين من أهل الشريعة فضلا عن أهل الحقيقة لأن صاحب هذا القول لم يقصد به ما يفهم من ظاهره بل هو مؤول بما سنذكره.

وتأويله ما ذكر الشيخ علاء الدين القونوى فى شرح التعرف: أن الولاية والنبوة بينهما عموم وخصوص مطلق فكل نبى ولى ولا عكس فلا ينفك النبى عن كونه وليا أصلا كما أن بين النبوة والرسالة عموما وخصوصا مطلقا فلا ينفك الرسول عن كونه نبيا أصلا ثم قال صاحب هذه المقالة إن النبى من حيث كونه وليا أفضل من حيث كونه نبيا ولا يلزم من ذلك ما ظن من المحذور لأنه إنما كان يلزم تفضيل الولى على النبى لو وجد نبى غير ولى وهذا لا يوجد كما تقدم.

فالنبى فيه الولاية وزيادة النبوة فهو أجل مقاما وأشرف ونظير هذا ما قاله سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام ان مقام النبوة أفضل من

مقام الرسالة كما حكاه ابن جماعة فى شرح جمع الجوامع نظرا إلى أن النبوة مقام العمل فهى متعلقة بالله تعالى من طرفيها والرسالة مقام التبليغ فهى متعلقة بالخلق ثم لا يلزم من هذه المقابلة تفضيل النبى على الرسول لأنه لا يوجد رسول وهو غير نبى حتى يلزم ذلك بل الرسول فيه النبوة وزيادة الرسالة فهو أفضل من النبى قطعًا لاجتماع المقامين فيه فافهم ذلك.

وقال صاحب التعرف وأجمعوا على أن الأنبياء عليهم السلام أفضل البشر وليس فى البشر ما يوارى الأنبياء فى الفضل لا صديق ولا ولى ولا غير ذلك وإن جل قدره وعلت مرتبته.

قال القونوى قصده بهذا الكلام الرد على ما يروى عن طائفة من الضلال أن الولى أفضل من النبى وهذا عند أهل التحقيق كفر لا يعتقده إلا كل زنديق وما ادعاه حكم عليه بالتكفير والتضليل قال: نعم وقع فى كلام بعض المتأخرين أن الولاية أفضل من النبوة وتأوله من يحسن الظن فيه بأنه ما أراد تفضيل المتصف بالولاية المجردة على المتصف بالنبوة وإنما أراد أن النبى فيه صفتان وذكر نحو ما تقدم.

قلت قد صرح الشيخ محيى الدين ابن عربى نفسه بهذا المراد فإنه قال فى كتاب مقام القربة وإذا سمعتم لفظة من عارف متحقق مبهمة وهى أن يقول الولاية هى النبوة الكبرى أو الولى العارف مرتبته فوق مرتبة الرسول فاعلم أنه لا اعتبار للأشخاص من حيث ما هو إنسان فلا فضل ولا شرف فى الجنس بالحكم الذاتى وإنما يقع التفاضل بالمراتب فالأنبياء صلوات الله عليهم ما فضلوا الخلق إلا بالمراتب.

فالنبى ﷺ له مرتبة الولاية والمعرفة والرسالة ومرتبة الولاية والمعرفة دائمة الوجود ومرتبة الرسالة منقطعة فإنها تنقطع بالتبليغ والفضل للدائم الباقى والولى العارف مقيم عنده والرسول خارج وحالة الإقامة أعلى من حالة الخروج فهو ﷺ من كونه وليا وعارفا أعلى وأشرف من كونه رسولا وهو

الشخص بعينه واختلفت مراتبه لأن الولى منا أرفع من الرسول نعوذ بالله من الخذلان هذا آخر كلام ابن عربى بحروفه وبه يندفع أقوال المعترضين الذين لا معرفة لهم بمصطلح القوم.

وانظر كيف نفى المحذور واستعاذ بالله من الخذلان.

وقال القطب سيدى محمد وفا الشاذلى فى كتابه «نفائس العرفان من أنفاس الرحمن»: الولاية لها ظاهر وباطن ظاهرها توفيق العبد لأن يتولى الله بامتثال أمره ونواهيه واتباع مرضاته والنبوة فوق ذلك أى فوق درجة الولاية والرسالة فوق ذلك بما خصص الله الأنبياء من الأنباء والاطلاع على المغيبات ومكاشفة الملكوت وما أيد الله به الرسل من تنزل روح القدس والإمداد بالحكمة والقوة على الدعوة إلى الله تعالى والمعجزات الباهرة والدلالات الظاهرة وإلى غير ذلك.

وأما الولاية الباطنة فهو بما تولى الله به عبده بذاته وأطلعه عليه من مكنون أسمائه وصفاته وأحضره فى حضائر قدس تجلياته فاخذه منه وأفناه عنه وأبقاه به فهو لا هو، لا هو إلا هو وهذه الولاية هى التى ترقى إليها محمد ﷺ لما فارقه جبريل عند سدرة المنتهى وكان بها فى مقام قاب قوسين أو أدنى وكانت النبوة فى هذا الوجه دون مقام ولايته والرسالة دون مقام نبوته.

وقال القاشانى فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1] الآية الفرق بين الرسول والنبى أن الرسالة باعتبار تبليغ الأحكام ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾[2] والنبوة باعتبار الإخبار عن المعارف والحقائق التى تتعلق بتفاصيل الصفات والأفعال فإن النبوة ظاهر الولاية التى هى الاستغراق فى عين الجمع والفناء فى الذات فعلمها علم توحيد الذات ومحو الأفعال والصفات فكل رسول نبى وكل نبى ولى وليس كل نبى مرسلا وإن كانت رتبة

(١) سورة النساء - آية ٦٤.

(٢) سورة المائدة - آية ٦٧.

الولاية أشرف من النبـوة والنبوة من الرسالة كـما قيل: مقـام النبوة فى برزخ دون الولى وفوق الرسول.

• تنبيه:

قول الشيخ العارف بالله أبى يزيد البسطامى - رضى الله عنه - خضت بحرا وقف الأنـبياء بسـاحله قال قطب الدائرة الـشيخ أبو العبـاس المرسى - رضى الله عنه - به مراده أن الأنبياء خاضوا بحر التوحيد ووقفوا على ساحل الغرق يدعون الخلق إلى الخوض أى فلو كنت كاملاً لوقفت حيث وقفوا.

قال الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله فى لطائف المنن: وهذا الذى فسر به الشيـخ كلام أبى يزيد هو اللائق بمقام أبى يزيد» قال والمشـهور عنه التـعظيم للشريعة والقيـام بكمال الأدب حتى إنه حكى عنه أنه وصف له رجل بالولاية فأتى إلى زيارته فقعد فى المسـجد ينتظره فخرج ذلك الرجل وتنخم فى حائط المسجد فـرجع أبو يزيد ولم يجتمع به وقال هذا رجل غيـر مأمون على أدب من آداب الشريعة كيف يؤمن على أسرار الله تعالى.

قال وما جاء عن الأكابر أولى الاستقامة مع الله تعالى فى أقوال وأفعال يستنكر ظاهـرها أولناها لهم لما علمنا من استـقامتـهم وحسن طريقتـهم وقد ورد: لا تظنن بكلمـة برزت من أمرئ مـسـلم سوءًا وأنت تجـد لها فى الخـير محملا انتهى.

وكيف يظن بهذه المقـالة سوى وقد قال أبو يزيد نفسه: جـميع ما أخذ الأولياء مما أخذ الأنبياء كزق ملىء عسلا ثم رشحت منه رشاحة فما فى باطن الزق للأنبياء وتلك الرشاحة للأولياء».

وقال شيخنا وإمامنا العارف بالله سيدى محمد المغربى - نفعنا الله به - لعل المراد بهذه المقالة والله أعلم أن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وقفوا بعدما أذن لهم فيه من الأمر للأمم بـاتباع الشريعة قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ

شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾[1] وكفوا عن الخوض فالأمر لهم بما لم يؤذن لهم فيه من أمر الحقيقة خلاف الولى فإنه قد يؤذن له أن يدعو الخلق إلى الحقيقة بالحق وفى هذا المعنى قال الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض - قدس الله روحه.

وَدونك بحرا خضته وقف الأولى بساحله صونا لموقف خدمة

أى كم خضت بحرًا فى المعرفة طالبا لمقام العارفين وهو مشاهدة الحق بالحق مع فناء الخلق دونه وقف الأولى وهم الأمم المبتدئون فى السير إلى الله تعالى وهم العابدون حسب ما أذن لهم فيه أنبياؤهم لأن الشرائع ظاهرة سهلة قريبة مبنية على الرخص والتخفيف بخلاف الحقيقة التى مبناها على العزيمة والتشديد وقوله بساحله بداية مسير العارفين وقوله «صونا لموقف خدمة» أى حفظا للقيام بالعبودية والحقوق اللازمة والله أعلم.

فصل

ومنها قول أبى يزيد أيضا: «سبحانى ما أعظم شأنى» قال: يعتقد فى أبى يزيد أنه ما يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله - تعالى - وهكذا ينبغى فى قول الحلاج: «أنا الحق» وقال الشيخ قطب الدين القسطلانى فى بعض كتبه: وممن نقل عنه أنه شطح فى إشاراته وطفح وجده فى عباراته الشيخ أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه فمن ذلك قوله «سبحانى ما أعظم شأنى».

قال: وتكلم أهل الطريق فى إيضاحه فممن تكلم فى شرح معناه الجنيد وسواه، فنقل عن الجنيد أنه قال فيه: جنت عليه أوقات الغفلة ثم صحا فقال، يعنى ذلك حيث صحوت بربى وقيل نظر إلى ذكر الله القديم له فغاب بذلك عن حدوثه وصفاته وقال: سبحانى إذ كنت ممدوحا فى الذكر المصون ولا ماء ولا طين.

---

(١) سورة الجاثية - آية ١٨.

وقال القسطلانى قلت ويحتمل أن يكون قامت به فى ذاته صفة من العظمة والجلال فتلاشى معها عنده وجودانه، فشهد تلك الصفة وغاب عن وجوده فنطق عن تلك الصفة المشاهدة منزها لها بعظمة شأنها، فظن السامع أنه يعنى نفسه وهو لم ير لها وجودا فيكون معبرا عنها، بل عبر عن تلك الصفة القائمة فيه ثم ذكر احتمالا آخر لم أذكره اختصارا وقال فى آخره، وكلا من الاحتمالين يصلح أن يكون مقصودا فى نفسه غير أن ظاهر ذلك ينبو عنه الفهم أول وهلة، فإذا تدبرته علمت صحته وفهمت مقصده والله أعلم.

• قاعدة فى معرفة التأويل:

اعلم أن التأويل فى كلام القوم أمور:

أحدها أن العبارة عن المعانى المدركة بالوجدان على ما هى عليه تعسر جدا، الا ترى أن الشخص لو أراد أن يصف لذة الجماع لمن ليس له مباشرة بعبارة توصل ذلك إلى فهمه على الحقيقة لم يستطع ذلك أبدا، ومن الأمور المقدرة فى المعقول أن البديهات والضروريات لا يمكن حدها، وقد قال الإمام فخر الدين الرازى: إن العلم لا يحد، لأنه ضرورى.

وقال إمام الحرمين: إنه نظرى عسر الحد فيدرك العارف منهم معنى قائما بقلبه فيريد التعبير عنه فلا يمكنه عبارة تعطيه، فيأتى بعبارة موهمة كما قال حجة الاسم الغزالى فى الفناء أن العلماء به قصرت عباراتهم عن إيضاحه وبيانه بعبارة مفهمة موصلة للغرض إلى الأفهام.

وكما قال ابن عباد فى مراتب الشهود إن التفرقة بين حقائقها على ما هى عليه تقصر العبارة عنه وأنه زلت بسبب ذلك أقدام كثير من الناس، وقال صاحب «التعرف: «مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا تمكن العبارة عنها على التحقيق بل تعلم بالمنازلات بالمواجيد، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال» زاد القونوى فى شرحه ونظير ذلك حال المسرور والمهموم من يصف

السرور والهموم، قال: وقد يجد الإنسان فى نفسه أمورا يتحققها وتضيق عنها عبارته ويقصر عن تعريفها إشاراته».

الأمر الثانى: إنه يمكن من استعمال اللفظ فى معنى آخر غير المشهور على ألسنة العلماء تواضعا منهم كلفظ الاتحاد فإنه يطلق على المعنى المرادف للحلول كما جمع بينهما الغزالى والبيضاوى وذلك لغز ويطلق بمعنى التوحيد وإفراد الأمر كله لله تعالى وقد نبه على ذلك من أئمة العلماء غير واحد، ولهذا قال سيدى على بن وفا قدس الله روحه فى قصيدة له:

يظنوا بى حلولا واتحادا وقلبى من سوى التوحيد خالى

فتبرأ من الاتحاد بمعنى الحلول وقال أيضا رضى الله عنه فى أبيات آخر:

وعلمك أن كل الأمر أمرى هو المعنى المسمى باتحاد

فذكر أن المعنى الذى يريدونه بالاتحاد إذا أطلقوه هو تسليم الأمر لله تعالى وترك الإرادة معه والاختيار والجرى على مواقع أقداره من غير اعتراض وترك رؤية الخلق ونسبة العطاء والمنع مثلا إليهم.

وقال أبو يعقوب: الخالص من الأعمال ما لم يعلم به ملك فيكتبه، ولا عدو فيفسده ولا النفس فتعجب به، قال صاحب «التعرف»: معناه انقطاع العبد إلى الله تعالى والرجوع إليه من فعله، قال القونوى: أى إذا كمل انقطاع العبد إلى الله تعالى فناؤه عن فعله عن فعله يصير فعله كلا فعل، فكأنه لم يفعل شيئا، فلا الملك يكتبه ولا العدو يفسده ولا النفس تعجب به، أى على سبيل التشبيه والتقدير إذ التقدير إعطاء الموجود حكم المعدوم أو بالعكس.

قال: وأكثر ما يقع فى كلام هذه الطائفة من الإشارات محمول على هذا النوع من الاستعارات ومن حملها على ظواهرها أشكلت عليه معانيها فأساء الظن بهم نعوذ بالله من ذلك.

الأمر الثالث: أن يكون ما وقع فى ألفاظهم موهمـا مضافا إلى أنفسهم وهو مما لا يضاف إلا إلى الله تعـالى لم يقصدوا به حكايته عن أنفـسهم وإنما أوردوه كله مـورود الحكاية عن الله تعالـى فإن الكلام ينقـسم إلى ما يحكيـه المتكلم عن نفـسه وإلى مـا يحكيـه عن غيـره وإن لم يصرح بالإضـافة إليـه كحـديث البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنـه أن النبى ﷺ قال عن الله: «ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صـفيه من أهل الدنيا إذا احتسبه إلا الجنة».

فهذا إنما قاله ﷺ حكاية عن ربـه وإن لم يصرح به وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[1] فهذا على لسان الملائكة وقال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[2] فهذا على لسان جبريل، ومثله قول سيدى على بن وفا - رضى الله عنا به آمين -:

كـمـالـك حـالـتى فى كل حـالى ونقـصك إن تعـاند فـى مـرادى

فإن هذا قاله على لسان الحقيقة، وكذا قول الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض قدس الله روحه:

فلم تهـونى مـا لم تكن فى فـانيـا ولم تفن مـا لم تجتلى فيـك صورتى

قال شـيخنا العـارف بالله سيدى مـحمد المغـربى: هذا وارد نطق على لسان الحقـيقة وتقرير ذلك أن تعلم أن الفناء الأول هو الـتخلى عن الأوصاف البشـرية والتحلى أى التـخلق بالأوصاف الربانيـة، وهذا هو مقام المحـبة لأن المحب فنى عن صفات نفسه وبقى بصفـات محبوبه وهو البقاء الأول ويسمى أيضا مقـام الجمع» باعتبار اتحـاد المعنى الجامع وهو المحبة، لكن هذا مـشهود

(١) سورة الصافات - اية ١٦٤.

(٢) سورة مريم - آية ٦٤.

الفناء، مشهودك لنفسك ونسبتك الأوصاف الربانية التى تخلقت بها إليك، ولهذا قال رضى الله عنه ونفعنا ببركاته.

فلم تهونى ما لم تكن فى فانيا ولم تفن ما لم تجتلى فيك صورتى

يعنى إذا لم تترك أوصافك البشرية وتفن عنها فى حبى لم تهونى، ولم تفن إذا لم تشرف على قلبك صورة حسن الأوصاف الربانية التى يتخلق بها السالك وأما مقام فناء الفناء فهو حضرة جمع الجمع وبقاء البقاء ومن لازم هذه الحضرة الشريفة فناؤك فيها بشهود الحق - تعالى - عن شهودك ونسبتك للأوصاف الربانية إليها لا إليك متبرئا منها مع دوام التلبس بها وإلى المقام أشار فى الثانية أيضا بقوله:

فنا الحب ها قد بنت عنه بحكم من يراه حجابا فالهوى دون رتبتى

قلت: لكن يشترط مع ذلك لطيفة علمية عليها يترتب التكليف وذلك كما يكون الإنسان فى البيت المظلم فهو عالم بوجوده وإن كان غير مشاهد له، كذا نقله الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله السكندرى فى لطائف المنن عن شيخه القطب أبى العباس المرسى والله أعلم.

ومما ورد على لسان الحقيقة ما قاله ابن الفارض - رضى الله عنه -:

وإن عبد النار المجوس وما انطفت كما جاء فى الأخبار فى ألف حجة
فما عبدوا غيرى وما كان قصدهم سواى وإن لم يضمروا عقد نيتى

فهذا أيضا إنما قاله على لسان وارد الحقيقة حاليا عن الله تعالى مشيرا به إلى أن عبادة الكفار وسجودهم للنار والصنم والوثن واقع فى الحقيقة لله تعالى لأن المذكورات أقل من أن تعبد ويسجد لها، فتقع السجدة لله على رغم أنف الساجد وهو كافر بنية السجود لغير الله، وهذا معنى ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن

فِي السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[1] أخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره عن قتادة فى الآية الأولى قال: المؤمن يسجد لله طائعا والكافر يسجد كارها» وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر بسند صحيح عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[2]. قلت هذا مما يستدل به على التوحيد الحالى الباطن الذى أشار إليه الشيخ شرف الدين بن الفارض بقوله:

شهودى بعين الجمع كل مخالف ولى ائتلاف صده كالمودة

وقوله أيضا رضى الله عنه:

هنيئا لأهل الدين كم سكروا بها وما شربوا منها ولكنهم هموا

فأما قوله شهودى بعين الجمع إلى آخره: فأشار بذلك إلى أن كل مخالف فى الظاهر هو عين الموافق باعتبار الباطن وبيان ذلك أن المراد بهذا كله وما فى معناه حالة الجمع بعالم موطن: ألست بربكم الأزلى وحالة الجمع أيضا بحضرة الرب بمشهد القلب الأبدى وشاهد هاتين الحضرتين حديث القبضتين المشتمل على طاعة الفريقين فسلكت إلى ربها كل فرقة طريقها ولم تعترها فترة معصية عن سيرها تعيقها وليس لها حط عن رحالها على ممر الليل والنهار إلا فى الجنة أو النار لقوله تعالى: «هؤلاء للجنة ولا أبالى وهؤلاء للنار ولا أبالى»[3].

فتبين لك بذلك أن الفرقة التى عصت الحق تعالى فى الظاهر وخالفت داعى أمره قد أطاعت فى الباطن وما خالفت سلطان حكمه وقهره وكلام أهل الحقيقة الباطنة لا يعدو هذا الحكم الباطن ولا يتعدى منه إلى غيره ومن يفهم

---

(١) سورة آل عمران - آية ٨٣.

(٢) سورة الرعد - آية ١٥.

(٣) رواه ابن جرير.

غير ذلك من كلام القـوم فقد أخطأ الصواب ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(١).

وأما قول: هنيئا لأهل الدين فحقيقة التهنئة لمثل هؤلاء دون مجازها عليهـا شديد الإنكار وأى تهنئة تحصل لهم ومـصيرهم إلى النار، وأمـا مجاز التهنئة لهم فمبنى على صدق قصدهم ونيتهم بالعـبادة للإله المعبود بحق وإن أخطأوا فى تسميتـه مثلا بالصنم والحجر والشمس والقـمر لأن العبادة لا تقع إلا لله على رغم أنف العابد كـما فى تفسيـر قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

قال ابن عباس: عبادتهم أجمعين من مؤمن وكافر فإن الكافر يسجد لله كارها والمؤمن يسجد لله طائعا كما تقدم ذلك.

وقال الـقاشانى فـى تفسيـر قوله تعـالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾(٢) أى فى الوجود، فكل ما عبد دونه لم تقع العـبادة إلا له علم أو لم يعلم إذ لا معبود ولا موجـود سواه قلت: ونظيـر ذلك من الشرع مـا ذهب إليه زفـر من أئمة الحنفية لو صـام رمضان من غيـر نية صح صومه لأن الزمان عـينه فعلى هذا المذهب لو نرى صوم رمضان غيره كالنفل مثلا لا ينصرف إلا إليه وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله.

وقوله كم سكروا بها أى: كم تعبدوا بهذه النية زمانا طويلا فصـازوا فى معـنى الموحدين فى البـاطن فقط لكونهم قـصدوا بعـبادتهم فى الجـملة الإله المعبـود بحق فلم ينفعهم ذلك لأنهم أخطأوا فى التـسمية حـين عينوه بالوثن وأمثاله من الصور تـعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبـيرا ولهذا قال رضى الله عنه «وما شـربوه منها أى: ما أتوا بكلمة التـوحيد المطابقة لتـوحيد الحق

---

(١) سورة البقرة - آية ٢١١.

(٢) سورة البقرة - آية ٢٥٥.

تعالى بل وحدوا الشيطان بتوحيد الرحمن وذلك أنهم نقلوا موضوع التوحيد القديم الأزلى القائم بالذات القديم المقدسة وجعلوه بإزاء المعانى الحادثة الفانية وقوله ولكنهم هموا أى هموا ابتدأ بالتوحيد حيث تلفتوا إلى معبود بحق قبل التعيين والتسمية فحصل لهم نصيب فى الباطن دون الظاهر من التوحيد والله أعلم أنشدنى العارف بالله الربانى سيدى محمد المغربى لنفسه :

كل الوجود مسبح بالحال ... وموحد بالله لا بالقال
إلا سعيد القبضتين فكامل ... حالا وقالا واحد الأبدال
فإذا رمقت لعلم قوم باطن ... سلم لتسلم من شديد وبال
عملا بهذا الفصل فهو مردهم ... وإليه مرجع مغرم بوصال
كن موسوى الوقت عبدا خاضعا ... فى حضرة خضرية لرجال
إياك إياك الوقيعة فيهم ... يسلبك توحيدا فتصبح خالى
من لى بحمل غشائهم بركابهم ... فجنابهم بين الخليقة عالى
الحق بهم ما استطعت تلحق ركبهم ... واشرب بكأس شرابهم بجمالى
تحضر حظيرة قدسهم وبأنسهم ... سر لتبين الشهود بدالى
وعلى ختام المرسلين تحية ... محفوفة بجلاله وجمال
ما لاح برق أو تهلل شارق ... أو هز شوق عاشقا بليالى

تنبيه:

وأما تخريج حديث القبضتين فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ﷺ أنه قال فى القبضتين «هذه فى الجنة ولا أبالى وهذه فى النار ولا أبالى» رواه البزار.

قال الحافظ أبو الحسن نور الدين الهيتمى أحد الآخذين عن الحافظ زين الدين العراقى وأحد مشايخ ابن حجر فى كتابه «مجمع الزوائد» موضوعة إفراد الزوائد التى فى مسند الإمام أحمد وغيره على الكتب الستة ورجاله رجال الصحيح غير نمر بن هلال وقفة أبو حاتم وعن ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال فى القبضتين «هؤلاء لهذه وهؤلاء لهذه» قال فتفرق الناس وهم لا يختلفون فى القدر رواه البزار والطبرانى فى الصغير ورجال البزار رجال الصحيح.

وعن أبى موسى عن النبى ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى لما خلق آدم قبض من طينته قبضتين قبضة بيمينه وقبضة بيده الأخرى فقال للذى بيمينه هؤلاء للجنة ولا ابالى والذى باليد الاخرى هذه للنار ولا ابالى فهم يتناسلون على ذلك إلى الآن» رواه البزار والطبرانى فى الكبير والأوسط.

وعن أبى الدرداء عن النبى ﷺ «قال خلق الله عز وجل آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنها الدر وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم فقال للذى فى يمينه إلى الجنة ولا أبالى وقال للذى فى كفه اليسرى إلى النار ولا أبالى» رواه الإمام أحمد فى مسنده فى كتاب القدر والبزار والطبرانى وقال الحافظ الهيتمى فى مجمع الزوائد ورجاله ثقات.

فصل

ومن التوحيد الحالى الباطن ما قاله ابن الفارض قدس الله سره على لسان الحقيقة:

وألسنة الأكوان إن كنت واعيًا ... شهود بتوحيدى بحال فصيحة

قال شيخنا العارف بالله سيدى محمد المغربى قوله «شهود بتوحيدى» يريد توحيد كل العالم أى التوحيد القهرى الحالى المدخل للطائع والفاجر والكافر فى حكم العبادة بالحال وقوله بحال فصيحة أخرج التوحيد بالقال فلم

يتعرض له ولا لأهله لأنه مخصوص بقوم دون آخرين أى بالمؤمنين دون الكافرين وليس هو المقصود الأعظم فى الآية المقتبس منها البيت وهى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[1] فشىء نكرة وهى فى سياق النفى تعم كل شىء من موحد وجاحد وحيوان وجماد فكأن الحق تعالىٰ يقول كل شىء يوحدنى ويعبدنى بباطنه وإن اختلف أمر ظاهره:

وإن عبد النار المجوس وما انطفت كما جاء فى الأخبار فى ألف حجة

فما عبدوا غيرى ولا كان قصدهم سواى وإن لم يضمروا عقد نيتى

وإلى هذا التوحيد الحالى العام الإشارة فى الآية بالفقه فى قوله تعالى ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[2] أى هذا التوحيد الباطن فتنبهوا له إن كنتم فقهاء فإنه يحتاج إلى الفهم وهو موضع العلم الباطن الربانى لعلكم تهتدون لأن فهمه فضل من الله نعمة ولولا أنه دفع الحرج ورحم الأمة لوجه عليها لعدم فهمها لذلك التوحيد العذاب والنقمة إنه كان حليما غفورا ومن شواهد توحيد الحال صلاة الظلال قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾[3] لأن كل الوجود وجد دليلا على موجده فلا يكون بعضه غير دليل بل حتى المخالف بدلالة وجوده ومخالفته عابد راكع ساجد.

فالقول بأن كل جاحد فى الظاهر هو موحد فى الباطن جائز بين قوم يفهمون كتاب الله تعالى مواضع إشارته كما تقدم فى قوله تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ لا الذين يكذبون بما لم يحيطوا به من أسراره وبيناته ولكن لو كان هذا التوحيد ينفع الكفار لما دخل أحد منهم النار وإنما هو شاهد الوحدة الحالية الباطنة الأسرار لأن كل مخالف لله تعالى وإن عصى داعى

---

(١) سورة الإسراء – آية ٤٤.

(٢) سورة الإسراء – آية ٤٤.

(٣) سورة النحل – آية ٤٨.

أمره فقد أطاع سلطان قهره بشاهد حديث القبضتين فكل ظلم وجود فى الحكم الظاهر حكمة وعدل فى الوجه الباطن.

● تذنيب:

ومما ورد أيضا على لسان الحقيقة قول ابن الفارض قدس الله سره:

فبى مجلس الأذكار سمع مطالع ولى حانة الخمار عين طليعة
وما عقد الزنار حكما سوى يدى وإن حل بالأقدار بى فهى حلت

قوله فبى مجلس الأذكار سمع مطالع أى مجالس الأذكار كالمساجد والجوامع كلها مطالع شمس ومواطن أنس بالله وجمع على الله.

وقوله ولى حانة الخمار عين طليعة الطليعة هنا عين دلالة إثبات الألوهية وطليعة عين كمال تصرف القدرة الربانية بظهور أثرها بالسعادة والشقاوة لأهلها بلا شك ولا مرية.

وقوله وما عقد الزنار حكما سوى يدى أى ما كفر من كفر وعقد الزنار والعياذ بالله إلا بإرادتى وقضائى وقبضى لأهل شقوتى بيد قدرتى وهؤلاء للنار ولا أبالى وإن حل بالأقدار بى فهى حلت أى ولا آمن وأقر بوحدانيتى إلا بإرادتى ورضائى ومحبتى وقبضتى لأهل سعادتى بيد قدرتى وقولى هؤلاء للجنة ولا أبالي ولا مبدل لكلماتى وأنا السميع العليم هذا الكلام كله وأمثاله وما فى معناه متلقى من وارد الحقيقة الناطق على ألسنة أهل هذه الطريقة «فائدة» نقل الشيخ تاج الدين ابن السبكى فى الطبقات الكبرى عن الشيخ علاء الدين القونوى أنه قدم إليه سؤال من يهودى بالشام صورته.

أيا علماء الدين ذمى دينكم تحير دلوه بأوضح حجتى
إذا ما قضى ربى بكفرى بزعمكم ولم يرضه منى فما وجه حيلتى

قضى بضلالى ثم قال ارض بالقضا فهل أنا راض بالذى فيه شقوتى
دعانى وسد الباب دونى فهل إلى دخولى سبيل بينوا لى قصتى
إذا شاء ربى الكفر منى مشيئته فهل أنا عاص باتباع المشيئة
وهل لى اختيار أن أخالف حكمه فبالله فاشفوا بالبراهين علتى

فأجاب رحمه الله ما نصه:

حمدت إلأهى قبل كل مقالة وصليت تعظيما لخير البرية
وحاولت إبلاغ النصيحة منصفا لمن طلب الإيضاح فى كل شبهتى
فأول ما يلقى إلى كل طالب لتحقيق حق واتباع حقيقتى
نزوع الفتى من كل عقد وشبهة تصد عن الإمعان فى نظم حجة
وإلقاء سمع واجتناب تعنت فلا خير فى المستمحن المتعنت
إذا صح منك الجد فى كشف غمة بليت بها فاسمع هديت لرشدتى
صدقت قضاء الرب الحكيم بكلها يكون وما قد كان وفق المشيئة
وهذا إذا حققته متأملا فليس بسد الباب من بعد دعوة
لأن من المعلوم أن قضاءه بأمر على تعليقه شريط دعوتى
يجوز ولا يأباه عقل كما يرى حدوث أمور بعد أخرى تأدت
كما الرى بعد الشرب والشبع الذى يكون عقيب الأكل فى كل مرة
فليس ببدع أن يكون معلقا قضاء الإله الحق رب الخليقة
بكفرك مهما كنت بالبغى رافضا تعاطى أسباب الهدى مع مكنتى
فمن جملة الأسباب مما رفضته مع الأمر والإمكان لفظ الشهادة

فأنت كمن لا يأكل الدهر قائلا أموت بجوع إذ قضى بى بجوعة

فلو أنتم أقبلتم بضراعة إلى الله والدين القويم الطريقة

ووفيم حسن التأمل حقه وأحسنتم الإتقان فى كل نظرة

لكان الذى قد شاءه الله من هدى وليس تعرض كى تفوز بنفخة

ولا تتكل واعمل فكل ميسر لما هو مسخلوق له دون ريبة

ولو كنت أدرى أن ذهنك قابل لفهم كلام ذى غمض ودقة

لأشبعت فيه القول بسطا محققا على نمطى علم كلام وحكمة

ولكنما المقصود إقناع مستكلم فهاك قصيرا من فصول طويلة

ولولا ورود النهى عن هذه التى سألت لصار الفلك فى وسط لجة

فها أنا أطوى ما نشرت بساطه واستغفر الله العظيم لزلة

فصل

ومنها قول الشـيخ شرف الدين عمر بن الفـارض قدس الله روحه ونور ضريحه ونفعنا ببركاته.

أحبـاى أنتم أحسن الدهر أم أسـا فكونوا كـمـا شـئـتم أنا ذلك الخل

إذا كان حظى الهجر منكم ولم يكن بعاد فذاك الهـجر عندى هو الوصل

ومـا الصـد إلا الود مـا لم يكن قـلاً وأصعب شىء غير إعراضكم سهل

قال شيخنا العارف بالله سيدى محـمد المغربى نفعنا الله به قوله أحباى أنتم أى لا أبغى بكم بدلا ولا عن حبكم حولا أحسن الدهر أم أساء أى سواء عندى أن نعمتمونى فى حبكم بوصلكم أو عذبتمونى فيه ببعدكم لى وهجركم فكونوا كـمـا شـئتم أنا ذلك الخل الوفى الراضى مـنكم وعنكم بأحكامكم إذا كان حظى الهجر منكم ولم يكن فيه بعاد عنكم فذاك الهجر عندى هو الوصل ومثله قوله فى التائية رضى الله عنه:

وعـيـدك وعـدو إنجـازه مُنىً ولى بغـيـسر البـعـد إن يرم يـنبت

أى كالبذر والزرع إنما رميه لإدارة الإنبات والنفع لا لقصد الإبعاد والترك والدفع.

وما الصـد إلا الود مـا لم يكن قلى وأصعب شىء غير إعراضكم سهل

فتبين لنا أن الهـجر وما فى معناه هجران هجر تأديب وتهـذيب واختيار وابتلاء عـجيب من الحبـيب لإدارة الاختصـاص والاجتناب والتقريب وهجر تعذيب وطرد العياذ بالله وتبعيد لكل عـدو لأوليائه من مشرك ومعتد وشيطان

مريد. فكل ما يصاب به المؤمن فى هذه الدنيا من الآلام والأوجاع والأسقام مما تكفر به السيئات، وتضاعف به الحسنات وترفع به الدرجات وكذلك ما يعالجه السالك فى سكرات وحشة الخروج عن العادات وترك الهوى وقطع المألوفات والإكباب المطبق الدائم على فعل الطاعات وأنواع القربات هو بالنسبة إلى نفسه هجر وصعد وقطع وبعد وباعتبار ثمراته التى يتوصل إليها به وفاء وود ووصل وقرب وكذلك كل مقام فى الخير من أنواع المعاملات والسباق فى السير هو بالمسبة إلى المقام نفسه حسنه وبالنسبة إلى ما فوقه من المقامات سيئة وكل كلام ملتبس اجتماع الشىء وضده مبنى على قاعدة حديث (حسنات الأبرار سيئات المقربين)[1].

• تنبيه:

إلى تسمية الحديث بقوله: حسنات الأبرار سيئات المقربين يزول عنك كل ما تستشكله من أوهام أنواع مثل هذه العبادات وينجلى عنك ما انعقد على غيرك فى معنى هذا البيت كسائر الأبيات:

ودادكم هجر ووصلكم قِلى وقربكم بعد وسلمكم حرب

أى بالنسبة إلى نفسه فاعلم أو إلى مقام آخر كما تقدم ومثله قوله الأستاذ شرف الدين بن الفارض - رضى الله عنا به آمين.

فوصلى قطعى واقترابى تباعدى وودى صدى وانتهائى بَدْأتى

واعلم أن من واجب حسنات الأبرار شهود الأغيار لترتيب العبادة والأحكام عليه فى هذه الدار وإن كان ذلك من سيئات المقربين الذين استغرقتهم الأنوار وما استهلك السوى عندهم كما استهلك الليل النهار واستحفظت منهم القلوب فاشهدتها وجه البقاء فما كذب الفؤاد ما رأى وما

---

(١) ليس بحديث - راجع كشف الخفا ومزيل الإلباس جـ١ ص ٤٢٨.

راغت الأبصار فما شهدوا أنفسهم ولا أبصارهم وما رأت إذا رأت ولكن الله رأى بشاهد حديث الحب «كنت سمعه وبصره» باعتباره فناء الأوصاف والحديث صحيح فلا إنكار كل شيء هالك إلا وجهه وما من إله إلا الله الواحد القهار، فالأولون شاربون بكأس يحبهم وهم أهل النهاية والأبصار ولنهاية قربهم وليس لشربهم نهاية ولا قرار وسقاهم ربهم بحبه لهم في خلوة من الأذكار شرابًا طهورًا هو الحب سليمًا من الادكار ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾[1] عليك بشربها صِرفًا.

والسابقون بالخيرات بإذن الله وإن قصَّرت فلا يفوتك نعيم الأبرار وهم المقتصدون أصحاب الميمنة المقتصرون على الفرائض واللوازم فالحذر ثم الحذر من السقوط من هذه الدرجة إلى دركة التفريط من جنة الله فتكون من أهل اظلم والاغترار الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار أعاذنا الله منها إنه حكيم كريم ستار.

قلت: هذا آخر كلام شيخنا - نفعنا الله به - وهو تقرير بديع لم يسبق إليه أخبرني - رضي الله عنه - أنه اجتمع بالسيد أبي العباس الخضر - عليه الصلاة والسلام - ساعة وضعه لهذا التقرير فتأمله في الكراس فأعجبه وأثنى عليه.

وقال أيضًا في تقرير قول ابن الفارض: تمسك بأذيال الهوى أي طلب علم الحقيقة لأنه علم نفيس مطلوب كعلم الشريعة دليل ذلك ورود قصة موسى والخضر عليهما السلام قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[2] وقوله واخلع الحيا أي: اجتنب كل مانع يمنعك من الطلب

---

(١) سورة المطففين - آية ٢٨.

(٢) سورة الكهف - آية ٦٦.

وأعظم الموانع فيه الحيا لأنه لا يتعلم العلم مستح ولا مستكبر وأكثر الناس مقتصرون فى طلبهم على طريق المجاهدة ولا يتجاوز عنها إلا القليل وهم السادة منهم إلى الطلب المشاهدة فاسلك سبيل ساداتك وإن قلوا وخل طريق الناسكين بلا إنكار وقال أيضًا رضى الله عنه ويحتمل أنه أراد بقوله «تمسك بأذيال الهوى واخلع الحيا» الفناء عن رؤية الأعمال وشهود المعمول له وذلك الفناء من حسنات المقربين التى رؤيتها شرك أصغر فيستغفرون منها وهذا هو الاستغفار فى الفناء عن رؤية الفناء.

وقوله وخل طريق الناسكين وإن جلو أراد به أهل الغيبة عن رؤية المعمول له بشهود الأعمال وشهودها فى حسنات الأبرار التى هى سيئات أعمال المقربين واستغفارهم منها لا بد منه وهو إنما يكون بترك النظر لها وترك النسب المثبتة للوجود لا بتركها ومثله قوله بعد.

وقلت:

لزهدى والتنسك والتقى تخلوا وما بينى وبين الهوى خلوا

أراد بذلك تفريغ قلبك عن رؤية وجودك رؤية عملك كما فعل السادة - رضى الله عنهم - لتشهد الحق حقًا بدليل قوله:

وفرغت قلبى من وجودى مخلصًا لعلى فى شغلى بها معها أخلوا

أى من مزاحمة شهود أثر غيره به فلا يعثرون لغير محبوبهم على اثر بالكلية لقوله:

وما عثرت عيش على أثر ولم تدع لى رسما فى الهوى إلا عين البخل

هذا مذهب القوم ومشربهم الصافى رضى الله عنا بهم - وقال أيضًا فى تقرير كلام ابن الفارض - رضى الله عنه وعنا.

نصحتك علمًا بالهوى والذى أرى مخالفتى فاختر لنفسك ما يحلو

معناه أنا عالم بالهوى وفعله وهتكه بأهله وقتله «ولا ينبئك مثل خبير» فالذى أراه من الرأى لمن لم يوف بشروط طريقى مخالفتى وترك مذهبى وفريق والتعرض لذلك ليسلم وإلا فالبلاء الحب:

فى الحب ويعتد ويهتم ويجاهد فى الله حق جهاده قال رَحْ بعا فى واغتنم نصحى وإن شئت أن تهوى واعية وهذا التحذير والإغراء المشحون بلا تخيير لا يبعد أخذها من واقعة السيد موسى مع الخضر عليهما السلام حيث قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[1] وقال أيضًا فى تقدير قوله فى التائية:

وكل الجهات الست توجهت بما تم من نسك وحج وعمرة

هذا حكم كل عارف بالله تعالى لأن المحب هو عين المحبوب باعتبار الجمع وغيره باعتبار التفرقة ولأن القلب إذا اتصل بالنور النبوى المحمدى صار كعبة المحاسن وقلبة المعانى وقدوة الزمان كما أن النبى ﷺ كذلك فى السبق بالعرفان أمام الأنبياء والمرسلين فى كل زمان.

فكذلك توجهت الجهات الستة مملكها وملكها وكلها إليه وعولت فى صلاتها وتقربها واتصالها بالله عليه وقوله بما تم من نسك وحج وعمرة أيما يقصد به البيت مجازا والحق حقيقة من تعبد وحج وعمرة.

* * *

(١) سورة الكهف - آية ٦٧.

فصل

ومنها قول الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض رضي الله عنه أيضًا:

قلبي يحـــدثني بأنك مـــتلفي روحي فداك عرفت أم لم تعرف

قال شيخنا العارف بالله: سيدى محمد نفعنا الله بقوله: قلبي يحدثني بأنك متلفي» خطاب مع الرب عز وجل: أى نفسي تحدثني يا رب عن قلب الكون نبيك محمد المحدث عنك الذى لا ينطق عن الهوى ومن أصدق من الله حديثًا، وقوله «عرفت أم لم تعرف» إلتفات إلى قلب نفسه معناه: سواء صدقت أيها القلب أم لم تصدق بما وعدتك به من بذل الروح فى طلب الراحة الدائمة لك الموعود بها المؤمن بالموت فى الحديث الوارد بذلك وهو قوله ﷺ: «لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه»[1] وفى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2] أى لا براح لى فى سبيل المحبة عن ذلك ولو تقطعت قطعًا فى مفاوز المهالك ولهذا قال فى التائية:

وما رد وجهي عن سبيلك هول ما لقيت ولا ضراء فى الحب مستي

وقال أيضًا رضى الله عنه:

وقال تلاقى ما بقى منك قلت ما أرانى إلا للتلاق تلفتي

أى لا شهود لآثار أنوار شموس القدم إلا بعد استيفاء فناء جميع الحوادث فاعلم فقوله وقال تلاقى الناطق هو لسان الهوى والهوى هنا: هو الحب ولا بد لأهل اللرتقاء لتمام بلوغ المنى عن الفناء حتى عن شهود الفناء

---

(١) أورده الديلمى فى الفردوس ورواه وكيع فى الزهد.

(٢) سورة العنكبوت - آية ٦٩.

لأنه ما وصل إلى صريح الحرية من عليه لنفسه بقية فمن أراد حقيقة المشاهدة بالعتق من أسرار الهوى ورقة هذه فليدفع بقية ثمن التسليم فى طلب حريته وعتقه ولهذا قال فى التائية:

ولى نفس حر لو بذلت لها على تسليك ما فوق المنى ما تسلت

فحين إذن فالمراد بالقلب قلبان قلب الكون: وهو النبى ﷺ وقلب نفسه ويحدثنى الحديث الوارد عنه ﷺ «لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه» أى لا فداء لقلبه من وجده وكربه إلا ببذل روحه فى وده وقربه.

وأراد الشيخ قدس الله روحه بقوله: روحى فداك أيها القلب سواء عرفت أم لم تعرف: أى صدقت أم لم تصدق بما وعدتك به من بذل الروح والله أعلم. هذا ما قال شيخنا ثم أنشدنى فى معنى ذلك شفاها لنفسه.

لما قرأت حديث النفس بالتلف ناجيت ربى بسر بالفؤاد خفى
ثم التفت إلى قلبى فقلت له روحى فداك من الإعياء والكلف
لا راحة المرء إلا باللقاء غدا فشمر الآن للعليا والشرف
وللسراج كلام كاد معجزة يكون وقاد طول الدهر غير طفى

● فائدة:

حكى أن بعض العلماء استشكل قوله «روحى فداك عرفت أم لم تعرف» فرأى الشيخ فى المنام وسأله عن ذلك فقال له: يا مبارك أما علمت أن فى كلامهم الالتفات قال: قد صرح القرآن الكريم بالالتفات فى عدة مواضع، ولهذا نص عليه علماء البلاغة، وهو من ألطف الأنواع البديعية وأبدعها، وممن ذكره فى علم البديع الطيبى فى التبيان وأصحاب البديعات.

واعلم أن الالتفات لا يكون فى جملة بل فى جملتين، صرح به الزمخشرى فى الكشاف وابن السبكى فى عروس الأفراح، قال: وإلا ليزم عليه أن يكون فى قولك «أنت صديقى» التفات والله أعلم.

* * *

فصل

ومنها قول ابن الفارض - رضى الله عنه:

وإذا سألتك أن أراك حقيقة فاسمح ولا تجعل جوابى لن ترى.

اعلم أن تأويل ذلك بأمرين: أحدهما الفنا عن الفنا، ومن تحقق فى فنائه فقد مات، ومن مات رأى الحق سبحانه وتعالى - وقال الشيخ أبو العباس المرسى: لا يدخل على الله إلا من بابين: من باب الفناء الأكبر وهو الموت الطبيعى، وإما من باب الفناء الذى تعينه هذه الطائفة.

ثانيهما أن الله - سبحانه وتعالى - أكرمه بطى الزمان، فرأى الله تعالى - بهذه الكرامة لا بالفناء.

قال شيخ الإسلام تاج الدين السبكى فى الطبقات الكبرى فى تعداد أنواع الكرامات: التاسع طى الزمان، العاشر نشر الزمان، قال وفى تقرير هذين القسمين عسر على الأفهام وتسليمه لأهله أولى بذوى الإيمان، والحكايات فيها كثيرة.

قلت: من جملة نشر الزمان ما حكاه الشيخ عبد الغفار القوصى فى كتاب «التوحيد» عن شيخ الشيوخ ابن سكينة ببغداد أن أخاه أخذ سجادات الفقراء وخرج يوم الجمعة ليفرشها لهم فنزل ليتطهر فى الشط فطلع بمصر فوجد رجلا صباغا وكان يدرى صنعة الصباغة فاستعمله فيها مدة وزوجه بابنته وأقام معه سبع سنين، وولد له منها أولاد ثم نزل فى يوم جمعة ليغتسل فى بحر النيل فطلع ببغداد ووجد السجادات فى المكان الذى تركها فيه، فأخذها وفرشها لهم وصلوا صلاة الجمعة، فقال له الشيخ: أبطأت فى هذه المدة، قال له: يا سيدى جرى لى كذا وكذا وقص عليه القصة فقال له الشيخ: هل كنت تفكر فى شىء وأنكرت شيئا، فقال: تفكرت فى قوله

تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1] فقال لى: يا والدى إن الله يبسط الزمان فى حق قوم ويقبضه فى حق قوم آخر، وقد أراك الله تعالى ذلك، ثم أرسل الشيخ إلى مصر وأحضر أولاده إلى بغداد[2].

قال الشيخ عبد الغفار: هذا وأمثاله جائز ولا يمتنع على الله شىء فى ذلك، قال: وهذه الحكاية وأمثالها وإن كانت غريبة فى خرق العادة وإدخال الواسع فى الضيق فلا يمتنع على قدرة الله وقوته وأمثال أمثالها ما لا نهاية له؛ لأن هذه القدرة لا يمتنع عليها شىء، والمشيئة والقدرة لا حجر عليها.

ويجب الإيمان بذلك كله وله مثال ظاهر، فإنك إذا أردت أن تقرأ القرآن بالحروف والأصوات حرفا حرفًا وقرأته على هذه الهيئة عرفت قدر الوقت الذى قرأت فيه، وإذا سنح لك فى خاطرك كان كاللمحة الواحدة بالنسبة إلى ذلك الوقت، وكذلك إذا أردت أن تكتب القرآن جميعه احتجت إلى زمن طويل، فإذا نقشت الختم فى طابع وطبعت به على ورقة واحدة فإنها ترتسم فى لمح البصر، فهذا وأمثاله كثير.

وضرب المثال فى إدخال الواسع فى الضيق كالقدح الخردل إذا نشرته أو نثرته فى الأرض احتاج إلى أرض واسعة، فإذا جمعته اجتمع فى القدح، وكذلك السنة فى المنام يرى النائم فيها فى البلاد البعيدة والأقطار والرحاب الواسعة فى القفار حتى إنه يرى كلما سمعته أذنه فى جبل قاف وغيره مما لا يقدر على الوصول إليه فى مدة عمره فيصير ذلك فى اللمحة الواحدة فى السنة، وقد يتزوج ويتوالد فى منامه ويقيم المدد والسنين فى تلك اللمحة، وقد يرى الله - تعالى - وأنبياءه ورسله وملائكته، وكل ذلك فى لمحة بصر

---

(١) سورة المعارج - آية ٤.

(٢) هذه الرواية تروى فى بعض كتب المناقب بروايات مختلفة وليس لها سند أو دليل.

فى السنة فى النوم، ولا شك فى ذلك فافهم ذلك وإياك والاعتراض فقد وضح السبيل ورفع النص حكم التأويل ألا ترى إلى قوله - تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾[1] الآيات فانظر إلى قول الثانى: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[2] هذا والمساحة واحدة إلى ما بين حالتى الشخص وسرعة الوقت قطع هذه[3] المسافة، وما كان جائز على الله فعله ولا يمتنع عليه يفعله يجب الإيمان به، ومن لم يؤمن به فهو مكذب بقدرة الله تعالى فهذا آخر كلام الشيخ عبد الغفار بحروفه.

وقال بعض أهل الحقائق وأرباب هذا التصرف على درجات فمنهم من وهب له التصرف فى ملكوت العناصر كتصرف إبراهيم الخليل - عليه السلام - فى ملكوت النار بالتبريد وتصرف سليمان عليه السلام فى ملكوت الهواء بالتسخير.

ومنهم من وهب له التصرف فى ملكوت السماء كتصرف النبى ﷺ فى القمر بالشق ومنهم من يطوى لهم بسط الأزمنة والأمكنة فيظهر منهم فى لمحة تصرفات وآثار لا تحصل لغيرهم فى مدة طويلة من أصحاب الجمع ينبت لنفسه ما ينبت لغيره من هذه الأحوال وأمثالها بطريق الجمع كما قال الشيخ: شرف الدين ابن الفارض رضى الله عنه ونفعنا ببركاته وفى ساعة أو دون ذلك فى تلاه لمجموعة جمع به ألف ختمة فحينئذ فاعلم أنه لم يقل وإذا سألتم أن أراك حقيقة إلا بعد أن طوى الله تعالى له جميع زمان الدنيا بحيث إنه دخل فى وقت الآخرة وسأل الله تعالى الرؤيا فى محلها والله أعلم.

• تنبيه:

قال الشيخ بدر الدين الأهدل فى كتاب الرؤيا أعلم أنه قد يحصل لبعض المحبين شغف فى محبته وولع بطلب رؤيته وبمن الله تعالى لتمكين

---

(١) سورة النمل - آية ٣٨.
(٢) سورة النمل - آية ٤٠.
(٣) فى الأصل: (عد).

لوعته بفتح عين بصيرته فيتحفه بنوع من مشاهدته كما قال الشيخ محيى الدين عبد القادر رضى الله عنه به يتجلى بجماله لقلوبهم بالأنوار والسرور والبشارة بالمواهب الجسام من المنازل العالية والقرب منه ولذيذ الكلام وما سيئول أمرهم إليه من المزيد فى دار السلام كيلا تفرط بهم المحبة وشدة الشوق إليه سبحانه وتعالى فتنفطر مرائرهم فيهلكون أو يضعف عن القيام بالعبودية لطفًا منه ورحمة بهم ومداواة لقلوبهم إنه حكيم عليم لطيف بهم رءوف رجيم انتهى.

وقال ابن الأهدل أيضا يغلط بعض المريدين إذا فتح الله عين بصيرته بنوع من المشاهدة فيدعى الرؤية لقصور معرفته كما روى صاحب البهجة فى مناقب القطب الربانى الشيخ عبد القادر الكيلانى عن الشيخ أبى عمرو عثمان الصريفينى وغيره أنه قيل للشيخ عبد القادر إن فلانا يقول إنه يرى الله بعينى رأسه فاستدعى به وسأله عن ذلك فقال نعم[1] فانتهى ونهاه عن هذا القول وأخذ عليه أن لا يعود فقيل للشيخ أمحق هو أم مبطل؟ فقال محق ملبس عليه وذلك أنه شهد ببصيرته نور الجمال ثم خرق من بصيرته إلى بصره، منفد فرأى بصره بصيرته وبصيرته يتصل شعاعها بنور مشهود فظن أن بصره رأى ما شهدته بصيرته قال الله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾[2] وأن الله يبعث بمشيئته على أيدى ألطافه إبراز جلاله وجماله إلى قلوب عباده فيأخذ منها ما تأخذ الصورة من الصور ولا صور من وراء ذلك رداء الكبرياء الذى لا سبيل إلى انحرافه انتهى وقوله رداء الكبرياء الذى لا سبيل إلى انحرافه يعنى النور الذى لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

قال الراوى وكان جمع من المشايخ والعلماء حاضرين هذه الواقعة

---

(١) هذا كلام لا يجوز لان الله لا يمكن رؤيته فى الدنيا لقوله سبحانه وتعالى لنبينا موسى عليه السلام حينما طلب الرؤية قال: (لن ترانى).

(٢) سورة الرحمن - الآيتان ١٩، ٢٠.

فأضربهم سماع هذا الكلام ودهشوا فى حسن إفحاصه عن حال الرؤية وقام بعضهم ومزق ثيابه وخرج إلى الصحراء هائما قال العلماء: سبحات وجهه تعالى بضم السين والباء والتاء فى آخره هو نوره وجلاله وبهاؤه وفى مسلم حجابة النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه تعالى ما انتهى أليه بصره من خلقه والمراد بالحجاب هنا المانع من رؤية المسمى نورا ونارا كما فى رواية أخرى والمعنى لو أزال ذلك المانع من رؤيته وتجلى لخلقه جلال ذاته جميع مخلوقاته ولهذا قال الشيخ شرف الدين ابن الفارض على لسان الحقيقة:

ولولا احتجابى بالصفات لأحرقت مظاهر ذاتى من ثناء سجيتى

• تذنيب:

قال الشيخ تاج الدين ابن السبكى فى الطبقات الكبرى ما نصه حكاية تشمل على تحقيق التجلى قال القاضى ناصر الدين بن المنير المالكى وفى الحكاية المدونة فى كتب أهل الطريق أن أبا تراب النخشبى كان له تلميذ وكان الشيخ يرفق به ويتفرس فيه الخير وكان أبو تراب كثيرا ما يذكر أبا يزيد فقال التلميذ يومًا من يتجلى له الحق تعالى فى كل يوم مرات ماذا يصنع بأبى يزيد فقال له أبو تراب ويحك يا فتى لو رأيت أبا يزيد لرأيت أمرًا عظيمًا فلم يزل يشوقه إلى لقائه حين عزم على ذلك فى صحبة الشيخ أبى تراب فارتحلا إلى أبى يزيد فقيل لهما إنه فى الغيضة وكانت له غيضة يأوى إليها مع السباع فقصدا الغيضة وجلسا على ربوة على ممر أبى يزيد فلما خرج أبو يزيد فعندما وقع بصر الفتى على أبى يزيد خر ميتا فحدث أبو تراب أبا يزيد بقصته وتعجب من ثبوته لتجلى الحق سبحانه وتعالى وعدم تماسكه لرؤية أبى يزيد فقال أبو يزيد لأبى تراب لقد كان هذا الفتى صادقا وكان الحق تعالى يتجلى له على قدر ما عنده فلما رآنى تجلى له الحق تعالى على قدرى فلم يطق.

قال الفقيه ناصر الدين واصطلاح أهل الطريق معروف وحاصله فى ذلك رتبة من المرفة جلية وحاله من اليقظة والحضرة سرية سنية والإيمان يزيد

وينقص على الصحيح ولا تظنهم يعنون بالتجلى رؤية البصر التى قيل فيها لموسى عليه السلام على خصوصه لن تراتى والتى قيل فيها على العموم لا تدركه الأبصار فإذا فهمت أن مرادهم الذى أثبتوه غير البصر الذى وعد به الخواص فى الأخرى فلا ضير بعد ذلك عليك ولا طريق لسوء الظن إليك والله يتولى السرائر.

قلت وكلام ابن المنير هذا فى تفسير التجلى يقرب من قول شيخ الإسلام وسلطان العلماء أبى محمد عز الدين عبد السلام رحمه الله فى كتابه القواعد أن التجلى والمشاهدة عبارة عن العلم والعرفان انتهى ومن هنا يؤخذ أن جميع ما أفصح به القوم من العلوم اللدنية والاستنباط إنما هى أثر من آثار التجليات.

واعلم أن القوم لا يقتصرون فى تفسير التجلى على العلم ولا يعنون به إياه ثم لا يفصحون بما يعنون إفصاحا وإنما يلوحون تلويحا ثم يصرحون بالبراءة مما يوجب سوء الظن تصريحا.

وقد ذكر سيد الطائفة أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه فى الرسالة باب الستر والتجلى ثم باب المشاهدة ولم يفصح بتفسير التجلى كأنه خشى على فهم من ليس من أهل الطريق وعرف أن السالك من القوم يفهمه فلم يحتج إلى كشف له وحاصل ما يقوله متأخر والقوم أن التجلى ضربان:

ضرب للعوام وهو أن تكشف صورة كما جاء جبريل عليه السلام فى صورة دحية وكما جاء فى الحديث «رأيت ربى فى صورة شاب»[1] قالوا وهذا تجلى الصفة ويضربون لذلك بالمرآة مثلا فيقولون أنت تنظر وجهك فى المرآة وليست المرآة محلا لوجهك ولا وجهك حالا فيها وإنما هناك مثالها تعالى الله عن أن يكون له مثال وإنما يذكرون هذا تقريبا للأفهام وحديث فى صورة شاب أمرد موضوع مكذوب على الرسول ﷺ وضرب للخواص وهو تجلى

(١) حديث موضوع.

الذات نفسهـا ويذكرون هنا لتقريب الفهم الشمس وحضورها برؤيتك الضوء وقالوا هذا تقـريب أيضا وإلا فنور البارى لو سطع لأحرق الوجـود بأسره إلا من يثبتـه الله وقد يعتضدون بحـديث أبى ذر رضى الله عنه سألت النبى ﷺ هل رأيت ربك؟ قـال: نور أنَّى أراه فى لفظ قـال رأيت نورا أخـرجه مسلم والترمذى ولكنه حديث مؤول باتفاق المسلمين.

قال ابن الـبكى هذا حاصل كلام القوم وأنا معـترف بالقصور عن فهمه وقد جالست فى هذه المسألة الشيخ الإمام الصالح العـارف قطب الدين بركة المسلمين محمد بن الأردبيـلى أعاد الله علينا من بركاته وقلت له أتقولون بأن الذى يراه العارفون فى الدنيا هو الذى وعـده الله فى الآخرة قال نعم فقلت: فبم يتميز رؤية يوم القيامة قال بالبصر فإن الرؤية فى الدنيا فى هذين الضربين إنما هى بالبصيرة دون البصر.

قلت فقد اخـتلف فى جواز رؤية الله تعالى فى الدنيـا قال الحق الجواز قلت فلا فارق حينئذ وتجوز الرؤية بالبصر فى الدنيا قال الفارق أنه فى الآخرة مـعلوم الوقـوع للمؤمنيـن كلهم وفى الدنيـا لم يثبت وقـوعـه إلا للنبى ﷺ ولبعض ذوى المقامات العلية هكذا قال.

ومما قلت له وقـد ضـرب المرآة مثـلا قـد يقـال إن هذا نوع من الحلول والحلول كفر قال لا فـإن الحلول معناه أن الذات تحل فى ذات أخرى والمرآة لا تحل فيـها الصـورة هذا كلامـه قلت له فمـا المشاهدة أهى غـير التجـلى قال المشاهدة دوام تجلى الذات والتجلى قد تكون معـه مشاهدة وهو ما إذا دام وقد لا يكون انتهى وأقول إذا تبرأ القوم من تفـسير التجلى بما لا يمكن ولا يجوز وصف الرب تعالى له فـلا لوم عليهم بعد ذلك غـير أنهم مصـرحون به عن العلم والعرفان انتهى.

فصل

سئل الشيخ عبد الكريم الحضرمى أحد السادة الكبار عن قول ابن الفارض رضى الله عنه:

وإذا سألتك أن أراك حقيقة فاسمح ولا تجعل جوابى لن ترى

قال ليس هذا من كلامه فإن ابن الفارض عارف والعارف لا يقول مثل ذلك قلت هذا النفى فيه نظر فقد أجمع العارفون بالله تعالى من أهل زمانه إلى هلم جرّا على أنه خرج من بين شفتيه.

وأما الشيخ عبد الكبير رحمه الله ورضى عنا به فلعله قصد بذلك صون ظاهر الشريعة لقصور فهم علماء الظاهر عن إدراك الحقائق الربانية لقوله عليه الصلاة والسلام «ما أنت محدث قوما حديثا لم تبلغه عقولهم إلا كان على بعضهم فتنة» هذا الحديث أخرجه الحافظ ابن الجوزى فى كتابه السر المصون بسند صحيح عن ابن عباس.

ونظير ذلك ما حكاه الإمام عفيف الدين اليافعى فى الإرشاد قال سمعت أن الشيخ الإمام الفقيه عز الدين بن عبد السلام كان يطعن فى ابن العربى ويقول هو زنديق فقال له يوما بعض أصحابه أريد أن ترينى القطب فأشار إلى ابن العربى وقال هناك هو فقيل له فأنت تطعن فيه فقال حتى أصون ظاهر الشىء وقد تقدم الكلام على ذلك والله أعلم.

فصل

حكم من يقول بالإباحة وسقوط التكاليف

وأما القول بالإباحة فقال بحر الشريعة والحقيقة أبو حامد الغزالى رضى الله عنه فى كتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة ومن جنس ذلك ما يدعيه بعض من يدعى التصوف أنه قد بلغ حاله بينه وبين الله تعالى إلى حيث

سقطت عنه الصلاة وحل له شرب المسكر والمعاصي وأكل مال السلطان فهذا مالا شك في وجوب قتله وإن كان في الحكم بخلوده في النار نظر وقتل مثل هذا أفضل من قتل مائة كافر إذ ضرره في الدين أعظم وينفتح به باب من الإباحة لا ينسد وضرر هذا فوق ضرر من يقول بالإباحة مطلقا فإنه يمتنع من الإصغاء إليه لظهور كفره أما هذا فيسهدم الشرع من الشرع ويزعم أنه لم يرتكب فيه إلا تخصيص عموم إذ خصص عموم التكليفات بمن ليس له مثل درجته في الدين وربما يزعم أنه يلابس الدنيا ويفارق المعاصي بظاهره وهو بباطنه برىء عنهما ويتداعى هذا إلى أن يدعى كل فاسق مثل حاله وينحل به عصام الشرع انتهى.

وقال بعض العلماء اعلم أن القول بالإباحة لم يقل به أحد من المعتبرين من أهل التصوف وإنما قال به بعض الغلاة من أهل الضلال الذين ستروا غلوهم بالانتساب إلى طائفة الصوفية وزعموا أن الإنسان إذا وصل إلى حد الفناء سقط عنه التكليف وأبيحت له المحرمات.

وقال القاضي عياض ما معناه «الإجماع على تكفير من قال بالإباحة وقال القونوى في شرح التعرف يحكى عن طائفة من قال بتعطيل الأوامر والنواهي كغلاة المتصوفة وأصحاب من أهل الزيغ والضلال أن العبد إذا وصل إلى الله تعالى سقط عنه التكاليف وعللوا ذلك بأن المقصود من التكاليف هو القرب والوصول إلى الله تعالى.

فإذا حصل المقصود فلا حاجة إلى الوسيلة وهذا محض الكفر والإبعاد عن دين الله تعالى فإن من المعلوم بالضرورة أن أقرب الناس إلى الله سبحانه وتعالى أنبياؤه ورسله ولم يرتفع عنهم التكليف إجماعًا فمن دونهم أولى.

قال الشيخ سعد الدين التفتازاني في شرح العقائد وأما قول عليه السلام

«إذا أحب الله عبـدا لم يضره ذنب» فـمعناه عصـمة من الذنوب فلم يلحـقه ضررها لكن ذكر حجة الإسلام الغزالى أنه إن وقع فى كلام أحد من المعتبرين ما هو ذلك فتأويله أنه يسقط عنه كلفة التكليف لا نفس التكليف ومعنى ذلك أنه يتلذذ بالعـبادات فلا يجـد لها كلفة ولا مـشقة يـدل على ذلك قوله ﷺ وجعلت قرة عينى فى الصلاة وقوله أرحنا بها يا بلال ونحو ذلك انتهى.

* * *

فصل

• ثبوت الجذب والسلوك:

وأما الجذب والسلوك اعلم أن الجذب والسلوك متلازمان لا يثبت أحدهما إلا بالآخر وحقيقة السلوك هى جذب كما قال قطب الزمان الشيخ ناصر الدين بن الميلق الشاذلى قدس الله روحه.

وفى الحقيقة لولا الجذب ما سلكت طريق حق ولا رتبت مراتب، والسالك المجذوب هو القدوة وهو المحبوب ومن ادعى الجذب من غير سلوك سلم له حاله ولا يقتدى بفعاله فإنه أمة وحده هذا مع وجود النور وأما مدعيه بغير نور فهو متبع الشهوات والغرور لا بس ثياب الزور والمخلط بغير تصديق المخبط بغير تحقيق المدعى للتحقيق فجانبه فهو الزنديق.

واعلم أن السلوك هو اتباع الشرع وجهاد النفس والخروج عن الطبع وامتثال الأوامر واجتناب النواهى وحفظ الأصل والفرع كما قال الشيخ ناصر الدين أيضا.

وذو السلوك تراه فى إرادته ... مجاهد النفس ذارعى لباقيه

عش على نهج أهل الصدق ملتزما ... شروطهم خائفا فيما يرجيه

كم من مريد قضى ما نال بغيته ... حق القضاء عليه فى تقاضيه

وكم من مريدونا من بعد عزمته ... إذ عزمه ذاك ما صحت مبانيه

من ليس يخلص فى مبدأ إرادته ... يهوى به الحظ فى أهوى مهاويه

وما المريد الذى صحت إرادته ... إلا مراداً له جذب يوافيه

والجذب: هو موهبة من الله سبحانه وتعالى لعبده يأتيه بغتة من غير استعداد ولا جد ولا اجتهاد فتعم عوالمه ومعالمه وباطنه وظاهره بعلم على ونور جلى وكشف وفى وفتح حفى وسر خفى فيسلك سلوكا عظيما كاملا فالسلوك لابد منه فى هذه الدار وبه شرف الأحرار فعبد سلك ثم فتح الله عليه فجذب، وعبد جذب ثم من الله تعالى عليه فسلك، ثم اختلف أهل الطريق أيهما أفضل فتكلم كل منهم بقدر ذوقه وعلى وسع طوقه.

قال الشيخ أبو الحسن على بن عمر القرشى الشاذلى فضل الإمام اليافعى رحمه الله المجذوب السالك على السالك المجذوب، وذكر أن إبراهيم بن إبراهيم بن أدهم رضى اله عنه كان مجذوبا سالكا، وإن الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه كان سالكا مجذوبا.

ثم قال القرشى والصحيح عند المحققين والعلماء الراسخين أن السالك المجذوب أفضل ولهذا قال شيخنا شيخ الإسلام قاضى القضاة القطب الغوث ناصر الدين بن الميلق رحمه الله تعالى والجذب إن جاء من بعد السلوك له أفضل على الجذب مما السعى تاليه.

ثم قال رضى الله عنه والإمام الشافعى هو القطب الغوث الفرد والجامع فى زمنه عند المحققين وهو أيضا مجدد الدين على رأس المائة الثانية وإنا نشهد له بالصديقية العظمى.

ثم قال أيضا ولقد كان النبى ﷺ يتحنث الليالى ذوات العدد ويتعبد بجبل حراء قبل مبعثه حتى بعث بالنبوة والرسالة معا على رأس الأربعين.

وهذا أول دليل على تفضيل السالك المجذوب وقال حجة الإسلام الغزالى فى كتابه المنقذ من الضلال وكان أول حال النبى ﷺ حيث كان تبتل فى جبل حراء يخلو فيه بربه ويتعبد حتى قالت العرب أن محمدا يعشق ربه.

قلت هذا أيضا فيه إشارة إلى أن حجة الإسلام يرى تفضيل السالك المجذوب على المجذوب السالك لما هو مذهب الجمهور والله أعلم.

باب عود على كرامة الرؤية:

فى العود إلى كرامة الرؤية اعلم أن النبى ﷺ لما اجتمع بالسيد موسى عليه السلام ليلة الإسراء وجده قائما يصلى فى قبره ورآه فى تلك الليلة فى السماء السادسة.

فالروح كانت هناك فى مثال البدن ولها اتصال بالبدن حيث كانت كصفات الشمس مثلا فإنها متصلة بجرمها فى كل البقاع فى آن واحد لأن شأن الأرواح غير شأن الأبدان.

وكذلك رؤية النبى ﷺ جميع الأنبياء فى السماوات الصحيح أنه رأى فيها الأرواح على مثال الأجساد وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾(١).

قال ابن عباس والزهرى وسعيد بن جبير وابن زيد يرجع له الرسل صلوات الله عليهم وسلامه ليلة أسرى به وأمر أن يسألهم فلم يشكل ولم يسأل هذا صريح الأدلة فى ذلك.

ومن هنا قال الأستاذ العارف السيد عبد القادر الكيلانى ما من نبى ولا ولى إلا وقد حضر مجلس الأحياء بأجسامهم والأموات بأرواحهم.

وقال حجة الإسلام الغزالى فى بعض كتبه وأما رؤية الأنبياء فى النوم فمثالهم فأما أشخاصهم الكريمة فلم تنتقل عن مواضعها وقد ذكرت تفضيل ذلك فى كتاب عجائب القلب وكذلك القول فى الجن ولذلك ترى بصور مختلفة إذا المثالات لا يحصر وجودها كما أن كل من رأى النبى ﷺ لا يراه على صورة واحدة إلا أن هذه المثالات تكون للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى اليقظة وتكون لغيرهم فى النوم فقط.

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل عليه السلام على صورته

---

(١) سورة الزخرف - آية ٤٥.

إلا مرتين مع كثرة رؤيته له عليهما السلام فى كل حين وقال الغزالى أيضا فى كتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة ما نصه وأما الوجود الحسى فهو ما يتمثل فى القوة الباصرة من العين مما لا وجود له خارج العين فيكون موجودا فى الحس ويختص به الحاس ولا يشاركه غيره فيه وذلك كما يشاهد النائم بل كما يشاهد المريض المتيقظ أو قد يتمثل له صورة ولا وجود لها خارج حسه حتى يشاهد بسائر الموجودات الخارجة عن حسه.

بل قد يتمثل للأنبياء والأولياء فى اليقظة والصحة صرة جميلة محاكية لجواهر الملائكة وينتهى إليهم الوحى والإلهام بواسطتها فيتلقون من امر الغيب فى اليقظة ما يتلقاه غيرهم فى النوم وذلك لشدة صفاء باطنهم كما قال الله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[1] وكما أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل كثيرا ولكن ما رآه فى صورته إلا مرتين وكان يراه فى صور مختلفة يتمثل بها.

وكما يرى رسول الله ﷺ فى المنام وقد قال عليه السلام من رآنى فقد رآنى فإن الشيطان لا يتمثل[2] بى ولا تكون رؤيته بمعنى انتقال شخصه من روضه المدينة إلى موضع النائم بل هى على وجود صورته فى حس النائم فقط.

ثم قال أيضا قال الرسول ﷺ عرضت على الجنة فى عرض هذا الحائط فمن قام عنده البرهان على أن الأجسام لا تتداخل وأن الصغير لا يتسع للكبير حمل ذلك على أن نفس الجنة لا تنتقل إلى الحائط لكن تمثل للحس صورتها فى الحائط حتى كأنه يشاهدها ولا يمتنع أن يشاهد مثال شىء كبير فى جرم صغير كما يشاهد السماء فى مرآة صغيرة ويكون ذلك أيضا مفارقا لمجرد تخيل صورة الجنة إذ تدرك التفرقة بين أن تغمض عينيك السماء فى المرآة وبين أن تغمض عينيك فترى صورة السماء فى المرآة على سبيل التخيل.

---

(١) سورة مريم - آية ١٧.

(٢) سبق تخريجه.

وأما الوجود الخيالى فمثاله قوله عليه الصلاة والسلام [كأنى أنظر إلى يونس بن متى عليه عباءتان قطوانيتان يلبى ويجيبه الجبال والله تعالى يقول له لبيك يا يونس] فالظاهر أن هذا بناء عن تمثل الصورة فى خياله إذ كان وجود هذه الحالة سابقا على وجود رسول الله ﷺ وقد انعدم ذلك فلم يكن موجودا فى الحال ولا يبعد أن يقال أيضا تمثل هذا فى حسه حتى صار كما يشاهد النائم الصورة ولكن قوله عليه السلام كأنى أنظر يشعر بأنه لم يكن حقيقة النظر بل كالنظر والغرض الفهم بالمثال لا عين الصورة وعلى الجملة.

فكل ما يتمثل فى محل الخيال فيتصور أن يتمثل فى محل الأبصار فيكون ذلك مشاهدة فيه التخيل وأما الوجود العقلى فأمثلته كثيرة فاقنع منها بمثالين.

أحدهما: قوله عليه السلام [آخر من يخرج من النار يعطى من الجنة عشرة أمثال الدنيا][1] فإن ظاهر هذا يشير إلى أنه عشرة أمثالها بالطول والعرض والمساحة وهو التفاوت الحسى والخيال ثم قد يتعجب ويقال الجنة فى السماء كما دلت عليه ظواهر الأخبار فكيف تتسع السماء العشرة أمثال الدنيا والسماء أيضا من الدنيا وقد يقطع المتأول هذا التعجيب فيقول المراد به تفاوت معنوى عقلى لا حسى وخيالى كما يقال مثلا هذه الجوهرة عشرة أضعاف الفرس أى فى روح المالية ومعناها المدرك عقلا دون مساحتها المدركة بالحس والتخيل.

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله فى الطائف المتن قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء والأولياء يطالعون مثالها فلذلك قال الرسول ﷺ: [رأيت الجنة فتناولت منها عنقودا][2] .ولم يقل كأنى رأيت وقال حارثة رضى الله عنه لما قال له الرسول

---

(١) أورده القرطبى فى التذكرة.

(٢) رواه البخارى.

ﷺ [كيف أصبحت يا حارثة قال أصبحت مؤمنا حقا فقال له رسول الله ﷺ لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك قال عزفتْ نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها وكأنى انظر إلى أهل الجنة فى الجنة يتنعمون وإلى أهل النار فى النار يعذبون وكأنى أرى عرش ربى بارزا من أجل ذلك أسهرت ليلى وأظمأت نهارى فقال له الرسول ﷺ عرفت فالزم ثم قال ﷺ عبد نور الله قلبه بنور الإيمان فقال حارثة كأنى ولم يقل رأيت[1] لأن ذلك للأنبياء دونه.

* * *

(١) رواه البزار.

فصل

عجائب ليلة القدر

ومن جملة مـا أكرم الله تعـالى به أولياؤه من الكشـوف اطلاعهم على عجائب ليـلة القدر قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله ولقـد كنت مع الشيخ مكين الدين الأسـمر بالجامـع الغربى من الإسكندرية فى العـشر الأخـير من رمضان ليلة السادس والعشرين.

فقال الشيخ مكين الدين أنا الساعة أرى ملائكة صاعدة وهابطة فى تهنئة وتعييد فلما كانت الليلة الثانية وهى ليلة سبع وعشرين وكانت ليلة جمعة قال أنا الساعـة أرى ملائكة معهـا أطباق من نور يوارى مأذنة الجـامع وفوق ذلك ودون ذلك وهذه ليلة القدر.

فلما كانت الليلة الثالثة وهى ليـلة ثمانين وعشرين قال رأيت هذه الليلة كالملتغيظة وهى تقول: هب أن ليلة القدر لها حق يرعى أما لى حق يرعى؟

قال الإمام اليـافعى فى روض الرياحين: قلت لعل تغيظها على الناس لتركـهم إحيـاءها مع كونها جـارة لليلة القدر وحق الجـار أن يكرم: شىء مما أكرم به جاره.

وأما أطباق النور المذكورة فلعلهـا هدية إلى من أحيا ليلة القدر ومن أنا له الله تعالى شيئا من بركة تلك الليلة والله أعلم.

وقد ذكر بعضهم أنه كـشف له عن الحجر والمدر ورأى الأنوار قد ملأت الوجود فى الفرش إلى العرش.

وقال لى بعض الفقـراء: رأيت فى الليلة المذكورة مكتوبا بالنور ﴿ربَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا﴾[1] قال اليافعى أيضا: وهذه إشارة إلى الاهتمام بهذا الدعاء وأن لا يأمن أحد من مكر الله.

وجاء الفقيه مكين الدين إلى الشـيخ أبى العباس وقال؛ ليس كما أراها كل سنة رأيتها هذه السنة لا نور لها.

فقال له الشيخ رحـمه الله السنة لا نور لها نورك طمس نورها يا مكين الدين، وكان الشـيخ أبو العباس يخبـر أصحابه كل سنة بليلة القـدر، ويدعو فيها بمقـدار ما يدعو كل ليلة ثلاث مرات، وكان يقول: أوقـاتنا كلها والحمد لله ليلة قدر وأنشد بعض أهل الطريق:

لولا شـهـود جـمـالـه فى ذاتى ... مـا كنـت أرضى سـاعـة بحـيـاتى
مـا ليلـة القـدر المعظـم شـأنهـا ... إلا إذا عـمـرت بـه أوقـاتى

وقـال ابن عطاء الله: ولقد أخـبرنى الشـيخ مكين الدين قـال: دخلت مسجد النبى بالإسكندرية «بالدعانس» فوجدت النبى المدفون هناك قائما يصلى وعليه عباءة مخططة فقال لهم: تقـدم فصل فقلت له تقدم فصل فقال: تقدم أنت فصل، فإنكم من أمة نبى لا ينبغى لنا التقدم عليها.

قال: فقلت له بحق هذا النبى إلا ما تقدمت فصليت قال فأنا أقول بحق هذا النبى إلا وهو قد وضع فـمه على فمى إجلالا للفظة النبى كـيلا يبرز فى الهوى قال فتقدمت فصليـت وأخبرنى الشيخ مكين الدين أيضا قال: بت ليلة بالقرافة ليلة جمعة فلما قام الزوار قمت معهم وهم يتلون القرآن إلى أن انتهوا

---

(١) سورة آل عمران - آية ٨.

فى التلاوة إلى سورة يوسف عن قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾[1] وانتهوا فى الزيارة إلى قبر يوسف فرأيت القبر قد انشق وطلع منه إنسان طويل خفيف شعر اللحية صغير الرأس آدم اللون وهو يقول: من أخبركم بقصتنا هكذا قصتنا قال الشيخ أبو العباس المرسى والله لو حجبت عنى جنة الفردوس طرفة عين ما عددت نفسى من المسلمين.

قال الشيخ صفى الدين بن أبى المنصور فى رسالته: ورأيت بمصر الشيخ الجليل العارف بالله ابن الحسن الدقاق رضى الله عنه كان من أهل مراكش وكان أولا يتسب وهو شاب للشيخ الكبير أبى محمد صالح من أصحاب سيدى الإمام أبى مدين شعيب رضى الله عنه - فدخل الشام وحجب فيها الشيخ العظيم أبا محمد الأزهرى وأراه آيات عظاما وحكايات تضيق عنها العقول والأفهام.

فمن حكاياته عنه قال: أدخلنى الشيخ محمد العجمى ثلاثمائة وستين عالما غير عالم السماء والأرض. وقال كان الشيخ إذا مشى إلى أمر خارق أوطى أرض ابقى معه غائبا عن حى المعهود فخرج يوما فى دمشق وأخذنا صحبته إلى أن وصلنا طبرية ووقفنا على قبر سليمان عليه السلام.

قلت يا سيدى هذا قبر سليمان فقال هكذا يقال ثم مشى وأنا خلفه محمول به إلى أن أشرفنا على بنا مهول وإذا بأقوام تلقوا الشيخ وسلموا عليه وتركوا بقدومه ثم مشوا قدامه فوجدت منهم وحشة فالتفت الشيخ إلى وقال يا على احفظ نفسك واشتغل بى ولا تشتغل بمن تراه فهؤلاء جان ونحن قادمون على سليمان بن داود عليهما السلام.

فلما وصلنا للبنيان تلقته طائفة أخرى وأخلوه البناء صورة قصر عظيم والشيخ يمشى وأنا خلفه وإذا فى صدر المكان رجل قائم عليه هيبة عظيمة

---

(١) سورة يوسف - آية ٥٨.

ونور عظيم وفى يده عصا وهو مائل على ظهره قال لى الشيخ هذا سليمان بن داود ثم تأخر الشيخ فأخذه جماعة الجن خدام سليمان وذهبوا به إلى أن أجلسوه فى موضع وقدموا ضيافته طعاما فأكل الشيخ وأكلت معه ثم ذهبوا به يفرجونه على ذخائر سليمان فأتوا به للبساط فوقف عليه فجاءت ريح ففرشته حتى رآه ثم جاء وبه لعرش بلقيس فرآه إلى أن استكمل جميع ذخائر سليمان ثم عبر على مغارة فيها دوى مزعج ورائحة منكرة قالوا له يا سيدى هذا سجن ابن بلقيس مسجون فى هذه المغارة من زمن نبى الله سليمان.

فلما أراد الشيخ الانصراف وضعوا له سريرا وأشار الشيخ إلى فوضعوا لى سريرا آخر فسارا بنافى الهواء إلى أن وصلنا إلى أرض دمشق فنزل الشيخ صفى الدين أيضا.

وحدثنى الشيخ الإمام الوحيد القطب أبو السعود رضى الله عنه ببداية أمره قال كنت أزور شيخك أبا العباس الخراز وجماعة فى صلحا مصر فلما انقطعت فاشتغلت وفتح على لم يكن لى شيخ إلا رسول الله ﷺ وإن فتح فى معنى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(١) وحدثنى بفضائل فتحه وما أعطاه الله ورفعه إليه ومنحه وكل ذلك بواسطة النبى ﷺ فى إسراءاته ومعارجه وإيضاح أحوال الملكوت وأسرار الملك وأحوال الآخرة وتفاوت المنازل والدرجات وأوزان الرجال ومراتبهم من آدم عليه السلام إلى القيمة يذكر له الرجل فى المغرب أو مطلع الشمس فيذكر صورته ووزنه ولقد أخبرنى أيضا أن له نوبة كوسات تضرب فى الأرض وفى كل سماء وأنه يصافح النبى ﷺ عقيب كل صلاة.

وقال الشيخ صفى الدين أيضا ورأيت بمصر أبا العباس القسطلانى أخص أصحاب الشيخ القرشى زاهد مصر فى وقته بترك زينة دنياه وخدم الشيخ القرشى بنفسه وإنفاق ماله وفى بيته كانت إقامة الشيخ القرشى وكان

---

(١) سورة الطلاق - الآيتان ٢، ٣.

أكثر أوقاته فى آخر عمره بمكة وبها مـات وكان كثير الرياضات يقال إنه دخل مرة على النبى ﷺ[1] فقال له النبى ﷺ: أخذ الله بيـدك يا أحمد وجاورت سنة بمكة شـرفها الـله تعالى، وكـانت لى معه أوقـات وفوائد يكرمـنى فوق طورى لقـينى مرة فى الطواف فـأخذنى ودخل بى قـبة الشـراب كانت بـيده يختلى فيـها بعض الأوقات، قال أريد أن أفيدك فت قـال أيهما أعلى وأرجح عندك الإذن أم الأمر فعند ما قال كشف لى عن الجواب فسلكت معه الأدب.

فقلت يا سيـدى ما أنا قدر هذه المسئلة وأنت غـالط فىَّ. قال لابد من الجواب قلت يا سيـدى الإذن أعلى من الأمر فإن المأمور يتصـرف بقوى الأمر كان أهلا للتصرف أم لم يكن، وصاحب الإذن مستعد للتـصرف متهىء له، وإنما الإذن له فى إظهاره قال الله سبحانه وتعالى لعيسى عليه السلام مخبرا له عما سـبق لذاته فى العطية الكلية: وإذ تخلق وتفعـل كذا وكذا بإذنى فطرب لذلك وأخذ يعنفنى على قولى له أنت غالط فى، وهذا من مراحمهم وتنزلهم لنا جزاهم الله عنا خيرا.

وقال بحر الحقائق لحامـل لواء العلم بالله محيى الدين ابن عربى قدس الله روحه فى كتابه مواقع النجوم عند الكلام على الكرامات:

اعلم أن هذه الانفعالات الإلهية المختصة بالوجود على يد هذا الشخص الإنسانى على مراتبها أصلها الذى ترجع إليه قوى نفسه تسميها الصوفية الهمة وبعضهم يسميها الصدق فيقولون فلان أحال همته على أمر ما نفعل له ذلك، وفلان صدق فى أمر ما كان له ذلك.

وهذه الصفـة يشترك فـيها النبى والولى كـما أن العلم الكـسبى يحصل للنبى والولى من غـير اكتسـاب بل يعطى الدليل والمدلول ابتداء من غـير نظر فكرى ولهذا جميع ما يراه الناس فى النوم يراه النبى والولى فى اليقظة.

---

(١) أين دخل على النبى ﷺ فهـو فى مكة والمقام النبوى فى مسـجده ﷺ بالمدينة المنورة، أم انه رآه يقظة أو مناما لم يبين المؤلف ذلك، والأرجح أنها رؤيا.

وقال الشيخ عبد السلام المقدسى فى حل الرموز:

اعلم أن الولى إذا قمع نفسه عن الشهوات ضعفت قوى الحواس حتى صارت كالمعدومة لأنها تشتغل بالإطلاع على الملكوتيات الغيبية ولأن الروح من هناك اقتنصت وفى هذه الهياكل حبست فإذا ضعفت القوى النفسانية فتصفوا الروح وتتنظف النفس بالرياضيات فتشاهد فى اليقظة ما تشاهده أنت فى نومك عند خمود حسك.

وقال شيخنا العارف بالله الربانى سيدى محمد المغربى بعد أن أخبرنى أنه رأى الرسول ﷺ مرتين فى اليقظة إنما تكون فى المبالغة فى الاستعداد والتقرب إلى الله تعالى لقوله ﷺ ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه - إلى آخره) فعند ذلك يصير حال النائم حالا لذلك الولى يقظة عنده لأن حالة المداومة برسوخ الأقدام فى المجاهدة تثمر مشاهدة المغيبات فى غالب الأوقات أو على الدوام لأهل الاستعداد التام ولأن المرئى بعين البصر إنما هو لإشراق البصيرة عليه كما قال القائل:

أبعينى أراك أم بفؤادى كل ما فى الفؤاد للعين بادى

واعلم أن المراد باليقظة هنا يقظة القرب المشهود فى العالم عند هذا العارف مفقودا والمفقود منه مشهودا بل يترقى إلى فناء الفناء فلا يجد له مع وجود الحق تعالى وشهد هو وجودا كما قال الأستاذ العارف بالله شرف الدين بن الفارض قدس الله روحه:

وما عشرت عينى على أثر ولم تدع لى رسمانا لهوى الأعين النجل

قلت هذا التقرير الذى ذكره شيخنا قد أرشدنا إلى معرفة مقامه بين القوم لكونه لم يصرح بذلك إلا بعد الذوق والمباشرة كما جرت به عادة القوم فى علومهم اللدنية وهذا المقام هو الغاية القصوى.

وقد صرح به رئيس القوم حجة الإسلام الغزالى رحمه الله وغيره من

أئمة المسلكين. فإن قلت قد قدرت وقضيت بأن الرؤية لا تكون إلا في يقظة الخواص دون العوام فما الدليل على ذلك في الشرع قلت ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض، قيل وما بركات الأرض، قال زهرة الدنيا فقال له رجل هل يأتي الخير بالشر، فصمت النبي ﷺ حتى ظننا أنه ينزل عليه ثم جعل يمسح على جبينه فقال أين السائل فقال أنا فذكر الحديث...».

فظاهر هذا أن النبي ﷺ كان ينتقل من حاله المعروفة إلى حالة تستلزم الاستغراق والغيبة عند الحالة الدنيوية حتى ينتهي الوحي ويفارقه الملك.

قال ابن القاص وتبعه البيهقي كان النبي ﷺ يؤخذ عن الدنيا عند تلقي الوحي وهو مطالب بأحكامها عند الأخذ ولا تسقط عنه الصلاة ولا غيرها، وهذا لم يذكره الرافعي في الشرح الكبير، لكن استدركه النووي في الروضة في زوائده نقلا عن ابن القاص فإنه قال: وفي خصائصه ما ذكر صاحب التلخيص والقفال قالا كان النبي ﷺ يؤخذ عن الدنيا عند تلقي الوحي ولا تسقط عنه الصلاة ولا غيرها انتهى.

وهذا قاله القفال في شرح التلخيص ولفظه قال يعني ابن القاص وكان يؤخذ عن الدنيا عند تلقي الوحي وهو مطالب بأحكام الدنيا عند الأخذ عنها.

قال القفال هذا صحيح وكان يؤخذ عن الدنيا في هذه الحالة ولا تسقط عنه الصلاة ولا غيرها إلا أن أوقات الصلاة كانت تحفظ عليه ولا يوحى إليه في تلك الأحوال.

وقال شيخ الإسلام البلقيني هي حالة يؤخذ فيها عند حال الدنيا من غير موت فهو مقام برزخي يحصل له عند تلقي الوحي ولما كان البرزخ العام ينكشف فيه للميت كثير من الأسرار خص الله نبيه ببرزخ في الحياة يلقى الله فيه وحيه المشتمل على كثير من الأسرار.

وقد يقع لكثير من الصلحاء عند الغيبة بالنوم أو غيره اطلاع على كثير من الأسرار وذلك مستمد فى المقام النبوى ويشهد له حديث رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة.

وهذا آخر كلام البلقينى بحروفه وقد تقدم ذلك فى أول الكتاب مع الاستدلال بالحديث المذكور وبقى أدلة فى السنة أيضا لم أتعرض لذكرها طلبا للاختصار.

فصل

قال الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله فى لطائف المنن نقلا عن شيخه أبى العباس المرسى قال كنت مع الأستاذ الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه بالقيروان وكان فى شهر رمضان وكانت ليلة جمعة وكانت ليلة سبع وعشرين فذهب الشيخ إلى الجامع وذهبت معه فلما دخل الجامع وأحرم رأيت الأولياء يتساقطون عليه كما يتساقط الذباب على العسل فلما أصبحنا وخرجنا من الجامع قال الشيخ ما كانت البارحة إلا ليلة عظيمة وكانت ليلة قدر ورأيت الرسول ﷺ(١) وهو يقول يا على طهر ثيابك من الدنس تحط بمدد الله فى كل نفس قلت يا رسول الله وما ثيابى؟ قال: اعلم أن الله تعالى قد خلع عليك خمس خلع:

خلعة المحبة. وخلعة المعرفة.

وخلعة التوحيد. وخلعة الإيمان.

وخلعة الإسلام.

فمن أحب الله تعالى هان عليه كل شىء، ومن عرف الله صغر لديه كل شىء، ومن وحد الله لا يشرك به شيئا، ومن آمن بالله أمن من كل شىء، ومن أسلم لله قل ما يعصيه، وإن عصاه اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره، ففهمت حينئذ معنى قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾(٢).

---

(١) أى فى المنام.

(٢) سورة المدثر - آية ٤.

وقال الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله أيضا وأخبرنى بعض أصحابنا قال لما رجع أبو الحسن الشاذلى من الحج أتى إلى الشيخ الإمام سلطان العلماء عز الدين ابن عبد السلام قبل أن يأتى منزله فقال له الرسول ﷺ يسلم عليك قال فاستصغر الشيخ عز الدين نفسه أن يكون أهلا لذلك قال فدعى الشيخ عز الدين إلى خانقاة الصوفية بالقاهرة وحضر معه محى الدين ابن سراقة وأبو العلم ياسين وأبو العلم ياسين أحد أصحاب العارف بالله محى الدين بن العربى فقال الشيخ محيى الدين بن سراقة للشيخ عز الدين ليهنكم ما سمعنا يا سيدى والله إن هذا شيء يفرح به أن يكون فى هذا الزمان من يسلم عليه رسول الله ﷺ.

فقال الشيخ عز الدين الله يسترنا فقال أبو العلم ياسين الله يفضحنا حتى يتبين المحق من المبطل ثم أشاروا للقوال أن يقول وهو من البعد بحيث لا يسمع ماذا رتبوا فكان أول ما قال صدق المحدث والحديث كما جرى فقام الشيخ عز الدين وطاب وقته وقام الجمع لقيامه.

• مشاهدة الموتى والحديث معهم.

تنبيه

حكى الإمام اليافعى فى كتاب الإرشاد عن الشيخ أبى القرطبى نحو ما حكاه غيره من الشيخ أبى العباس القسطلانى المصرى أن الشيخ أبا الربيع الكتى المالكى كان على مائدة من الطعام فى جماعة من الفقراء وكان قد بلغه الأثر المروى عن رسول الله ﷺ أنه قال من قال «لا إله إلا الله سبعين ألف مرة كانت فداه من النار وإن قالها أحد لغيره كانت فداء له أيضا...»[1].

قال الشيخ أبو الربيع فكنت قد عملت ذلك وما وهبته لأحد وكان على المائدة صبى من أهل الكشف فجعل يبكى ويقول هذه جهنم أراها وأرى أمى فيها قال الشيخ أبو الربيع فقلت فى نفسى اللهم إنك تعلم إنى قد هللت

---

(١) لم نستدل عليه.

السبعين الألف وقد جعلتها عتق أم هذا الصبى وأكل مع الجماعة قال الشيخ أبو الربيع فصح لى الحديث عن النبى ﷺ وصح لى كشف ذلك الصبى.

وقال شيخ الإسلام سراج الدين ابن الملقن فى ذيل كتابه طبقات الأولياء فى ترجمة شيخ خليفة ابن عطية بن خليفة المالكى ما نصه الزاهد العابد صحب جماعة منهم الشيخ أبو العباس المرسى مات بالإسكندرية فى ليلة أربع عشر ذى الحجة فى سنة خمس وثلاثين وسبع مائة وكان الشيخ أبو العباس يقول له يا خليفة، أنت خليفة وكان تاج الدين بن عطاء الله يقبل يده تقربا وزاره بعد موته فخرج من قبره[1] وتلقاه وقال والله لقد سررت بقدومك على وما أدرى إلا أنت وأنا وأنا أنت، وأخبر بوفاة نور الدين البكرى، فوافق هذا صريح كلام ابن الملقن بحروفه وناهيك به إمامة وجلالة.

وقال الإمام اليافعى فى روض الرياحين روينا عن بعض من يحفر القبور من الثقات رحمه الله أنه حفر قبرا فى بعض البلاد فأشرف فيه على إنسان وهو جالس على سرير ومعه مصحف يقرأ فيه وربما قال وتحته نهر يجرى[2] فغشى عليه فأخرجوه من القبر ولم يدر ما أصابه، فسأله بعض الناس أن يدله على ذلك القبر فعزم على ذلك.

فلما كان فى الليل رأى صاحب القبر فى النوم وهو يقول أقسم بالله لئن دللت أحدا على قبرى ليصيبنك عقوبة كذا وكذا فاستيقظ وتاب مما نوى وعمى عليهم القبر فلم يرو أين هو رضى الله عنه ونفعنا به.

ثم قال اليافعى أيضا: وفى ذلك حكايات صحيحات يطول ذكرها فمنها ما حدثنى به بعض الصالحين عن الشيخ العارف ذى الكرامات العظيمة والمناقب الكريمة الفقيه الإمام رفيع المقام أبى الذبيح إسماعيل بن محمد اليمنى المشهور بالحضرمى رضى الله عنه ونفعنا به:

أنه مر على بعض المقابر فبكى بكاء شديدا وعلاه حزن ثم ضحك

---

(١) هذه حكايات لا تصح ولا دليل عليها.

(٢) هذه الحكايات لا زالت تحكى حتى الآن فى القرى ولا يصح منها شىء لأنها لا سند لها من كتاب أو سنة.

ضحكا حميدا وعلاه فى الحال سرور وفرح فتعجب الحاضرون هنالك وسألوه عن ذلك فقال رضى الله عنه كشف لى عن أهل هذه المقبرة فرأيتهم يعذبون، فحزنت، وبكيت لذلك ثم تضرعت إلى الله تعالى فيهم فقيل: قد شفعناك فيهم، فقالت صاحبة هذا القبر وأنا معهم يا فقيه إسماعيل، أنا فلانة المغنية، فضحكت وقلت وأنت معهم ثم إنه أرسل إلى الحفار وسأله من فى هذا القبر القريب العهد فقال الشيخ فلانة المغنية.

ومنها ما قاله اليافعى أيضا أخبرنى بعض الثقات: أن الشيخين الكبيرين العارفين بالله كبرى شيوخ اليمن المقدمين فى وقتهما محمدًا بن أبى بكر بن محمد الحكمى، والشيخ أبا الغيث بن جميل قدس الله روحهما ونور ضريحهما وأعاد علينا من بركاتهما، جاءهما بعض الفقهاء للصحبة بعد موتهما فخرج الشيخ محمد من قبره وصحب الذى أتاه وأخذ عليه العهد والشرايط فى كلام وأخرج[1] الشيخ أبو الغيث يده من القبر واصطحب[2] الذى أتاه. قال اليافعى وفى الحكايات كلام يطول.

قلت أخبرنى شيخنا العارف بالله سيدى محمد المغربى أنه ورد عليه كشف لما كان فى دمياط فرأى فى هذه اليقظة شيخه القطب الربانى أبا العباس الحنفى واقفا فى جامع السيد فتح الأسمر بعد موته بسنة فأتى إليه وقبل يده فصاح عليه صيحة فعرف أنه الشيخ بلا شك. انتهى.

قال بعض العلماء أعلم أن الكشف الذى تحصل به مشاهدة الموتى قد يكون فى شدة صفاء القلب وظهور الأنوار وكثرة المدد الربانى بالعلم اللدنى وقد تكون لوامع بوارق فى بعض الأوقات يكاشف بها من يقينه ضعيف ليقوى يقينه بقدرة الله تعالى على خرق العادات، أو ليقوى ظنه فى الأولياء أو فى شيخه مثلا، أو ليقوى ظنه فى ولاية نفسه وأنه على بينة من ربه.

وقال الشيخ بدر الدين الأهدل فى كتاب «الرؤيا»: واشتهرت رؤية

---

(١) فى الاصل: واخذ.

(٢) فى الاصل: واصحب.

الموتى فى اليقظة عن الفقيه جمال الدين محمد بن يعقوب أبى حدبة وعن الشيخ محمد بن المؤذن وغيرهما من أهل بلادنا باليمن وقد وقع لغير واحد من أصحابنا بنى الأهدل لا أشك فى صدقهم.

ولقد حكى لى شيخنا الفقيه العلامة على بن أبى بكر الأزرق أنه قيل للفقيه على بن إبراهيم البجلى أن ابن المؤذن يذكر أشياء كثيرة فى رؤية النبى ﷺ وغيره فى اليقظة قال: لا تكذبوه فإنى كنت عند قبر رسول الله ﷺ ألازم فى حاجة فرأيت ابن المؤذن أقبل فى الهواء فانشقت له القبة ودخل على النبى ﷺ فمكث معه ساعة ثم خرج وقال: يا فقيه قال لك رسول الله ﷺ قضيت حاجتك أو كما قال.

وقال بحر الحقائق محيى الدين بن العربى قدس الله روحه فى كتابه وربما صح عند القوم من أحاديث الأحكام ما اتفق على ضعفه وتجريح نقلته وهم أخذوه فى الكشف عن قائله صحيحا فتعبدوا به أنفسهم عن غير ما تقرر عند علماء الرسوم فينسبونهم إلى الخروج عن الدين وما أنصفوا فإن للحق وجوها يوصل إليه منها هذا أحدها.

ورب حديث قد صححوه فيتركون العمل به فما أحسن من سلم واستلم واشتغل بنفسه حتى يفارق موطنه لمواطن، فذلك السعيد الفائز بحقائق الوجود.

وروى اليافعى فى خلاصة المفاخر فى مناقب الشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ قبل الظهر يوم الثلاثاء السادس عشر من شهر شوال سنة إحدى وعشرين وخمسمائة فقال: لى يا بنى الا تتكلم فقلت: يا أبتاه أنا رجل اعجمى كيف أتكلم على فقهاء بغداد، فقال لى افتح فاك قال: ففتحته فتفل فيه سبعا ثم قال لى تكلم على الناس ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[1] فصليت الظهر وجلست وحضرنى

(١) سورة النحل - آية ١٢٥.

جمع كثير فارتج على فرأيت على بن أبى طالب رضى الله عنه قائما بإزاى فى المجلس فقال: يا بنى لم لا تتكلم فقلت: يا أبتاه فارتج على فقال لى افتح فاك ففتحت فتفل فيه ستا فقلت: لم لا تكملها سبعا فقال أدبا مع رسول الله ﷺ.

ثم توارى عنى فقلت غوامض الفكر تغوص فى بحر القلب على درر المعارف فتستخرجها إلى ساحل الصدر فينادى عليهما سمسار ترجمان اللسان فتشترى نفائس أثمان حسن الطاعة ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾[1] قالوا فهذا كلام تكلم به على المنبر - رضى الله عنه، وقال القطب الربانى الشيخ أبو السعود الياذينى المتقدم ذكره وهو المترجم فى معجم الحافظ الشيخ عبد العظيم المنذرى فى طبقات الأولياء لشيخ الإسلام سراج الدين بن الملقن ما نصه:

كنت فى حضرة النبى - ﷺ - فوق سطح مسجدى إذ أقبل علينا الشيخ أحمد بن الرفاعى فى جهة القبلة ومعه ثلاثة يحجبونه يمشون بين يديه فيهم إبراهيم الأعزب والآخر عبد الرحيم والثالث سيدى صالح ولده فلما انتهى إلى درج المكان الذى نحن فيه تقدم الشيخ أحمد بن الرفاعى وتأخر الثلاثة الذين كانوا يحجبونه فلما أمثل علينا مد يده ﷺ ثم تقدم أحد الثلاثة ولم ينته إلى السطح فمد يده ﷺ فقبلها ووقف مكانه ثم طلع الثانى دونه بدرجة فمد يده ﷺ فقبلها ووقف الثالث دونه بدرجة فقبل يده ﷺ ووقف مكانه.

ثم نزلت خلعة خضراء ألبسها الشيخ أحمد الرفاعى ثم نزل لكل واحد من الثلاثة خلعة خضراء ثم نزل برنس أسود فلبسه الشيخ أحمد ثم نزل بعد ذلك سيف تقلد به الشيخ أحمد ثم التفت النبى ﷺ وقال لى هذا قطب زمانه والملك مجلس على بيته ولو بقى من بيته بيت عماء أو حجر، ثم قام من الحضرة وانصرف هو وأصحابه فقلت لسيدى المصطفى ﷺ هؤلاء القوم لم

---

(١) سورة النور - آية ٣٦.

يسلموا على ولم ينصفونى فقال لى حجب نور النبوة نورك يا أبا السعود فلم يروك، فمثل نورى كنور الشمس، ومثل نورك كنور النجوم غطى نور النبوة نورك فلم يروك ثم أشار إلىّ أن أدركهم فقمت فوجدت إلى جانب السطح بساطا أبيض له خمل فركبت فصار بى حتى أدركت القوم ونزل البساط إلى الأرض ونزلت عن البساط فلما رأونى أقبلوا على فأول من سلم على الشيخ أحمد وقبل يدى وقبلت يده ثم وقف عن يمينى ثم أقبل أحد الثلاثة وقبل يدى ووقف عن يسار صاحبه ثم أقبل الثالث فقبل يدى ووقف عن يسار الثانى.

ثم أحببت أن أسمع شيئا من كلام الشيخ أحمد فقال لى يا سيدى يا ولدى لا ينال الإنسان أعلى مرتبة الاجتهاد، أنت ولدى فى السن وسيدى فى القدر، ثم قلت لهم معكم مركوب قال نعم إلا إنهم لم يحضروا معنا لأجل الحضرة، فبينما نحن كذلك إذ أقبلت لهم نجب فى نور لكل مركوب منهم ركبوا فى الملائكة فركبوا نجبهم وانصرفوا وركبت البساط ورجعت إلى حضرة الشريفة فقال لىّ سيدى رسول الله ﷺ أى شىء كان فقلت له أكرمونى وأنصفونى وسلموا على.

هذا آخر كلام الشيخ أبى السعود بحروفه وقال خادمه السيد الكبير العارف بالله أبو الفتح سأل شيخنا أبا السعود أن يصف لى حضرة النبى - ﷺ - التى شاهدها فى اليقظة بحضور الأنبياء - عليهم السلام - فقال ما نصه:

حضرت النبى ﷺ - فى أرض بيضاء صفة فيه الإمام الشافعى - رضى الله عنه - فى «برا وإذا دخلت «جواها» فسعتها قدر الأرض التى هى فيها ولها درج فإذا أراد الله أن يولى وليا بعث وراءه ملائكة حيث كان فيأتون إلى حضرة النبى - ﷺ - والأقطاب والصديقين والأولياء والصالحين فيقدموه

---

(١) فى الأصل: غطا.

الملائكة إلى الحضرة الشريفة المحمدية ﷺ فيكتب له منشور الولاية ويدفع له بقدر الاتباع الذى يتبعونه فعند فراغ التوقيع له تنادى الملائكة يا ولي والأقطاب والشهداء والصالحين انتهى.

وقال الشيخ أبو محمد بن أبى حمزة فى بهجة النفوس والمنكر لرؤيته - ﷺ - فى اليقظة لا تخلو: إما أن يصدق بكرامات الأولياء أو يكذب بها فإن كان ممن يكذب بها فقد سقط البحث عنه بأنه يكذب ما أثبتته السنة بالدلائل الواقعة.

وقال الإمام اليافعى فى بعض الصالحين ما نصه وقد أخبرنى بعضهم أنه يرى فى اليقظة حول الكعبة الملائكة والأنبياء والأولياء عليهم أفضل الصلاة والسلام وأكثر ما يراهم ليلة الجمعة وكذلك ليلة الاثنين وليلة الخميس وعدوا لى جماعة كبيرة من الأنبياء وذكر لى أنه يرى كل واحد منهم فى موضع معين يجلس فيه حول الكعبة ويجلس معه أتباعه من أهله وقرابته وأصحابه وذكر أن نبينا محمدا - ﷺ - يُجمع عليه أولياء من أمته خلق لا يعلم عددهم إلا الله ولم يُجمع على سائر الأنبياء كذلك.

وذكر أن إبراهيم وأولاده ﷺ يجلس بقرب الكعبة حدا[1] مكانه المعروف وموسى وجماعة من الأنبياء عليهم السلام بين الركنين اليمانيين. وعيسى وجماعة منهم عليهم السلام فى جهة الحجر، ورأى فيه قبر إسماعيل عليه السلام وجماعة من الملائكة عليهم السلام عند الحجر الأسود ورأى سيد الخلق أجمعين المرسل رحمة للعالمين تاج الأصفياء وخاتم الأنبياء محمداً ﷺ جالسا عند الركن اليمانى مع أهل بيته وأصحابه وأولياء أمته.

وذكر أنه رأى إبراهيم وعيسى عليهم السلام أكثر الأنبياء لأمة النبى - ﷺ - وأكثرهم فرحا بفضلهم وأبشهم بهم ورأى فى بعض الأنبياء غيرة من فضلهم وذكر أسرارا كثيرة منها ما ذكره يطول ومنها ما لا يحتمله بعض

---

(١) أى: عند.

العقول قلت ولا تستبعد الغيرة المذكورة فقد كان من غيرة موسى عليه الصلاة والسلام وبكائه ليلة المعراج ما كان.

والغيرة فى الخير محمودة وإنما يذم الحسد وأما ما ذكره عن إبراهيم وعيسى عليهما السلام منهم مناسب لحالهما، وكثرة ودهما لهذه الأمة، يعرف ذلك من له اطلاع على الآثار والأخبار بل يفهم ذلك فى القرآن والله أعلم وقال الشيخ الكبير قدوة الشيوخ العارفين وبركة أهل زمانه أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه ونفعنا به لما جا[1] الغلاء الكبير إلى ديار مصر توجهت لأن أدعو فقيل لى لا تدعو فما يسمع لأحد منكم فى هذا الأمر دعاء فسافرت إلى الشام فلما وصلت إلى قرية ضريح الخليل ﷺ تلقانى فقلت يا رسول الله اجعل ضيافتى عندك الدعاء لمصر فدعا لهم ففرج الله عنهم.

قال الإمام اليافعى قلت وقوله تلقانى قول حق لا ينكره إلا جاهل بمعرفة ما يرد عليهم من الأحوال التى يشاهدون فيها ملكوت السموات ينظرون الأنبياء أحياء غير أموات كما نظر النبى ﷺ موسى أيضا فى الأرض ونظره أيضا وجماعة من الأنبياء عليهم السلام فى السموات وسمع منهم مخاطبات.

وقد تقدم أنه يجوز للأولياء رضى الله عنهم فى الكرامات ما يجوز للأنبياء عليهم السلام فى المعجزات بشرط عدم التحدى انتهى.

وقال بعض المشايخ كنت فى بدء أمرى صحبت بعض المشايخ فكان يأمرنى بالخدمة وكنت ملذذا بأمره فأرسلنى يوما إلى القصاب أحمل لحما للفقراء فابتعت منه حاجتى وحملتها والتفت إلى جانب فرأيت رجلا يسوق دابه محملة فوكزنى فسقطت على يسار مسمار فى حانوت القصاب فأصاب جنبى فحملنى عليه صاحب الحانوت ووجدت فيه ألما كثيرا.

فبينما نحن بذلك الشأن مشغولون بربط الجرح وحرمته فإذا بصاحب

---

(١) يعنى: جاء.

الدابة قد وقف علينا ومعه ثلاثة رجال من العوامل، وقال: سقط منى صرة فيها عشرة دنانير وكانت فى رأس فحمل القصاب وحملنى، وحمل رجلين آخرين إلى صاحب المدينة، وقال: هؤلاء أخذوا الصرة، فضرب كلا من أصحابى ضربا شديدا ثم ضربت فى جملتهم فكان الضرب يقع علىّ الجرح ثم نظر صاحب المدينة تقطع يده فأمر بالزيت فأغلى واجتمعت علىّ الخلائق بالضرب والسب ونظر[1] أحد الخدم إلى الإناء الذى فيه اللحم فوجدوا الصرة فيه، فقالوا هذا السارق فقال بين أربعة رجال ونادى مناد أحضروا السارق فقد طاب الزيت وأنا مسلم أمرى لمن بيده ملكوت كل شىء ولطمنى أحد الرجال لطمة حتى غبت عن حسى وأنا صابر فى ذلك البلاء راجع إلى الله تعالى فى ذلك الأمر، وقال يا لص يا سارق.

ثم خدنى حتى سقطت على وجهى فخررت ساجدا فشهدت النبى ﷺ فى اليقظة ينظر إلى وهو يبتسم فما استويت قائما إلا وقد زال عنى ما كنت فيه وفى الوقت نادى منادى الذى أمسكتموه خادم الشيخ فنظروا إلىّ وقالوا لا حولِ ولا قوة إلا بالله.

ثم خر الرجال الذى كنت معهم على رجلى وأتى صاحب البلد مرعا وقبل رجلى وقال: يا سيدى سألتك بالله العظيم إلا ما غفرت لنا ثم أتى صاحب الصرة وتضرع وبكى فقلت لهم يغفر الله لى ولكم.

هذه سابقة أظهرت سريرة طائفة فى وقتها ثم انكشفت الصرة فظهرت أن العشرة دنانير وحمل الدابة رسالة إلى الشيخ انتهى.

وقال الإمام اليافعى حكى عن بعض المشايخ. رضى الله عنه - قال قال لى أبو بكر يوسف الشقيق بطرسوس إنى سمعت من أبى الخير شيئا ما يضله قلبى منه قلت وما هو.

قال ذكر أنه لقى عيسى عليه السلام فقلت له أنا أحكى لك حكاية تصديقا لقول أبى الخير سمعت محمد بن حامد وقد ذكرت قول النبى ﷺ

---

(١) فى الاصل: وأنا.

كيف أخاف على أمة أنا أولهم وعيسى آخرهم صلوات الله عليهما فقال ابن حامد إن عيسى عليه السلام ينزل ثلاث مرات يظهر أول مرة للأولياء وفى الثانية للصلحاء وفى الثالثة ينزل بيت المقدس فيراه الخاص والعام.

فقال ابن الشقيق فدخل داره فركب دابة فخرج علينا فقلنا له أين تريد فقال إلى أبى الخير استمله فقلت له أجلس إلى غد فقال لا إنى أخاف الله والموت، فلما كان بعد أيام رجع إلى طرسوس فدخلت عليه فى محرابه فلما ضرب بباب المسجد قال لى يا أبا بكر ارجع فقد جعلناك فى حل فرحل رضى الله عنه ونفعنا به وبجميع الصالحين انتهى.

ولقد أخبرنى الشيخ الصالح ناصر الدين المنوفى الشاذلى قال أخبرنى شيخنا العارف بالله المحقق صفى الدين أبو المواهب التونسى رحمه الله أنه قال:

رأيت النبى ﷺ - فى حال اليقظة وقال لى يا أبا المواهب أنا المشرق فى عبد القادر الكيلانى وأنا المشرق فى أبى العباس المرسى وأنا المشرق فى محمد وفا وأنا المشرق فيك فى ولده على وأنا المشرف فيك وعنايتى بك قديمة وأعتاب بنى الوفا لا توطأ بالأقدام وإنما توطأ بالجباه لأنها جلها قدمى.

وأخبرنى أيضا عن سيدى محمد الشريعى أنه تلقى الذكر عن النبى ﷺ - فى اليقظة سمع ذلك منه مشافهة انتهى.

وقال ابن الحاج أحد أئمة المالكية فى المدخل فى فصل المتشبهين بالمشايخ أرباب الدعاوى الكاذبة ما نصه: ومنهم من له قدرة على تصنيف الحكايات والمرائى التى يختلقها من تلقاء نفسه سيما والعياذ بالله ما ابتلى به بعضهم فى تبحره فى دعوى رؤية النبى ﷺ فى المنام وأنه أقبل عليه وخاطبه وأمره ونهاه.

بل بعضهم يدعى رؤيته عليه الصلاة والسلام فى اليقظة، وهذا باب ضيق وقل من يقع له ذلك إلا من كان على صفة عزيز وجودها فى هذا الزمان بل عدمت غالبا مع أنا لا ننكر من يقع له هذا من الأكابر الذين حفظه الله تعالى فى ظواهرهم وبواطنهم.

وقد أنكر بعض العلماء الظاهر رؤية النبى ﷺ فى اليقظة وعلل ذلك بأن قال العين الفانية لا ترى العين الباقية والنبى ﷺ فى دار البقاء والرائى فى دار الفناء وقد كان سيدى محمد رحمه الله يحل هذا الإشكال ما قاله هذا القائل صحيح ولكن يرده ما ورد أن الله تعالى يوقف يوم القيامة هذه الطائفة بين يديه فيقول عز وجل أوليائى لم أزر عنكم الدنيا لهوانكم على ولكن زويتها عنكم لتستوفوا اليوم نصيبكم عندى اذهبوا فاخترقوا الصفوف فمن سلم عليكم من أجلى فخذوا بيده وأدخلوه الجنة فيأتون إلى المحشر وهم يجرون أذيال الفخر فيقول أهل المحشر يا ربنا ما بال هؤلاء دوننا فيقول الله عز وجل أنتم متم فى الدنيا مرة واحدة وهؤلاء كان الواحد منهم يموت فى اليوم سبعين مرة أو كما قال.

وقد قال سيدى أبو مدين رحمه الله من مات راى الحق ومن لم يمت لم ير الحق فإذا كان المرء إذا مات موتة واحدة يرى الحق فما يالك بسبعين مرة فى كل يوم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1] فذهب الإشكال والحمد لله ظهر الصواب [انتهى كلام ابن الحاج بحروفه].

ليس هذا مما يستدل به شرعا على مقام الفناء وقد تقدم الاستدلال به فى موضعه والله اعلم.

وقال الشيخ أكمل الدين أحد الأئمة الحنفية فى شرح المشارق: الاجتماع بين الشخصين يقظة ومناما بحصول مادة الاتحاد له خمسة أصول كلية: الاشتراك فى الذات أو فى صفة فصاعدا أو فى حال فصاعدا أو فى الأفعال أو فى المراتب ثم قال ومن حصل له الأصول الخمسة وثبتت المناسبة بينه وبين أرواح الكمل الماضيين اجتمع بهم متى شاء - اهـ.

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله فى لطائف المنن وقد يجذب الله

---

(١) سورة السجدة - آية ١٧.

تعالى العبد إليه فلا يجعل عليه منة لأستاذ وقد يجتمع برسول الله ﷺ فيكون أخذ عنه وكفى بهذا منة عليه.

ولقد قال لى الشيخ مكين الدين الأسمر أنا ما رباني إلا رسول الله ﷺ وذكر عن الشيخ عبد الرحيم الفتاوى إنه كان يقول أنا لا منة لأحد على إلا الرسول ﷺ وإذا أراد الله أن يتفضل على عبد ويغنيه عن الأستاذين لا يكون له فيهم سلف فعل.

وقال الإمام مالك لبعض جلسائه إنى أريد أن أجعلك وزيرا قال ليس لى فى هذا سلف قال ابنى أريد أن أجعلك سلفا لمن بعدك قلت قد تيسر لنا بحمد الله تعالى فى هذه المسألة.

هذه نقول عن جماعة من أعلام المذاهب الأربعة القاضى أبى بكر بن العربى وابن الحاج وابن أبى جمرة وابن عطاء الله وغيرهم من أئمة المالكية وكذا حجة الإسلام الغزالى وقاضى القضاة شرف الدين البارزى واليافعى وابن الأهدل والبلقينى وغيرهم من أئمة الشافعية لاسيما تعدد النقول فى ذلك عن الشيوخ محى الدين عبد القادر الكيلانى وأما الحنفية فمكثت أياما وشهورا أتتبع نقولهم فى ذلك فلم أجد أحدا منهم من صرح بالمسألة حتى وقفت على شرح مشارق الصاغانى للشيخ أكمل الدين شارح الهداية فرأيته قد صرح بذلك ما تقدم نقله والله أعلم.

* * *

فصل

الاختلاف فى رؤية الله تعالى فى الدنيا يقظة

وأما رؤية الله تبارك وتعالى فى الدنيا يقظة فقال الإمام النووى وغيره أجمع أهل السنن على أن رؤية الرب سبحانه فى الدنيا ممكنة غير مستحيلة واستدلوا عليه بوجوه:

أحدها أن كل موجود يجوز أن يرى والرب سبحانه موجود فجاز أن يرى.

الثانى: أن الرؤية نوع كشف وعلم فجازت كالعلم[1].

الثالث: أن موسى عليه السلام سأل الرؤية ولو استحالت لزم أن يكون جاهلا بما يجوز على الله تعالى ومالا يجوز.

واختلاف الصحابة رضى الله عنهم فى رؤية النبى ﷺ ليلة المعراج دليل على الجواز إذ المحال لا يختلف فيه.

قال حجة الإسلام الغزالى رضى الله عنه ليت شعرى كيف عرف المعتزلى من صفة الرب سبحانه وتعالى ما جهله موسى الكليم عليه السلام والجهل بجدوى الاستداع أولى فى الكلام فى إمكان الرؤية وعدم استحالتها.

فأما وقوعها فالجمهور الحضور من السلف والخلف من المتكلمين والمفسرين وغيرهم على أنها لا تقع فى الدنيا أى لغير نبينا محمد ﷺ واختلفوا فى وقوعها لموسى عليه السلام وللجبل أيضا وذكر القاضى أبو بكر ابن العربى المالكى فى أثناء أجوبته ما معناه أن موسى عليه السلام رأى ربه

---

(١) لا يمكن رؤية المولى عزل وجل فى الدنيا وهو المجمع عليه بين أهل العلم استدلالا بقوله سبحانه وتعالى لسيدنا موسى عليه السلام عندما سأل ربه النظر إليه جل علاه فقال: ﴿لن ترانى﴾.

الله تعالى فخر صعقا، وأن الجبل رأى ربه فصار دكا، بإدراك خلقه الله سبحانه وتعالى له فعلى قوله هذا يكون تجلى الحق سبحانه وتعالى للجبل هو ظهوره له حتى رآه فصار دكا وخر موسى صعقا وقد روى عن جعفر بن محمد أنه قال فى موسى عليه السلام شغله بالجبل حين تجلى ولولا ذاك لمات صعقا بلا إفاقة...

وقال القاضى عياض وقوله هذا يدل على أن موسى رآه وقد وقع لبعض المفسرين فى الجبل أيضا أنه رآه واستدل بعضهم برؤية الجبل على رؤية نبينا محمد ﷺ كما سيأتى، واختلفوا فى جوازها للأولياء فى الدنيا على سبيل الكرامة.

وحكى الأستاذ القشيرى فى رسالته عن ابن فورك أنه حكى فيها قولين للأشعرى: أصحهما لا تقع لحصول الاجتماع عليه الآن وخلاف الصحابة رضى الله عنهم إنما كان فى رؤية النبى ﷺ وليس الكلام فيها، وبه قطع الغزالى فى الإحياء والشيخ شهاب الدين الهروروى وغيرهما من الصوفية من الخلف والسلف.

أما وقوعها لنبينا محمد ﷺ فالراجح عند أكثر العلماء أنه رأى ربه ليلة الإسراء بعينى رأسه بخصوصية له خصه الله بها دون الأنبياء وسائر الخلق لمزيد اشتياقه وحبه لربه سبحانه كما قال بعض العارفين نظر الله إلى الأرواح أو قال اطلع الله على الأرواح فوجد أشدها شوقا إليه روح نبينا ﷺ فأكرمه بالمعراج تعجيلا للرؤية والمكالمة ونقل حصول الرؤية له ﷺ جماعة من المفسرين والمحدثين عن كثير من السلف والأئمة من الصحابة رضى الله عنهم وغيرهم وممن نقله واختاره من المحدثين الإمام محيى الدين النووى فى شروحه لمسلم وفى فتاويه ولفظه فى شرح مسلم بعد أن حكى خلاف عن السلف والخلف. والحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه ليلة الإسراء بعينى رأسه لحديث ابن عباس وغيره وإثبات هذا لا

يأخـذونه إلا بالسـماع من رسول الله ﷺ هذا ينبـغى ألا يشكك فيـه ثم إن عائشـة رضى الله عنهـا لم تنف الرؤيـة بحـديث ترويه عن رسول الله ﷺ اهـ.

وقال فى فتاويه ومكان الإسراء برسول الله ﷺ سنة خمس أو ست من البعثة وقيل سنة اثنى عشرة منهـا وقيل بعد سنة وثلاثة أشهر وكان ليلة السـابع والعشرين من ربيع الأول وقال فى الروضة من رجب وقال فى الفتاوى ومكان الإسراء مرتين مرة فى النوم ومرة فى اليقظة ورأى ربه سبحانه بعينى رأسه هذا هو الصحـيح الذى قاله ابن عبـاس وأكثر الصـحابة والعلمـاء ومنعته عـائشة وطائفة من العلماء وليس للمانع دليل ظاهرا. هـ

والقول برؤية العين مروى عن ابن عباس وأنس وأبى ذر وكعب والحسن وكان يحلف بالله على ذلك وعكرمة والربيع ابن أنس وحكى عن ابن مسعود وأبى هريرة وأبى الحسن الأشعرى وأصحـابه وقال [به] الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنهم أجمعين.

وقد روى عن بعض الصـحابة رواية لا حاجة إلى التطويل لذكـرها قال صاحب التـحرير فى شرح مسلم بعـد اختيار إثبـات الرؤية والحجج فى هذه المسألة وإن كـانت كثيرة ولكنا لا نتـمسك إلا بالأقوى منهـا وهو حديث ابن عبـاس رضى الله عنهمـا وقوله (أتعـجبـون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لنبينا محمد ﷺ) عن عكرمة سئل ابن عباس رضى الله عنهما هل رأى محمد ﷺ ربه وكان الحسن يحلف بالله لقد رأى محمد ﷺ ربه.

والأصل فى البـاب حديث ابن عـباس حـبر الأمـة والمرجوع إليـه فى المعضـلات وقد راجعه ابن عـمر فى هذه المسألة وراسله هل رأى محـمد ربه فاخبره أنه رآه.

ولا يقدح فى هذا حـديث عائشـة رضى الله عنها فإنهـا لم تخبـر أنها

سمعت النبى ﷺ لم أر ربى وإنما تأولت قول الله تبارك وتعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾(١) و﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾(٢) والصحابى إذا قال قولا وخالفه غيره منهم لم يكن قوله حجة، وإذا صحت الروايات عن ابن عباس فى إثبات الرؤية وجب المصير إلى إثباتها، فإنها ليس مما يدرك بالعقل ولا يؤخذ بالظن وإنما يتلقى بالسماع لا بالظن والاجتهاد.

وقال معمر بن راشد حين ذكر اختلاف عائشة وابن عباس ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس، ثم إن ابن عباس أثبت شيئا نفاه غيره والمثبت مقدم على النافى انتهى كلام التحرير ونقله عنه النووى.

والجواب عن الآية الأولى ما تقدم وعن الثانية أنه لا يلزم من الرؤية وجود الكلام حال الرؤية بل يجوز وجود الرؤية فى غير كلام، أو أنها فى العام المخصوص بالأدلة الواردة فى إثبات الرؤية وأن المراد بالوحى ما يلقيه الله فى قلب النبى من غير واسطة كما نقله القاضى عياض.

وقال القاضى أبو الفضل والحق الذى لا افتراء فيه أن رؤيته تعالى فى الدنيا جائزة عقليا وليس فى العقل ما يحيلها فقد سألها موسى عليه السلام ومحال أن يجهل نبى ما يجوز على الله وما لا يجوز بل لم يسأل إلا جائزا غير مستحيل فقال الله له لن ترانى أى لا تطيق ولا تحتمل رؤيتى.

قال أبو بكر الهزلى فى قوله تعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾(٣) أى ليس لبشر أن يطيق أن ينظر إلى فى الدنيا وأنه من نظر إلى مات قال القاضى وقد رأيت لبعض السلف ما معناه أن رؤيته تعالى فى الدنيا ممتنعة لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم وكونها وتغيره معرضة للآفات والفناء فلم تكن لهم قوة على الرؤية.

---

(١) سورة الأنعام - آية ١٠٣.

(٢) سورة الشورى - آية ٥١.

(٣) سورة الأعراف - آية ١٤٣.

فإذا كان فى الآخرة وركبوا تركيبا آخر رزقوا أبصار ثانية باقية وأتم الله أنوار أبصارهم وقلوبهم وقووا على الرؤية وقد رأيت نحو هذا للإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى: لم ير فى الدنيا لأنه باق ولا يرى الباقى بالفانى وإذا كان فى الآخرة ورزقوا أبصاراً باقية رؤى الباقى بالباقى.

قال القاضى كلام حسن فإذا قوى الله من يشاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع فى حقه وقد نقل القاضى عن تقى بن مخلد عن عائشة رضى الله عنهما قالت كان النبى ﷺ يرى فى الظلمة كما يرى فى الضوء والأخبار كثيرة صحيحة فى رؤيته ﷺ للملائكة والشياطين ورفع النجاشى حتى صلى عليه، وأتى إليه ببيت المقدس حتى وصفه لقريش والكعبة حيث بنى مسجده وأنه كان يرى فى الثريا أحد عشر نجما وهذه كلها رؤية عين.

قال أحمد بن حنبل وغيره ثم قال ولا إحالة فى ذلك وهى من خواص الأنبياء وخصائصهم ومن قوله ﷺ إنى لأراكم من وراء ظهرى، وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: لما تجلى الله لموسى عليه السلام كان ليبصر النمل على الصفا فجاء الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ).

قال القاضى ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا ﷺ بما ذكرناه فى هذا الباب بعد الإسراء والحظوه بما رأى من آيات ربه الكبرى.

ثم قال القاضى هنا وقد تقدم ما ذكر فى قوة بصر موسى ومحمد ﷺ ونفوذ إدراكهما بقوة منحاها لإدراك ما أدركاه ورؤية ما رآياه والله أعلم قال القاضى وأما ما ورد فى قصة الإسراء فى مناجاته لله تعالى وكلامه معه بقوله تعالى «فأوحى إلى عبد ما أوحى» إلى ما تضمنته الأحاديث أكثر المفسرين على أن الوحى هو [من] الله تعالى إلى جبريل إلى محمد ﷺ وذكر عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال أوحى الله إليه بلا واسطة ونحوه عن الواسطى وإلى هذا ذهب بعض المتكلمين أن محمداً أكلمه ربه ليلة الإسراء

وحكى أيضا عن الأشعرى وذكروه عن ابن عباس وابن مسعود وذكر النقاش عن ابن عباس فى قصة الإسراء عن رسول الله ﷺ فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾(١).

قال فارقنى جبريل فانقطعت عنى الأصوات فسمعت كلام ربى وهو يقول ليهدى روعك يا محمد ادن ادن وفى حديث أنس فى الإسراء نحو منه وقد احتجوا فى هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾(٢) كتكليم موسى عليه السلام وبإرسال الملائكة كحال جميع الأنبياء وأكثر أحوال نبينا ﷺ.

الثالث قوله [وحيا] ولم يبق فى تقسيم صور الكلام إلا المشافهة مع المشاهدة هذا نقل القاضى عياض رحمه الله.

ثم قال القاضى وقد ذكر أبو بكر البزار عن على رضى الله عنه فى حديث الإسراء ما هو واضح فى سماع النبى ﷺ لكلام الله تعالى فى الآية فذكر فيه فقال الملك الله أكبر الله أكبر.

فقيل لى من رواء حجاب: صدق عبدى أنا أكبر وقال فى سائر كلمات الأذان مثل ذلك.

قال القاضى فى كلام الله تعالى لمحمد ﷺ ومن اختصه من أنبيائه جائز غير ممتنع عقلا ولا ورد فى الشرع قاطع يمنعه فإن صح ذلك فى خبر اعتمد عليه وكلامه تعالى لموسى عليه السلام كائن حق مقطوع به نص على ذلك الكتاب العزيز وأكده بالمصدر دلالة على الحقيقة ورفع مكانه على ما ورد فى الحديث فى السماء السابعة بسبب كلامه ورفع محمد فوق هذا كله متى بلغ

---

(١) سورة النجم - آية ٨.

(٢) سورة الشورى - آية ٥١.

مستوى سمع به صريف الأقلام فكيف يستحيل فى حق هذا ويبعد سماع الكلام فسبحان من خص من شاء بما شاء وجعل بعضهم فوق بعض درجات وقال القاضى: وأما ما ورد فى حديث الإسراء فظاهر الآية من الدنو والتدلى منقسم بين جبريل ومحمد عليهما السلام أو مختص بأحدهما من الآخر أو من سدرة المنتهى.

قال الراوى وقال ابن عباس - رضى الله عنه -: هو محمد دنى فتدلى من ربه وقيل معنى دنى قرب وتدلى رآه فى القرب وقيل: هما بمعنى واحد أى قرب..

وحكى الماوردى عن ابن عباس هو الرب دنا من محمد ﷺ فتدلى إليه أى أمره وحكمه.

وحكى النقاش عن الحسن قال: ودنا من عبده محمد ﷺ فتدلى فقرب منه فأراه. ما شاء أن يريه من قدرته وعظمته قال: وقال ابن عباس: هو مقدم ومؤخر تدلى الرفرف من محمد ﷺ ليلة المعراج فجلس عليه ثم رفع فدنى من ربه قال عليه السلام «فارقنى جبريل وانقطعت الأصوات وسمعت ربى».

وعن أنس فى الصحيح: «عرج بى جبريل إلى سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى وأوحى إليه خمسين صلاة» وذكر حديث الإسراء.

وعن محمد بن كعب: هو محمد دنا محمد من ربه فكان قاب قوسين أو أدنى وقال جعفر بن محمد: والدنو من الله لا حد له ومن العباد بالحدود وقال أيضا: انقطعت الكيفية عن الدنو ألا تراه كيف حجب جبريل عن دنوه ودنا محمد إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان فتدلى بسكون قلبه إلى ما

أدناه وزال عن قلبه الشك والارتياب فهذا كله مما نقله القاضى عياض رضى الله عنه..

وقال الإمام أبو الحسن الواحدى فى قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾(١).

قال المبرد: معنى الآية أنه رأى شيئا فصدق فيه..

وقال أبو الهيثم: ما أوهم الفؤاد أنه رأى ولم ير، بل صدق الفؤاد رؤيته، ونقل القاضى عن أهل التفسير فى هذه الآية ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ لم يوهم القلب العين غير الحقيقة بل صدق رؤيتها.

وقيل: ما أنكر قلبه عليه السلام ما رأته عينه انتهى.

قال الواحدى فى الآية: وهذا إخبار عن رؤية النبى ﷺ ربه ليلة المعراج.

قال ابن عباس رأى محمد ربه بفؤاده ولم يره بعينه فيكون ذلك على معنى أن الله جعل بصره فى فؤاده أو خلق لفؤاده بصرا حتى رأى ربه رؤية غير كاذبة كما يرى بالعين..

قال الواحدى: ومذهب جماعة من المفسرين أنه رآه بعينه وهو قول أنس وعكرمة والحسن وكان يحلف بالله لقد رأى ربه فكل هؤلاء أثبتوا رؤية صحيحة إما بالعين وإما بالفؤاد انتهى.

وقد تقدمت الروايات عن ابن عباس فى رؤيته وتقدم فى كلام القاضى عن ابن عباس أن الأشهر عنه أنه رأى ربه بعينه وروى ذلك عنه من طرق قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾(٢).

---

(١) سورة النجم - آية ١١.

(٢) سورة النجم - آية ١٧.

قال الواحدى: مـا مال بصر النبى ﷺ يمينا ولا شمـالا وما طغى: ما جاوز مـا رأى وهذا وصف أدبه ﷺ فى ذلك المقام إذ لـم يلتفت جانـبا ولم يمل بصره ولم يمده إلى أمامه إلى حيث ينتهى.

وقال الشيخ شهاب الدين السهروردى فى العوارف: أخبر الله تعالى عن حسن أدبه فى الحضرة الإلهية حيث اعتدل قلبه المقدس فى الإعراض والإقبال أعرض عمـا سوى الله تعالى وتوجه إلى الله وترك وراء ظهـره الدار العاجلة بحظوظها والآخرة بحظوظها.

قال: وفيه وجه آخر ألطف من هذا مـا زاغ البصر حيث لم يتخلف عن البصيرة ولم يتقاصر وما طغى لم يسبق البصـر البصيرة فيتجاوز حده ويتعدي مقامه بل استـقام البصر مع البصيرة والظاهر مع البـاطن بحسب ما أمده الله من القوة ضـعف موسى عليه السـلام عن أحد الوصفـين فى قوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ فضعف عن الرؤية انتهى مختصرا وبالله التوفيق.

فائدة

قـال الشيخ الإمـام عبـد الجليل القـصرى وقـد ورد عن النبى ﷺ فى أحاديث الإسـراء وما رأى من آيات ربـه الكبرى أنه قـال: «قربت إلى سـيد العرش فأبصرت أمرًا مـهولا ثم قال بعد ذلك ولم أر عند رؤية ربى أحدا من خلقه سواء كانت الرؤية رؤية عين أو رؤية قلب».

الحكمة فى المعراج إلى السماء

وسئل بعض المحـققين عن الحكمـة فى المعراج إلى السـماء مع أن الله تعالى قادر على أن يتجلى له وهو فى الأرض ويكلمه فقال: إن الشىء المرئى إنما يظهر فى المحل الذى يظهر فيه على قدر موجودات ذلك المحل فالنبى ﷺ

أخرج من هذا العالم إلى الملكوت الأعلى ليشاهد الآيات الكبرى التى لا يسع ظهور شىء منها فى عالم حتى وصل إلى العرش فرأى منه عظمة الحامل له واستوى إليه التعظيم حتى رفع إلى المستوى الأعلى وانقطع عن جميع الأشياء فتجلى الله تعالى له فى كل موطن على قدر ذلك الموطن انتهى ما ذكره مختصرا.

وقد رأيت لبعض المشايخ المصنفين نحوه فإنه لما تكلم على العوالم وأن بعضها أوسع من بعض قال: وما أحد أكرم بهذا الصعود على معراج التدريج إلا نبينا محمد ﷺ نصب له المعراج فسلك به الطباق العليا إلى أن فهم علم كل فلك وملك إلى أن بلغ مستوى سمع فيه صريف الأقلام الكاتبة عن القلم الكاتب يكتبون علم كل فلك وملك وافق ما يليق به فعلم ما يكون وانكشف له الأمور واتضح له الملكوت والله أعلم.

فائدة أخرى

قال الشيخ الإمام المحقق الربانى محى الدين عبد القادر الكيلانى - نفع الله به - فى طلب موسى الرؤية وامتناعها لضعفه عنها وحصولها لنبينا محمد ﷺ، لما قضى موسى الأجل خرج بأهله وقد استبان وضع الحمل والليل كسواد حدق حور الجنة تنثر عبرات عيون السحب وسيوف البرق تنسل من غمد الغمام وأسود الرعود ترتجز فى غابات الديم فطلب قطرا يأوى إليه من القطر ليقدح لزوجه من زند الظلام سررا وتطلب فى أكناف الوادى المقدس نارا، هذا والغرام غريم سره والوجد نديم روحه والشوق سمير قلبه والشوق جليس فؤاده والهوى حشو صدره.

فلاح له النور فى معرض النار نصب لاصطياد طائر روحه شباك إنى أنا الله رأى سطرا من سطور لوح القدرة تجلت لفراشة روحه شمعة الطور وقعت رجل عقله فى شرك أنس أنيس أفرغ فى كأس سمعه شراب لا إله إلا أنا أكسره بإدامة شرب مدام وكلمه ربت فيه نشوات الشوق وطمت به أمواج

بحار الوله غلب على قلبه هيمان العشق خرقت لذت التكليم منافذ سمعه حتى وصلت إلى قلبه فطلب البصر نصيبه من النظر ووافقه شوق القلب فقال رب أرنى أنظر إليك قيل يا موسى انظر أولا إلى مرآة الجبل وحك ذهب ثيابك على محل فإن استقر مكانه فسوف ترانى.

اعتبر سكونك عند حركة الصخور تجلى تمادت به أجزاء السطور عند إشراق لمعان ذلك النور وتعطرت أشجار الوادى المقدس بنسيم القرب وارتجت رياض البقعة المباركة ببهجة وقت الوصل وصارت هضبات الطور حدائق لأجل من تجلى وامتلأت جنباته بالملائكة استعظاما لقوله أرنى وقامت أرواح الأنبياء تترصد ما يكون.

بعد ذلك سمع كلاما ككلام البشر خطابه ليس من جنس المحدثات نودى من جميع آفاق جهات الوجود صارت جملته سمعا وبصيرا فتلفت بعين سره إلى الطور وقع شعاع نور عقله على لموع نور فى مرآة الجبل انعكست أشعة المتقادحات ببرق بصر الحس ذهلت عين الفكر خرس لسان الطبع انقطعت أسباب الحواس قر لسان حال موسى وخشعت الأصوات.

قال المخبر عن صدق طلبه وخر موسى صعقا قيل يا موسى معدة طبعك ضعيفة عن تناول شراب التجلى شوق عينك ضيق عن مقابلة أنوار سبحات أرنى أنظر إليك عين الحدث لا تنفتح فى شعاع شمس القدم ورد النظر لا يطلع فى شجر كانون هذا الكون إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا خلعة النظر مدخرة فى خزائن الغيب لصاحب قاب قوسين هذا البشر: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾[1] انتهى.

وقال رضى الله عنه فى الفرق بين الرؤية والمشاهدة: النظر عبارة عن الرؤية بالأبصار ولم يبلغه مخلوق فى هذه الدار سوى صاحب المقام المحمود

---

(١) سورة الإسراء - آية ٣٤.

والمشاهدة عبارة عن الرؤية بسائر الأسرار تخرج تواقيع مقاماتها من ديوان «يختص برحمته من يشاء» انتهى كلامه بحروفه وهو فى غاية الحسن والتحقيق مصرحا بالخصيصة العظمى فى الرؤية الكبرى لنبينا محمد ﷺ فلا يخطبها خاطب بعد كفؤها العزيز الكريم ومن ذا ينالها وقد منعها موسى الكليم، وما أحسن نظم الشيخ اليافعى فى منع ذلك فى قصيدة يمدح فيها النبى ﷺ قال:

فنال التى قد رام موسى ولم ينل لدى الطور فى أعلى السماء غير رائم
فقال لسان الحال فى ذلك منشدا يعبر عن موسى بنظم ملائم
أبا طالب والغير مطلوب من أنا بها مغرم أهريق فى جهها دم
معنى بها والغير فيها منعم وكم بين مشغوف معنى ولازم
قضاها لغيرى وابتلانى بحبها بسابق علم لست فيه بعالم

تنبيه:

كرامة الرؤيا فى الدار الآخرة

اعلم أن كرامة الرؤية فى الدار الآخرة يختص بها المؤمنون من الآدميين دون الملائكة فلا نصيب لهم فى الرؤية وكذا مؤمنو الجن إذا قلنا يدخلون الجنة فلا نصيب لهم فى الرؤية وممن نص على نفى رؤية الملائكة الشيخ ابن عبد السلام وصاحب الجواهر المنظومة من أئمة الحنفية وقاله الزركشى عن الشيخ عز الدين وأقره.

قال العلامة بدر الدين الأهدل فى كتاب «الرؤيا» وقسنا عليها مؤمنى الجن بطريق الأولى وبجامع اشتراكهم فى عدم القوة المركبة فى الآدمى على مقتضى عناصره الأربعة التى خلق بها ولأن الملائكة تنعموا بالقرب وتلذذوا بالطاعة وقهرتهم الهيبة فلم يتشوقوا للنظر بخلاف الآدمى فإنه دفع إلى الدنيا

وعوائقها وأرخيت دونه الحجب الكثيفة لكن أهل الإيمان ثبت معرفتهم بربهم وبصفاته على الغيب وقرع أسماعهم الوعد الكريم بالرؤية فى الآخرة فتشوقت قلوبهم وامتدت أطماعهم وحسن ظنهم بربهم أنهم يلقونه ويرونه عيانا، وهو سبحانه عند ظن عبده به.

وأما مؤمنو الجن فيدخلون الجنة لنطقهم بالشهادتين ويكونون فى أسافلها وليس لهم من المعارف الربانية ما يتأهلون به لرؤية اللقاء والرؤية فإن ذلك إنما هو ثواب الإيمان القلبى والتصديق اليقينى والعلم اللدنى وأما الجنة فهى جزاء الأقوال والأعمال الصالحة والله أعلم.

* * *

خاتمة

وقد تم هذا الكتاب مشحونا علما، المودع من جواهر العلوم جامعا جما، الكائن من التحقيقات مع عذوبة الألفاظ بالمحل الأسمى الفائق على نظائره إيجازا وجمعا، المشيد أركان مبانيه إحكاما ووضعا، المرفوع عن همم أهل العصر قطعا، فعليك بالنظر فى عبارته والتأمل فى فحواها وإياك والمبادرة بإنكارها لألفك سواها ودنك إبراز محاسنها التى لا تخفى إلا على جامد البصيرة أعماها، فربما نقلنا عن أحد من أئمة القوم خلاف ما نسبه بعض المشاهير إليه، فحسبه غلطا، من لا اطلاع له ولا تحقيق لديه وما شعر أن ذلك بعد التطلع والفحص الشديد عليه فدونك مختصرا قد انطوى على زبد ما به مصنف واحتوى على ما به العيون تقر والإسماع تشنف، وأتى من العجب العجاب بما لم يجمعه قبله مولف فحق أن يكون على كتب الأنام سريا وبأنواع المحامد والمحاسن حريا، جعلنا الله به مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ورفعهم مكانا عليا، وسائر مشايخى والمسلمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

قال المؤلف -: بلغه الله ما يؤمله من خير الدنيا والآخرة وختم له بخير ورحم سلفه وأعانه على قدوم الآخرة بمنه وكرمه آمين.

كان ختم تأليفه بالخانقاه الصلاحية سعيد السعداء يوم الأربعاء قبيل العصر، خامس عشر شهر ربيع الآخر أربع وتسعين وثمانمائة وحسبنا الله ونعم الوكيل.

سألتك الله لا تعجل بشتمك لى فإنى لست معصوما من الغلط اللهم اغفر لمؤلفه ولكاتبه ولوالديهما ولمن أعان على جمعه ولمشايخهم ولمن ذكر فيه

من العلماء والفقهاء والفقراء والصالحين ولمن نظر فيه ودعا لهم وللمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات بالمغفرة والرحمة وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ورضي الله عن الصحابة أجمعين آمين يا رب العالمين وقد وافق الفراغ من نسخ هذا الكتاب المبارك نهار الخميس الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١٣١ .

[انتهى]

* * *

ملحق
الأجوبة عن الأسئلة
فى كرامات الأولياء

[تأليف الشوبرى]

الأجوبة عن الأسئلة فى كرامات الأولياء[1]:

سئل الشمس الشوبرى[2] ما لفظه.

ما قولكم رضى الله تعالى عنكم فى الأولياء هل وجود وهل كراماتهم ثابتة وهل تصرفهم ينقطع وهل يمتنع أن يقال لسيدى أحمد البدوى وأضرابه أنهم أولياء أم يجور ذلك وهل يجوز التوسل بهم إلى الله تعالى وهل للأوتاد والأنجاب والنقباء ونحوهم وجود؟ وهل ثبتت صحبة غير العشرة وماذا يترتب على من منع جميع ما ذكر؟ وهل الولى إذا ما مات يحكم ببقاء ولايته أم لا لاحتمال موته على غير الإسلام؟ وإذا حلف شخص أن سيدى أحمد البدوى وإضرابه من الأولياء يحنث؟ وهل ثبت فيما ذكر دليل أم لا؟ أفيدوا الجواب مفصلا أثابكم الله تعالى الجنة بمنه فقال:

الحمد لله الهادى للصواب وصلى الله على سيدنا محمد وآله والأصحاب، نعم أولياء الله تعالي وهم العارفون به تعالى حسب ما يمكن، المواظبون على الطاعات المجتنبون للمعاصى المعرضون عن الانهماك فى اللذات والشهوات موجودون لعموم قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»[3].

ولما يأتى، وكراماتهم ثابتة وتصرفهم باق لا ينقطع بالموت.

---

(١) وجد كتيب الأجوبة على الأسئلة فى كرامات الأولياء - تأليف الشمس الشوبرى فى نهاية كتاب النجوم الزاهرة.

ويبدو أن الناسخ جمع الكتابين لتقارب موضوعهما. فجزاه الله خيرا.

(٢) هو محمد بن أحمد الشوبرى فقيه شافعى مصرى له العديد من المؤلفات - توفى - رحمه الله - عام ١٠٦٩هـ - ١٦٥٩م.

(٣) رواه مسلم.

ويجوز أن يقال لسيدى أحمد البدوى وأضرابه أنهم أولياء لله لما شاع وذاع وملأ الأسماع من الإخبار عنهم بذلك.

ويجوز التوسل بهم إلى الله تعالى والاستعانة بهم وبالأنبياء والمرسلين وبالعلماء والصالحين بعد موتهم لأن معجزة الأنبياء وكرامات الأولياء لا تنقطع بموتهم.

أما الأنبياء فلأنهم أحياء فى قبورهم يصلون ويحجون كما وردت به الأخبار وتكون الإغاثة منهم معجزة لهم والشهداء أيضا أحياء عند ربهم شوهدوا نهارا اجهارا يقاتلون الكفار.

وأما الأولياء فهى كرامة لهم فإن أهل الحق على أنه تقع فى الأولياء بقصد وبغير قصد أمور خارقة للعادة يجريها الله تعالى بسببهم والدليل على جوازها أنها أمور ممكنة لا يلزم من جوازها ووقوعها محال وكل ما هذا شانه فهم جائز الوقوع والدليل على الوقوع قصة مريم ورزقها الآتى من عند الله تعالى على ما نطق به التنزيل وقصة أبى بكر وأضيافه كما فى الصحيح وجريان النيل بكتاب عمر ورؤيته وهو على المنبر بالمدينة جيشه بنهاوند، حتى قال لأمير الجيش: يا سارية الجبل، محذرا له مَن وراء الجبل لمكر العدو هناك، وسماع سارية كلامه، وبينهما مسافة شهرين، وشرب خالد السم من غير تضرر به.

وقد جرت خوارق على يد الصحابة والتابعين ومن بعدهم لا يمكن إنكارها، لتواتر مجموعها وقد سئل بعض الأئمة الأكابر عمن قال إن من كرامة الولى أن يقول للشىء كن فيكون فنهى عن ذلك فقال من أنكر ذلك فعقيدته فاسدة فهل ما ادعاه صحيح أم باطل؟

فأجاب بأن ما قاله صحيح إذ الكرامة من الأمور الخارقة للعادة يظهرها الله تعالى على يد وليه وقد قال الأئمة ما جاز أن يكون معجزة لنبى جاز أن يكون كرامة لولى لا فارق بينهما إلا التحدى فمرجع الكرامة إلى قدرة الله تعالى نعم إن أراد استقلال الولى بذلك فهو كافر. انتهى.

وقال شيخنا الرملى: وهذه الأشياء يعنى الكرامات مشاهدة لا يمكن إنكارها فالذى نعتقد به ثبوت كراماتهم فى حياتهم وبعد وفاتهم لا تنقطع بموتهم ويخشى على جاحد ذلك المقت والعياذ بالله تعالى. انتهى

وللأوتاد والأنجاب والأبدال ونحوهم وجود، ورد فيهم عدة أحاديث وطعن بعض الناس فيها بأن بعضها يقوى بعضا بل قال بعض الحفاظ: إن بعضها صحيح وفى «المواهب اللدنية» وقد خص الله تعالى هذه الأمة الشريفة بخصائص لم يؤتها أمة قبلهم أبان بها فضلهم والأخبار والآثار ناطقة بذلك ثم قال: ومنها: أن فيهم أقطابا وأوتادا ونجباء وأبدالا عن أنس رضى الله عنه مرفوعا: «الأبدال أربعون رجلا وأربعون امرأة كلما مات رجل أبدل الله رجلا مكانه وإذا ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة».

ورواه الطبرانى فى الأوسط بلفظ: «لن تخلو الأرض من أربعين رجلا مثل خليل الرحمن عليه السلام فبهم يسقون وبهم ينصرون ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر»..

ورواه ابن عدى بلفظ: «البدلاء أربعون اثنان وعشرون بالشام وثمانية عشر بالعراق كلما مات منهم، أبدل الله مكانه آخر، فإذا جاء الأمر قبضوا كلهم فعند ذلك تقوم الساعة».

ولأبى نعيم فى الحلية عن ابن عمر رفعه: «خيار أمتى فى كل قرن خمسمائة والأبدال أربعون فلا الخمسمائة ينقصون، والأربعون كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخروهم فى الأرض كلها»:.

وفى تاريخ بغداد للخطيب عن الكتانى قال: النقباء ثلثمائة والنجباء سبعون والبدلاء أربعون والأخيار سبعة والعمد أربعة والغوث واحد فمسكن النقباء المغرب، ومسكن النجباء مصر، ومسكن الأبدال الشام، والأخيار سياحون فى الأرض، والعمد فى زوايا الأرض، وسكن الغوث مكة فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها الغوث فلا تتم مسألته حتى تجاب دعوته» انتهى..

وقال الحافظ ابن حجر الأبدال وردت فى عدة أخبار منها ما يصح وما لا يصح وأما القطب فورد فى بعض الآثار وأما الغوث بالوصف المشتهر بين الصوفية فلم يثبت.

وإذا مات القطب جعل مكانه خيار الأربعة وإذا مات أحد الأربعة وجعل مكانه خيار السبعين وإذا مات أحد السبعين جعل مكانه خيار الأربعين وإذا مات أحد الأربعين جعل مكانه خيار الثلثمائة وإذا مات أحد الثلثمائة جعل مكانه خيار الصالحين.

وإذا أراد الله أن يقيم الساعة أماتهم أجمعين وبهم يدفع الله تعالى البلايا وينزل قطر السماء وفى السيرة الشامية قال الإمام اليافعى فى «كفاية المعتقد ونكاية المنتقد».

قال بعض العارفين: الصالحون كثير مخالطون للعوام لصلاح الناس فى دينهم ودنياهم والنجباء فى العدد أقل منهم وهم نازلون فى الأمصار عظام لا يكون فى المصر منهم إلا واحد بعد واحد فطوبى لبلدة كان فيها اثنان منهم، والأوتاد واحد فى اليمن وواحد فى الشام وواحد بالمغرب وواحد فى المشرق والله تعالى يدير القطب فى الآفاق الأربعة من أركان الدنيا كدوران الفلك فى أفق السماء وقد سرت أحوال القطب وهو الغوث عن العامة والخاصة غيرة من الحق عليه غير أنه يرى عالما كجاهل، أبله كفطن، تاركا آخذا، قريبا بعيدا، سهلا، عسرا آمنا حذرا، وكشف أحوال الأوتاد للخاصة وكشف أحوال

البدلاء للخاصة والعارفين، وستر أحوال النجباء والنقباء عن العامة خاصة، وكشف أحوال البدلاء للخاصة والعارفين، وستر أحوال النجباء والنقباء عن العامة خاصة، وكشف بعضهم لبعض وكشف حال الصالحين للعموم والخصوص، ليقضى الله أمرا كان مفعولا . . انتهى.

وقول السائل: هل ثبتت الصحبة لغير العشرة؟ جوابه نعم بالأدلة الصحيحة الصريحة لعدد لا يحصى وآحاد لا تستقصى ومن ثم قال بعض الأئمة أما عدة أصحابه ﷺ فمن رام حصر ذلك أمرا بعيدا ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله تعالى لكثرة من أسلم من أول البعثة إلى أن مات النبى ﷺ وتفرقهم فى البلاد والبوادى.

وقد روى أنه سار يوم الفتح فى عشرة آلاف من المقاتلة وإلى حنين فى اثنى عشر ألفا وإلى حجة الوداع فى تسعين الفا والى تبوك فى سبعين ألف.

وقد روى أنه قبض عن مائة ألف وأربعة وعشرين ألف والله أعلم بحقيقة ذلك ولا تختص الصحبة ببنى آدم بل تعم غيرهم من العقلاء كالجن، لأنه ﷺ مبعوث إليهم قطعا.

وأما الملائكة فمبنى على ثبوت بعثه إليهم وفيه خلاف وقال الجلال: وقد عد بعض المحدثين من جملة الصحابة عيسى والخضر وإلياس:

قال الذهبى فى «تجريد الصحابة» عيسى بن مريم عليهما السلام نبى وصحابى فإنه رأى النبى ﷺ فهو آخر الصحابة موتا. . انتهى.

والرواة منهم ألف وخمسمائة وقول الحاكم أربعة آلاف رده الذهبى وأين جواب الجاحد لغير العشرة من الصحابة من التهذيب والإضافة فإن قلت لعله نفى التبشير لغير العشرة قلت على فرض هذا هو أيضا ممنوع بل بشر ﷺ غيرهم كأهل بيعة الرضوان الذين بايعوا فى الحديبية تحت الشجرة قال ﷺ: «لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد». . . رواه

مسلم. . . فإن قلت على هذا ما الوجه فى تخصيص العشرة بكونهم مبشرين بالجنة.

قلت: قال بعضهم: خبر الآحاد لا يفيد العلم بل يفيد الظن والعشرة كونهم مبشرين مقطوع به دليل قطعى. . انتهى.

ويترتب على من منع جميع ذلك التعزير اللائق بحاله الرادع له ولأمثاله عن الخوض فى هذه المسالك وتهوره بمثل ذلك ولا تنقطع ولاية الولى بموته كما علم بما تقدم ولا يظن بمسلم فضلا عن ولى لله تعالى هذا الظن يلتفت إليه ولا يعول عاقل عليه.

وأما تقبيل توابيت الأولياء فلا خلاف فى جوازه، بل ولا كراهة فى تقبيل أعتابهم على قصد التبرك، كما أفتى شيخنا الرملى -رحمه الله تعالى-.

ومن حلف أن سيدى أحمد البدوى أو غيره ممن اشتهر بالولاية أنه ولى لله تعالى؟ فهو بار فى يمينه غير حانث لبناء حلفه على هذا الأمر الظاهر.

وقوله هل ثبت دليل؟

قلنا: هذا الأمر الظاهر غنى عن طلب دليله إذا الطلب لذلك إنما يصدر من جاحد معاند لا يلتفت إليه ولا يعول فى هذه المباحث الشريفة عليه، وقد غلب هذا الداء العضال على كثير ممن أنكر على أرباب الأحوال نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم والله سبحانه أعلم. قاله محمد بن أحمد الشوبرى الشافعى حامدا فمصليا فمسلما فمحوقلا عفى الله عنه.

نقل ذلك من خط الشيخ محمد الشوبرى وقوبل على خطه والحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبى بعده والله تعالى أعلم.

انتهى

وجدت هذه التعقيبات فى آخر المخطوطة

قال السيد المرشد قديما[1]:

بمدح بإثبات الكرامات تظفر ... بقمع حسود قد ثور وهو ينكر

فما صح نص إمام بقطعهما ... ومن فيها جود الوجود معطر

وإثباتها فى كل ما كان خارقا ... عن النسفى النجم يروى وينصر

وفى منقد المصرى والحق وإنما ... به قد تجدى الأنبياء لا تصور

ولكنها فعل الإله حقيقة ... أتى ذا صريحا لابن وهبان يذكر

حققت جميع العالمين وفعلهم ... وتبدى كرامات الولى وتظهر

فهذا على الإطلاق لا شك عمه ... وفاتا فدعوى الاختصاص تهور

فحق لنا إثباته بعد موتهم ... وإبقاؤه حقا يزيد ويكثر

فرد على شخص يقول بقطعه ... مدى العمر فالإنكار لا شك منكر

وبالله لا تنكر ولو أنكر العدا ... فمنكره من بعد هذا ينشر

على جسمه نزلت بوادر نقمة ... وفى قبره المجمور نارا سيجمر

وإن يقف ترس غير علم فحكمه ... جهول له حكم الحمير فيمقر

فقل قاله أحمد شريف ومرشد ... بنقل صحيح راجح حيث يخبر

وخير صلاة تشرح القلب صدره ... على جده المختار فى الذكر تنشر

وآل وصحب هم أولوا الفخر فى الورى ... مدى الدهر والأيام والناس تحشر

---

(١) الشعر وما بعده فى تعريف الولى والعبد الصالح من إضافات الناسخ وليست لابن مغيزل ولا للشوبرى.

وقال آخر:

عليك بإثبات الكرامات مطلقا ... لتنجو من الخسران واحذر من العدا

فإنكاره قد أنكره أئمة ... وإيجاده بعد الممات تعددا

وهذا بلا شك شهير فلا تطع ... عدوا غبيا قد غوى البعض واعتدى

ولكن بإيجاد الإله حقيقة ... ما أراد الله في كل ما بدا

وقد ضل في إنكاره رؤية النبي ... للوح كذا للأولياء قد تمردا

فخذ ما روينا لا تضل بقوله ... وحقق ترى مني حاما مجردا

ولا بدع فيمن لا يرى الشمس طالعا ... تضئ بعينيه وإلا قد ارتدا

تمسك بما قد قلته في رسالة ... ترى اللوح لا تخفى على من تجردا

وأزكى صلاة للنبي وصحبه ... وآل وأزواج دواما مؤبدا

الولي: هو العارف بالله تعالى وصفاته حسب ما يمكن المواظب على الطاعات المجتنب عن المعاصي المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات وقيل: وجزم به العز بن عبد السلام أنه المجتنب للكبائر وإذا وقع في صغيرة على وجه الغلط يغسل منها.

وسئل محمد بن الحسن عن الولي فقال: هو عدل القاضي لأن العدل في الشرع هو الذي يجتنب الكبائر ولا يصر على الصغائر.

وهو إما بوزن فعيل بمعنى مفعول كقتيل بمعنى مقتول أو بمعنى فاعل كعليم بمعنى عالم قال ابن عبد السلام وكونه بمعنى فاعل أرجح لأن الإنسان لا يمدح إلا على فعل نفسه وقد مدحهم الله تعالى انتهى.

فعلى الأول يكون الولى من تولى الله رعايته وحفظه فلا يكله إلى نفسه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾(١).

وعلى الثانى يكون الولى من يتولى عبادة الله وطاعته فيأتى بهما على التوالى من غير تواني إناء الليل وأطراف النهار فهو من تولى الله بالطاعة والتقوى فتولاه الله بالحفظ والنصرة والمراد به الجنس كما تقدم.

تنبيه:

العبد الصالح

الصالح: هو القائم بما يلزمه من حقوق الله وحقوق العباد قال الفاكهانى: العبد الصالح يطلق على النبى والولى قال تعالى فى إسماعيل وإدريس وذا الكفل ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾(٢).

وقال تعالى فى صفة يحى: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾(٥) والأحاديث فى ذلك كثيرة، وقال بعض المتأخرين: الصلاح يحصل بمعرفة الله تعالى وتصديق الرسول واتباع ما جاء به ومجاهدة النفس.. انتهى.

ذكر الجلال السيوطى فى «بشرى الكئيب بلقاء الحبيب» فى ذكر قراءة الموتى فى قبورهم القرآن فقال: أخرج الترمذى وحسنه والبيهقى عن ابن عباس بلفظ «إن بعض أصحاب النبى ﷺ جلس على قبر وهو لا يحسب أنه قبر» إلى آخر ما تقدم قال الجلال بعد ذكر الحديث: قال أبو القاسم السعدى

---

(١) سورة الأعراف - آية ١٩٦.

(٢) سورة الأنبياء - آية ٨٥.

(٣) سورة آل عمران - آية ٣٩.

(٤) سورة النساء - اية ٦٩.

فى كتاب الإفصاح: هذا تصديق من رسول الله ﷺ بأن الميت يقرأ فى قبره فإن عبد الله أخبره بذلك وصدقه رسول الله ﷺ وأخرج ابن منده عن طلحة بن عبد الله قال أردت مالى بالغابة فأدركنى الليل فأويت إلى قبر عبد الله بن عمرو بن حزام فسمعت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها.

فجئت إلى رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فقال: «ذلك عبد الله ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها فى قناديل من زبرجد وياقوت ثم عقلها وسط الجنة فإذا كان الليل ردت عليهم أرواحهم فلا تزال كذلك حتى إذا طلع الفجر ردت إليهم أرواحهم إلى مكانها الذى كانت فيه»..

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن إبراهيم بن الصمت المهلبى قال حدثنى الذين كانوا يمرون بالجص بالأسحار قالوا كنا إذا مررنا بغباة قبر البنانى سمعنا قراءة القرآن وأخرج ابن منده عن سليمة بن المسيب قال: سمعت أبا حماد الحفار وكان ثقة ورعا قال: دخلت يوم الجمعة المقبرة نصف النهار فما مررت بقبر إلا سمعت منه قراءة القرآن(١).

---

(١) هذه أمور لا دليل عليها.

فهرس
الموضوعات

الموضوع	الصفحة
- مقدمة التحقيق	٥
- صور المخطوطة	١٥
- مقدمة المؤلف	٢٥
- فضل علم الحقيقة	٢٧
- سبب تأليف الكتاب	٣٢
- الكلام على رؤيته ﷺ منامًا	٣٥
- أدلة تصديق رؤياه ﷺ منامًا، وحُجِّيتها فى رؤيته يقظة	٣٩
- أقسام الناس بين الجزم برؤيته ﷺ والتجويز	٤٤
- رؤيته ﷺ يقظة	٤٦
- ما وقع لبعض الأولياء حال رؤيته ﷺ	٥٠
- دليل أوليته ﷺ ونبوته	٥٧
- تقرير بديع للسبكى	٦٠
- فصل فى شكل الأرواح	٦٤
- بعض من خوارق العادات	٧٣
- رؤية الملائكة يقظة	٨٢
- دليل رؤية الملائكة من السنة	٨٧
- فروق بين الروح والجسد	١٠١
- قطوف من الكرامات	١٠٢
- الرد على الإسفراييني فى إنكاره الكرمات	١٠٥

الموضوع	الصفحة
- حكم من أنكر كرامات الأولياء	١٠٧
- الكرامة والاستقامة	١١٠
- لماذا كثرت الكرامات فى العصر الأخير؟	١١١
- الكرامة ليست علامة على الأفضلية	١١٤
- من كرامات الصحابة والتابعين	١١٧
- هل يشترط التكليف فى وقوع الكرامة	١٢٠
- شُبَه القدرية فى منع الكرمات، وجوابها	١٢٢
- حاصل الفرق بين المعجزة والكرامة	١٣٠
- أنواع الكرامات	١٣٤
- الاستدلال على أن كرامات الأولياء عينُ معجزات الأنبياء	١٤٦
- كرامات الأولياء من أسرار الأنبياء	١٥٠
- استئناس على خرق العادة	١٥٥
- الفرق بين الكرامة والسِّحْر	١٦٥
- استطراد فى السِّحْر، ورأى الفقهاء فى تعلمه	١٦٧
- الاستقامة شَرْطٌ فى تحقُّق الكرامة	١٦٩
- موقف العلماء من رأى القشيرى فى تخصيص الكرامات	١٧٢
- هل يشترط العلم بالولاية	١٧٤
- وجه الاستدلال على وحدانيته تعالى بحديث: «من عرف نفسه عرف به»	١٧٦

الموضوع	الصفحة
- مذهب السبكى فيما يُمنَع من الكرامات وما يقع	١٧٩
- عَوْدٌ إلى انواع الكرامات	١٨٠
- صفات الأولياء	١٨٧
- كيفية الكشف عند القوم	١٩٠
- الفراسة، وأمثلة لها	١٩٢
- أنواع الغيب باعتبار إطلاقه وقيده	٢٠٠
- تحقيق القول فى (قطب الغوث)، ومدة مكثه	٢٠٤
- مراتب الأولياء	٢٠٥
- حكاية فى مراتب الأولياء	٢٠٨
- تفاضل الأولياء	٢١٣
- الفرق بين الفراسة والإلهام	٢١٦
- الصلة بين التصوف والكتاب والسنة	٢٢٠
- من مناقب ابن عربى	٢٢٢
- باب فى تبرئه القوم من الحُلُول والاتحاد	٢٢٢
- تأويل ما جرى بين أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى	٢٢٩
- سند التصوف	٢٣٢
- ثناء العلماء على طريق الشاذلى	٢٣٩
- بعض أخبار الشاذلى	٢٤٩
- تدرُّج القطبية	٢٥٩

الموضوع	الصفحة
- فصل وفاة الشاذلى	٢٦٤
- فصل حكم القائلين بالحلول والاتحاد	٢٧٨
- نبذة عن ابن عربى	٢٨١
- حكم ما جرى فى كلام القوم مما يخالف ظاهر الشرع	٢٨٣
- فضيلة حُسْن الظن بالناس، وخطر المبادرة بالتكفير	٢٨٧
- ثناء العلماء على ابن الفارض	٢٨٧
- ثناء العلماء على ابن عربى	٢٩١
- فصل	٢٩٤
- سبب قَتْل الحَلاَّج	٢٩٥
- محامل شطحات الحَلاَّج	٢٩٧
- موقف الجنيد من الحلاج	٢٩٩
- معنى قولهم «إفشاء سِرّ الربوبية كُفْر»	٣٠٠
- من كلام الحلاج وتأويله	٣٠٢
- حقيقة العلم اللدنى	٣٠٦
- أدلة على أفضلية العلوم الوهبية وأصحابها	٣٠٧
- لطيفة فى فضل العلم الباطن على الظاهر	٣١٦
- نبذة عن الشيخ اليمنى الصياد	٣١٩
- نبذة عن القسطلانى	٣٢٤
- ماهية الغيب، وغيب الغيب	٣٢٧

الموضوع	الصفحة
- أقسام الغيب عند ابن عربى	٣٢٩
- علة تسلُّط الشياطين	٣٣٠
- النبوة والولاية	٣٣٣
- دليل شرف علم الحقيقة	٣٣٥
- عن اليقين وحق اليقين	٣٣٦
- بيان وجه البقاء بعد الفناء	٣٣٩
- تحقيق المغايرة شعرا فى نظم أكابر القوم	٣٤١
- تحقيق القول فى التوحيد عند الصوفية	٣٤٤
- مراتب التوحيد	٣٤٦
- بيان وجه الحصر فى شاهدة الله لا غير	٣٤٨
- الفرق بين أهل البصر والبصيرة	٣٥٨
- الكلام على حديث «إنه ليغان على قلبى»	٣٥٩
- فصل تأصيل علم الحقيقة	٣٦٧
- الخَضِر والكلام على نبوته، وحياته	٣٧٢
- تأويل ابن عطاء الله لحديث «وجعلت قرة عينى فى الصلاة»	٣٧٨
- فصل تأويل المقدسى لمراتب السلوك	٣٨٠
- من الإشارة إلى الفناء	٣٨٤
- الخلاف فى مطالع السُّور	٣٩١
- أسباب تعدد الفهم عند الصوفية	٣٩٣

الموضوع	الصفحة
- شرح ألفاظ مشكلة تتعلق بمذهب القوم	٤٠١
- الشطح وتأويله	٤١٠
- قاعدة فى معرفة التأويل	٤٢٧
- حكم من يقول بالإباحة وسقوط التكاليف	٤٥٤
- ثبوب الجذب والسلوك	٤٥٧
- عود على كرامة الرؤية	٤٥٩
- عجائب ليلة القدر	٤٦٣
- مشاهدة الموتى والحديث معهم	٤٧١
- الاختلاف فى رؤية الله تعالى فى الدنيا يقظة	٤٨٣
- الحكمة فى المعراج إلى السماء	٤٩١
- كرامة الرؤيا فى الدار الآخرة	٤٩٤
- خاتمة	٤٩٦
- ملحق	٤٩٩
- الأجوبة عن الأسئلة فى كرامات الأولياء	٥٠١
- تعقيبات وجدت فى آخر المخطوطة	٥٠٧
- الفهرس	٥١١